الفشل الكبير

ميلاد وموت الشيوعيَّة في القرن العشرين

زبينجو برجنسكي

ترجمة
ميشيل سليمان

مركز الكتب الاردني

الفشل الكبير

ميلاد وموت الشيوعيّة في القرن العشرين

زبينجو برجنسكي

ترجمة

ميشيل سليمان

مركز الكتب الأردني

THE GRAND FAILURE

The Birth and Death of Communism in the Twentieth Century

Zbigniew Brzezinski

Charles Scribner's Sons
Macmillan Publishing Company
866 Third Avenue, New York, NY 10022
Collier Macmillan Canada, Inc.

مقدمة الناشر

يتحدث هذا الكتاب عن ازمة الشيوعية العضال، ويصف محللا التفسخ المستفحل والكرب العميق للاسلوب والعقيدة. ويستنتج ان الانحلال الشيوعي التاريخي والذي لا يمكن اصلاحه، سوف يجعل في القرن القادم، من الممارسات والعقيدة غير ملائمة ولا تناسب الظروف البشرية، وعندما تتخلى عن الجوهر الداخلي فقط سوف تحقق بعض النجاح، حتى وان تمسكت واصرت على الشعارات والاطار الخارجي. وسوف تذكر الشيوعية بشكل واسع على انها اكثر سياسات القرن العشرين غرابة وانحرافاً للعقل والمنطق.

(من مقدمة الكتاب)

بهذه الكلمات الجريئة والمعبرة، يبدأ زبجينو بريجنسكي هذا الكتاب «الفشل الكبير: ميلاد وموت الشيوعية في القرن العشرين». وهذا الكتاب هو استنتاجات بعيدة النظر لواحد من اذكى وادهى خبراء السياسات الخارجية في عصرنا الحاضر. ويقول بريجنسكي لقد كانت الشيوعية احد اهم احداث القرن العشرين حساسية. لقد عشنا حياتنا، ابتداءً من الحرب الباردة، الى بناء جدار برلين، الى الحرب الكورية، الى عربة الفضاء سبوتنيك، الى الحرب الفيتنامية والحرب في افغانستان على مبدأ ان الاتحاد السوفياتي هو اهم وابغض خصم معروف. لقد جاء وقت كان فيه ثلث سكان العالم تحت السيطرة والهيمنة الشيوعية. ولكن الآن يوضح بريجنسكي في هذا الكتاب كيف ان ارهاب ستالين وجمود برجينف قد انشأ ازمة كبيرة وغير عادية داخلية في الاتحاد السوفياتي. لقد

برهنت النظرية الماركسية على فشلها، وكما فشلت أيضاً الممارسات العملية والتطبيقية لهذه النظرية. ويذكر بريجنسكي في هذا الكتاب حقائق نوعية محدده والتي ادت الى هذه الازمة الفجائية والعنيفة!

ان التجربة السوفياتية بالنسبة الى الشيوعين في انحاء العالم ما هي الا ايقونة ليس اكثر، ولذلك يجب عدم تقليدها، بل تجاهلها، ولم تعد الشيوعية ذاك النموذج العملي للآخرين حتى تنافس او تُقلد.

ان النظام الشيوعي المستعصي والجامد في الاتحاد السوفياتي ذو حدين، اي ان النجاح الاقتصادي يتحقق على حساب الاستقرار السياسي، بينما يُبنى الاستقرار السياسي ويدعم بثمن الفشل الاقتصادي.

ان التصدع المحتوم والمقدر للشيوعية في اوروبا الشرقية ناتج عن احتكار الحزب للقوة والسيطرة المهيمنة، والتي تمتد بجذورها الى هيمنة وسيطرة السوفيات. وبعد اربعين سنة من فرض الشيوعية، تؤخذ ازالة ورفض الهيمنة الخارجية والحزبية كشرط اساسي ومهم للولادة الاجتماعية الجديدة.

ان اضعاف الايدلوجية الشيوعية في الصين هو ثمنٌ للنجاح الاقتصادي. ومن المحتمل ان تدخل الصين الحديثة القرن الحادي والعشرين وهي لا تزال محكومة من الشيوعية، ولكنها لن تطبق المبدأ الشيوعي، اي لن تكون صين شيوعية.

لقد اصبحت فترة حركة الشيوعية العالمية المتناغمة والمبنية على عقيدة مشتركة شيئاً من الماضي. ولقد جاءت نهاية فكرة حركة احزاب الشيوعية الممتدة في المذهب والعمل في اواسط الثمانينات.

وكما يستنتج بريجنسكي، «ان الحدث الشيوعي يمثل مأساة تاريخية نشأت عن مثالية غير نافذة والتي رفضت الظلم الواقع والمنتشر، ولقد تلهفت الى مجتمع افضل وانساني، ولكنها انتجت قهر وضغط شعبي. لقد عكست بتفائل

الايمان بقوة المنطق لبناء مجتمعٍ كاملٍ متكاملٍ . ولقد حشدت اكثر الاحاسيس قوة في المحبة الانسانية ورفض القهر والظلم من اجل مجتمع اخلاقي نشط ومنـظم. ولهـذا فقد جذبت واسرت بعض اذكى العقول وبعض اكثر القلوب مثالية، ومع كل هذا فد ارتكبت ابشع الجرائم في هذا القرن أو أي قرن آخر.

لقد أُنجز هذا الكتاب الكبير والمثير للجدل «الفشل الكبير» ليكون موضوع حديث الساعة والعصر.

نبذة عن المؤلف

عمـل زبيجنو بريجنسكي اثناء فترة رئاسة كارتر كمساعد للرئيس لشؤون الامن القومي ، ومدير لمجلس الامن القومي وله مؤلفات عديدة مثل (THE SOVIET BOLOC) ، (BETWEEN TWO AGES) ، (GAME PLANE) ، (POWER AND PRINEIPLE) .

ملاحظات وتعريفات المؤلف

لقد انتهى العمل من هذا الكتاب في ايلول عام ١٩٨٨. وبالنظر الى تزايد سرعة التفسخ التاريخي الشيوعي، فمن المحتمل ان تظهر بعض الاحداث المهمة قبل ان يصل هذا الكتاب الى القراء. لأن انبعاث القومية في اوروبا الشرقية وفي داخل الاتحاد السوفياتي، يفرض تحدّياً ديناميكياً خاصاً للأسلوب الشيوعي كما نعرفه، ومع ذلك فاني اعتقد ان التطور الهيكلي في هذا الكتاب سوف يسبق الزمن، وسوف يعطي القراء منهجاً ووسيلة مفيدة لفهم وادراك ماذا يجري داخل العالم الشيوعي المضطرب باستمرار.

يعود هذا الكتاب في بعض الامور الى قضايا كنت قد ذكرتها قبل ثلاثين سنة في كتابي «الكتلة السوفياتية: الاتحاد والمواجهة». ولقد قلت في هذا الكتاب وبخلاف الافكار المنتشرة والمعروفة في ذلك الوقت ـ ان قوة المواجهة والتحدي قد بدأت تؤكد وتثبت نفسها فوق عناصر الوحدة في عالم الهيمنة السوفياتية. وبعد حوالي عشر سنوات، وفي عمل بعنوان «بين جيلين»، جعلت من حالة ان الولايات المتحدة تندفع داخل الزمن التقني، وان الاتحاد السوفياتي سوف يتلكأ خلفها ايديلوجيا واسلوبا تنفرز في مرحلة تطورها الصناعي. ولقد كانت هذه الفرضية مثيرة للجدل ايضاً. واني في هذا الكتاب استبق حدث زوال الشيوعية النهائي خلال فترة زمنية قريبة ـ لأنه قد بدأ هذا القرن في ادراك هذا الزوال.

لقد افدت جداً من معاونة مساعدين هامين لانجاز هذا العمل. وكما كان الحال في آخر كتابين لي، فقد سهل ترودي ورينر (Trudy Werner) ، مساعدي

التنفيذي، امكانية تركيزي على العمل وانهاء هذا الكتاب من خلال ادارته البارعة، واصدار الاوامر اللازمة للطلبات المختلفة من جهتي. وايضاً مارين سترميكي (Marin Strmecki) ، مساعدي للبحث، ادار البحث المساعد وجعل من مشاركته شيئاً لا يقدر بثمن في نقد وتمرير المسوده. ويسرني ان اقر واعترف بفضل هذين الشخصين علي واني ادين بالكثير لهما. وعلاوة على ذلك، فقد ساعد مارين العديد من المساعدين مثل سيلسيا بوليرو، سناد ارندس، مين سميث، وكورتني نمروف، والذين اليهم ايضاً اقدم شكري.

لقد شجعني السيد روبرت ستويارت من سكربنر (Robert Stewart of Scribner) في انتاج هذا الكتاب وتمريره بشكل رائع، وساعد أيضاً في اخراج الشكل النهائي. واما السيدة ليونا شيكتر (Leona Schector) ، وكيلة اعمالي، فقد احضرت لي مع سكربنر كل المستلزمات الادارية والتي جعلت هذا العمل ممكناً.

واخيراً يجب ان اعترف باني ادين بشيئين خاصين. اولاً الى زوجتي موسكا، وكما هو الحال دائماً كانت افضل واقصى منتقدٍ لي، والاهم من ذلك، لقد شجعتني على تأليف هذا الكتاب. اما الثاني فالى ماينتوش سي (Maeintosh Se) الذي سهل كتابتي وعملي من خلال مناقشي معه، والتي جعلت من التعب لعمل هذا الكتاب مغامرة تكنولوجية شيقة.

زبيجنو بريجنسكي
٣٠ ايلول ١٩٨٨

المقدمة

يتحدث هذا الكتاب عن ازمة الشيوعية العضال ويصف محللاً التفسخ المستفحل والكرب العميق للأسلوب والعقيدة. ويستنتج ان الانحلال الشيوعي التاريخي والذي لا يمكن اصلاحه، سوف يجعل في القرن القادم من الممارسات والعقيدة غير ملائمة ولا تناسب الظروف البشرية، وعندما تتخلى عن الجوهر الداخلي فقط سوف تحقق بعض النجاح حتى وان تمسكت في الشعارات والاطار الخارجي، وسوف تُذكر الشيوعية بشكل واسع على انها اكثر سياسات القرن العشرين غرابة وانحرافاً للعقل والمنطق.

ان الحديث في هذا الكتاب ينقسم الى ستة اجزاء. ويتحدث الجزء الاول عن ان المأساة الشيوعية التاريخية هي الفشل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في النظام السوفياتي. ويتفحص الجزء الثاني بتعمق اكثر المحاولات السوفياتية لأعادة تشكيل واحياء هذا النظام، ويستنتج من ان النجاح في تلك المحاولات اقل احتمالاً من استمرارية التفسخ والاضطراب الداخلي. ويتفحص الجزء الثالث المعطيات السياسية والاجتماعية التي فرضت الشيوعية على اوروبا الشرقية، ويتحدث عن ان المنطقة، وعلى رأسها التحرر الذاتي للمجتمع البولندي، قد بدأت عملية الانفصال عن الاساليب الشيوعية السوفياتية المفروضة. اما الجزء الرابع فيذكر التجربة الصينية مع التنشئة الذاتية لشكل مختلف للشيوعية، ويستنتج ان فرص نجاح اعادة التشكيل تنمو وتكبر لأن قادتها يتخلون وينكرون المذاهب المستحدثة. ويلقي الجزء الخامس الضوء على التراجع والانحلال الايدلوجي والسياسي للشيوعية العالمية. ويتوسع الجزء

السادس والاخير في الكرب والتمزق الشيوعي الاخير وعن الوضع المحتمل للشيوعية.

لقد بُنيت الهيمنة والسيطرة الشيوعية في معظم تاريخ القرن العشرين على دورها الوقتي والآني في «التبسيط العظيم» (Grand Oversimplification) . جاعلة ان اساس كل الشرور موجود في مؤسسات الملكية الخاصة، وقد افترضت ان الغاء الملكية سوف يسمح بتحقيق العدالة الحقيقية، وكمالية الطبيعة البشرية. لقد جذبت التزام واخلاص، ونشطت اعمال مئات الملايين من الناس. وقد كانت ملائمة نفسياً وبشكل جيد لشعور الشعوب المتوعية حديثاً على الاحداث السياسية. ويشبه هذا الامر بعض الشيء مبادىء الديانات الرئيسة الكبرى، والتي تقدم كل منها شرحاً مبدئياً مفصلاً عن ماهية الحياة. لقد كان جمع التبسيط المتزامن مع التفسير نقطة التوجيه الجاذبة والآسرة والمطمئنة لعمل حماسي.

ويقدم المذهب الشيوعي مثل الديانات الكبرى، عدة تحاليل لشروحات متسلسلة، ابتداءً من ابسط واسهل التفسيرات الى معطيات فلسفية اكثر تعقيداً. ويكفي ان يعرف ويتعلم نصف المتعلم ان كل الحياة مكونة ومركبة من الطبقة العاملة، وان النعيم الاجتماعي سوف يتحقق مع المجتمع الشيوعي. وخصوصاً ان الاشباع من وجهة النظر النفسية للحرمان كان في تبرير العنف البشع والوحشي ضد «اعداء الشعب» وهم الذين كانوا يملكون مقدرات مالية اكبر من غيرهم، والذين يمكن اذلالهم وقهرهم وتدميرهم بسرور الآن.

ولكن لم تكن الشيوعية رد انفعالي لاهتمامات شعورية عميقة او عقيدة اصلاح ذاتي لحقد اجتماعي فقط، بل كانت ايضاً نظام فكر مشروح بيسر، وتعطي نظرة فريدة وثاقبة للمستقبل والماضي، كانت تلبي حاجات القطع الاجتماعية المتعلمة حديثاً والتواقة لفهم العالم حولها بتعمق اكثر. ولهذا وبالنسبة الى المفكرين الاكثر تميزاً يبدو ان النظرية الماركسية كانت تفتح الطريق لفهم وادراك التاريخ البشري، تعطي اداة تحليلية للمساعدة في ديناميكيات التغير

الاجتماعي والسياسي، والتفسير الحديث للحياة الاقتصادية، والتداخلات الاجتماعية. وكانت فكرة «الحوار التاريخي» تظهر وكأنها اسلوب ثمين لتلاقي متناقضات الواقع. وفي نفس الوقت كان التشديد الموضوع على العمل السياسي لانشاء «الثورة» التحررية، وحالة التوجيه المتشابكة للحصول على مجتمع عادل ومنظم، وموجه خصوصاً الى الرغبة الفكرية العقلية الملحة للعمل، مرتكزاً على المنطق والواقع.

اذن كانت الشيوعية تظهر الى البسطاء والمتعلمين بنفس الصورة والشكل: أي انها تعطي كل واحد منهم طريق التوجيه، والشرح المفصل الوافي، والتبريرات الاخلاقية. وكانت تجعل المنتمين اليها يشعرون باصلاح ذاتي والحق والثقة بالنفس في وقت واحد، بل لم تترك شيئاً غير مؤكد. وادعت انها تجمع العلم مع الفلسفة بنفس الوقت، واهبةً الارشاد الأني لأي مستوى فكري حديث ام متأخر والتلائم التاريخي، وفوق كل هذا، التبسيط الشامل ككل ما يمكن انجازه من خلال العمل السياسي المباشر.

وبالاضافة الى ذلك كان المذهب الشيوعي، بدمج الانفعال مع المنطق، في وضع المؤثر الفاعل على المصدرين الاساسيين للتصرف الانساني، مع ان السياسة الانفعالية يمكن ان تؤدي الى قوة سياسية هائلة وشنيعة واما المنطق فانه منجذب الى فكرة التنظيم الاجتماعي، والذي بدوره يكون نقطة الانطلاق لتعبئة القوة السياسية. وعند اندماج هذين المصدرين، فكانا ينتجان حالة قوة التركيز الهائلة، والتي بدورها تصبح اكثر ميزات الشيوعية ظهوراً.

اذن فقد اصبح القرن العشرون هو قرن الدولة الشيوعية أو الحدث الشيوعي، وهذا تطورٌ لم يكن متوقعاً بأي شكل. وبالفعل لم يتنبأ أي انسان ذو نظرة شعبية متفوقة بان النظريات المطورة من امين مكتبة ولاجىء الماني يهودي، ومن مؤلف مقالات سياسي روسي غير معروف في بداية قرن مفعم بالاحداث سوف تصبح المذهب المفروض في هذا القرن. ولم تعتقد امريكا ولا حتى

اوروبا بوجود تحدي ايدلوجي مماثل وخطير من هذه النوعية للنظام القائم. وكان يُعتقد ان الوسائل الفلسفية الأمنة للأمر الواقع كانت صلبة وحتى انها كانت بالفعل غير قابلة للتغير.

لقد احتفل في الاول من كانون ثاني، وكما هو متوقع، في كل مكان وكالعادة بفيض من التنبؤات بالنسبة الى التوقعات في القرن الاخير من الالف الثانية الميلادية، وبالطبع فقد اختلفت التوقعات. وكانت التهاني الذاتية المتبادلة هي الفكرة المسيطرة والمهيمنة على الصحف الغربية ورؤساء الدول الغربية وامريكا بمناسبة بداية القرن. وكانت النغمة والفكرة المنتشرة هي الرضى والشعور بالاكتفاء النفسي من الامر الواقع، وكانت تقريباً سكرى ومنفعلة فرحاً من الرخاء والازدهار الذي كان يقال انه ينتشر باستمرار، ومن التوقعات العظيمة في امريكا لقوة اقتصادية وسياسية كبيرة وشاملة. فلقد كتبت النيويورك تايمز (The Ney York Thimes) في الاول من كانون ثاني ١٩٠٠ ان «الرخاء والازدهار قد دخل في كل مجالات الصناعة في الولايات المتحدة. ان المنتج من الارض قد ازدهر بشكل غير عادي، وكذلك اصبح لدى العمال في المناجم والمطاحن والمشاغل رخاء عظيم». ولقد انهت تحليلها بالتأكيد ان «يستمر الازدهار والرخاء في امريكا باستمرار التقدم الى الامام»، «جاعلةً منا اعظم امة في العالم».

ولقد هيمن وسيطر نفس التفاؤل في ولايات الاتحاد، وفي خطابات الرئيس وليم مكنلي في الثالث من كانون اول عام ١٩٠٠، وخطاب ثيودور رزفلت في الثاني من كانون اول عام ١٩٠٢. مع ان رزفلت كان قد صرح قائلاً «انه يوجد العديد من المشاكل لنواجهها في مستهل القرن العشرين، ومنها مشاكل كبيرة في خارج الولايات المتحدة ولكن يوجد عندنا أيضاً مشاكل اكبر في الداخل». ولكنه استطرد مؤكداً على الخط التفاؤلي قائلاً «لم يحدث ابداً في السابق ان الاستقرار المادي قد انتشر بمثل هذا الحجم بين شعبنا.. ومن البديهي عندما تسمح الظروف بنمو الاشياء الجيدة في هذا الحجم، فأنها سوف تسمح أيضاً بنمو وظهور الامور السيئة والشريرة.. ان الشرور هي حقيقية وبعضها نجس

وخبيث، مع كونها ناتجة عن الازدهار والرخاء وليس عن البؤس والانحطاط».

ولقد كان لهذه المواضيع صدى واسعاً في التحاليل الاخبارية الصحفية، ولقد كان يُنظر الى الايمان في الديمقراطية والثقة في الولايات المتحدة على انها موضوع واحد. فقد كتبت ذى نورث امريكان ريفيو (The North American Rev-iew) مقالاً تحت عنوان «هموم القرن العشرين» مركزةً على موضوع مستقبل الديمقراطية ومؤكدة بثقة «اننا يجب ان ننظر الى امريكا، وفقط امريكا... انه سؤال ذو اهمية كبيرة، وهو مستقبل الانسانية، ولا يمكن ان نغالي فيه. هل يجب ان نعود الى الارض عام ١٩٩٩ او عام ٢٠٠٠ لكي نحصل على الجواب، وهل سيكون هذا الجواب في صالح الديمقراطية، وهل يكون جواباً نهائياً!» اما الواشنطن بوست (Washington Post) فقد احتفلت في الاول من كانون ثاني عام ١٩٠٠ بانتصار مؤكد للمهمة الامريكية في ممتلكاتها في جميع انحاء العالم، واضافت قائلة «انها لنا، وكل حديث مخالف لهذا التوسع فهو تافه وعديم الجدوى مثل نعيق الغراب».

ولم تكن الثقة بالنفس في القارة الاوروبية باقل مما هي في امريكا، فقد كانت النظرة الى المستقبل متساوية في العذوبة واللطف. ففي بريطانيا العظمى، تميز التخمين المقدم من جريدة لندن تايمز (London Times) (بترحيبها بالقرن العشرين في الاول من كانون ثاني ١٩٠١، وهذا هو التاريخ الصحيح للأحتفال) بالتفاؤل الشوفاني قائلة: «نحن لدينا الثقة الاكيدة في انجلترا، وابنائها بانهم سوف يخرجون منتصرين من تلك المحنة، بنهاية القرن العشرين كما حصل في نهاية القرن التاسع عشر، وعند ذلك ولأجيال قادمة سوف يحيوا ويزدهروا متحدين في شعب واحد امبراطوري، وان يكونوا حصناً منيعاً للقضايا الانسانية». ومع ذلك، فقد تركزت اراء اكثر خطورة في تهديدٍ ابعد مدى، ناتج عن صحوة شجاعة للصناعة الامريكية، وذلك في مقال في جريدة النيويورك تايمز (The New York Times) في ٣١ كانون اول عام ١٩٠٠، مشيرةً الى الصحيفة اللندنية المذكورة معبرة عن اهتمام عن «انه من غير المفيد اخفاء الحقيقة بان بريطانيا

العظمى قد سُبقت».

اما في فرنسا والمانيا، فقد كان التفاؤل الثقافي والوطني هما النغمة السائدة في ذلك الوقت. فلقد انتشر الايمان بحتمية الديمقراطية في المقال الرئيسي لصحيفة لوجورنال دي ديبا (Le Journal DES DEBATS) والتي اكدت في الخامس من كانون ثاني عام ١٩٠١ قائلة «ان ثلث البشرية اليوم يملكون حقوقاً معترفاً بها ومضمونة ومُصانة من القانون». وفي نفس اليوم فقد سيطر الوعد العلمي حتى في المجال السياسي على مقال صحيفة لوفيجارو (Le Figaro) وتعليقها قائلة: «ان العلم سوف يعلم قدرة الانسان، بان يضع ويعكس امامه صوراً لأخطائه الخاصة».

اما في المانيا، فقد عكست الصحف الشعبية شعورها بالامتنان لاستمرارية المواجهة في الشؤون العالمية والانشغال في اظهار القوة الالمانية، وذلك يكمن بسبب موقع المانيا الجغرافي والسياسي المركزي في اوروبا. فقد كتبت صحيفة برلين اليومية (Tagliehe Rmndsehau) في تعليقها «سوف يكون درس مفيد وصحي لبريطانيا بان تعترف ان وقت الاذعان واللين الضعيف قد ولى وانتهى. وعند ذلك سوف نواجه انجلترا بطرق مختلفة، حالما تكون اكثر احتراماً». اما الصحيفة الاشتراكية الديمقراطية (Vorwarts) ، فهي الوحيدة التي دخلت في الحقل الايدلوجي، مؤكدة على القدر المحتوم للرأسمالية اثناء احتفالها في السنة الجديدة للقرن الجديد، ولكن مع تحذير «باننا كلنا نعرف ان تصفية المجتمع البرجوازي الحديث لا تسير في السرعة التي فكر بها ضمير الطبقة العاملة أو حتى المفكرون الدائمون في الاشتراكية قبل جيل من الآن».

لقد كان الغياب الملفت للنظر في رؤى التصاميم المستقبلية للنهضة الشعبية عائد الى الانشغال المسبق في الامور الايدلوجية او المذاهب التنظيمية. ولكن لقد اخذت الاشتراكية في فرنسا والمانيا فقط المذاهب بجدية اكثر، وذلك لوجود الاشتراكية اصلاً في المؤسسات البرلمانية، وحتى هناك ايضاً، وعلى

المستوى الحديث الشعبي، فانه لم يؤخذ في الحسبان اي احتمال للنهوض «الايدلوجي، هذا دون الحديث عن المواجهة الايدلوجية، وعلى العكس تماماً فقد عبر احد المعلقين الباريسيين عن الرأي السائد بشكل جيد في صحيفة الفيجارو والذي رحب فيه بالقرن الجديد وتوقع بانه سوف يكون قرن العقل والمنطق اكثر من كونه قرن انفعال: «من المحتمل ان الذي سيحدث لنا في القرن العشرين هو الاقتحام داخل الحياة الاجتماعية والخاصة للعلم، والذي سوف يوهبنا قواعد لتصرفاتنا. وهذا سيكون بدوره مشهداً عظيماً، والذي ارغب في رؤية بدايته. لنأمل ان القرن التاسع عشر والذي هزنا، سوف يأخذ معه في هاوية السنين والقرون، الضغينة الغبية، والاتهامات المضادة الحمقاء، والافتراءات الساذجة والتي احزنت آخر ايام هذا القرن، والتي هي ليست جديرة بالرجال العقلاء والمنطقيين».

ومع كل هذا، فقد سيطر على اكثرية اوقات القرن العشرين، ليس الانفعالات الايدلوجية، ولكن، وبشكل خاص، الانفعال المقنع بالمنطق العلمي ألا وهو الشيوعية. وبالفعل، فقد هيمنت وسيطرت الشيوعية في اواسط هذا القرن على اكبر واوسع مقاطعات العالم من نهر الالب (Elbe) الى خليج كمشتكا (Kamehatke) وشنغهاي (Shanghai)، مسيطرة على حياة اكثر من بليون انسان. اما في اوروبا الغربية فقد وصلت الاحزاب الشيوعية الى السلطة. ولقد اهتاجت الخميرة الشيوعية في امريكا اللاتينية من الوطنية المناهضة لأمريكا. بينما كانت الماركسية بين المفكرين في اوروبا الغربية والحركات المناهضة للاستعمار هي المثال والطريقة والمنهج.

ولقد اصبحت الدولة المركز الرئيسي لحياة اشتراكية والنفوذ والطاعة الاشتراكية والاخلاص الشخصي، وذلك بتسخير القوة السياسية وتوظيف الجذور الموجودة حديثاً في التنظيم الاجتماعي والتي اصبحت ممكنة في مستهل التنظيم الصناعي. ومع ان هذا التطور منتشرٌ في انحاء العالم، ولكنه ظهر باكثر الاشكال دقة اولاً في الاتحاد السوفياتي، في وضع القوة الجامحة مكرّسة في قبضة

حديدية، الى فكرة تصفية واذبال هذه الدولة.

ويجب ان يُنظر الى ظهور الشيوعية كحدث رئيس في القرن العشرين بترادف مع ظهور الفاشية والنازية. وفي الواقع كانت الشيوعية موصولة بشكل عام مع الفاشية والنازية، ومتحدة تاريخياً، ومتشابهة سياسياً. وكانت هذه كلها ناتجةً عن الصدمات في العصر الصناعي وظهور الملايين من عمال الجيل الاول من الصناعة بدون جذور الى ظلم وجود الرأسمالية الاولى، والى الاحساس الدقيق والحديث للبغض الطبقي ومدعم من هذه الظروف. لقد انهارت القيم الموجودة كما انهار النظام السياسي في تسارست في روسيا (Tsarist Russia) وفي الامبراطورية الالمانية. في الحرب الكونية الاولى. ولقد حركت واشعلت التوترات الاجتماعية بدقة مثلما حدث في ايطاليا التي دخلت مرحلة التصنيع حديثاً. وهذا كله قد ايقظ الحركات التي حملت فكرة العدل الاجتماعي حول رسالة البغض الاجتماعي والتي اعلنت عن حالة العنف المنظم كوسيلة للتمرد الاجتماعي.

ان الحرب الضروس التي نشأت بين النازية الهتلرية الالمانية وروسيا السوفياتية الستالينية قد جعلت الكثيرين ينسون ان المعارك بينهم كانت حرب قتال اخوي بين جبهتين متقابلتين ولكن على مبدأ مشترك. ولتأكيد ذلك فقد ادعت احد الجبهات لنفسها بانها مناهضة للماركسية برسوخ وعمق وبشرت ببغض العنصرية بشكل لم يسبق له مثيل، ومن جهة اخرى فد رأت الجبهة الاخرى نفسها انها الناتج والوريث الوحيد للماركسية من خلال ممارسة الحقد الطبقي بشكل لا مثيل له. ولكن الجبهتان كانتا قد دفعتا الحدث الى اعلى مستوى من العمل المشترك. لأنهما استعملتا نفس الاساليب الوحشية والارهابية لتنتزعا الطاعة والنفوذ الاجتماعي، ولأنهما قد اشتركتا في الجرائم الجماعية لا يتساوى معها اي جرائم في التاريخ. ولأنهما استعملتا نفس الطرق في مراقبة وتنظيم المجتمع، وذلك من تجمعات شبابية الى مخبرين مجاورين الى تركيز ومراقبة شاملة لوسائل الاتصالات الجماهيرية. وأخيراً فقد اكدتا انهما

مشتركتان في بناء الدول «الاشتراكية» القوية.

ومن المناسب هنا ان يلاحظ ان هتلر نفسه كان تلميذاً نشطاً للممارسات السياسية التي كان يطبقهـا لينين وموسوليني. وكان هذان الرجلان السابقين، وخصوصاً في مجال استعمال الاساليب والطرق الجديدة في الاتصال في شحن وتحريك وبعد ذلك تعبئة الجماهير المتوعية حديثاً على السياسة. ولكن كانت هذه مقـدمات للحصول على السلطة الشاملة، وقد كانا بارعين في استغلال التفجـر السياسي الانفعـالي بتنـظيمات سياسية ملتزمة. وكانت الطريقة التي استحوذ بها على السلطة، نقطة انطلاق الى الطريقة التي يديران بها هذه السلطة ـ وهكذا ظهر في الدولة الدكتاتورية نوع جديد من النظام السياسي.

لقد كان لينين وهتلر، من ناحية فلسفية، بمثابة محامين عن ايدلوجيات تدعو الى تنظيم المجتمع على مدى شامل وواسع، وقد ادعيا لنفسيهما دور التحكم في الحقيقـة، واخضعا المجتمع الى اخلاق ايدلوجية، مؤسسة احداها على الحرب الطبقية، والثانية على التفوق العنصري، وقد بررا أي عمل يمكن ان يقـدم ويدفع بمهماتهما التاريخية المختارة الى الامام. لقد كان هتلر تلميذاً حريصاً ومنتبهاً لفكر حزب الطلائع المادي البلشفي وللفكر اللينيني للتجهيزات التكتيكية في خدمة الانتصار النهائي الاستراتيجي، وذلك في الاستحواذ على السلطة، واعادة بناء المجتمع. ولقد تعلم هتلر من لينين كيفية بناء دولة مؤسسة ومقامة على الارهاب، وجهاز البوليس السري المدروس والمنظم، وعلى فكرة الملومية الجماعية في الاستغناء عن العدالة، وعلى المحكمات الصورية المسرحية.

ومع مرور الوقت، فقد تبنت كل جهة نغمة الآخر وحتى شعاره. في خلال الحرب العالمية الثانية، كان ستالين يشرع بأستمرار الطبقة الحاكمة بشعارات وطنية، وبأشكال رنانة حتى الى البيروقراطيين المدنيين، ومن خلال الافراط في طموحات السلطة العليا والتي تذكر بالتصرفات النازية. ومن جهة اخرى فقد

المح هتلر بانه حتى وان كان ستالين «حيوان»، فان الدكتاتور السوفياتي على الاقل حيوان «عالي المستوى»، وكان ستالين نابغة، ويجب ان يقدم له «كل احترام» وسوف يجعل من الاتحاد السوفياتي في خلال عشرة أو خمسة عشرة سنة من وجوده في السلطة «اعظم قوة في العالم». وبعد محاولة الانقلاب الفاشلة ضد هتلر عام ١٩٤٤، برر النظام النازي افناء الاستقراطية الالمانية بلغة الحقد الطبقي والغير مميزه عن لغة الاتحاد السوفياتي، ولقد وصل الامر بهتلر ان اظهر حسداً لستالين مع بعض التحفظ، والذي اتخذ من اللينينية كأستنتاج منطقي وقال «لقد ندمت كثيراً لأني لم اصفِ فرقة الضباط كما فعل ستالين».

وفي الحقيقة، فانها ليست مبالغة بان يقال ان هتلر كان لينيني، وان ستالين كان نازياً. ولقد كان الزعيمان الدكتاتوران متجانسين تاريخياً بشكل عام. لأن كلا الطاغيين قد بررا فرض المراقبة والحكم الشامل للدولة بان تبنا ظاهرياً موضوع اعادة بناء المجتمع من القمة الى الحضيض، وعلى الحفاظ على العقيدة، ولكن مع فكر غامض من النظام اليوطوبي الجديد. وكان يجب على اعادة البناء ان تتحقق وتنجز من خلال الاستعمال المباشر لسلطة الدولة، وتدمير الاشكال الاجتماعية التقليدية، وتصفية أية ظواهر لحركات عفوية وتلقائية اجتماعية. ولذا فقد اصبحت الدكتاتورية كلمة مرادفة للألدولانية المثالية الخاصة. (Quintessential Statism).

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة واحد من المؤيدين للأفراط في تقديس وتبجيل الدولة على انها اعظم وكيل للتاريخ. ولكن من جهة اخرى، تسببت في انتشار التأثير الواسع والسلطة للآخر. فلقد تقلص النظام الشيوعي منذ عام ١٩١٧ في امبراطورية تساريست، ولكنها الآن توسعت بشكل درماتيكي، وبحلول عام ١٩٤٧ اصبحت اوروبا الوسطى مقاطعة سوفياتية. واتخذت الصين الشيوعية كمبدأ تابعة باخلاص للمثال السوفياتي بعد انتصار الشيوعية عام ١٩٤٩، وأيضاً ظهر النظام الشيوعي في نصف كوريه عام ١٩٤٧، ونصف فيتنام عام ١٩٥٤. وفي خلال جيل واحد بعد انتهاء الحرب العالمية

الثانية، كان اكثر من بليون انسان تحت الحكم الشيوعي. وقد اصبحت كل ايرواسيا (Eurasia) تحت الحكم الشيوعي، باستثناء اقصى شرق واقصى غرب المحيط الدائري والذي تحصن بالقوة الاميركية. وهكذا استمرت الشيوعية، مع امكانية توقفها مؤقتاً فقط وذلك بواسطة الدعم المالي الامريكي أو القوة العسكرية المنتشرة في جميع انحاء العالم.

واهم من هذا كله هو الانتشار غير المباشر لخلاصة الفكر الشيوعي. فخلال الاجيال الاربعة الاخيرة سيطرت فكرة الاعتماد على الدولة لكي تتدخل لأصلاح خلل اقتصادي أو اجتماعي تقريباً في كل مكان. تأكيداً على ذلك، فقد بذلت مجهودات خاصة في المجتمعات المطوقة بالديمقراطية اكثر من غيرها، لمنع التركيز الكثيف والمفسد على السلطة السياسية. ولقد حفظت حرية الاختيار. ومع كل هذا فقد اصبحت فكرة ان عمل الدولة هو افضل وسيلة لتطوير الرخاء الاقتصادي والعدالة الاجتماعية هي المسيطرة حتى في اعلى وافضل المجتمعات الديمقراطية.

ولكن هذا لا يعني ان الديمقراطية الاجتماعية أو دولة الرفاه، كانت ظواهر غادرة لانتشار الشيوعية، فلقد قدمت الديمقراطية الاجتماعية ودولة الرفاهة افضل السبل والوسائل لمحاربة دعوة المذهب الشيوعي، وفي ايجاد وانشاء البدائل الديمقراطية للأسلوب الشيوعي. ولكن من جهة اخرى فد عزز اسلوب الاعتماد على الدولة كوسيلة رئيسة للخلاص الاجتماعي بشكل غير مباشر وضع النظام السوفياتي كمثال متطرف لابتكار الدولة المُخططة والمجتمع المُسيّر من الدولة.

ولقد اسهمت هذه النزعة بحتمية في الرغبة الاولى لعشرات من الدول المستعمرة مركزياً للأنضمام الى العديد من الدول الاشتراكية المختلفة. كما انها دعمت الرغبة الاولية للعديد من هذه الدول للنظر الى تجربة الاتحاد السوفياتي كالهام وكمثل للتطبيق. وخلال الخمسينيات والستينيات كان العديد من دول العالم الثالث يهلل ويصفق بدون تميز للأسلوب والطريقة السوفياتية على انها

تعطي افضل واسرع الطرق الى التحديث والعدالة الاجتماعية. وكان الزعماء السوفيات، في خلال رحلاتهم الخارجية يتنعمون بتملق غير محسوب وغير مميز، ويصرفون النصائح مجاناً في كيفية تبني افضل للمسيرة الاشتراكية السوفياتية.

وكانت نفس التقاليد العقلية والفكرية رائجة في العالم المتقدم. وكما كتب بول هولندر (Paul Hollander) في كتابه، الهجرة السياسية (Political Pilgrims) ، لقد ابتلع العديد من المفكرين الغربيين الذين ارتحلوا الى الاتحاد السوفياتي في العشرينيات والثلاثينيات بالجملة التبسيط الشامل المقدم من الشيوعية. كما كتب الروائي الالماني ليون فيشتونفر (Lion Feuchtwanger) : «ان اتعاطف بدون حدود مع التجربة التي تؤسس بناء دولة عملاقة على العقل والمنطق فقط». وهكذا ايضاً، مثل العديد من الزعماء الدينيين، تقبل الامريكي كواكر هنري هدكن (Qu-aker Henry Hoogkin) البيان الجماعي للنظام السوفياتي، قائلاً «كلما نظرنا الى التجربة الروسية العظيمة في الاخوية، تبدىّ لنا ان بعض الادراك الحسي الباهت لطرق يسوع، والمجهولة كلياً، تنفخ وتؤثر فيها». اما اديموند ويلسون (Edmond Wilson) فقد صرح بالطوبي (Utopia) اكثر دنيوية قائلاً «انك تشعر وانت في الاتحاد السوفياتي بانك على قمة العالم الاخلاقي حيث لا ينطفىء ضؤوها ابداً».

لقد قُبلت «الديمقراطية» على الطريقة السوفياتية عند هؤلاء المفكرين وكأنها شرعية، إذ لم يكن الامر اكبر من ذلك، مثل الديمقراطية الغربية. ونادراً ما كانت تُلاحظ دكتاتورية ستالين، وباقل ندرة كانت تُدان. فلقد اصر سدني وبيترس ويب (Sidney and Beaterice Webb) على ان ستالين لم يحكم مثل امبراطور قائلين: «انه لم يكن عنده حتى السلطة الكثيفة والجامعة التي كانت لدى مجلس النواب في الولايات المتحدة والتي حصل عليها مؤقتاً في زمن الرئيس رزفلت، أو تلك التي يمنحها الدستور الامريكي لمدة اربعة سنوات لكل رئيس».

لقد امتد الاعجاب بالاسلوب السوفياتي غير المتكافىء حتى وصل الفولك (Gulag) (وهي معسكرات عمل) فلقد كتب د. ج. ل. جيلين (Dr. J. L. Gillin) ،

وقد كان رئيساً للجمعية الصوصيولوجية لفترة من الوقت، «انه جليٌ وواضح ان هذا الاسلوب مستنبط لأصـلاح المتهم واعادته الى المجتمع». ولقد اضاف الاقتصادي والسياسي البريطاني هارولد لاسكي (Harold Laski) ، مؤكداً انه تحرى وبحث في الاسلوب السوفياتي ووجد ان هناك «اصراراً بان المعتقل أو السجين يجب ان يحيا، كلما سمحت الظروف بذلك، حياة كاملة وبكرامة». ولقد تخطى الصحفي العريق في الشؤون السوفياتية، التهلل والمدح قائلاً: «ان الانتقام، والعقاب، والتعذيب، والتعسف، والاذلال ليس لها اي وجود في هذا النظام». اما جورج برناردشو (George Bernard Shaw) فقد لاحظ عنصراً من عناصر المذهب التطوعي في النظام الستاليني في معسكرات العمل كاتباً: «يدخل المذنب في انجلترا (السجن) كرجل عادي ويخرج منه مجرم عتيد، بينما في روسيا يدخل كمجرم ويخرج منه كرجل عادي ولكن مع صعوبة في اقناعه وحثه على الخروج ابداً. وعلى حسب قدرتي في الاستنتاج فان في مقدورهم البقاء في الداخل ما ارادوا ذلك».

لقد انعكس الافتتان لأول وهلة في الجهد السوفياتي لبناء مجتمع جديد في خلال الثـلاثينيات في هذه الاراء الفرحة والمُضللة، واكتسب دعماً هائلاً مع هزيمة ستالين لهتلر. وحتى قيام وانشاء الحرب الباردة لم تمرر وهم العديد من المفكرين الغربيين من حبهم وتعلقهم باعادة البناء الشيوعي للمجتمع. وحتى في الجـامعـات الغربية، فقد كانت الفكرة السائدة خلال الخمسينيات وحتى الستينيات على شكـل الافكار اليسارية، مع حصول الاتحاد السوفياتي على المنفعة من البلبلة بسبب افتتان المفكرين من التجربة الداخلية لقيادة الدولة للمجتمع.

وبشكل أعم، كانت العقيدة الجديدة تهدف الى تأكيد على اولوية المجتمع المخـطط والمـوجـه سياسياً. وكـرد فعـل واسع للتشويش الناتج عن الكساد الاقتصادي الكبير وبعد ذلك عن الحرب العالمية الثانية، كان الوقت يتغير الى فترة كانت التصرفات الاجتماعية تتواصل بازدياد من خلال الطرق السياسية والتي

فيها أيضاً كان النشاط الاقتصادي استجابة الى التوجيه السياسي المخطط. ومع ان العديد من محامي العقيدة الجديدة كانو مدركين لحقيقة ان الواقع السوفياتي قد تحول مأساوياً من الخيال والمثالية، لكنهم اعتقدوا ان الامكانية للحصول وتحقيق المثالية كانت كامنة في النظام السوفياتي، ولهذا فان هذا النظام هو الطريق الى المستقبل.

ولقد كان التأثير التراكمي لنجاح النظام السوفياتي الظاهر، هو في جعل القرن العشرين زمناً تسيطر فيه وتهيمن النهضة والدعوة الشيوعية. وبنفس الوقت، ومع ان امريكا كانت قد ظهرت في نفس القرن كقوة عالمية مهيمنة ومسيطرة، وايضاً مع ان الحياة والاسلوب الحياتي الامريكي كان قد فرز ونضج بافتتان وسحر اكبر ملموس وغير مُنافس، فقد لوحظ ان امريكا قد انشغلت بشكل واسع - وغير عادل - في عمل دفاعي ثابت، راغبةً بدون طائل بان تعيق المد التاريخي المقدر والمحتوم. ولقد كان انتشار الشيوعية في وسط اوروبا والصين هو الذي حول الدائرة السياسية جوهرياً، والتي سيطرت على مقالات واحاديث المفكرين، والتي كانت تبدو بأنها تمثل بشرة المستقبل.

ورغم كل هذا فقد بدأت الشيوعية في الاضمحلال في خلال ليس اكثر من مئة سنة. لقد نُبذت الافكار والممارسات المربوطة بالشيوعية بنفس القدر داخل وخارج العالم الشيوعي. ولقد قام الزعماء الشيوعيون في اواخر الثمانينات في الاتحاد السوفياتي، وفي الصين، واوروبا الشرقية بالتأكيدات الروتينية العادية حتى لا يبقوا خارج الاجتماع السنوي لجمعية الصناعيين الامريكيين، وذلك لحث اقتصادهم المتلكىء وجره الى انتاجية اكبر وتنشيط العامل لأعطاء مجهود اضخم. ولهذا، وكما نشرت صحيفة البرافدا (Pravda) في الحادي عشر من ايلول، فقد استمع العمال الى الكسندر ياكوفليف (Aleksander Yadovlev) ، عضو المكتب السياسي ثم أصبح مسؤولاً عن المذهب الماركسي - اللينيني، يقول: «يجب ان نعلو الايدلوجية الملكية»، ويضيف قائلاً: «ان غرس شعور الملكية لهو شيءٌ جيد، لأنه عندما يرتبط العامل في شيء يملكه، سوف يحرك الجبال؛

وبخلاف ذلك فلن يكون مختلف» وتقريباً في نفس الوقت في بولندا، فقد ذكر ستانيسلو شيوسك (Stanislaw Closed) العضو في المكتب السياسي، العمال البولنديين قائلاً: «انه من غير الممكن لكل شخص ان يحسن ويرفع المستوى الحياتي بنفس الدرجة. وبالتأكيد فان الافضلية تذهب الى الذين يخدمون الاقتصادي الوطني جيداً، ويجب ان يحصلوا على رواتب افضل». وقد اضاف شيوسك لأيصال هذه الرسالة الى البيت «هذه هي القوانين الشديدة في الاقتصاد». وقبل هذا الحديث بشهرين انفرج العمال الصينيون ابتهاجاً في الشرق الافصى ،في اكثر البلدان المتشددة في العالم الشيوعي، بمجيء عضو مكتب سياسي جديد هو كيلي (Hu Qili) والذي صرح قائلاً «ان اي شيء يفيد تطور القوة المنتجة فهو مطلوب أو مسموح به في الاشتراكية».

وبناء على ذلك فقد اصبحت كلُّ النظم الشيوعية، في عشية العقد الاخير من القرن العشرين، تتلمس طريقها لأعادة التشكيل، في معنى آخر، ان هذه العملية هي مساوية لرفض التجربة الماركسية اللينينية. واهم من هذا كان الرفض المترابط فلسفياً للمقدمات الاساسية للشيوعية. لقد افسح الشعور غير السوي بالدولة المجال في كل مكان تقريباً الى ارتفاع قيمة الفرد، والحقوق المدنية، والمبادرة الشخصية وحتى العمل الخاص.

ويمثل الابتعاد الناتج عن الدولانية، ونمو افضلية الحقوق المدنية، والتحول المتأخر الى الاقتصاد العملي، ثورة كبيرة في المواقف وفي الفلسفة الاساسية والتقليدية للحياة. ان هذا تحول من المحتمل ان ينتج تأثيرات بعيدة المنال وطويلة الامد. وانه قد بدأ يؤثر فعلياً على السياسة والاقتصاد في العالم. وهذا يبشر بنمو مشابه اي بحلول الاول من كانون ثاني عام ٢٠٠٠، من المحتمل ان يعطي رجال الاجتماع المذهب الشيوعي القليل من الاهمية لمستقبل القرن الحادي والعشرين - وهذه المرة بتبريرات معقولة ومقبولة - كما كان الحال مع السابقين قبل مائة عام - مع تبريرات اقل -.

اذن ان الازمة النهائية للشيوعية الحديثة اصبحت مأساة تاريخية وذلك بسبب البداية الفجائية. ولهذا فقد حان الوقت لكي نسأل ما هو الشيء الذي اسقط المذهب والتجربة اللذان سادا معظم هذا القرن وكانا يبدوان وكأنهما التيارات الغالبة في المستقبل. وايضاً ما هو الذي انتج خيبة الامل، والفشل، وخصوصاً الجرائم المتراكمة حتى انها كذبت وشوهت ايدلوجية، وحركة سياسية وتجربة اجتماعية والتي كانت تُرى في الاصل على انها هي التي تقود المسيرة الى التحرير المادي الدنيوي؟

الجزء الأول

الفشل الكبير

ان السبب الـذي عجل في كرب الشيوعية هو فشل التجربة السوفياتية. وبالفعل، ان الذي لا يمكن تصديقه، وقد اقتربنا من نهاية القرن العشرين، انـه كان ينظر في وقت ما الى الشعار والمثل السوفياتي بافتتان حتى انه كان يستحق ان يطبق. وهذا يُظهر مقدار التقدير الشعبي الكامل الذي نالته التجربة السوفياتية. ومع ذلك فقد جاء وقت ليس بعيداً، كان قد صُفق وهُلل فيه لهذه التجربة، ولقد أُعجب بها حتى انها قد قُلدت. ولهذا، فانه من الملائم الآن ان يطرح السؤال: ما هو الخطأ الذي حدث ولماذا؟

انه لمن المفيد ان تراجع باختصار، اثناء التفكير في الفشل السوفياتي، الاساس التاريخي التي تبعه التجربة الماركسية في روسيا. لقد كان غريباً ان يتم نقل نظام اوروبي غربي خالص، صاغه مهاجر يهودي ـ الماني في غرفة المطالعة في المتحف البريطاني الى امبراطورية اسيوية ـ اوروبية بعيدة ، ذات تقاليد استبدادية شبه شرقية، وان يتم هذا النقل مع منظر روسي ثوري يعمل محللاً للتاريخ.

اذن لم تعـد النـظرية المـاركسية، وبوجود الثورة الروسية، نظرية مكتبية متحذلقة. بل لقد اصبحت حركة اوروبية سياسية ـ اجتماعية رئيسة، تلعب دوراً هامـاً في العـديد من الـدول الاوروبية الغربية، وتملك مظهراً جانبياً سياسياً محـدداً. وكان ذلك واضحاً في مشاركته في المجتمع. وقد كانت الكلمات «الديمقراطية الاجتماعية»، والتي كانت من التصميم الذاتي لكل الماركسيين

تقريباً ترمز الى التزام الحركة الاشتراكية الفنية. وقد كان يُنظر الى الاشتراكية في الغرب، ويعدها الماركسية كهيمنة ديمقراطية على الروح.

ولتأكيد ذلك، فقد ظهر اثناء الحرب العالمية الاولى، فرع ماركسي صغير ونشط، يدعو الى فكرة العنف الثوري، ليتبعها فرض الدكتاتورية للحركة العمالية (البروليتارية). اما الذين كانو يهابون ظهور وبروز الاشتراكية تحت اي صورة أو هيئة، فقد ارتعدوا من الذكريات الدموية لكوميون باريس عام ١٨٧١ (وهو لجنة ثورية استولت على السلطة العليا في باريس عام ١٨٧١). ولقد كانت كلمة «شيوعية» بنظر الكثيرين معاكسة للديمقراطية. ولقد اثار سقوط مملكة تسار ردود فعلٍ مختلطة في الغرب، ابتداءً من الامل والحماس للديمقراطية حتى تصل الى التوقعات المخيفة من الدكتاتورية الشيوعية.

الفصل الاول

التراث اللينيني

ان ما حدث في روسيا بعد الثورة البلشفية، يجب ان لا يفاجىء قراء فلاديمير أليـنج لينين. لأن الزعيم البلشفي للزمرة الاكثر تطرفاً في الماركسية الروسية، لم يمض نواياه ابداً. ففي مقالاته العديدة وخطبه الكثيرة، كان يوجه السخـرية الى اتباعـه من المـاركسيين الـذين تبنـوا أو توجهـوا إلى العملية الديمقرطية. ولقد اوضح بأسهاب وجهة نظره بان روسيا لم تكن ناضجة وجاهزة للديمقراطية الاشتراكية، وان الاشتراكية سوف تُبنى في روسيا ابتداءً «من القمة» أي بمعنى آخر، بواسطة دكتاتورية الحركة العمالية (البروليتارية».

وحتى الـدكتاتورية، فبدورها ايضاً سوف تُدار من الحركة العمالية أسمياً وظاهرياً فقط. فمن وجهة نظر لينين، فان الطبقة الحاكمة لم تكن اكثر نضوجاً سياسياً لكي تحكم فعلياً من نضوج روسيا التاريخي للأشتراكية. فاذن كانت الدكتاتورية الجديدة تتطلب وعياً تاريخياً ومُهدفاً لكي تعمل بالنيابة عن الحركة العمالية. وبدقة اكثر، فلم يكن يُنظر لا الى المجتمع، ولا الى الطبقة العمالية الصناعية المتشوقة، على انها جاهزة أو مستعدة للأشتراكية وذلك بسبب الظروف التخلفية في روسيا. ولهذا يجب ان يجري التاريخ بتسارع بواسطة حزب انصار منظم جيداً وملتزم ثورياً والذي كان يعرف تماماً ماذا كان أمر التاريخ وكان مدافعاً فدائياً. لقد كانت فكرة لينين بأنشاء حزب الانصار هو الجواب الذي اوجده بنفسه للمأزق المذهبي لروسيا غير المستعدة مع حركتها العمالية الى الثورة الماركسية.

لقد كان اشتراك لينين واصراره الشخصي على تشكيل منظمة ملتزمة من

الثوريين المحترفين، فاعلاً في تهذيب التصرفات والصفات السياسية لأول دولة تظهر تحت نفوذ وسيطرة حركة متخصصة ومكرسة للمبادىء الاشتراكية. ولا يوجد هنا مجال للنقاش فيما اذا كان التزامه عقائدي صرف واذا كان من الملائم وصل اسم الاشتراكية ليرتبط مع اسم لينين واتباعه. اما الذين هم ملتزمون بعمق بالديمقراطية الاشتراكية، فيعتبر هذا الوصل بغيضاً وملعوناً. ولكن يجب ان نذكر شيئاً هنا وهو ان لينين واتباعه كانوا يعتبرون انفسهم ماركسيين، وانهم كانوا ينظرون الى انفسهم سائرين على الطريق باتجاه الاشتراكية الاولى، وبعد ذلك الشيوعية، ولهذا فقد كانوا موضوعياً وذاتياً جزءاً من الحديث الاشتراكي الجديد.

وبالاضافة الى ذلك، وعلى مدى ما كان الزعماء البلشفيين الجدد يستطيعون ان يعرفوا انفسهم كأشتراكيين، فقد كان هذا يساعدهم كثيراً في كسب الاذان والسمع التعاطفي في الغرب. فقد كان التعريف الشخصي، بغض النظر اذا كان حقيقياً ام تكتيكياً، مفيداً بالتأكيد. فلقد جذبت وأسرت تخيلات العديد في الغرب الذين تمنوا ان تنتصر الديمقراطية الاشتراكية ولكنهم يأسوا منها حالما ظهرت داخل النظام الرأسمالي المحصن. ولأسباب نقاط الضعف، فقد كانت النجمة الحمراء فوق الكرملين تبدو انها ترمز الى فجر الاشتراكية، وحتى وان كانت في البداية بشكل غير كامل.

ان الوضع في روسيا اثناء المرحلة اللينينية والذي تميز بالاعمال الغامضة كان مساعداً في كسب التعاطف الغربي ايضاً. لقد شهدت الفترة اللينينية (والتي استمرت لسنوات قليلة بعد موت لينين عام ١٩٢٣) كميات كبيرة من التجارب الاجتماعية والثقافية، مع كونها بعيدة عن الديمقراطية، ومع انها سارت في طريق الاذلال والغضب على المعارضين منذ البداية تقريباً. فقد سارت الدينامية الفكرية بالتوازي مع رغبة لينين في الخطة الاقتصادية الاجتماعية للتسوية مع الواقع الغالب والمتفوق لروسيا المتخلفة واقتصادها الرأسمالي السابق. لقد كانت الخطة الاقتصادية الجديدة المشهورة (New Economic Policy) (NEP) ، ـ والتي اعتمدت بالأساس على نشاط وميكانيكية السوق، والمبادلة الخاصة لكي تحفز

الى الاصـلاح الاقتصادي ـ عملاً توفيقياً تاريخياً، والذي أجل البناء الفوري للأشتراكية من قبل دكتاتورية الحركة العمالية الجديدة الى المستقبل.

فانه من العدل والحق، وبدون ان نعطي هذه الفترة القصيرة شكلاً مثالياً، اذ نصف هذه الفتـرة باكثر المراحل انفتاحاً وتجديداً فكرياً في تاريخ القرن العشرين في روسيا. (لقد استمرت الفترة الديمقراطية عام ١٩١٧ تحت قيادة الديمقراطي الاجتماعي الكسندر كيريسنكي (Alesandr Kerensky) لمدة قصيرة جداً حتى انهـا لـم يكن.لهـا اي تأثير مستمـر). وبـالفعـل لقد اصبحت السياسة الاقتصـادية الجديدة (NEP) الاسلوب المختصر لفترة تجارب وليونة وتحديث. وكانت هذه الفترة للعديد من التعب الروسي، وحتى بعد ستين سنة من ذلك التاريخ، من افضل الفترات والسنوات المدخلة من قبل ثورة عام ١٩١٧.

ولكن في الحقيقة، لقد أُعطيَ الكثير من المثالية لهذا الرأي البسيط عام ١٩٢٠، في الماضي، وخصوصاً كرد فعل واسع الى التاريخ الستاليني. ولكن كان الاهم من التجديد الثقافي والاجتماعي، والذي هيمن على سطح الحياة في موسكـو، لينجـراد، وفي القليل من المـدن الكبيرة الاخرى هو التمسك والاندماج الواسع للأمة في نظام حكم الحزب الواحد، واضفاء الشرعية على العنف الاجتماعي الواسع الانتشار، وفرض المعتقد المذهبي وبقاء الممارسة التي تبرر أية وسائل سياسة، حتى الاكثر تعسفاً وبربرية لخدمة الايدلوجية.

لقد كان اكثر هيئتين متحفزتين لتراث لينين المدمر هما تركيزه على السلطة السياسية ووضعها في ايادٍ قليلة، واعتماده على الارهاب، ولقد انتُجت الاولى على عصـر وتـركيز كل السلطة السياسية في حزب انصار بيروقراطي بتزايد، ومتحكماً في كل البناء للمجتمع من خلال الوجود الاسمى، اي نظام سياسة الاشــراف والمــراقبـة الشـديدة من اعلى الى اسفـل على كل التحسينـات والتوظيفات، اما الرغبة في استعمال الارهاب ضد معارضين حقيقيين وهميين، والتي من ضمنها استعمال الاتهام الجماعي لتبرير العقاب الاجتماعي المنتشر،

حولت العنف المنظم الى اساليب رئيسة لحل المشاكل السياسية اولاً، وبعد ذلك الاقتصادية، واخيراً الاجتماعية والثقافية.

لقد حث الاعتماد على الارهاب الى التعايش بين الحزب الحاكم وبين الشرطة السرية (والذي انشأه لنين بعد انتزاعه للسلطة فوراً). ولذا فان ملاحقة التاريخ السوفياتي ليس صدفة ولا شذوذاً عندما اشاد رئيس الشرطة السرية السوفياتية فيكتور م. شيريكوف (Viktor M. Chebrikov) في خطابه عام ١٩٨٧ في الاحتفال لأول رئيس شرطة سرية، وبعد ستين عاماً من موت لينين، موافقاً على تبريرات لينين للأرهاب ضد الفلاحين الروس على الواقع قائلاً «ان الفلاح الاقطاعي يحتقر السلطة السوفياتية وهو على استعداد بان يخنق ويصفي مئات الالاف من العمال».

لقد كان لينين يدافع عن استعمال العنف، قبل انتزاعه للسلطة وبعدها ايضاً، وكان يدافع عن الارهاب الجماعي لتحقيق غاياته. ولقد صرح عام ١٩٠١ قائلاً: «مبدئياً نحن لم ننبذ الارهاب ولا نستطيع ان ننبذه». وفي عشية الثورة البلشفية، كتب تحت عنوان «الدولة والثورة» انه عندما نادى للديمقراطية كان يعني بهذا التعبير «منظمة لأستعمال منظم للقوة من قبل طبقة ضد اخرى، ومن جزء من السكان ضد جزء آخر». وفي كتابات وخطابات اخرى ضمت الى مجموعة اعماله، بقي لينين مصراً على هذه النقطة. ولقد تبنى صراحة ان الديمقراطية بالنسبة اليه هي اشتراك الدكتاتورية للحركة العمالية: «عندما نقترب من تطبيق دكتاتورية الحزب.. نقول نعم، لدكتاتورية الحزب! نحن نقف معها ونساندها، ولا نستطيع العمل بدونها». ولقد كتب أيضاً «ان التفسير العلمي للدكتاتورية هو انها السلطة التي لا يحدها أي قانون، وغير ملتزمة باي قواعد، ومبنية اساساً ومباشرة على القوة».

ولم يضيع لينين أي وقت، حالما انتزع السلطة، في تطبيق افكاره هذه عملياً. فقبل مضي وقتٍ طويل، اصبح يعتمد على العنف غير المميز، ليس

فقط لأرهـاب المجتمـع ككـل، ولكن أيضـاً لتصفية المخلوقات البيروقراطية الصغيرة. ولقد اصدر مرسوماً في كانون ثاني عام ١٩١٨، والذي هدف الى تعريف سياسة التعامل مع هؤلاء الذين يعاضدون الحكم البلشفي، فقد دعا نظام لينين مؤسسـات الـدولـة بان «تنظف الارض الروسية من كل انواع الحشرات الضارة». ولقد قام لينين نفسه بدعوة زعماء الحزب في احدى المقاطعات بالقيام «بالارهاب الجماعي بدون رحمة او شفقة ضد المزارعين الاغنياء، والكهنة، والحـرس الابيض (White Guards) و«ان يجمعـوا كل العنـاصـر المشبـوهـة في معسكرات اعتقال خارج المدينة». اما بالنسبة الى المعارضين السياسيين، فلم يكن لينين ليتسامح ابداً في هذا، فقد كان النقاش «افضل كثيراً بواسطة البندقية من نقاش فرضيات واراء المعارضة».

اذن فقـد اصبـح الارهـاب الجماعي هو الاسلوب الاداري لحل جميع المشاكل. فقد ايد لينين لحل مشكلة العمال الكسالى، بان يطلق النار على رأس واحد من كل عشرة يوجدوا مذنبين بتهمة الكسل والتخاذل. اما بالنسبة الى العمال العنيدين فقد قال «يجب اطلاق النار على مثير الشغب». اما بالنسبة الى الاتصالات الهاتفية السيئة، فقد اعطى لينين اوامر واضحة: «هدد باطلاق النار على الغبي المسؤول عن الاتصالات السلكية واللاسلكية، والذي لا يعرف كيف يعطيك مكثف افضل ولا مكالمة هاتفية جيدة وفاعلة». اما بالنسبة الى العصيان، ومهما كان صغيراً، بين سكان الريف، فقد اعطى لينين قرار يُصر فيه «على اخذ رهائن من بين الفلاحين، واذا لم ينظفوا الثلج، فسوف يطلق عليهم النار».

لقد ساعدت نظرة الريبة والشك هذه في ايجاد نظام حكم يقف بعيداً عن المجتمع، وبشكل عام مؤامرة في السلطة، وحتى وان كانت عفوية وتلقائية هذا المجتمع في العالم غير السياسي مقبولة بشكل مؤقت في بداية العشرينيات. ورغم ذلك، فان الحقيقة الاساسية هي ان نظام لينين السياسي هذا كان متوازناً نفسياً مثلما هو سياسياً في المواجهة الشاملة مع المجتمع. ويمكن لحكام هذا

المجتمع ان يبرروا انفسهم تاريخياً بالتهجم ونقد هذا المجتمع في نهاية الامر، لوضعـه وخلقـه من جديد في صورة النظام السياسي نفسه. ولا يمكن لنظام سياسي من النوعية اللينينية ان يتواجد الى ما لا نهاية مع مجتمع عامل، بشكل واسـع على قاعدة التلقائية والعفوية الديناميكية. لأنه يمكن لهذا التواجد ان يخرب النظام السياسي أو ان يحث على التعارض والتصادم بينهما.

لقد كان حل لينين الوحيد هو في ايجاد حزب فوقي، معطى كل السلطة بأن يحث على إذابة وشل، ليس الدولة، بل المجتمع ككيان مستقل. اذن يجب تدمير هذا المجتمـع خشية ان يؤثـر او يعكس وان يمتص القشـرة الخارجية الصناعية للحكم الشيوعي. وبالنسبة الى لينين فقد كان منطق السلطة يفرض استنتاج انه يجب على مركزية الدولة ان تكون شاملة وذلك لتحقيق حل وتفكك الارتباطات الاجتماعية التقليدية، جاعلاً من الدولة اداة التاريخ المقدرة والمرسومة.

لقد تجرأ مفكر سوفياتي معروف، وكذلك بعد عدة اجيال، وبالضبط عام ١٩٨٧، اثناء المناظرات التي اثمرتها جهود ميخائيل غورباتشوف (Mikhail Gorbac-hev) لأعاد الهيكلة، على طرح سؤال عام وهو «هل كان ستالين هو الذي اوجد النظام، ام ان النظام هو الذي اوجد ستالين؟» ولكن اذا كان النظام هو الذي اوجد ستالين، وكما يقول السؤال، اذن لمن كان هذا النظام؟ والجواب هو ان لينين هو الذي اوجد النظام والذي بدوره اوجد ستالين، وبعد ذلك كان ستالين هو الذي اوجد النظام والذي مكنه من ارتكاب جرائمه. واضافة الى ذلك، ان الحزميه المتغطرسة لأيدلوجية لينين، لم تكتفِ في ايجاد ستالين فقط، ولكن وبالاشتراك مع عدم التسامح السياسي اوقفت ومنعت اي بديل آخر من الظهور وفي الاصل، لقد كانت الستالينية هي التراث المحتمل اللينينية، وهذا هو اقوى اتهام تاريخي لدور لينين في بناء الاشتراكية داخل روسيا.

الفصل الثاني

الكارثة الستالينية

لقد كان ذكاء وفطنة ستالين في فهمه بشكل جيد للمعنى المخفي للتراث اللينيني، اما ليون تروتسكي (Leon Trotsky) ، منافسه الرئيسي، فقد ارتكب الخطأ الاساسي في محاولة ربط الثورة الداخلية مع المطلب المتزامن مع ثوران وجيشان عالمي. لقد اشترك تروتسكي مع الفكرة التي تقول ان الرأسمالية الغربية كانت ناضجة وملائمة للثوران والجيشان الثوري، وان استمرارية السلطة الشيوعية كانت تعتمد على مد هذه الثورة وحثها على النجاح. ومع ذلك فقد ازعج واهان تروتسكي موهبة المحافظة الذاتية للاحزاب البيروقراطية القوية الجديدة، بدعوته الى فكرة الثورة الدائمة والمستمرة، والتي من جهتها لم تكن مستعدة بان تخاطر بكل شيء على مذبح عالم ثوري مبتدىء ومتهاوي. وعلى العكس تماماً، فقد فجر ستالين بشكل مثير موهبتهم للمحافظة الذاتية باطلاق الثورة المحلية والتي تهدف الى تجنب مخاطرة روية النظام الشيوعي وقد ابتلعه المجتمع المفعم بالحيوية. وهكذا يكون قد ارضى حماسهم الايدلوجي، اثناء الدعوة الى منفعتهم الذاتية.

لقد كانت عبارة «الاشتراكية في بلد واحد» (Socialisminone Country) هي عبارة ستالين المذهبية المخادعة لسحق مجتمع بشكل لم يسبق له مثيل، من دولة الاله. لقد تعهدت مجموعة من الزعماء ويفكر متأخر، ويعملون في الليل بالتزام كامل في قليل من غرف الكرملين، على نفسها مهمة اعادة بناء المجتمع من الاعلى الى اسفل، وذلك بتدمير واهلاك الكثير من فلاحي هذا المجتمع والطبقة

الوسطى، وترحيل الملايين بالقوة، واثناء هذه العملية يتم توسيع مدى سلطة الدولة الى درجة لم تحدث في التاريخ. اذن عبارة «الاشتراكية في بلد واحد» على هذا الاساس اصبحت بلداً خاضعاً كلياً الى دولة فوقية.

لقد وصلت شدة الدولة وافراطها، واستعمال العنف كأداة لأعادة بناء المجتمع الى نقطة الذروة تحت حكم ستالين. لقد خضع كل شيء لشخص الدكتاتور والى الدولة التي يحكمها. لقد كان ستالين في كل مكان وحكم كل شيء، وقد مُدح في الشعر، وتفننت به الموسيقى، ومُجد فيْ الاف التذكارات والاحتفالات. ولكن مع كونه شخص استبدادي لم يكن له نظير ألا القليلون في التاريخ، فقد مارس حكمه بناء سلطة دولة معقدة، على طريقتين بارزتين، البيروقراطية والمؤسساتية. ولأن المجتمع قد انخدع في استمرار ومجاراة هدف ستالين في بناء الاشتراكية في بلد واحد، فقد نمت وكبرت دولة الاله في المكانة والوفرة، وفي القوة والافضلية.

لقد دعم نظام الارهاب والرعب هرم السلطة دون ان يترك اي انسان آمناً، ولا حتى بين اقرب رفاق ستالين انفسهم. ولم يكن احدٌ بعيداً عن نزوات الدكتاتور. فمن الممكن ان يكون احد اعضاء المكتب السياسي في يوم ما المفضل لدى ستالين، وان يصبح في اليوم الثاني ضحية محاكمة ويعدم رمياً بالرصاص. وعلى سبيل المثال، فقد كان مصير أ. أ. فوزنينسكي (A. A. Vo-znesky) المفاجىء في اواخر الاربعينات، والذي كان البعض ينظر اليه على انه الشخص الذي يهيئه ستالين لمنصب حكومي رفيع. ولقد قدم الاخلاص الكامل لستالين وحتى الاشتراك الحماسي في جرائمه، القليل من الحماية من الاعدام أو الاهانة. فلقد كان مولوتوف (Molotov) وكالنين (Kalinin)، متورطين مباشرة في اعداد القوائم باسماء زملائهم الذين سيعدمون، واستمرا في الجلوس حول مائدة المكتب السياسي، مع ان زوجتيهما كانتا قد نقلتا بأمر ستالين الى معسكرات العمل القهرية.

لقد كانت السلطة المطلقة للحياة والموت، دون أية مبالغة، في الاتحاد السوفياتي بايدي زمرة صغيرة من المتآمرين وعديمي الرحمة، والذي كان تنفيذ عقوبة الموت بالالاف لا تحصى من ما يسمى «باعداء الشعب» بالنسبة اليهم عملاً بيروقراطياً صغيراً وتافهاً. وحتى وان فتح يوماً ما الارشيف تماماً، فلن يعرف احدٌ المقدار أو الكمية الكاملة لفعلة ستالين. (لقد صرحت مجلة موسكو المنشقة غلاسنوست (Glasonst) في ايلول عام ١٩٨٧ ان المخابرات الروسية (KGB) كان يتلف ملفات الضحايا من عام ١٩٣٠ الى عام ١٩٤٠ بمعدل خمسة الاف ملف كل شهر، وذلك حتى يخفي الماضي). لقد كانت الابادة بالاعدام الفوري، أو الموت البطيء مصير كل فئات الشعب: مثل المعارضين السياسيين، المنافسين الايدلوجيين، اعضاء الحزب المشبوهين، ضباط الجيش المتهمين، المزارعين الاغنياء، اعضاء الطبقات المنبوذة، الاورستقراطيين القدماء، المجموعات الوطنية المشكوك بأخلاصها، المجموعات العلمانية والتي وصفت بالمعادية، المبشرين الدينيين، وكذلك المؤمنين النشطين، وحتى اقارب (في حالات عديدة) كل جميع افراد عائلات الضحايا المختارين.

وبكل بساطة، فان المستحيل عينه وصف أو شرح بالكلمات مقدار المعاناة الفردية أو الجماعية التي قام بها وسببها ستالين. فلقد رحل ملايين عديدة من الفلاحين، باسم الاشتراكية، تحت اقصى الظروف البدائية، مع اعادة توطين الذين بقوا احياء في سيبيريا البعيدة. ولقد كان ستالين ايضاً المسؤول عن المجاعة الجماعية لعدة ملايين من الفلاحين الاوكرانيين اثناء المجاعة الكبيرة التي حدثت في اوائل الثلاثينيات ـ وكان هذا الجوع قد انتشر بتعمد، وكذلك لجعل عملية التنظيم المجاعي تتسارع، ولكن كان التنظيم الجماعي الوحشي نفسه قد حرك بتسارع وعلى درجة معينة وواضحة على انتشار الجوع هذا. لقد صفى عُشر الحزب نفسه اثناء اعمال التصفية، وذلك باعدام معظم زعمائه، مع اضطهاد عائلاتهم بوحشية. لقد اشتملت الاعدامات والاعتقالات جميع انحاء الكيان السوفياتي وضم الملايين. وعلى حسب المعطيات السوفياتية نفسها، فد

اعدم رميا بالرصاص ليس اقل من سبعة وثلاثين الف ضابط من الجيش، وثلاثة الاف ضابط من البحرية، هذا من الجيش وحده، وذلك في العامين ١٩٣٧ و١٩٣٨، وهذا اكثر من الذين قتلوا في اول سنتين من الحرب النازية ـ السوفياتية.

لقد استمرت معسكرات العمل الجماعي بالابتلاع (الفولاك) (Gallag) تحت حكم ستالين. ولقد كانت الاعتقالات الفردية والجماعية دائمة الحدوث مستمرة. حتى المجموعات العلمانية كانت هدفاً كي تنقرض بالابادة الجماعية. وقبل اندلاع الحرب بقليل في عام ١٩٣٩، فقد اختفى كل السكان البولنديين الذين كانوا يعيشون على الحدود السوفياتية البولندية في ذلك الوقت، وكان عددهم عدة الاف، وقد تم اعادة توطين النساء والاطفال في كزغستان (Kazakhstan)، واما الرجال فقد قتلوا واهلكوا، ببساطة. وايضا لقد انتزع التتار من كريميا (Tatars of crimea)، الشيشان من اتكش (Chechen - In Gush) في شمال القوقاز (Caucasus)، بمئات الالاف ورحلوا الى سيبريا. اما بعد الحرب، وبالرغم من رفع واندثار المحرقة النازية عن اليهود، وكانت الجالية اليهودية في موسكو ولينينغراد فجأة قد اصبحت هدفاً وقد اعدم عُشر زعمائها. ولقد تم ترحيل مئات الالاف من البلطيق الى سيبيريا عام ١٩٤٩. لقد ضمت الاحصائيات السوفياتية المحفوظة والمشكوك في دقتها، والتي اذاعتها اذاعة فيلنيوس (Radio Vilnius) في ٢٢ ايلول عام ١٩٨٨، من لوثينيا فقط ١٠٨,٣٦٢ ضحية. ولقد كانت التحضيرات للمحاكم المسرحية سائرة على قدم وساق لمحاكمة «الاطباء اليهود» الذين اتهموا انهم تآمروا على قتل زعماء الكرملين الكبار، وذلك قبل موت ستالين بيوم.

وبالواقع فقد دمرت وتحطمت ملايين النفوس. ولقد كانت المعاناة على جميع المستويات، السفلى والاجتماعية العالية. وعندما ظهرت وانكشفت الستالينية اخيراً في عام ١٩٨٧، كانت الصحف السوفياتية تتقايض وتتبادل المجموعات الشخصية والارقام من الرسائل وغيرها. والرسالة التي سوف تلي، كانت قد ظهرت في جريدة (Literatmrnaia Gazeta) في ٢٣ كانون اول عام ١٩٨٧

ـ ولقد ذكرت الجريدة انها استلمت بعض عشرة الاف رسالة مشابه ـ ولقد كتبتها امرأة بسيطة، ولقد كانت قوية لكونها كانت واقعية. وهذه الرسالة هي مثال لما حدث الى الملايين. وتقول الرسالة:

«اني من قراء جريدتكم الـدائمين، واني اقرأ جريدتكم بشغف منذ مدة طويلة. والاحظ في المدة الاخيرة انه قد يُكتب الكثير عن اشياء وحوادث قد نسيت منذ زمن؛ ولقد قرأت بعض المقالات وقلبي ينزف، وكذلك لأني تذكرت حياتي وحياة زوجي. لقـد عاش جيلنا خلال الثلاثينيات الصعبة، وبعد ذلك سنوات الحرب، وايضاً ما بعد الحرب الصعبة. والآن لقد بدأ يُكتب بأنفتاح وصـراحـة عن موت كيروف، توغـاشفسكي، ياكير (Kirov, Tukhachevsky, Yakir) وغيرهم من الضحـايا الابـرياء. واعتقـدت هذا غير مفهوم: وهو وضع مصير الاشخاص العظام امام نظر العامة. ولكن اذا كان هؤلاء الاشخاص لم يستمروا في البقاء، ماذا يمكن ان يقال عن الناس العاديين؟

لقد كان زوجي أ. اي. بفومولوف (A. I. Bogomolv) انسان عادياً. ولقد اعتقل اثناء الحرب الفنلندية، وحكم بالاعدام رمياً بالرصاص، وخفضت الى حكم عشرة سنوات بالاضافة من حرمانه من حقوقه لمدة خمس سنوات، ولقد امضى اربع سنوات في احدى المعسكرات في الشمال بظروف مروعة. وبعد ذلك ظهر اعتقال آخر، واتهام آخر، وخمس عشرة شهراً من تريدستكا (Tridsatka) «وهذا تعبير غير معروف»، في زنزنات تحت الارض. وفي كلا الحالتين لم يوقع محضر الاتهام. ولقد امضى محكوميته هناك في الشمال بمجموعة ١٢ سنة. وكانت صحته قد دمرت وتدهورت الى الابد، ولقد تأثرت رئاتاه من الصقيع. وبعد المعسكر عاش زوجي في سيكتنفار (Syktyvkar).

لقد قابلت زوجي بعد ٤٢ سنة من الانفصال، وكانت آخر مرة رأيته فيها في عام ١٩٤٠، عندما احضرت ابني المولود حديثاً لزيارته في سجن لينغراد المؤقت. ولقد تقابلنا. . . وكان شعوري مروع، ولكننا قررنا ان لا ننفصل. لقد

توفيت زوجته الاولى، وزوجي الاول قد توفي، ولقد كبر اولادنا. ولهذا فانا منذ خمس سنوات اعمل طبيبا واختاً وممرضة، والصديقة. ان صحة زوجي مدمرة تماماً، وكان قد عمل حتى وصل الى ٧٤ عاما من العمر. ونسكن الآن في غرفتي في شقة مشتركة، ويوجد في جوارنا شخص مريض عقلياً. ويحدث الكثير من الصراخ والشجار، وتتعارك المرأة المجاورة بشجار بالايدي. ولقد رُفض طلبنا لشقة منفصلة - وذلك لأننا نملك اكثر من ستة امتار للشخص الواحد.

ولكن ما اود قوله هو انه في عام ١٩٥٥ رُد اعتبار زوجي من التهمة الثانية، بينما استلمنا رد الاعتبار عن التهمة الاولى في عام ١٩٨٥، عندما بدئت انا نفسي في متابعة الموضوع، اعادت المحكمة العسكرية لمقاطعة لينغراد العسكرية النظر في قضيته لعام ١٩٨٠ والغت القرار «لنقص في هيكل الجرم» (For Lack of Corpus delicti) . ولقد منح زوجي ٢٧٠ روبية فقط بعد رد اعتباره، وهذا مساوي لراتب شهرين للمركز الذي يشغله قبل الحرب الفنلندية. نعم، لمدة ١٢ سنة في المعسكرات الشمالية، والتحقيقات والاعمال المرهقة في المناجم وقطع الغابات، فقط ما مجموعه ٢٧٠ روبية، وكنت كلما استفسر عن هذا الامر، يُقال لي بان هذا هو القانون ويشيرون الى تشريع عام ١٩٥٥.

لقد أُعيدت حقوق زوجي كمشترك في الحرب فقط بعد آخر رد اعتبار. وهو الآن مواطن من الدرجة الاولى، وهو ضرير، واقرأ له المقالات بينما هو يبكي. ويأخذ معاش تقاعدي قيمته ١١٣ روبيه، وهذا يضم ١٥ روبية والتي تمنح له على اساس كونه مواطن من الدرجة الاولى وبدل «عناية تمريضية». ولكني كنت قد كتبتُ وسوف استمر في الكتابة الى كل المسؤولين لأني اعتقد ان هذا كله هو ظلم وليس عدلاً. وطالما هو على قيد الحياة واملك انا القوة الكافية، سوف استمر في الكتابة عن الاشخاص الذين هم في مثل وضع زوجي ولم يحصلوا على فوائد تعويضية، مهما كان قليلاً، لكل ما عانوه وقاسوه من الام. انهم لم يسيئوا الى بلدهم، ولكن حياتهم قد حطمت، وايضا حياة عائلاتهم كذلك،

وحُرموا من احترام المجتمع لهم، ولم يمنحوا حق في المحاربة، حتى يصبحوا ممجدين او ابطال حرب وان يحصلوا على التهنئة الاحتفالية.

اني لا اطلب مساعدتي في الحصول على شقة جديدة. لأننا الآن زوجي يبلغ من العمر الآن ٨٢ عاما. ولقد أُصيب بالسكتة الدماغية مؤخراً. ولكن الذي ارجوه منك هو ان تساعد الذين عانوا وقاسوا بدون ذنب جنوه، ولم يكونوا يستطيعون الدفاع عن انفسهم لأن القرار كان غير قابل للطعن».

واليوم لقد اذاعوا في المذياع شعر تفردوفسكي (Tvardovsky) بعنوان «الحق في التذكر» (Right of Remembrance). لقد صُعقت، وانحدرت الدموع من عيون زوجي الضرير. لقد كان زوجي دائماً عاملاً، وعضواً في الكومسمول (Komosomol)، ولقد عمل على الكزنتسكروي (Kuznetskstry) في البلطيق (Balkhash)، ولا يزال يملك يدين متصلبتين. ومع انه لا يستطيع عمل أي شيء الآن ولكنه يشعر ويحس بالزمن الجديد، ويعتقد ان هذا بالفعل ثورة. ولقد حصل تغيرٌ كبيرٌ الآن، وسوف يكون ظلم ومن غير العدل ان يختفي هؤلاء الاشخاص الذين عانوا وقاسوا كثيراً وبوحشية عن النظر، عندما يبدأ بالانتباه الى ابطال العمل والحرب. اني اتساءل لماذا لا يعاد النظر في تشريع ١٩٥٥؟ لماذا لا يتمتع الاشخاص الذين عانوا من الاذلال والصدمة باي منافع مادية كانت ام معنوية؟ وهل يجب ان يلاموا لأنهم لم يكن في مقدورهم ان يحصلوا على هذه المنافع.

اني اتوسل اليك ان تساعدني، وتساعد الذين لا يزال بالامكان مساعدتهم. لأنه الى حد الآن تسمع بعض المرات الناس يقولون ان شخصاً ما كان عدواً للشعب وانه ليس بدون سبب أو ذنب كان خلف القضبان. ان الموضوع ليس مالاً، ولكن يجب ان يدرك المجتمع بان لديه التزام تجاه هؤلاء الاشخاص؟

فلانتينا زينوفيفنا جروموفا، لينينغراد

(Valentina Zinovevna Gromova, Leningrad)

ومع انه لا يمكن معرفة عدد ضحايا ستالين ابداً، ولكن بالتأكيد نستطيع

ان نقدر العدد بما لا يقل عن عشرين مليون أو يرتفع الى اربعين مليون. ولقد جمع المؤرخ الانكليزي روبرت كونكست (Robert Conqest) في كتابه الارهاب العظيم (The Great Terror) عام ١٩٦٨، افضل وادق التقديرات، وتميل حساباته الى العدد الاعلى السابق. وملخص القول، يمكن القول ان ستالين كان اكبر قاتل جماعي في التاريخ البشري، واحصائياً فقد تفوق حتى على هتلر.

ان هذا القتل الجماعي ليس له علاقة ببناء النظام السوفيتي بتاتاً. لقد ظهر النظام، واتخذ المظهر المؤسساتي، وقد تجمد وتحجر بيروقراطياً، وتطور شعور خاص بوضعه وحجمه بينما كان القتل الجماعي يأخذ مجراه. ولكن الذي يلاحظ في مصير هذه العملية، وبالرغم من كل تلك الفضاعة والوحشية فقد نجح ستالين في تحريك شعور حقيقي بالانجازات داخل التنمية السوفياتية وفي قسم فسيح وواسع من السكان المدنيين السوفيات. ولقد عرف عن سياسته، ونفسه مع اعادة بناء المجتمع السوفياتي وذلك باشراك التصنيع الجماعي والتمدين، وهذه كلها مغلفة بشعار بناء الاشتراكية. ولهذا نرى انه بالنسبة الى العديد من المواطنين السوفيات تعتبر الفترة الستالينية على انها فترة تقدم اجتماعي، وانها قفزة تاريخية عظيمة الى الامام، وانها حتى مصدر فخر للأنجاز الوطني.

لا يستطيع المرء ان يشرح بطريقة مخالفة رد فعل العديد من المواطنين السوفيات اولا لجهود نيكيشا خروشوف في اواخر الخمسينيات، واوائل الستينيات، وبعد ذلك جهود ميخائيل غورباتشيف في اواخر الثمانينات في كشف جرائم ستالين. لقد كان رد فعل الشعب، باستثناء المفكرين واهل واقارب الضحايا، بعيداً جداً عن الحماس. وقد تراوح ما بين الكره السوفياتي التقليدي للاجانب، واهتمامهم ان اعداء روسيا سوف يفجرون اي كشف للماضي البشع، وبين التأكيد على ان الفترة الستالينية قد خلفت انجازاً عظيماً ويجب ان لا تلطخ سمعتها. ولقد عارض بعض المواطنين، في رسائل الى صحف البرافدا واذفستيا، نشر رد الاعتبار بعد الموت لجرائم ستالين، على اساس ان هذا سوف يكون غير عادل وبنفس الوقت يؤذي هيبة السوفيات.

لقد كان تفسيراً نموذجياً وايمائياً هذا الذي قدمته صحيفة البرافدا في عددها الصادر في ٢٣ تموز ١٩٨٧، تحت عنوان «قراءة الرسائل». وقالت ان صحيفة الحزب قد استلمت العديد من الرسائل تعبر عن الاستياء من التحول ضد الستالينية في كتابات تاريخية حديثة سوفياتية. وتشير الصحيفة الى قارىء كمثل واسع على وجهة النظر هذه، عمره ٧٤ عاما واسمه فاسيلي بتروفيش بيشكتوف (وعلى هذا الحساب يكون عمره ٢٤ عاما اثناء اسوأ فترة ستالين الارهابية)، ويقول هذا الانسان مفتخراً، انه ذهب الى الحرب ضد النازية وهو يهتف «من اجل الوطن الام، ومن اجل ستالين». ويضيف قائلاً: «كيف يمكن ان يكون هناك أي شك في اخلاص هذه الكلمات». لقد انهى هذا العجوز البطل والذي من الممكن انه لم يعاد بناءه، رسالته باتهام الحملة المضادة لأستالين بنيت على الخداع وانصاف الحقائق، وتسأل: «اذن لماذا يسمح بنشر هذه الخدع وتظهر على صفحات مؤسسات صحف ذو سمعة طيبة».

ولقد اكد تعليق البرافدا الخاص ان هذه الرسالة تعبر عن وجهة نظر مشتركة وواسعة، ويقول التعليق:

«هل من المحتمل ان يبالغ هذا البطل او ان يزيد في استخراجه للأفكار؟ ومن النظر الى الرسائل نقول لا، انه لا يبالغ ابداً. ويوجد على مكتب التحرير رزمة من الرسائل، ويسأل كل مرسلي هذه الرسائل نفس السؤال بقسوة، ولكن بقرينة اوسع... كيف يمكن تحويل الحدث الغامض والغريب المنشأ والمتناقض واليائس، مع الوقائع والاحداث المترابطة والحقائق في مسمى عام وان تحشر معاً في شكل واحد منفرد ـ «عبادة الشخص»؟ وكيف يمكن نقد تصنيع الوطن، وتجميع الزراعة، والثورة الثقافية، والحرب الوطنية العظمى، والاصلاح الاقتصادي الوطني بعد الحرب على نفس مستوى الاخطاء، والظواهر السالبة، الجرائم، وانتهاك شرعية الحزب واعراف لينين وقوانينه للحياة الحزبية؟... وماذا عن شجاعتنا، وحماسنا، وشبابنا، واغانينا؟ هل هذه سوف تُنبذ كذلك»؟

ان ردود الافعال هذه من بعض المواطنين السوفيات لتجديد الانفصال عن الستالينية، وبعد اكثر من ثلاثين سنة من موت الدكتاتور، وبعد الكشوف العديدة عن مدى وحشية جرائمه، هي شهادة على انه لا يزال موجوداً في عقول على الاقل جزء من الشعب السوفياتي.

لقد كان ستالين ناجحاً في الخارج في تبرير اساليبه وفي كسب بعض الموافقة على ما فعل. فلقد كان العديد من المعلقين الغربيين، ولسنين عديدة، وفي بعض الاشكال التقنية المختلفة، ميالين الى مدحه لتحويل روسيا الى الصناعة اكثر من ذمه لارهابها. ولهذا السبب، فقد فسر عهد ستالين على انه من اكبر التغيرات الاجتماعية، واسرع الانتقالات الحركية العلوية، وتغير اساسي في الاقتصاد القروي والريفي الى الاقتصاد المدني. ولقد كان بعض هذه الاشياء صحيحاً الى حد ما. لأن الاتحاد السوفياتي قد اصبح قوة صناعية رئيسة اثناء عهد ستالين. ولقد تحول سكانه من الريف. ولقد تأسست قيادة مركزية لنظام اشتراكي كامل. ولقد نمى الاقتصاد السوفياتي بمعدل عالي جداً. ولقد ارتفع الدخل الوطني السوفياتي، وعلى حسب احصائيات رسمية، الى أربعة اضعاف خلال الخطة الخماسية الاولى، بمعدل نمو سنوي يرتفع حتى وصل الى ١٥٪ تقريباً. ولقد تتطلب هذا تغير سكاني كثيف، فتضاعف عدد السكان الذين يعيشون في المدن خلال ثلاثة عشر سنة. ولقد ارتفع الانتاج الكهربائي في ما بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٤٠ من ٥ بليون الى ٤٨,٣ بليون كيلواط/ ساعة؛ وارتفع انتاج الفولاذ من ٤,٣ مليون طن الى ١٨,٣ مليون طن؛ وقطع الماكنات من ٢,٠٠٠ الى ٥٨,٤٠٠؛ وارتفع انتاج محركات السيارات من ٨,٠٠٠ الى ١٤٥,٠٠٠. ولقد كانت الصناعة، قبل اندلاع الحرب بقليل، تشكل ٨٤,٧ بالمئة من اقتصاد السوفيات، ويعتبر هذا انجاز رئيسي لا يمكن انكاره، حتى ولو حدثت بعض المبالغات في التقارير الرسمية.

ان هذه المعطيات الاقتصادية، والتي انجزت اثناء عهد ستالين تكشف عن اسباب اندهاش عدد من الناس لا بأس بهم في الغرب من الحملة المكثفة ضد

ستالين، والتي بانت على السطح بشكل درماتيكي بعد موت هذا الطاغية بثلاث سنوات فقط. فلقد اظهرت هذه الحملة الاحباطات المكتوبة، والاهداف غير المحلوله، والمعاناة الانسانية اللامحدودة، وهدر الدماء بدون مبرر، والتي كانت اثمان غير ملموسة لنجاحات ستالين. ولقد قدم خطاب خروشوف الشهير في عام ١٩٥٦، وبعد ذلك الوثائق الشاملة والتي زودت اثناء موجة الخطابات المضادة لستالين في الاجتماع الثاني والعشرين في عام ١٩٦١، الاتهام المذهل والصاعق للتضحيات الاجتماعية في التجربة الاستالينية.

وبالرغم من سرعة التحول السوفياتي الصناعي الملحوظ، فان الواقع الاكثر ادانةً هو ان تأكيد المثال السوفياتي الاقتصادي الاجتماعي والتغير التحديث الذي حقق معدلات اعلى للتطور من اي مكان آخر، لا يبرر الثمن الاجتماعي الذي دُفع في عهد ستالين. وان هذا الادعاء لم ينبت واقعياً، بغض النظر على عدم الملائمة لمثل هذا التكامل. فانه في مجال امكانية المقارنات الوطنية، فان اليابان قد كانت افضل تطوراً خلال القرن التاسع عشر وحتى بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن دون ان يتطلب هذا التطور ثمناً بشرياً مشابهاً في المجموع. ومثال آخر مشابه، فان سجل التحديث الايطالي في هذا القرن، مع ان ايطاليا وروسيا كانتا متطابقتين في مجال المؤشرات الاقتصادية الاجتماعية في بداية هذا القرن، هو افضل بشكل ملحوظ. وأخيراً وليس آخراً لقد نمت تساريست روسيا في معدل نمو اعلى من ١٨٩٠ الى عام ١٩١٤ من الذي حققه ستالين بهذا الثمن البشري الكبير والخيالي.

ومن غير المدهش ان يقوم الزعماء السوفيات في المدة الاخيرة، وحتى ميخائيل غورباتشيف، بتبرير هذا الثمن الاجتماعي للتصنيع والتنظيم الاجتماعي الستاليني، على انه كان واجب ومفروض بسبب ظهور هتلر في المانيا. ولقد كتب الزعيم السوفياتي الحالي في البيريسترويكا قائلاً «لقد كان التصنيع في العشرينيات والثلاثينيات تجربة قاسية» واضاف «دعنا نحاول الآن وبتمعن ان نرد على السؤال التالي: هل كان هذا ضروري؟ هل يمكن لبلد مثل بلدنا واسع

وفسيح ان يستمر في الحياة دون ان يتطور صناعياً؟ ولقد وجد عندئذٍ سبب جيد اوضح جلياً بان ليس لدينا اي خيار سوى الاسراع في التصنيع. فقد بدأ التهديد الفاشي ينمو ويكبر بسرعة كبيرة في عام ١٩٣٣. ولنستاءل اين سيكون العالم الآن لو لم يغلق الاتحاد السوفياتي الطريق امام آلة الحرب الهتلرية؟ لقد نزع شعبنا جذور الفاشية بالشجاعة والقدرة التي اوجدها لنفسه في العشرينيات والثلاثينيات. واخيراً لو لم يكن هناك تصنيع لكنا الآن منزوعين من السلاح امام الفاشية».

ولكن القرار بزلزلة المجتمع السوفياتي كان قد اتُخذ في عام ١٩٢٨ وليس عام ١٩٣٣، اي انه التهديد في عسكرة المانيا لم يكن ظاهراً عندئذٍ، وايضاً عندما بدأ ستالين يردد بجدية نغمة ضد «خطر الحرب» القادم من بريطانيا، واخيراً عندما انشغلت موسكو فعلياً في مؤامرة عسكرية وسياسية مع المانيا. وبالواقع، فقد طمئن ستالين في اواخر صيف ١٩٣٢ المانيا، ومن خلال مقابلة اعلنت علنياً مع اميل لدويغ (Emil Ludwig)، ونشرت ايضاً في الصحف السوفياتية مراراً، ان الاتحاد السوفيات غير مستعد ان يضمن أو يمحي الحدود البولندية ضد الطموحات الالمانية.

وانه لأمرٌ جلي وبدون اي مبالغة ان يقال انه لم يحدث ان قُدمت مثل هذه التضحية البشرية الكبيرة من قبل للحصول على هذه الاستفادة البشرية البسيطة. وكما شرحها المؤرخ سيريل بلاك (Cyril Black) في نهاية مقالة تحت عنوان «نظرة نسبية الى المجتمع السوفياتي»، والتي كانت نظرة تقيمية شاملة لعملية التحديث السوفياتية.

«ان منزلة الاتحاد السوفياتي، في منظور الخمسين سنة، لم تتغير كثيراً، من ناحية الاقتصاد المركب والمؤشرات الاجتماعية لرأس المال.. لا بل ان البينات القليلة الموجودة تبين ان الاتحاد السوفياتي لم يتفوق على أو يتقدم عن اي بلد، آخر كانت على نفس قاعدة الرأسمالية منذ عام ١٩١٧.. وأيضاً ان

التسعة عشر بلداً أو العشرين اللواتي هن في منزلة اعلى وارفع من روسيا الآن، كن ايضا كذلك في عام ١٩٠٠ و ١٩١٩».

ومع هذا فقد استمرت فكرة ان الستالينية كانت تاريخياً، تطوراً متناقضاً ومتضارباً في الخمسينيات والستينيات، بوجود الكثير من الحسنات متقابلة مع السيئات. ولم تكن الاحزاب الشيوعية وحدها هي التي قاست عند كشف حقيقة التاريخ الستاليني. لأن مأزقهم كان مفهوماً بعض الشيء، حيث ان الستالينية كانت المثل الحي الوحيد للاشتراكية والمؤسس على وجود الحزب الشيوعي في السلطة. والاكثر من هذا فان هذه الاحزاب لم يكن لها اي خيار في هذا الموضوع بسبب اعطاء الاتحاد السوفياتي التحكم والمراقبة عليها. ولقد كانت الجاذبية الاكثر ظهوراً في القرن العشرين تجربة ستالين في تنظيم المجتمع قد تأثرت من الفكرة التي نُشرت وتوسعت بواسطة المؤرخ المعروف والمشهور جداً، اسحاق ديتشور (Yssac Deutscher) وهي ان الستالينية كانت ضرورة تاريخية احدثتها السرعة الاجبارية لتصنيع مفروض سياسياً لمجتمع متخلف جداً وبدائي.

لقد عملت افشاءات خروشوف المبرمجة، الكثير لتحطيم ذلك المنظور، ووضعت المسمار الاخير في نعش الأسطورة «الواقع الايجابي التاريخي» الذي احدثه ستالين، والذي ذكره الكاتب الكسندر سولجنتسين (Aleksandar Solzhenitsyn) في كتابه معكسرات العمل في الارخبيل (Gulag Archipelago). وحتى ان الاحزاب الشيوعية الغربية اصبحت تدرك ان الستالينية كانت ذنب وجرم لا لزوم له ولا ضرورة وكانت تمثل بالنسبة لهم مسؤولية سياسية معاصرة. ولقد ذهب الحزب الشيوعي الايطالي الى ابعد مدى في ادانته لهذه المرحلة من التاريخ السوفياتي، ولكن كانت التأثيرات الشديدة لهذه الافشاءات قد انتشرت أيضاً وبشكل واسع بين المفكرين الاوروبيين الغربيين ذوي الميول الماركسية. ولهذا فقد اصبحت الستالينية تؤخذ وتفهم على انها خطأ تاريخي مروع في التجربة الشيوعية، وعلى انها انحراف مؤسف ويجب تجنبه.

ولكن جذور التراث الستاليني المدمر والمروع تعود الى لينين، الى التراثين التؤامين، الحـزب العقـائـدي والشـرطـة السرية الارهابية. ولقد بُنيت عظمة البيروقـراطية على اساسات حزب الانصار والذي كان ينسب اليه كل شيء. وحالما استلم هذا الحزب عملية اعادة بناء المجتمع، كانت سلطة الدولة تنمو وتتوسع. وكان تراث ستالين في شدة عنف الدولة المبرمج ضد المجتمع، وظهور شرطـة الـدولة خانقةً اي خلق اجتماعي، وقاتلة في المهد اي عملية تجديد فكـري، وايجـاد نظام ذي افضلية هرمية طبقية، وكل موضوع لمركزه الادارة والتحكم السياسي. ولقد استمر الكثير من هذا التراث الى ما بعد ستالين، ولقد بقي وحتى قاوم الهجوم الضارٍ الذي شنه خروشوف. وهذا التراث اذن لم يحزم في رفض والشـك في المثـل السوفياتي فقط، بل في جعل الركود السياسي والاجتماعي في العشرين سنة التالية بعد خروشوف ممكناً تحت حكم ليونيد بريجنيف (Leonid Breghev).

الفصل الثالث

الركود الستاليني

ان ما يفسر استمرار عهد بريجنيف لهذه المدة الطويلة هو ازدواجية وتناقض العديد من الشعب السوفياتي الوسطى بالنسبة الى الجهود للخروج من الستالينية، وتفسر ايضاً لماذا اتخذ هذا العهد المنهاج الذي انتهجه. ومع ان ذلك العهد كان قد بدأ كنظام تحديث، محاولاً ان يُدخل العقلانية الى اصلاحات خروشوف العاصفة، فقبل ان يمر وقتٌ طويل اصبح نظام بريجنيف مساوياً للتجديد الشبه ستاليني. وقد كانت الخطوط العريضة للأسلوب الستاليني، وخصوصاً تمركز وخنق الادارات والاصطلاحات المتميزة، وتفوق الدولة البيروقراطية مستديمة، ولكن في اطار انتشار اجتماعي واقتصادي وحتى سياسي متمزق تدريجياً. لأن الارهاب الستاليني الكثيف كان الوحيد الذي فتح الطريق الى التفاضل ولكن باستعمال تعسف الاكراه السياسي، لأن النخبة الحاكمة كانت قد تعلمت من تجربة مرة وقاسية ان لدى الارهاب نشاطه وديناميكيته الخاصة، وغالباً ما تصيب مديرها.

ولهذا فقد استمرت الستالينية مدة ربع قرن آخر، ولكن بدون ان توجد حتى دولة للتغير الاجتماعي من اعلى، وبدون الابداء الكثيف للارهاب. وفعلياً، فقد ميزت الستالينية ثلثي العهد الشيوعي، تاركاً بصماته المؤثرة على المعنى التاريخي للشيوعية. ان بقاء الستالينية لم تبقى فقط لأن بريجنيف ورفاقه الرئيسيين استفادوا منها وبقوا مخلصين لها، ولكنها بقيت لانها اصبحت البناء الفسيح لتشابك الافضليات، والتحكمات والجوائز والمصالح المكتسبة. ولقد

استمرت وبقيت ايضاً لأن الشعوب السوفياتية المتمدنة حديثاً لم تستطع ان تحمل بدائل اخرى، وكذلك لأنه قد انغرس في ذهنهم لمدة نصف قرن تقريباً فكرة ان ما تمثله تجربتهم هذه هي خطوة جبارة الى الامام.

والاهم مما سبق كله هو ان بقاء وركود الستالينية كان بسبب عدم وجود حياة سياسية في داخل النظام السياسي نفسه. وقد قال المؤرخ السوفياتي ليونيد بتكان (Leonid Batkin) في ٢٦ تشرين ثاني عام ١٩٨٨، خلال الفعاليات العامة والتي غالباً ما ظهرت وبرزت كرد فعل على التراث الستاليني: «لقد اختفى السياسيون من حياتنا السياسية منذ اواخر العشرينيات. . . لقد اختفى السياسيون كمنزلة خاصة معاصرة للنشاط الانساني، حيث تنتشر الاختلافات الطبقية والمصالح الجماعية وتتشابك مع بعضها البعض، وحيث يوجد المقارنة المباشرة العامة للمراكز، وحيث ان الاساليب تهدف الى جلبهم معاً الى بعض التسوية النشطة والديناميكية. لقد اختفى السياسيون، ولهذا فقد اصبح كل شيءٍ «سياسياً».

لقد تحول المجتمع ككل الى مجتمع سياسي من القمة الى الحضيض، ولكن كان السياسيون الحقيقيون قد انحشروا في اعلى القمة فقط. ولهذا فقد كان النظام محمياً من خطورة التغيير، ولكن من ناحية اخرى، كان الركود هو الثمن المحتوم لديمومة نظام قسري.

ولكن لا يمكن تجاهل هذا الركود الى الابد. فقد ظهر شعورٌ بالانزعاج داخل قسم من النخبة السوفياتية العليا وذلك في اواخر سنوات عهد بريجنيف. لقد بدأ ادراك التمزق والتعفن الايدلوجي، والعقم الثقافي. وهذا لم يبدأ في اختراق الدوائر الفكرية فقط بل وصلت الى اعضاء من النخبة السياسية. ولقد اصبحت هذه النخبة مدركة بازدياد للمسافة النامية بين الاتحاد السوفياتي اللاهث في الخلف وبين منافسه المصنف والواضح وهو الولايات المتحدة. . ويقول نفس المؤرخ المذكور: «كان يوجد اشخاص يعملون مثل بوهلر، فاينر، وواطسون، وكريك، بينما كان ستالين يفني الشعب بالملايين. وبينما كان

بريجنيف يصغر بلدنا ويحولها الى دولة متوسطة، كان العالم يطور اشعة الليزر والحاسوب الشخصي، ويراقب تفجر الثورة الصناعية المتأخرة».

لقد وقف التشاؤم التاريخي داخل النخبة السوفياتية، بتناقض حاد مع التفاؤل المتبجح الذي حدث في عهد خروشوف. فلقد بدأ السكرتير الاول نيكيتا خروشوف، قبل جيلين من ذلك الوقت، وبالضبط عام ١٩٥٨ بان يعلن جهراً ان الاتحاد السوفياتي سوف «يدفن» امريكا قريباً في تنافس اقتصادي. من المحتمل انه كان ثملاً من الانتصار الشعبي لوضع المركبة الفضائية سبتنك في الفضاء قبل البرنامج الامريكي للفضاء، ومعتمداً على المؤشرات الرسمية السوفياتية لمعدلات النمو المقترحة، فقد اكد الزعيم السوفياتي في عدة مناسبات انه في بداية السبعينيات «سوف يحتل الاتحاد السوفياتي المكانة الاولى في العالم» في المجال الاقتصادي، وهذا يعني «انه سيؤمن لشعبنا اعلى مستوى معيشي في العالم».

ولجعل الامور اكثر احراجاً، فانه لم يكن من الممكن ان تنسب المفاخر الشعبية العامة بشكل استثنائي الى المزاج الشخصي للزعيم السوفياتي الاعلى، لأن هذه المفاخر قد خفضت ودمجت في البرنامج الايدلوجي الرسمي للحزب الشيوعي الحاكم المقرر في عام ١٩٦١. وفي معنى آخر، فلقد اصبح النذير التالي هو الجزء المكمل للعقيدة الماركسية ـ اللينينية العلمية الصحيحة المزعومة: «اثناء انشاء القاعدة المادية والفنية للشيوعية، فان الاتحاد السوفياتي سوف يتفوق، في هذه العقد ١٩٦١ ـ ١٩٧٠ في الانتاج الرأسمالي على اقوى واغنى الدول الرأسمالية، الا وهي الولايات المتحدة».

ولقد ادعى الحزب ايضاً، وكان ما سبق لا يكفي، اذ في العقد التالي «سوف ينعم كل الشعب بوفرة من الغنى المادي والثقافي.. وعلى هذا الاساس سوف يبنى المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفياتي». فلقد كان الدخول في المرحلة الشيوعية الفعلية، يشير الى الانتصار التاريخي النهائي للنظام السوفياتي. فقد

كان على المجتمع السوفياتي ان يكون اغنى من المجتمع الامريكي، والاقتصاد اكثر انتاجاً، وعلى «الصرح الشيوعي الفخم» بان يسمح بتطبيق مبدأ «التوزيع حسب الحاجة».

وفي واقع الامر، وبحلول منتصف الستينيات، فقد اصبحت هذه المفاخر فقط ستاراً وقناعاً للواقع المؤلم من الركود المتزايد. ومن المحتمل ان بريجنيف، ولوقت ما كان يعلل النفس ببعض الامال غير الأكيدة لسد الثغرة فعلياً. فبحلول ١٩٧٠، قفز الاقتصاد السوفياتي الى اكثر من نصف حجم الاقتصاد الامريكي، وقـد كان لا يزال ينمو بتسارع اكثر، ولقد كانت له الزعامة في بعض الامور الحياتية. وقد وصل الناتج الاجمالي في الاتحاد السوفياتي الى نسبة ٥,٣ بالمئة بالنسبـة الى العـالـم، بينما وقف الناتج الاجمالي الامريكي على نسبة ٧,٧ بالمئة. ولكن، وفي خلال السبعينيات، فقد فقدت معدلات النمو الزخم والقوة الدافعة، وانضمر الاقتصاد. وبحلول عام ١٩٨٥، انخفض الناتج الاجمالي القومي في الاتحاد السوفياتي بالنسبة الى العالم الى معدل ١٤,٧ بالمئة، وبينما ارتفع نفس الناتج في امريكا الى ٢٨,٥ بالمئة. والأسوأ من كل هذا، فلم يعد الاتحاد السوفياتي يحتل المكانة الثانية في العالم بالنسبة الى الاقتصاد. وقوة البلد التي كانت ترى نفسها سائرة لتصبح القوة الاقتصادية الاولى في العالم في بداية السبعينيات، قد تفوقت عليها اليابان تقريباً، والتي لم يكن ينمو اقتصادها بتسارع اكثر فقط، ولكن بتقدم تكنولوجي وفني متقدم عنها جداً

وبـالفعـل، فلم يكن هنـاك اي شك في الاتسـاع الرهيب لهذه الفجوة التكنـولـوجية، ولقـد كانت مصـدر قلق كبير للاعضاء الاكثر فطنة من النخبة السوفياتية. ولقد ادركت هذه النخبة بان استمرار التقدم الاقتصادي ونموه يحتاج الى ابتـداع علمي ـ تكنولوجي، وادركت ايضاً ان الاتحاد السوفياتي يتخلف ويتبـاطـأ كثيراً، وخصـوصـاً في مجـال تطبيق التكنـولـوجية الجديدة اقتصادياً واجتماعياً. لقد انتشرت هذه الفكرة والتي تحكي وتفشي عن قصة محزنة في

كل مكان. وهي ان البلد التي ادعت بتفاخر انها قد وصلت الى حافة الابداع والتجديد، قد انفردت وغاصت في المراحل الوسطى من الزمن الصناعي، وانها غير قادرة ان تتخطاها، أو تذهب ابعد منها. والجدول التالي يعطي المثل والحجم الحقيقي على صحة ما سبق:

	الولايات المتحدة	السوق الاوروبية المشتركة	اليابان	الاتحاد السوفياتي
حاسوب حجم كبير ومتوسط (لكل الف شخص في عام ١٩٨٣)	٩٦,٥٠٠ ٤١٢	٢٣,٤٠٠ ١٣٥	١٦,٩٠٠ ١٤٢	٣,٠٤٠ ١١
حاسوب حجم صغير (لكل الف شخص في عام ١٩٨٣	١,٠٠٠,٠٠٠ ٤,٢٧٣	٢٤٠,٠٠٠ ١,٣٨٧	٧٠,٠٠٠ ٥٨٨	٢٢,٠٠٠ ٨٠
الرجل الالي الصناعي (لكل الف شخص في عام ١٩٨٣	٤٤,٧٠٠ ١٩٦	٥١,٨٧٧ ٢٠١	٦٧,٤٣٥ ٥٧١	٣,٠٠٠ ١١

لم يكن الاتحاد السوفياتي متراجعاً الى الخلف في السباق التكنولوجي فقط، ولكنه اصبح عديم الفائدة بشكل «لا يصدق. ولعدم وجود الحافز الداخلي والذاتي للمنافسة والتطبيق والابداع، فقد اصبح ليس فقط القطاع الصناعي السوفياتي، ولكن مثيلاتها في اوروبا الوسطى، مثالاً ورمزاً لعدم الفاعلية البيروقراطية ومصدر تبذير معاكس للأنتاج. ولقد جمع الاقتصادي البولندي، الاستاذ جان وينيكي (Professor Jan Winiecki) معطيات دقيقة جداً في كتابه المعطيات الاقتصادية في الشرق والغرب (Economic Prospects, East and West) (في، لندن ١٩٨٧)، ويقول في كتابه ان الاساليب السوفياتية في الاقتصاديات تصرف ثلاث أو اربع اضعاف الطاقة المعتمدة في اسواق اوروبا الغربية لأنتاج وحدة انتاجية واحدة. والجدول التالي يوضح الصورة.

المجموعة السوفياتية	الطاقة لكل الف دولار من الناتج الاجمالي الوطني	الفولاذ المستهلك لكل الف دولار من الناتج الاجمالي الوطني
الاتحاد السوفياتي	١٤٩٠	١٣٥
بولندا	١٥١٥	١٣٥
المانيا الشرقية	١٣٥٦	٨٨
هنغاريا	١٠٥٨	٨٨
اوروبا الغربية		
فرنسا	٥٠٢	٤٢
المانيا الغربية	٥٦٥	٥٢
بريطانيا	٨٢٠	٣٨

ومن ناحية اخرى، فقد كان التراث الاقتصادي الستاليني غير المنطقي اكثر تدميراً في القطاع الزراعي. فبحلول اعوام السبعينيات، اجبرت عدم الفاعلية المستمرة والمزمنة للأسلوب التجمعي، وبالاضافة الى الظروف الجوية السيئة الموسمية، الزعماء السوفيات على تبذير الملايين من الدولارات بالعملة الصعبة لأستيراد الحبوب. وعلى هذا فقد شعرت الحكومة بانها مجبرة على دعم اسعار الغذاء، خشية ان تسبب الاسعار المرتفعة وتحرض الى شغب وعصيان مدني. ورغم ذلك، فقد كانت الاراضي التي أُجيزت للزراعة محددة في اربعة في المئة من الارض الخصبة، ورغم هذا فقد كانت هذه النسبة تنتج ما مقداره ٢٥ بالمئة من احتياجات الاتحاد السوفياتي للغذاء، وذلك بفضل المبادرات الشخصية الخاصة.

لقد كان للخسائر الاقتصادية الناتجة عن التخلف الصناعي والتكنولوجي المتراكم تأثير عكسي على قدرة الاتحاد السوفياتي في المساهمة في التجارة العالمية. فلقد اصبح الاتحاد السوفياتي مصدر متنامي للبضائع والمعادن، مثل

معظم دول العالم الثالث، ولكنه لم يستطع مجاراة ومنافسة المصدرين الرئيسين في العـالم للبضـائع المصنعة. وعلى حسب التقرير السنوي للأتفاقية العامة للتجارة والتعرفة (GATT) (General Agreement of Trade and Tarif) فقد انخفضت درجة الاتحاد السوفياتي من مستوى الحادي عشر عام ١٩٧٣، الى مستوى الخامس عشر في عام ١٩٨٥، في مجال تصدير البضائع المصنعة، فقد تفوقت عليه في هذه المدة من السنين كلٌ من تايوان، كوريا الجنوبية، هونغ كونغ وسويسرا.

وعلى العموم، وبعد حوالي اربعين سنة بعد الحرب العالمية الثانية، فلا يزال الاتحاد السوفياتي يعاني من تجزئة الحصص الغذائية، والنقص المستمر في المـواد الـرئيسية. وقد كان الوقوف في صف طويل لساعات عديدة، من الاعمال واستمر الادمان على الكحول في الانتشار والتوسع، وتدهور مستويات العناية الاستثنائية للمواطن السوفياتي المتوسط. وقد صرح في عام ١٩٨٧، وزير الصحـة السـوفياتي المعين حديثاً في ذلـك الـوقت ان نسبة مئوية كبيرة من المستشفيات السوفياتية لا يوجد بها ماء ساخن، ومرافقها الصحية غير ملائمة بتاتاً، وتفتقر الى المقومات الصحية الاساسية. فلا عجب اذن ان يتراجع متوسط العمر عند الذكور من ٦٦ عاماً الى ٦٢ عاماً، بالمقارنة مع ٧١,٥ عاماً في الولايات المتحدة، وان ترتفع نسبة وفيات الاطفال الى ضعفين ونصف عنها في الولايات المتحدة جاعلاً من الاتحاد السوفياتي ان ينخفض الى المركز الخمسين على المستوى العالمي. اما الذين استثنيوا من كل هذه المعاناة فقد كانوا نخبة الحزب الحاكم بالاضافة الى العسكريين الكبار والادارات العليا الفوقية. فقد تمتعت هذه المجموعة في مقولة اشتراكية الطبقة الواحدة، مستفيدة من متاجر خاصـة مغلقة لهم، ومراكز صحية ومستشفيات خاصة جيدة، ومراكز اجازات ترفيهية خاصة.

ولم يتصادم واقع اشتراكية الطبقة الواحدة، في مواجهة الاسطورة الرسمية للمسـاواة الاجتمـاعية فقط، ولكن ومع مرور الوقت احدثت امتعاض واستياء

اجتماعي متزايد ومتنامي. ولقد اظهر استفتاء شعبي معروف ونشر في جريدة اخبار موسكو (Moscownews) في الثالث من تموز عام ١٩٨٨، ان نصف الشعب السوفياتي تقريباً لم يكن يشعر ويحس بانهم يعيشون في «مجتمع ذي عدالة اشتراكية» ولقد كان اكبر واعظم الشكاوي موجهة ضد الامتيازات الخاصة للنخبة من الرسميين العليا. وتتضمن هذه الامتيازات: «رزم الاطعمة الفاخرة والبضائع من المتاجر والمحلات الخاصة الممتازة»، و«امكانية الحصول على اي نوع من الكتب، أو مقاعد في المسارح ودور السينما وغيرها مجاناً»، والشقق والدور السكنية في ارقى المناطق الاسكانية العالية؛ وايضاً «امكانية الحصول على دور سكنية ارضية في الريف». وايضاً فقد تزايد تعاظم الاستياء والامتعاض من واقع ان حياة الجماهير ومستواها لم تكن تتحسن بشكل مرضي وبخطوات كافية، بل لقد كانت تتدهور في بعض المجالات والامور المهمة الاخرى.

لقد كان ادراك ومعرفة الشعب السوفياتي وباعداد متزايدة الآن، وخصوصاً بين النخبة العاملة والمدربة، بان الظروف خارج الاتحاد السوفياتي حتى في اوروبا الشرقية الشيوعية افضل بكثير، تعقيداً للمشكلة. ولقد انتشر الادراك بالتخلف السوفياتي وتأثيره الموهن بشكل ملحوظ، خلال السبعينيات، بين المفكرين والعلماء. ولم يكن من الممكن الاستمرار في الادعاء والتظاهر، كما كان يحصل ايام حكم ستالين، بان الحياة في الاتحاد السوفياتي هي افضل من اي مكان آخر. ولقد صدق العديد من المواطنين السوفيات، والذين كانوا معزولين عن العالم، هذه الدعاية السوفياتية لمدة تصل حتى الى منتصف الستينيات.

ولقد شرح وفسر احد الاعضاء الرئيسين في المنشئة العلمية السوفياتية بدون تحيز وبصراحة الى جمهور هنغاري عبر اذاعة بودابست في السابع من تشرين ثاني عام ١٩٨٧، الثمن الفكري المدفوع للوصول الى هذه المرحلة قائلاً:

«انه من المؤكد ان تطور الوعي الوطني والقومي، وذلك اذا حصل تطور

ابداً في المجتمع السوفياتي، يتم بوسط ظروف غير عادية. اي ان هذا الوعي يتطور بنمط ذي جانب واحد، وكما يحدث للوعي التاريخي والاجتماعي. . ان المجتمع السوفياتي يعيش في حالة من الانعزال الفكري التطوعي (المريض)، اي ان هذا المجتمع لا يعرف شيئاً عن الغرب. . اننا لا نهتم ولا نقلق انفسنا بأشخاص مثل ماكس ويبر (Max Weber) أو دوركهيم (Dorkhem) ، أو فرويد (Frewd) أو توينبي (Toynbee) ، أو سبنكلر (Spengler) . انما هذه بالنسبة لنا اسماء فقط، وهذه الاسماء هي عوالم بحد ذاتها ولها انظمة خاصة بها. واذا فشل مجتمع ما في الاطلاع على هذه العوالم، فانه يسقط ويخرج من القرن العشرين بكل بساطة، ويجد هذا المجتمع نفسه خارج دائرة اعظم اكتشافات هذا القرن».

وكان مشهد الانعزال الذاتي ايديولجياً والنظام المركزي بيروقراطياً بالكاد يعطي مثلاً الى العالم اجمع لدينامية اقتصادية واجتماعية. فقد كانا نتاج مادة رئيسة واحدة يتطلب قراراً سياسياً من المكتب السياسي الحاكم، ولهذا ولحد الآن من خلال سبعين سنة مرت من الحكم السوفياتي لم يكن في المقدور انتاج مادة واحدة قادرة على منافسة اي مادة من نفس النوعية في السوق العالمي. لقد كان هذا تراث ستالين الذي اورثه، والذي خلده بريجينيف وادامه. فقد حددت دولـة البيروقـراطية، في هذا النظام الاقتصادي، اسعار وكمية ملايين المواد، وبينما كان المدراء يراقبون الانتاج دون وجود اي خافز للابداع. ومن ناحية اخرى، كان العمال ينتجون دون وجود أي حث أو تشجيع على زيادة الانتاج او تحسين النوعية وتجميلها. وبالاضافة الى كل هذا، فقد كان المدراء والعمال مشتركين في مصلحة واحدة ألا وهي تحريف التقارير المرسلة الى اعلى عن مدى فاعليتهم ودقتهم وانضباطهم. ولذلك، وباعتراف رسمي، فقد اصبحت احصائيات الدولة السوفياتية غير معتمدة بشكل متزايد، ولا يمكن ان تساعد في أي عمليات تخطيطية زمنية.

ولم يكن في الامكـان اخفـاء الحقيقة اكثر من ذلك، رغم كل التفاخر الرسمي: فقد كان الاقتصاد السوفياتي في ركود كمي ونوعي. فبدل ان يدخل

في سباق مع الولايات المتحدة، كان الاتحاد السوفياتي يقف، على حسب افصل تقدير، كأفضل دولة نامية من دول العالم النامي - وحتى في هذا المجال، فقد اصبحت مهددة بان تتفوق عليها بعض الدول الطموحة المبدعة في بعض المناطق الحساسة، من دول العالم النامي، وخاصة الصين. وقد كان هذا بدون شك، دلائل سخط وقلق للأعضاء الاكثر معرفة في النخبة السوفياتية الحاكمة. وحتى القيادة العسكرية السوفياتية، والتي كانت واعية ومدركة تماماً بان العتاد العسكري الحديث اصبح يعتمد بتزايد على التكيف على آخر الاختراعات التكنولوجية الحديثة، كانت قلقة بشكل خاص.

وبنظر بعض الاعضاء المتفتحين تاريخياً من النخبة السوفياتية، فان حالة الاتحاد السوفياتي المالية يجب ان تعيد الى اذهانهم بعض المناظرات المزعجة مع العقيدة السوفياتية في العقود الاخيرة مع القرن الماضي. فقد كانت روسيا اعظم قوة عسكرية في العالم عندما قامت بالدور الرئيسي عام ١٨١٥ في هزيمة نابليون ومع الكسندر الاول (Alexander 1) ملك تسار (Tsar) في الدخول الى باريس منتصراً. لقد نما الاقتصاد الروسي بتسارع كبير في العقود التي تلت هذه الاحداث، مع وجود الامل في التغير السياسي. ومع ذلك حصل الركود. وتراجع الناتج الاجمالي القومي لروسيا بين عام ١٨٧٠ وعام ١٨٩٠، وقد تفوقت بريطانيا العظمى والمانيا على روسيا في ذلك الوقت، واقتربت منها ايضاً فرنسا وامبراطورية هابسبرغ (Hapsburg Empire). واضافة الى ذلك، فقد ساهمت حربان مكلفتان وغير حاسمتين، هما حرب القرم (Crimean War) والحملة البلغارية والقوقازية - بالاضافة الى سحق الثورة البولندية، في التراجع القاسي في الموقف العالمي لروسيا. وقبل مضي وقت طويل، كان الاهتياج الثوري قد ظهر على السطح، عاكساً الاستياء السياسي والاجتماعي المتنامي.

وكل ذلك يسير في خطوط متوازية معاً. ففي عام ١٩٤٥ غزا ستالين مدينة برلين، وكان الجيش الاحمر اعظم قوة عسكرية في العالم في ذلك الوقت. وبحلول اعوام الستينات، اصبح الزعماء السوفيات مقتنعين بان الاتحاد

السوفياتي سوف يصبح في القريب القوة الاقتصادية الرئيسة في العالم. ومع ذلك، فقد ركد الاقتصاد السوفياتي في السبعينيات. وبحلول عام ١٩٩٠، سوف يتراجع الاتحاد السوفياتي الى الخلف كثيراً، ليس فقط خلف الولايات المتحدة، بل ايضاً خلف اوروبا الغربية واليابان. ولقد ساهمت حرب التسع سنوات في افغانستان، والشغب المتزايد في اوروبا الشرقية والتكاليف الباهظة للقوة العسكرية، في انتشار الشعور بالقلق والانزعاج في الداخل والى فقدان الهيبة في الخارج.

لقد كان اظهار الاثباتات والبراهين بان الاتحاد السوفياتي كان الخاسر في السباق الاقتصادي مع الولايات المتحدة سيئاً بكفاية، ومع ذلك لم تكن هذه كل القصة بل نصفها فقط. فلقد كان التصور المزعج والمثير، والذي اضاف الى سخط وتعقيد السوفيات الاستراتيجي والجغرافي، هو الذي وضعته اللجنة الامريكية في الاستراتيجية الموحدة والطويلة الامد، انه بحلول عام ٢٠١٠، سوف يكون موقع الاتحاد السوفياتي في الموقع الخامس في التسلسل الهرمي الاقتصادي. وسوف تستمر الولايات المتحدة في احتلال المركز الاول. وبعد ذلك تأتي اوروبا الغربية (ومن المحتمل ان لا تكون متحدة كلياً عسكرياً وسياسياً، ومن ثم الصين، ثم اليابان. وسوف يكون الاتحاد السوفياتي في آخر الصف - وسوف يكون ناتجه الاجمالي القومي اقل من نصف ناتج الولايات المتحدة.

وبالاضافة الى ذلك، سوف تكون علاقات الدول الاربع الاقوى افضل مع بعضها البعض ومن كونها مع الاتحاد السوفياتي. وفي هذه الحالة سوف يواجه الكرملين فكرة الحصار الجغرافي السياسي من دول معادية ممثلة واقوى اقتصادياً. ان المعاني التي تحتويها هذه الفكرة عقائدياً واستراتيجياً، سوف تكون مرعبة الى اي زعيم سوفياتي، وخصوصاً الى هؤلاء الذين يبنون قوتهم وسلطتهم على الادعاء بان العقيدة الشيوعية تحتوي على مفتاح الاوتوبيا المستقبلية.

الفصل الرابع

المفارقة في الاصلاح

لقد ظهر اخيراً وطفا على السطح الادراك بالحاجة الى التغيير، والاصلاح وابـداعات اكبر بعد موت بريجينيف عام ١٩٨٢ على شكل خطوات سياسية ملحوظة. ولكن بعد اهدار اكثر من جيلين من الزمان. ولقد اصبحت التركة الموروثة، والتي يجب تخطيها متراكمة وكثيفة، نتيجة لهذا الاهدار. وقد كان النظام السوفياتي الموجود ثمرة متحجرة وجامدة لثلاث مراحل تقويمية مترابطة ومتشابكة ومتداخلة:

١ ـ مرحلة حكم لينين وهي الحزب الدكتاتوري الذي يهدف الى بناء المجتمع.
٢ ـ مرحلة حكم ستالين، وهي الدولة الدكتاتورية والتي اخضعت المجتمع كاملاً.
٣ ـ مرحلة حكم بريجينيف، والتي سيطر فيها حزب دكتاتوري فاسد ومنهار على دولة الركود الشامل.

ولقد كان من الضروري مهاجمة كل هذه المنعطفات التاريخية الثلاث حتى يمكن اعادة بناء هذا النظام الموجود. ومع ذلك ففي هذا العمل مخاطرة تحول مؤسسـات السلطة الحسـاسة والرئيسة، واظهار ونمو مناهضة قطع واجزاء من الشعب السوفياتي المشبع عقلياً وفكرياً بالستالينية. ولهذا فيجب ان تكون اعادة البناء، وحتى تنجح، تدريجية. ويجب ان تتحرك مع كل منعطف ومرحلة بشكل منفصـل، معززة تقدمها، وحذرة من ان تعادي وتناهض كل المصالح الذاتية

والموضوعية المكتسبة مجتمعة.

لقد كانت تركة وتراث بريجينيف الاسهل للمهاجمة والنقد، وذلك بسبب الفساد الشخصي، والركود الاجتماعي، والتخلف الاقتصادي المريء بتزايد. ولكن تركة وتراث ستالين كان اكثر صعوبة للمهاجمة والانتقاد، وذلك بسبب المصالح البيروقراطية المكتسبة، والاخلاص المتبقي في داخل بعض المواطنين السوفيات من كبار السن. ولكن كان تراث وتركة لينين هي الاصعب للتحدي، وذلك يعود الى الذكريات العميقة للسياسة الاقتصادية الجديدة (New Economic Policy) أو باختصار (NEP)، بالاضافة الى التأكيد الذاتي للدور التاريخي الفريد لحزب الاشعار النخبة، والتي تمنح النخبة والصفوة الحاكمة شرعيتها التاريخية.

لقد بدأ الانقضاض الاساسي والرئيسي ولكن لفترة زمنية قصيرة، عندما استلم يوري اندروبوف، الذي استلم مقاليد الامور بعد بريجينيف مباشرة. لأن التحول ضد الركود المتحكم والفساد قد اصبح منتشراً جداً حتى ان الذين بقوا ملتزمين بالعهدين السابقين، اللينينية والستالينية، يستطيعون ان يتحدوا مع المصلحين والمناهضين لعهد بريجينيف في جبهة واحدة. ولكن لسوء حظ هؤلاء المصلحين، فقد انتهت فترة الاصلاح هذه بانتهاء عهد اندروبوف وذلك بموته المفاجىء عام ١٩٨٤. ولقد كسب هذا العهد المحتضر (مرحلة بريجينيف) فترة تأجيل اعدامه، عندما تولى قسطنطين شيرنينكو مقاليد الحكم، والذي كان بريجينيف يفضله في ان يتولى الحكم بعده عند موته. ولكن الضغوط المكبوتة والمطالبة بالتجديد، من القوة بحيث انه عند موت شيرنينكو عام ١٩٨٥، دفع الى السطح شخصية نشطة وقوية، والتي ظهرت في زمن اندروبوف القصير للأصلاحات المجهضة.

لقد تولى ميخائيل غورباتشيف السلطة مع تكليف غامض لتحريك النظام السوفياتي مرة ثانية. ولكن الشيء الاقل وضوحاً كان الى أي مدى يمكن ان تستمر هذه الحاجة الى الاصلاحات وماذا كانت تفيد وتخدم كمظهر ومثال

تاريخي. وبشكل حاص، هل يمكن التخلي عن الستالينية ايضاً؟ وتحت أي شعار أو اسم؟ واذا وجب احترام اللينينية كترياق للستالينية، ما هي الفكرة الرئيسية والمركزية التي يجب اثارتها من الاعمال اللينينية؟ هل هي السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP)، ام هل يجب ان يكون الحزب المنبعث العسكري والنشط عقائدياً؟ وهل يمكن، كأمر عملي وواقع، ان يُتخلى عن الستالينية، ليس فقط كواقع تاريخي، ولكن ايضاً كحقيقة حاضرة ومستمرة، دون الانقضاض، بأسلوب ما، على المعنى الاساسي والتراث الحقيقي للينينية؟

وبعد النظر عن كل ما سبق، فيجب التصريح علنا ـ وتعتبر هذه النقطة مهمة جداً ـ ان ظهور غورباتشيف لم يكن حدث استثنائي لأن صعوده الى السلطة كان تمثل واقعاً وحقيقة جديدة في الاتحاد السوفياتي، على المستويين الذاتي والموضوعي. . وبمعنى آخر، فان لم يكن هو، فسوف يظهر مصلح آخر سوفياتي على كل حال في منتصف الثمانينات. لأن الشعب السوفياتي اصبح في بداية الثمانينات، وبسبب الحرمان المادي والمعاناة الدكتاتورية، شعباً متعلماً، واصبحت المجموعات العليا متطلعة ومتفهمة للظروف في العالم الواسع، واصبحت اقل سذاجة بالنسبة الى الادعاءات الايدلوجية المخادعة والمضللة. ولقد ظهر ادراك عام للأزمة المتنامية، خصوصاً بين الاقتصاديين الكبار المحترفين، والمتخصصين في الشؤون العالمية، وزملائهم في بعض الاقسام الحزبية الشرقية العالمية (Nomenklatura)، والذي طالب بالأصلاحات، والتي بدورها يمكن ان تجيب على الاسئلة المذكورة سابقاً.

ان الحملة الاحتفالية لغورباتشيف للأنفتاح او جلاسنوست (Glasnost)، لم تعط ولا تستطيع ان تعطي دفعة واحدة اجوبة كاملة استراتيجية لهذه الاسئلة. لا بل ان هذه الحملة الانفتاحية تبدو انها تتقدم من خلال عدة مراحل تكتيكية. فعندما انطلقت في البداية عام ١٩٨٥، فقد كشفت سوء الاستعمال المستمر لبيروقراطية الدولة وهذا ضم ايضاً الشرطة غير القابلة للانتقاد حتى اليوم، واهدار، وسوء ادارة القسم الاقتصادي. وقبل مرور وقت طويل، فقد انتشر وتوسع

مجـال الانفتاح ليشمل البدايات لأعادة تقييم حساسة للماضي، ومركزه على بعض سوء الاستعمال المبرهن ذاتياً في عهد الستالينية. ولكنها لم تضم، على أي حال، انقضاض شامل على التراث النظامي لهذه الفترة الزمنية المظلمة. لأنه يمكن ان ينتج عن افكار احتمالية غير مستقرة لبناء النظام السياسي ككل.

ومـع ذلـك، فان هذا المجال الضيق لحملة الانفتاح قد اطلقت العنان للدوافع القوية للأصلاح داخل المراكز المدنية السوفياتية الرئيسة. ولقد منح هذا الامر غورباتشيف ومساعديه القدرة على توسيع مجال الحملة لتشمل، في عام ١٩٨٧، برنـاجـاً طمـوحاً متنامياً للتغيرات، مُركزاً اولاً على الادارة والتخطيط لأقتصـاد الـدولة. ولقد هدفت الحملة الى تفجير القوة الدافعة المنطلقة من الانفتاح، تحت شعار اعادة البناء («البيريسترويكا، Perestroika»)، لينشط وينظم ويبسط البيروقراطية الاقتصادية الراكدة، ويعيد الحياة الى النمو الاقتصادي. ولك من ناحية، تأثير فعلي ملحوظ على النظام السياسي، ودون فتح الابواب واسعة وبشكل عام للحرية الفكرية.

ولهذا فسوف يبقى السؤال الرئيسي دون جواب هو اين يمكن وضع حدٍ للأصلاح ومن المحتمل ان غورباتشيف نفسه لا يعرف الجواب الدقيق لهذا السؤال، وان كانت بعض تصريحاته قد المحت الى الرغبة في الذهاب بعيداً في هذا الامر. فقد كانت ملاحظاته غير الرسمية والعفوية الى العديد من الشعوب السـوفياتية تهـدف الى الوصول بعيداً في تطبيقاتها اكثر من الخطب الرسمية المـوجهة الى اعضاء الحزب الشيوعي الحاكم. ولقد دعا غورباتشيف، اثناء مخاطبته جمهور من زعماء الاعلام الشعبي وما يسمى الاتحادات الابداعية في منتصف تموز من عام ١٩٨٧، الى «ثقافة سياسية» سوفياتية جديدة، ولقد كان استعمال هاتين الكلمتين، والمستوحاتين من علم الاجتماع السياسي الغربي، لافتـاً للنـظر بشكـل واضـح. ولقـد اوضـح غوربـاتشيف اثناء مطالبته بازدياد الـديمقـراطية قائـلاً: «نحن الآن، وكما في السابق، ذاهبون داخل المدرسة الديمقراطية من جديد. اننا لا زلنا نتعلم. ولا تزال ثقافتنا السياسية غير ملائمة.

وان مستوى مناقشتنا غير ملائمة؛ وحتى قدرتنا على احترام آراء الآخرين ومنهم اصدقاؤنا او رفاقنا، غير ملائمة ايضاً».

لقد كان هدف غورباتشيف لصقل ثقافة سياسية جديدة من المحرمات الكبيرة، لأنه لم تكن «عدم الملائمة» التي رثاها من التراث اللينيني ـ الستاليني فقط. بل كانت متأصلة في التاريخ الروسي البعيد. فان المركيز استولف دي كوستين (Marqmis Astolophe De Custine) يقترح في كتابه «رسائل في روسيا» (Letters From Russia) عام ١٨٣٩ بعد زيارة طويلة لروسيا، بالتواصل، الضارب بين سياسات روسيا القرن التاسع عشر والاتحاد السوفياتي اليوم. ولقد اصطدم دي كوستين من بيروقراطية الدولة المتغلل والعام و«المبني اساساً على التفاصيل، والادارة، والفساد» والتي فيها «تسود السرية على أي شيء آخر». واضاف متهماً بان «المجال الوحيد الذي يظهر فيه الاستبداد والطغيان ابداع وتجديد فقط في الطرق والاساليب في تخليد وادامة السلطة» وان «اسوأ ما في الحكم المطلق هو ادعاؤه وزعمه بانه يعمل خيراً، لأن هذا الحكم عند ذلك يبرر اكثر الاعمال وحشية وفضاعة من خلال نواياه واهدافه، ولا يوجد لهذا الشر والذي ينظر اليه على انه علاج، محدود». ويمكن ان تنطبق تقييماته لكفاءة النظام على التجربة السوفياتية: «اني لا ادعي بان نظامهم السياسي لم ينشيء شيئاً جيداً، ولكن استطيع ان اؤكد ان الثمن كان غالياً جداً لهذه الانجازات».

لقد اصطدم دي كوستين ايضاً بالحذر الموضوع على حرية الفكر، وعلى سوء استعمال الدين في السلطة للتاريخ. ولقد لاحظ ان التاريخ هو فن «املاك القيصر» والذي «يقدم الحقائق التاريخية لكي يبقى ويعزز الخيال الروائي المسيطر في ذلك الوقت». ولقد كان اهم ما قاله معلقاً: «ان النظام السياسي في روسيا لا يستطيع احتمال عشرين سنة من الاتصال الحر مع اوروبا الغربية».

فلا عجب اذن ان يتطلب صقل ثقافة سياسية جديدة انقلاب سياسي رئيسي واساسي، وذلك بعد خمسين سنة من الستالينية المباشرة غير المباشرة، وايضاً

بعد سبعين سنة من حزب الهيمنة اللينينية. لقد المح غورباتشيف في محادثة خاصة في ايار عام ١٩٨٧ مع زعيم هنغاري حزبي كبير «والذي بدوره اخبر كتابه بذلك في اليوم التالي» قائلاً ان المجموع الكلي للتجربة السوفياتية منذ عام ١٩٢٩ كان خطأً. وبالفعل، ونسبة الى زعيم سوفياتي كبير، فان ثلاث ارباع التصرفات والاعمال السوفياتية كانت مخزية وضارة، ويجب اما ان يُتخلى عنها أو تصحح.

ومن المشكوك به جداً ان يوافق زملاء غورباتشيف في المكتب السياسي معه بشكل كامل. ومن المحتمل ان اكثرهم يشعرون بوضوح ان اللينينية لم تكن فقط اساس شرعيتهم، ولكن ايضاً التجربة الستالينية منحتهم القاعدة لسلطتهم. لقد كان الاصلاح الجزئي للنظام الستاليني، مقبولاً وحتى ينظر اليه على انه ضرورياً، ولكنهم كانوا يخشون من التخلي عن هذا النظام بشكل عام وكامل وسوف يهز استقرار كيان النظام السوفياتي ككل. ولهذا كان الحصول على الاجماع بالنسبة الى اصلاحات ضعيفاً. ولقد كانت مسألة كم من التراث الستاليني يبقى سالماً دون ان يخرب، بينما التقليد اللينيني الخبيث يبقى شيئاً مقدساً لا يمكن لمسه مثل بقرة مقدسة، شيئاً قابلاً للتمزقات.

وبالفعل، فقد كانت اللينينية هي الموضوع النهائي المطروح للمناقشة والجدال وليس الاصلاح بين الزعماء السوفيات الكبار، ولكن بشكل خفي. وعلى سبيل المثال، لقد حدث الكثير في الغرب بالنسبة الى المواجهة المزعومة بين المصلح، غورباتشيف وزملائه المحافظين المزعومين من جهة، وبين العضو المنافس والمضاد للأصلاح، يجور ليغاشيف (yegor Ligachev) ، والذي وحتى حلول عام ١٩٨٨ كان الرجل الثاني في المكتب السياسي وأيضاً سكرتير للحزب. ومع ذلك وبالرغم من الانفتاح، فلا يوجد شيء يمكن معرفته تقريباً عن المناظرات الداخلية بين القادة السوفيات الكبار حتى اليوم، ويظهر بوضوح ان ليغاشيف كان يتحدث نيابة عن الزعماء السوفيات والذين ليسو ضد الاصلاح، ولكنهم يفضلون ان يأخذ هذا الاصلاح مجراه على «الطريقة اللينينية»، اي

ابتداءً من فوق وبأسلوب منظم حتى لا يعرض للخطر تأثير السيطرة الحزبية على العملية.

ولقد اعطى الكسندر جلمان (Aleksandr Gelman) العضو الفاعل في مؤسسة السينمائيين، ومؤيد متحمس لغورباتشيف، افضل وصف ملخص للتفريق بين هذين الموضوعين، راسماً خطاً واضحاً بين «الدقرطه» و«اللبرلة». في كلماته القوية والمعبرة (والتي اشارت اليها صحيفة (Sovetskaia Kultusa) في التاسع من نسيان عام ١٩٨٨) «ان الدقرطه تساعد على توزيع السلطة، الحقوق، والحريات، وعلى انشاء عدد من الهياكل المستقلة للأدارة والاعلام. واما اللبرة (الليبرالية) فهي صيانة نظام المؤسسات والادارة، ولكن بشكل اكثر اعتدالاً ولطفاً ان اللبرره هي قبضة مفتوحة، ولكن تعود لنفس اليد، حيث انه يمكن اغلاق هذه القبضة في أي لحظة مرة اخرى لتصبح قبضة مغلقة. وتبقى اللبرره مذكره بالدقرطه ظاهرياً بعض المرات، ولكن فعلياً، فهي اغتصاب جوهري وشديد للسلطة».

وحتى بوجود المبالغة في هذا، فقد كان التناقض المطبق بين زعيم ديمقراطي وليبرالي محض، صميماً اساساً. ولكي ينجح في ترتيب التركة والتراث الستاليني، فان الاول يفضل فصل حاد مع الماضي، بينما الاخير يميل الى تثبيت عناصر الاستمرار والتواصل. ولهذا فان ليفاشيف الذي خرج عن طريقته في مقابلة احتفالية مع الصحيفة اليومية لوموند (Le Monde) في الرابع من كانون اول عام ١٩٨٧، مصرحاً ومؤكداً «اني اترأس اجتماعات سكرتارية اللجنة المركزية واني.. أنظم عملها» وان «غورباتشيف يترأس اجتماعات المكتب السياسي»، لم يخجل بان يقدم تقيمات اكثر ايجابية للماضي السوفياتي من التي قدمها غورباتشيف نفسه. وبينما كان دائماً يؤكد على الحاجة الى الاصلاح، ويوافق على برنامج اعادة البناء، فقد صرح ليفاشيف علناً انه حتى عهد بريجينيف يعتبره عهد انجازات مؤثرة. وبالنسبة له، وكما نشرتها البرافدا في ٢٧ آب ١٩٨٧: «انه وقت لا ينسى حيث يتمتع الانسان بحياته كاملةً.. وكان في

ذلك العهد قد بني الاعضاء الشيوعيون الحقوقيون تحت ظروف صعبة». واضاف موضحاً «لن نترك المسار اللينيني» والذي قرنه مع «السبعين عاماً من تاريخ السلطة السوفياتية المجيدة».

وبناء على ذلك فان الحصول على الاجماع بالنسبة الى الحاجة للأصلاح يمثل حل وسط بالنسبة الى الوقت الحاضر، ويخفي اختلاف وتعارض هام بالنسبة الى الماضي. ولهذه التسوية تأثير مضاعف. فمن جهة، سمح بالانتقادات للعهد الستاليني بان تظهر وان تنتشر. ولهذا فقد تشوهت التجربة والنموذج السوفياتي بتزايد في العالم اجمع. ومن جهة اخرى فان مجال الاصلاحات الاساسية قد قيدت بشدة، وذلك بادامة الصفة الدكتاتورية التقليدية لنظام، ليس فقط بالابقاء على النوعية اللينينية للحزب الدكتاتوري، مع الادعاء بتبصرها الفريد داخل قانون التاريخ، ولكن ايضاً على المؤسسات الرئيسة للدولة العملاقة الستالينية النوعية مع الاخضاع المدمر للمجتمع. وعلى هذا الاساس فقد دفع الاتحاد السوفياتي الثمن مضاعفاً. فلقد استمر في فقدان الجاذبية العقائدية الايدلوجية ولكنه لم يكسب الحرية المنتشرة محلياً لتعوض من خلال اصلاح جهازي شامل حقيقي.

لهذا فقد كان التأخر الجهازي الشامل، الذي اوجد الثغرة الواسعة خلف العالم الغربي اكثر الافكار احتمالية للأتحاد السوفياتي، رغم جهود غورباشيف وشعبيته العالمية. ولهذا فالمطلوب للأبتعاد عن هذه الفكرة المقيتة، ليس فقط ثورة في الثقافة السياسية، ولكن ايضاً التخلص ورفض حقيقي واساسي للمصدرين التؤامين للمأزق السوفياتي وهما الستالينية واللينينية. واذا لم تخرب الستالينية، وتحلل اللينينية بالكامل، فسوف تبقى الدولة السوفياتية هذا العملاق دون مضمون اجتماعي تشيدي ودون مثالية أو نظرة تاريخية. وعلى هذا الاساس ستبقى الدولة السوفياتية في مواجهة مع النزعة العالمية لتعزيز حقوق الفرد وسوف تستمر في افتقارها الى الشروط الضرورية المسبقة لأبداع اجتماعي وتكنولوجي اساسي.

ومع ذلك، فان افضل ما يمكن عمله من الواقع السياسي الفعلي، هو متابعة تعرية الستالينية وتحلل اللينينية فقط على مراحل، وخصوصاً في حالة التقليد اللينيني، وبحذر شديد. اما بالنسبة الى تعرية الستالينية، فان المطلوب قبل اي شيء آخر، هو التخلص من وتصفية كل بيروقراطية سلطة الدولة في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي مع بعض توزيع زراعي ملحوظ. وهذه مهمات هامة وبارزة، وذلك فان صفة التعددية القومية للدولة السوفياتية كانت تفرض تعقيداً خاصاً، لأن اي خروج حقيقي عن الستالينية كانت تظهر الى الوجود شبح الميل على التأكيد الذاتي لشعور القومي بين الشعوب غير الروسية مهددةً بذلك استمرارية حياة ووجود الاتحاد السوفياتي.

اما معالجة اللينينية فهي اكثر صعوبة. لأنه وقبل كل شيء، من الاسهل ان تبدأ الهجوم على التراث الستاليني من قاعدة لينينية معنوية. فقد كان التضرع الى «لنين الصالح» يزود الشرعية العقائدية لتشويه سمعة ستالين. وكلما ازدادت ادانة عهد ستالين، فتزداد اعطاء فترة لينين صفة المثالية. ولذلك ولأسباب تكتيكية سليمة، فيجب فصل الهجوم على الستالينية عن مراجعة أو تحليل التراث اللينيني. ولأن ذلك التراث يمنح نقطة انطلاق الاكثر ملائمة لتبرير الاصلاحات المضادة للستالينية، ولرد ومقاومة التهمة بان هذه الاعمال تمثل انحراف مذهبي للمعدلين والمنقحين العقائدين. ولقد كان تأثير ذلك، هو تقوية السيطرة اللينينية على السياسيين السوفيات.

ولهذا، فان اللينينية تبقى المركز بالنسبة الى شعور النخبة الحاكمة بالشرعية التاريخية، مبررةً ادعائها بالسلطة. واي رفض لذلك يكون مساوياً لعملية انتحار نفسية جماعية. وهكذا، وبعد عدة عقود لا تستطيع الصفوة الشيوعية ان تجد وتحدد نفسها كشكل روسي في ديمقراطية اجتماعية غربية، وهذا انعاش لنظرية منشفيكس (Mensheviks) (والذي قتله لينين). ولكن ذلك ليس بالمهمة السهلة، وذلك من خبرة وتجربة بعض الشيوعيين الاوروبيين الغربيين. فعلى سبيل المثال، فالشيوعيون الفرنسيون، وحتى يومنا هذا، والذين لدهيم الاهداف

والاسباب لعمل هذا، لم يتمكنوا من التأثير على هذا التغيير، ومع كونهم يعملون في بيئة تسود فيها التقاليد الديمقراطية.

ولذلك، فمن العدل ان يقال بان غورباتشيف ليس لديه الكثير من الخيارات في هذا الموضوع. فمع التخلي الجزئي عن الستالينية، فقد كانت اللينينية هي كل ما بقي من التجربة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي. واما رفض الستالينية واللينينية معاً، فهذا يعني التخلي الكامل عن العهد الشيوعي. ومن الصعب التوقع ان غورباتشيف يمكن ان يبني شرعيته على ما قبل التاريخ البلشفي، أو ان يصل الى ماضي ديمقراطي - اجتماعي. ولهذا، فليس لديه الخيار سوى التأكيد على ان اعادة البناء كانت قائمة ومتأصلة باللينينية، وتمثل الانعاش للينينية. ولكن من جهة اخرى، فبعمله هذا، فان غورباتشيف كان يمنح عزماً جديداً الى نزعة وميول النخبة الحاكمة باتجاه التبسط الكبير العظيم الموروث من الادعاء الشيوعي في الادراك الفريد للحقيقة وفي المطالبة الشيوعية لاحتكار السلطة الكاملة. وهذا بدوره كان اساس اللينينية، وهذا الاساس هو الذي جعل من الستالينية حتمية ومقدرة.

ولهذا فمن المحتمل ان العوائق السياسية لأعادة بناء حقيقة ليست فقط كبيرة، ولكن ايضاً لا يمكن اجتيازها. لأن الانفصال عن التراث اللينيني لا يتطلب شيئاً صغيراً وبسيطاً مثل اعادة تعريف اساسي للحزب الحاكم، ولدوره التاريخي، ولشرعيته. والواقع ان الانفصال الحقيقي يتطلب الانفساخ والتخلي عن المبدأ المركزي للتبسط الكبير، اي عن انه يمكن صقل النظام الاجتماعي الكامل بالأمر السياسي من خلال اخضاع المجتمع الى الدولة العليا والتي تتصرف كوكيلة عارفة بكل شيء للتاريخ. ويتطلب القبول بفكرة احتمالية التغيير الاجتماعي وغموضه وغالباً عفويته، مع النتيجة ان التعقيد الاجتماعي لا يمكن ان يناسب التقيد العقائدي.

وحتى يمكن احداث الفصل الحقيقي عن الماضي ولأطلاق العنان للأبداع

الاجتماعي، فانه سوف يكون من الواجب مواجهة التراث اللينيني عند نقطة ما. ولقد اراد بعض المؤيدين لغورباتشيف ان يصلوا الى هذا البعد. ففي مناخ مندفع ومتهور في منتصف عام ١٩٨٨ من الانفتاح، نشرت الصحيفة الشهرية الملتزمة نوفي مير (Novy Mir) في ايار، مقالاً والذي اتهم الكاتب ف. سليونين (V. Selyunin) علناً لينين بممارسة الضغوط الشعبية واعتبارها كحل للمشاكل السياسية اولاً، وبعد ذلك للمشاكل الاقتصادية. وايضاً فقد ذهبت صحيفة سوفياتية اخرى الى ابعد من ذلك، مؤكدة في نيسان عام ١٩٨٨ بان الذين قتلوا في ايام لينين اكثر من الذين قتلوا تحت حكم ستالين.

ولكن كانت هذه لا تزال افكاراً منعزلة وفردية. لأن الزعماء الكبار، ومنهم غورباشيف، قد ادركوا ان التخلي عن اللينينية بالكامل وعلناً يعني فقدان النظام السوفياتي نفسه لشرعيته ـ ولقد واجه المصلحون السوفيات، نتيجة لذلك حلقة تاريخية مفرغة: وذلك بانهم بالانقضاض على الستالينية من قاعدة احياء وانعاش اللينينية، يعيدون القوة ويمنحون الشرعية مرة ثانية، وبذلك يديمون القوة السياسية العقائدية، والتي بدورها اوجدت وقادت الى الستالينية.

ان المسار العملي والذي يمكن ان يسر فيه زعيم سوفياتي جريء يمكن ان يكون في اعادة تعريف معنى اللنينية، حتى تبدأ في تجميع الديمقراطية الاجتماعية اكثر من البلشفية. لقد كانت بعض تصريحات غورباشيف، والتي تربط لينين بالديمقراطية، تشير بانه يميل الى هذا الاتجاه، وكان بعض المؤيدين المتحمسين على ما يبدو، يمهدون الطريق له، بالنقاش والمجادلة العلنية بان المفهوم السوفياتي المعاصر للماركسية ـ اللينينية كان قد حُرف في عهد ستالين. وبهذه الكلمات يقول فيدور بورلتسكي (Fedor Burlatskiy4) في صحيفة (Litraturnais Gazeta) في العشرين من نيسان عام ١٩٨٨: «من المهم جداً دراسة افكار ستالين والتي بررت تشويه الاشتراكية. فلقد تسلمنا افكارنا عن الماركسية واللينينية للاشتراكية من ستالين نفسه. ولقد اعتمد نظام التعليم منذ بداية الثلاثينيات على عمل ستالين في «المشاكل اللينينية» (Problems Of Leniuism) والمدى القصير في

تاريخ اتحاد الحزب الشيوعي (البلشفية)6(The Short In The History of All - Union Comnust Party bolsheviks ، والذي كتبها وحررها بنفسه، كتاب «مشاكل اقتصاد الاشتراكية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي Economic Problems Of Socialsm In) (U.S.S.R . وبطريقة أو بأخرى، فان كل الكتب الحالية عن تاريخ الحزب، والاقتصاد السياسي، والشيوعية العلمية، والفلسفة بالاضافة الى معظم الدراسات النظرية في علوم المجتمع، ترجع الى هذه المصادر».

ولكن، ان اعـادة التخطيط التفكيري الاساسي، باعـادة وصف لينين كديمقراطي، اجتماعي، تحتوي على مخاطر واضحة لاحتكار الحزب لسلطة. ولهـذا فان مقاومة الطبقة الحزبية لأعادة التعريف والوصف هذه اكيده، من جذورهـا. وهـذا بدوره يعني ان الاتحاد السوفياتي سوف يبقى عرضة لحكم مؤسسة عقائدية ومقيدة اجتماعياً والتي تصر على احتكار السلطة السياسية في وقت اصبح فيه الابداع والتعددية معتمدة على بعضها البعض. وسوف يبقى الاتحاد السوفياتي تحت سيطرة حزب منبثق من الفكرة اللينينية للحقيقة المركزية اي انه الوحيد الذي فهم، وان لديه الحق والسلطة للضغط على المجتمع.

وفي الاساس، فانه يوجد مفارقة تاريخية عسيرة تواجه الزعامة السوفياتية: وهي إعادة كسب الهيبة العالمية للشيوعية، فان على الاتحاد السوفياتي ان يتخلى عن معظم ماضيه الشيوعي، بالشكلين المذهبي النظري والعملي. فلقد كانت التجربة الشيوعية في العشرينيات بالنسبة الى العالم اجمع المستقبل الواعد. وظهرت في الثلاثينيات وكأنها قد بدأت تبني هذا المستقبل. وبعد الحرب وحتى في خضم الستينيات بدت هذه الترجمة وكأنها امواج المستقبل القادم. ومع ذلك وبحلول سنين هذا القرن الاخيرة المتناقصة فقد بدأ الاتحاد السوفياتي غير جاذب عقائدياً ومثالاً على تطور اجتماعي واقتصادي جامد ومتوقف.

وعلى ذلك، وبنظر العالم اجمع، فان التجربة السوفياتية، والتي هي ايقونة ليس الا، لا تُطبق بل يجب تجنبهـا. ولهـذا فلم يعد لدى الشيوعية النموذج العملي للآخرين كي تُلقد.

الجزء الثاني

الانشقاق السوفياتي

«اعـادة البناء هي آخر فرصة لنا» قالها ميخائيل غورباتشيف متجهماً في الثامن من كانون ثاني عام ١٩٨٨ . واضاف «واذا توقفنا، سوف يكون هذا موتنا» . كلمـاتـه المحـرمـة هذه، والتي قيلت في اجتماع مع زعماء الاعلام الشعبي السوفياتي ، كانت قد نشرت باهتمام كبير وخطوط عريضة في صحيفة موسكو نيوز (Moscow News) ، وأشير اليها كثيراً داخل النخبة السوفياتية.

يا له من تناقض مع التفائل المتحمس لسابقه، نيكيتا خروشوف، الذي كان يوجـه خطابـاً عن موضـوع مستقبـل السـوفيات، قبل ثلاثين سنة. لقد سلط خروشوف الضوء مرة بعد اخرى على اشتراكية الاتحاد السوفياتي المنتصرة، وهو على حافة الدخول في عصر الشيوعية كأقوى سلطة اقتصادية في العالم: «ففي خلال فترة، على سبيل المثال، خمس سنوات بعد ١٩٦٥ ، يجب مساواة حجم الانتاج الامريكي وان نتخطاه. وعند ذلك، أو حتى في وقت اقرب، سيحتل الاتحـاد السـوفياتي المركز الاول في الكمية الانتاجية المطلقة، وفي الانتاج الرأسالي، والذي سؤمن اعلى مستوى معيشي في العالم». لقد كان هذا تفاخر خروشـوف في ١٤ تشـرين ثاني عام ١٩٥٨ الى الخـريجين من الاكـاديمية العسكرية السوفياتية.

وهذا لم يكن تفاخر تافه او خطأ منعزل. بل لقد كان يؤكد هذا الادعاء المتكلف باستمرار وسط اشارات عديدة الى «برنامج البناء الاقتصادي العظيم»

والـذي سيؤكد للاتحاد السوفياتي الزعامة العالمية في الاقتصاد في المستقبل القريب المنظور. ولقد حُول هذا التكهن بالفعل، وكما لوحظ في ما سبق، الى جزء من البرنامج الرسمي للحزب الشيوعي السوفياتي الذي قُرر في عام ١٩٦١، والذي كان يوعد ان الجيل السوفيات الحالي سوف يعيش فعلياً في مرحلة مكرسة للشيوعية الكاملة.

ولكن، وبعد ثلاثين سنة، سيطر القلق على وجهة نظر الامين العام السوفياتي وعلى مساعديه المباشرين. ولم يتمكنوا من التهرب عن الحقيقة المحزنة بان الفجوة مع المنافس الرأسمالي الرئيسي لم تتوسع فقط وذلك لغير صالح الاتحاد السوفياتي، بل ان قوة أخرى سوف تجتاز الاتحاد السوفياتي في العقدين والثلاثة القادمة. اما اليابان فقد فعلت ذلك الآن واجتازت الاتحاد السوفياتي. ولقد كان شيئاً سيئاً بالفعل بالنسبة الى الهيبة العالمية للاتحاد السوفياتي ان يعرف العالم كله عن تفويتها هذا. فلا عجب اذن ان يستدعي غورباشيف شبح موت الشيوعية في محاولة لحث النخبة السوفياتية لتجديد يائس لنظامهم.

وعلى عكس الفكر المنتشر في الغرب ان المكتب السياسي كان منقسم بين «المصلحين» لصالح التغيير، و«الرجعيين» المشدودين الى الامر الواقع، فقد قبل اكثر الزعماء السوفيات الكبار، بحلول منتصف الثمانينات، الحاجة الى التجديد ـ لأعادة بناء النظام السوفياتي ـ كضرورة ماسة. ولكن كانت المعارضة الرئيسة مركزة اكثر بين الجباة والامناء العامين المحليين المتمسكين بطبقتهم المتميزة، ومقتصرين الى النظرة الثاقبة الواسعة وحتى العالمية التى يتحلى بها رجال الكرملين. ولقد تركزت المناقشات في القمة على كيفية انجاز الاصلاح، وكيفية تعريف وتحديد مجاله، ومقدار الحشد للأشتراك الشعبي المباشر في هذه العملية من خلال حملات صحفية مدروسة. ولقد فضل بعض الزعماء السوفيات علناً عملية مداره بمدار اكثر، اي السيطرة من القمة الى اسفل، والتي من خلالها

يبقى مراقبة تجديد المجتمع الاقتصادي في قبضة الحزب الحاكم. ولكنهم وافقوا ايضاً على وجود ضرورة لتغيرات حادة متطرفة لتجنب تراجع مدمر للأمكانيات السوفياتية. وباستعمال المصطلحات المستعملة في الفصل السابق، فقد كان هؤلاء الاشخاص «ليبراليين» وليسوا «ديمقراطيين».

ولقد دفع غورباتشيف عن طريقة مختلفة، وذلك بتوجيه شعبي ورأسي لطريق الاصلاح، وعمل ذلك بشكل مدروس يتوخى ان يحرك الضغوط الاجتماعية من الاسفل بذاتها. ولقد كان ذلك مغزى فني لحملة الانفتاح، والتي اثارت جدالاً واسعاً وغير قليل بين الامة كاملة عن الحاضر السوفياتي وماضيه. ولقد تعرضت امور عديدة الى التجديف بينما كانت شيئاً مقدساً، وذلك خلال عملية النقاش الشعبي، والامور التي كانت تخفى، انكشفت علناً؛ والذي كان يبدو اجماعاً للوطن تبعثر؛ ولقد تعرض مستقبل النظام في نظر بعضهم للشك ايضاً. ولقد بدأ العديد من المشاركين في هذا النقاش، والذي بلغ ذروته في المؤتمر الخاص التاسع عشر للحزب في حزيران عام ١٩٨٨، في استعمال اسلوب في الحديث كان في سنوات قليلة ماضية يُدان على انه تعديل فساد، واهانة عقائدية ذو خطورة كبيرة في حزب حاكم سيطر خلال حياته كلها ذو معتقد قويم وصلب. ولقد انقسم الاجماع الظاهر للوطن الى ارباً نتيجة للحقد الشعبي على العديد من المسائل التي كانت مخفية والتي هددت مجتمعة بالوصول والارتفاع الى مواجهة سياسية. ونتيجة لذلك فقد اصبح الاتحاد السوفياتي الدكتاتوري انشقاق سوفياتي سريع الزوال.

الفصل الخامس

الرؤيا والتعديليه

لم يظهـر شيء اكثر مأساوياً في هذا الواقع النشط الجديد من الحقيقة المجفلة بتحول الزعيم السوفياتي الجديد، ميخائيل غورباتشيف، اثناء عمله بشكـل ما الى التعديليه. ففي مدار ثلاث سنوات، تغيرت نبرته واسلوبه من المدافع عن الاصلاح الجديد القوي للاقتصاد الى مذيع وناشر لتعديلات اساسية اكثر، ليس فقط في البناء الاقتصادي، ولكن في أُسس النظام العقائدية، وفي نطاق اضيق، في العمليات السياسية. ولقد كان هذا التحول دليل وشهادة على ادراكه المتنامي لعمق الازمة السوفياتية بجرئته الفكرية. ولكن من جهة اخرى، فقـد انـذر هذا التحول الى احتمالية مواجهة سياسية حقيقية مؤجلة، ومسببة للخلاف على ادارة الحزب الشيوعي لمستقبل الاتحاد السوفياتي. ولقد طرح أيضاً امكانية انزلاق التحكم الاحتكاري على المجتمع من قبضة الحزب في يوم ما.

وقد كان للفكرة التعديلية تاريخ طويل ومؤلم في الحركة الماركسية اللينينية السوفياتية. لقد حصلت هذه الكلمة على معنى ازدرائي في المعجم السياسي السوفياتي. ولقد طُبق هذا الوصف أو الكلمة خلال السنوات الماضية على الذين زُعم انهم انحرفوا عن أُسس مذهب الحزب، باتجاه ملحوظ لديمقراطية اجتماعية خبيثـة والتي كرهها لينين بشدة وعمل ستالين الكثير كي يقتلعها. ولقد اظهر التراث اللينيني عداء خاصاً باتجاه الافكار الديمقراطية الاجتماعية، مع تأكيدها على الديمقراطية الحقيقية، والانفتاح، والمشاركة الشعبية في صنع القرار، مع

احتمـالية مخـالفة لوجهات النظر، وحتى المنافسة الرسمية في السلطة داخل الحركة الديمقراطية الاجتماعية نفسها. ولقد رفض لينين هذه الافكار بالادعاء انها ميول «اقطاعية صغيرة» (Petly bourgios) ، والتي ليس لديها اي شيء مشترك مع حاجة الطبقة العمالية الى حزب ثوريين محترفين منظم. ولقد اصبح هذا الحزب، بعد عام ١٩١٧ ليس فقط محترفين ولكن الحكام الدائمين لتلك الطبقة العمالية.

ولقد غُذي النضال ضد الديمقراطية الاجتماعية الذي دعا اليها منشيفيكس (Mensheviks) ببلشفية لينين، ولقـد صُفي هذا الاخير جسدياً فوراً بعد استيلاء البلشفيين على السلطة. ولقـد واصـل ستالين النضال، واصفاً بعض منافسيه الـرئيسين على السلطة بالمعـدلين الـديمقراطيين الاجتماعيين، ومستغلاً هذا الحرمان المذهبي لتبرير تصفيتهم الجسدية. ولقد وصم ستالين، بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد اتساع النفوذ السوفياتي الى اوروبا الشرقية، الديمقراطية الاجتماعية بانها ليس اكثر من اداة طوعية للامبريالية الغربية ولقد جعلها هدفاً لأنتقامه الخاص. وبالفعل فقد كان يُنظر الى ما تبقى من تحدي الديمقراطية الاجتمــاعية داخـل التـاريخ الســوفياتي بخـطورة خاصـة، وليس فقط بسبب المخلفـات الماركسية المشتركة جزئياً والتي هدفت تضامنياً الى تحويل عدم الاتفـاق الى هرطقـة، ولكن ايضـاً بسبب ادراك الـزعماء السوفياتي ان لوحة الديمقراطية الاجتماعية تحدثت بلغة واستعملت رمزية ذي جاذبية كبيرة كامنة الى الجماهير المذعنة تحت المراقبة والتحكم السياسي الشيوعي.

لقـد كان العداء السوفياتي شديداً بشكل خاص ضد اي اظهار او ابداء للتعـديلية داخـل زعمـاء الاحزاب الشيوعية الحاكمة. ولقد وصف الارتداد، اليوغـوسـلافي، وخصـوصـاً تجـربة تيتو مع الاشكال المختلفة من المجالس العمـالية، كأظهار تعديلي معادٍ وغريب عن الروح الماركسية ـ اللينينية. لقد دفعت تلك الادانة في اواخر الاربعينيات وبداية الخمسينيات بعدد من المحاكم المسرحية في اوروبا الغربية، مع تجميع الضحايا معاً بشكل ثابت على انهم

معدلين، خونه، وجواسيس وعملاء لغرب.

وفيما بعد، وبعد الثورة الوطنية المناهضة للستالينية عام ١٩٥٦ في بولندا وهنغاريا، فقد وجهت موسكو تهمة التعديلية ضد ايمرناجي (Ymre Nagy)، الزعيم الهنغاري الذي اعدم عام ١٩٥٨ لمحاولته انشاء وخلق هنغاريا ديمقراطية اجتماعية محايدة اساسية، وبعد ذلك ضد الزعيم الشيوعي البولندي ذا الميول الوطنية فلاديلسو جوملكا (Wladyslaw Gomulka). ولقد نظر الكرملين الى هذا الاخير بنظرة شكوك خاصة، بسبب انه كان مستعداً للتسوية مع الفلاحين لتعزيز وتقوية نظام شيوعي بولندي اكثر استقلالية، وذلك بابطال والغاء نظام التجميع المكروه، وبالتعاون مع الكنيسة الكاثوليكية، للتخفيف من سيطرة الحزب على التعليم المذهبي والعقائدي. ومع ان الكرملين كان قد توصل الى تفاهم مع جوملكا شخصياً، وقدم لنظامه دعماً حاقداً، فقد استمر بمراقبة التطورات الداخلية في بولندا باهتمام بالغ. ولقد شنت الصحف السوفياتية في خلال اواخر الخمسينيات حملة صحفية ضد كل مظاهر التعديلية في بولندا، معتبرة ذلك ميلاد ثاني اساسي وخطر للديمقراطية الاجتماعية البغيضة.

ولقد وصل الهاجس السوفياتي بالنسبة الى التعديليه الى ذروته خلال ربيع براغ (Prague Spring) في عام ١٩٦٨. فلقد استنكرت الزعامة السوفياتية بقوة، الافكار التي دافعت عنها زعامة الشيوعية التشيكيه الجديدة، وخصوصاً الامين العام الاول الكسندر دوبتشك (Alexandre Dubcek) والتي عُبر عنها في «برنامج عمل» الحزب التاريخي والهام. ولقد ادانت موسكو دعوة هذا البرنامج الى دقرطة الحياة السياسية التشيكيه، ولعدم مركزية الاقتصاد، والانفتاح العقائدي، بالاضافة الى كشف وفضح جرائم الستالينية، واعتبرتها تعديلية يمينية الجناح، فاتحة الطريق «الى العودة الى الرأسمالية والانفكاك من حلف وارسو». ولقد ادى ذلك الى تحرك وتدخل بريجينيف العسكري وطرد دوبتشك ومساعديه من السلطة.

لقد كانت التطابقات بين بعض افكار غورباتشيف في اواخر الثمانينات وبين تلك التي دافع عنها التعديليون والمدانه بشدة من الذي سبقه في الكرملين، ملفتة للنظر. وللتأكد من ذلك، فانها لم تظهر كلها دفعة واحدة. فلقد ركز غرباتشيف على تفسير وتحديث الاقتصاد السوفياتي حالما استلم السلطة وعندما اشترك هو وزملائه في المكتب السياسي في الادراك بان ميعاد تلك الاصلاحات في النظام السوفياتي قد حان منذ وقت طويل. لقد وجه غورباتشيف حركة تأييد الجماهيرية الى التخلص من مشاكل الاهدار والتسيب، مثل ضعف الادارة، مراقبة النوعية غير الملائمة، فقدان نظام العمل، الادمان على الكحول، والقذارة العامة، وذلك اما لكونه حذر، أو من المحتمل انه اعتقد بامكانية رفع الكفائة والتطبيق الاقتصادي الى درجة اعلى، وذلك بتحسين وتطوير الادارة الاقتصادية والتخطيط. ويمكن الشعور هنا لأي شخص بان غورباتشيف قد اتخذ من المانيا الشرقية النموذج للأتحاد السوفياتي، بمقدرتها وانضباطها، ونظامها الشيوعي المتقدم تكنولوجياً.

لقد ادرك غورباتشيف بسرعة، وذلك بسبب غمه وكدره، بان الروس ليسو مثل اهل بروسيا، وان رؤيته للأتحاد السوفياتي على انه يشبه المانيا الشرقية كنص مكتوب لم تكن لتستمر. فلقد كا عليه ان يواجه الواقع بان المشاكل التي يجابهها كانت عميقة جداً ثقافياً، ومتجذرة جداً نظامياً. ولقد قادت عملية ادراك وتعليم غورباتشيف التي تركزت في خلال سنتين قصيرتين، الى الادراك بان اي اصلاح مؤثر وفاعل في الاتحاد السوفياتي يتطلب تغيرات بعيدة المدى في النظر الشعبية العامة ـ اي الثقافة السياسية للمجتمع ـ وايضاً في صفة وتصرفات النظام السياسي نفسه.

لقد جاءت نقطة التحول في تموز عام ١٩٨٨ اثناء مؤتمر الحزب الخاص التاسع عشر. فلقد رفع غورباتشيف في كلمة الافتتاح اهمية الاصلاح السياسي فوق اعادة البناء الاقتصادي، قائلاً: «اننا نواجه العديد من الاسئلة المعقدة.

ولكن اي من هذه الاسئلة هو الحاسم والمهم؟ ان ما تراه [اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي] هو اصلاح النظام السياسي». لأن «نجاح» الاصلاحات الاقتصادية تأتي فقط بعد الاصلاحات السياسية، اي ان الاتحاد السوفياتي يمكن ان يتوق ويطمح حقيقة الى مستوى حياة مساوية لمجتمعات العالم الاكثر تقدماً، والى مستوى تكنولوجي جيد وكافي لكي يعطي الاتحاد السوفياتي القدرة على منافسة الغرب سياسياً وعسكرياً، والى مساواة في المعيشة والتي يمكن ان تبرر الادعاءات العقائدية التي وصفت خلال عدة سنين بتكلف وعظمة بالنيابة عن «الاشتراكية» السوفياتية. وساد شعور بان غورباتشيف كان ينظر الى هنغاريه في منتصف الثمانينات للألهام.

لقد توصل غورباتشيف الى فكرة، وذلك بتحويل التشدد من الاقتصاديات الى السياسات، بان الاصلاح الشامل من فوق ـ اعادة البناء ـ يجب ان يدعم وان يُقاد ايضاً باطلاق ضغط اجتماعي متعمد من الاسفل ـ الانفتاح المشهور. وهذا بدوره كان يعني الحث على الدقرطة بشكل واسع في النظام السوفياتي بشكل عام. ومن المهم ان يُلاحظ ان الابتعاد عن التشدد التقليدي في التحكم الكلي من فوق، كان الانفتاح والدقرطة ستعودان اعادة البناء الى الامام، مغيراً ومحولاً في هذا العملية طبيعة النظام الاساسي نفسها. وكما قال في خطابه في مؤتمر الحزب الخاص، مقرعاً وموبخاً الذين كانوا ينتظرون الاصلاح من القمة الى اسفل، ومشجعاً الذين كانوا يتوخون الضغط من اسفل الى اعلى: «لقد قالت الجماهير وكتبت باماكن مختلفة ان تصل اليهم، ويتساءلون متى ستصل اليهم؟ ولكن اعادة البناء هذه ليست المن النازل من السماء ـ فبدلاً من الانتظار حتى تخطر من مكان ما، يجب على الشعب ان يحضرها بنفسه الى مدنه وقراه، وتجمع العمل». وبكلمات اخرى، فقد كان الحاجة ليس فقط الى اللبرلة بل ايضاً الى الدقرطة لدفع عجلة الاصلاح.

لقد شعر غورباتشيف، بعمله هذا، بانه كان لينيني حقيقي، محولاً حزبه الى الاسس المذهبية الحقيقية، ومحرره من التقاليد الستالينية المؤذية والخبيثة.

ولكن كان ادراكه المتزايد بان لا شيء اقل من ذلك يمكن عمله قد قاده بالظاهر الى تمصل واذاعة ونشر تلك الطريق الاكثر طموحاً والنشطه اجتماعياً والشاملة. ويجب ان يكون قد شعر بان الاعتماد المستمر والمتواصل على العقيدة اللينينية التقليدية والتي تقول ان التحكم من فوق يجب ان ينتج التغيير الاجتماعي في الاسفل، سيحكمه بالهزيمه امام تركيبات السلطة والامتيازات الستالينية والتي لا تزال مرنة. ولقد قاده هذا الى السير في الطريق التي يمكن وصفه في المفهوم السوفياتي القويم على انه تعديلي.

ومن الجـدير بالذكر ان نغمة التعديليه المتعالية كانت تلاحظ في كلامه الشعبي العام العفوي اكثر من وجودها في خطاباته الرسمية، والتي كان المكتب السياسي على ما يبدو يوافق عليها بالاجماع. وهذا يمنح مشاعر غورباتشيف الشخصية في هذا الموضوع الحل المنير. على اي حال لقد كانت الافكار التي جاء غورباتشيف ليؤكد عليها عفوياً ورسمياً في بعض وجهات النظر الحساسة مذكرة بتلك التي كان يؤكد عليها دوبتشك في السنوات السابقة، بغض النظر ودون ذكر تعديلات جوملكا وتيتو المذهبية الاكثر حذراً. ولقد جاءت وجهات النظر هذه لكي يُعبر بيأس في مجاراتها الصعبة للتفائل المكتسب رسمياً بالنسبة الى انتصار الاشتراكية المحتوم. ولقد تحدث غورباتشيف في مناسبات عديدة باساليب ورموز غامضة تقريباً. فلقد حذر لجنته المركزية في ١٨ شباط ١٩٨٨ قائلاً: «ان اهم شيء ايها الرفاق هو الدقرطة... ان الحزب يستطيع ان يؤكد زعامته ودوره الطليعي والهام الجماهير، في المرحلة الجديدة من اعادة البناء، باستعمال الاساليب الديمقراطية... وبدون مبالغة، ان كل شيء يعتمد عليها اليوم».

لقد اصبحت كلمة عجلة كلازمة متكررة مراراً. لقد كان غورباتشيف يعيد ويذكر الحضور والجماهير مرة تلو مرة بان الوقت كان ينفذ، وان التغيير يجب ان يحدث الآن، ويجب ان يكون شاملاً. ولقد دعا الجماهير في الشارع في لينينغراد في تشرين اول ١٩٨٧ قائلاً: «انه منذ سنين حينما اجتمعنا وتحدثنا

وتناقشنا وفكرنا في كيفية ايجاد الجواب والحل الصحيح لتلك المشاكل التي فرضتها الحياة نفسها. ماذا يجب ان يعمل؟ الآن سوف ننهي هذا المسار. ان المجتمع كله الآن يجب ان يتغير على هذه المبادىء: الديمقراطية، في المسيرة الاقتصادية، وفي كل المجال المعنوي لحياة مجتمعنا. كل شيء يجب ان يتغير!» ولقد اشتكى الى لجنته المركزية قائلاً: «انه يمكن مصادفة ومقابلة رد فعل، سالب ورفض للمبادرة. واكثر من ذلك ففي حالات عديدة لم يقدم اي مجهود لفهم ما يقترح، وتلتمس ذرائع وحجج لأهمال وتوبيخ كتاب لمبادرة بتعمد. وهذه لا تزال افكار منتشرة». ولقد حذر بنفاذ صبر قائلاً «نحن لا نستطيع ان نحتمل هذه الحالة اكثر من ذلك. وبخلاف ذلك فان اعادة البناء ستفشل».

وفي لينينغراد مرة اخرى، هذه المدينة ذات الصفة البلشفية الخاصة، دعا غورباتشيف الى دعم شعبي للمرحلة السياسية الثانية، والاكثر طموحاً لاعادة البناء، والتي تضم وتشرك الدقرطة المؤسساتية. ولقد قال للحضور عنده ان «مرحلة ثانية ضرورية، وحاسمة، حتى لا نفرق فعلياً، ونغوص في الكلمات والقرارات. هذه هي الحالة وهكذا كانت في الماضي، ايها الرفاق. ان هذا لدرس، ودرس قاس من الماضي. لقد بدأنا بالكثير وبدأنا بالصواب، ولكن بعد ذلك انهارت. واذا انهارت الآن، فسوف تكون الخسائر في الوطن كبيرة ورهيبة. يجب ان لا نسمح بذلك ولن نسمح، واني متأكد من ذلك. هذا هو طبع الشعب واخلاقه. اننا لا نلعب في اعادة البناء. لأن مصير الوطن وحياة الشعب موجودة خلف اعادة البناء».

ولكن الاستقبال لما سبق كان متفاوتاً ومختلطاً. فقد تعادل وتكافأ حماس مؤيدوه في المؤسسات العديدة مع مخابرات موسكو مع البرود الملحوظ بين البيروقراطيين والمتحكمين. لقد كان على غورباتشيف ان يشير الى ظاهرة الشكوك المنتشرة بين الطبقة المدافعة عن الحزب، وان يهاجم رأساً الجدالات التقليدية للنخبة قائلاً: «لنأمل ان لا تقودنا الديمراطية الى الفراغ المشوش» ولقد قاوم المنتقدين مع الزعم والادعاء بان مسؤولي الحزب يعبرون عن هذه المخاوف

قائلاً: «انهم قلقون على مصالحهم الانانية الخاصة».

ولقد كان على غورباتشيف ان يقر ويعترف بوضوح اكثر، وكما ورد في البرافدا في شباط عام ١٩٨٨ بان نقاشه للانتقادات بان برنامجه كان يحض ويحث على تهم لخطيئة قاتلة ومميتة، وليس اقل من التعديلية يذيعها الامين العام للحزب نفسه! ولقد اظهر دفاعه بان هذه لم تكن تهم بسيطة وصغيرة: «بأمكاننا ان نرى ان بعض الناس مشوشون، ومتساءلون اذا انزلقنا الى الخلف عن مواقع الاشتراكية.. أو اننا لا نعدل تعليم الماركسية اللينينية نفسها. فلا عجب اذن ان المدافعين عن الماركسية ـ اللينينية قد ظهروا مع الداعين للاشتراكية، والذين يعتقدون ان كلاً من الماركسية ـ اللينينية والاشتراكية هما تحت التهديد والخطر. (يضاف التشديد).

لقد ازداد التخوف الواضح من الديمقراطية بين البيروقراطيين في الحزب بانتشار الشكوك بان غورباتشيف كان يحث ويثير المشاعر ضد البيروقراطية بين الجماهير، اثناء حملته لكسب الدعم العام لأعادة البناء الواسعة. وقد كان هذا صحيحاً الى حد ما. لأنه لم يكن لدى الزعيم السوفياتي الخيار، لكي يتخطى المقاومة للتغيير، سوى بان يحاول ويناقش ان القصور المؤساتي الذاتي وعدم الرغبة في التجربة كانت تعوق وتعترض عملية اعادة البناء. ولقد كان على غورباتشيف بان يستشهد بالشعارات الشعبية، وذلك حتى يذيع وينشر ميزان الدقرطة الحقيقية، مؤكداً على الحاجة بان ينهض الشعب بمسؤوليته وذلك لصالحه الخاص، وان يصبح مشاركاً فاعلاً واكثر نشاطاً في حياة الوطن السياسية والاجتماعية. ولقد اظهر هذا كله شخص الامين العام كمهيج ومثير للجماهير ضد اعضاء وكوادر حزبه نفسه.

ولقد اظهر غورباتشيف حساسية باتجاه هذه المخاوف، وهكذا يؤكد وجودها ايضاً. فلقد خرج، في مناسبات عديده عن اسلوبه ليحاول ان يطمئن وان يزيل شبح الرعب لشيء يشبه الرؤيا السوفياتية للثورة الثقافية الصينية بابادات اعضاء

وكوادر الحزب بتحريض من الزعيم الاعلى نفسه. فعلى سبيل المثال، فقد قال في ١٣ تشرين اول عام ١٩٨٧ : «ان عملية اعادة البناء وتطوير الاشتراكية تحتاج الى موهبة، والى اعضاء وكوادر بمعنويات عالية، والتي أُخذت تماماً من فكرة التجديد الثوري للمجتمع والتي هي قريبة من الشعب... وعندما اضع هذه الاشياء بهذه الطريقة، فلا اريد ان تفُهم كدعوة لأطلاق النار على الموظفين - كما كانت الحالة ذات مرة خلال سنوات الثورة الثقافية في الصين» (يضاف التشديد). وفي مناسبة اخرى، فقد اضاف غورباتشيف بسرعة، عندما تحدث عن الحاجة الى تغيير المسؤولين غير الهامين قائلاً: «ان هذا الاسلوب لا يعني ابداً التصرف بعدم احترام باتجاه الاعضاء والكوادر، لان كوادرنا وخبراتنا اشخاص موهوبون ويجب ان يُبجلوا». ومع تلك الطمأنينات، فان الذي يجب ملاحظته ان غورباتشيف كان يرافق مدحه لكوادر الحزب مع التذكيرات بانهم يمكن الاستغناء عنهم اذا كانوا غير راغبين في التغيير والاستمرا مع روح الزمن الجديد. ففي كل مناسبة تقريباً، كان يربط الثناء للدور الفريد والخاص «للكوارد اللينينية» بتحذيرات بان السلبية وفقدان التجديد لن تحتمل. وقد قال في احدى تعليقاته العفوية لجمهور في الشارع: «يوجد اشخاص في وطننا عليهم اما ان يبدلوا تصرفهم باتجاه الامور والشعب، واما عليهم ان يتنحوا جانباً لأفساح المجال لآخرين».

وبينما كان غورباتشيف يلتمس ان يخفي نفسه بحجاب اللينينية، فقد كان فعلياً يراهن بموقع كان يهدف الى اثارة المشاكل للتقليديين. فبالكاد كانت دعواته للنقاش العام يمكن ان تطمئن الطبقة الحزبية، المشبعة بالفكرة اللينينية بان الحزب هو الحارس الوحيد للمذهب الحقيقي الصحيح. فلقد كانت مكتسباته المعضلة والمعقدة متزعزة، مع كونها تعديلية مذهبية اقل وضوحاً. اما كتابه «اعادة البناء» (Peres Toika) وهو خلاصة وافية حضره على ما يبدو مؤيدوه الشبيهون له في التفكير، ولكن يضم ايضاً بالظاهر مادة حظر وضعها غورباتشيف نفسه، فانه يزود اتهام ليس بالقليل للواقع السوفياتي الحاضر والماضي. ومع

ان غورباتشيف كان حذراً في التأكيد على مستوى العقيدة اللينينية، فبالغالب كان وضعه مذكراً لمناقشات حصلت في السابق للعديد من الزعماء الاوروبيين الشوعيين الشرقيين ومنظرين والذين ادانهم الكرملين على انهم تعديليين.

من المحتمل جداً ان الزعماء السوفيات الاكثر تقليدية كانوا قد انزعجوا من بعض التوافق بين كتاب غورباتشيف، و«برنامج -العمل» لدوبتشك التشيكي، المنشور عام ١٩٦٨. وللتأكد من ذلك، فقد حفظ الزعيم السوفياتي على الجوانب العقائدية بالاستمرار بالتأكيد بان نواياه كانت بالتحول الى المبادىء اللينينية الصحيحة، وانه لم يكن مستعداً بأي حال عن تحليل وتخفيف دور الحزب القيادي او المبدأ المتصل به لمركزية الديمقراطية. ولقد كانت الاختلافات بين برامج غورباتشيف ودوبتشك قد ظهرت بشكل خاص عندما بدأت بتعريف ماذا كانت الديمقراطية تعني في التطبيق العملي: فقد كان دوبتشك مستعداً بان يقبل بصندوق الاقتراع اما رؤية غورباتشيف لذلك فكانت بالاساس تقود الى صندوق اقتراحات. وقد كانت ديمقراطية دوبتشك تطلب بكسر الاحتكار الشيوعي للسلطة السياسية، بينما نادى غورباتشيف لحزب اكثر استجابة لرغبات الشعب. ومع ذلك فقد ادان الكتابان الممارسات الستالينية الاخيرة، والافضليات الاقتصادية، ومنها التشدد الزائد على التطور المكثف. ولقد استنكر الركود الاجتماعي الناتج عن ذلك، والانهيار المعنوي. ولقد دعى الكتابان الى التجديد الاجتماعي من خلال ديمقراطية اوسع ونقاش اكثر انفتاحاً.

لقد كان غورباتشيف يتحدى فعلياً، ودون ان يقال ذلك مباشرة، ومشابهاً للتعديليين الشرقيين، الفكر الاساسية لعصمة الحزب المذهبية. ولقد اصطدمت فكرة ان السياسات الصحيحة يجب ان تنبثق من المناقشة والممارسة، وانفتاح المناقشة لمشاركة اوسع واكثر من اعضاء الحزب فقط، مباشرة بالادعاء ان المذهب، وكما هو محدد ومعرف من الاعلى، بانه المرشد المبدئي والاساسي للعمل. لقد هددت فكرة الديمقراطية اداة السلطة اللينينية ـ الماركسية، تماماً

مثل الديمقراطية الغربية، مع كونها قد جاءت ناقصة عنها كخيار سياسي حقيقي. وبمعنى آخر، فلم يكن غورباتشيف يصادق بأي حال على، أو يميل الى تبني الاسلوب الغربي في الديمقراطية. ولكن لقد اصبحت الهاوية الفاصلة للواقع السوفياتي عن مثل تلك الديمقراطية واسعة جداً، بحيث ان خطوات خجولة باتجاه هذه الاخيرة ـ وهي اكثر خجلاً بكثير من الخطوات التي دافع عنها التعديليون الاوروبيون الشرقيون سابقاً ـ كانت تمثل انحرافاً رئيساً عن الممارسات السوفياتية القائمة.

ولقد اصاب تحويل غورباتشيف التقدمي الى التعديلية ايضاً العديد من الامور الاخرى تُعتبر تقليدية بالنسبة الى المذهب السوفياتي القائم. لقد كان راغباً في مهاجمة فكر المساواتية المقدسة، وذلك من اجل رفع الكفاءة الانتاجية. وكما قال بفظاظة الى لجنة الحزب المركزية في شباط عام ١٩٨٨: «اساساً ان مساواة الاجوار له تأثير مدمر، ليس فقط على الاقتصاد ولكن على معنويات الشعب وعلى طريقة تفكيرهم وادائهم وعملهم الكلي. فانه يضعف هيبة صاحب الضمير الحي، والعامل الخلاق المجدد، ويضعف الانضباط، ويدمر الاهتمام بتحسين المهارة، بالاضافة الى كونه مؤذٍ وضار الى روح المنافسة في العمل. ويجب ان نقول بكل صراحة ان مساواة الاجور هي انعاكس لاداء البرجوازية الصغيرة والتي ليس لديها أي شيء مشترك مع الماركسية ـ اللينينية أو الاشتراكية العلمية». وبالفعل فقد كان غورباتشيف يقول ان فرق الاجور ابتداء من ذلك الوقت المبنية على الانتاجية كانت لتكون التعبير الصحيح للنوعية الاساسية، وهذا المبدأ كان سيصادق عليه العديد من الصناعيين الامريكيين قبل انشاء الاتحادات العمالية بشغف.

واخيراً وليس آخراً، لقد فرض ربطه المباشر للاصلاحات الاقتصادية المؤسساتية من فوق مع الدقرطة السياسية المحركة للضغوطات الاجتماعية من الاسفل خطراً لا مفر منه بتحلل احتكار الحزب على ادارة التغيير الاجتماعي.

لقد فتحت الجهود لخلق ثقافة سياسية جديدة في الاتحاد السوفياتي، والتي من خلالها يمكن للشعب ان يساعد الحزب بان يحكم بفعالية اكثر، الابواب بأقل قدر للمناقشة العامة ـ وكما ظهر في المناقشات المتلفزة في مؤتمر الحزب الخاص في تموز عام ١٩٨٨ ـ وهذا لا يطابق ابداً مع طبائع الحياة العامة السوفياتية القائمة وحتى مع بعض مظاهر المعارضة السياسية الظاهرة، وبالطبع مع الاضطراب الاجتماعي غير المتوقع. وباستعمال المصطلحات الماركسية، فقد كان هذا كله تعديلية موضوعية.

الفصل السادس

الامور النشطة العشرة للأنشقاق

انه من غير المحتمل ان يكون غورباتشيف قد قرأ ابداً كتاب ماركيز دي كوستين المتفهم جداً «رسائل من روسيا» (Letters from Russia) واصفاً زيارة الى هذا البلد عام ١٨٣٩ ، اي قبل قرن ونصف من الآن. ولو انه فعل، لكان تأمل جيداً في فطنة ووضوح هذا الجرل الفرنسي الحاد عندما لاحظ دي كوستين انه «عندما تحصـل الامة الروسية على حرية الكلام، فان المرء سوف يسمع الكثير من المناقشات والصراعات حتى ان العالم المذهل سوف يعتقد بان زمن برج بابل قد عاد».

وبالفعل، لقد كان الاتحاد السوفياتي في اواخر الثمانينات على وشك ان يشابه هذا الرجل الاسطوري، فلقد بدأت مناقشات واسعة وحتى اساسية ومتفجرة على كل موضوع رئيسي تقريباً، وفي العديد من اجزاء الوطن. لقد حصلت بعض هذه المناقشات في الاعلام الجماهيري المراقب؛ والبعض الآخر في المنظمات المنشقة الشبه سرية والتي ظهرت حديثاً، ولا تزال محدودة جداً؛ ويجري بعض آخر من هذه المناقشات واقعياً في الشوارع، من خلال انتقادات عامة نشطة أو حتى مظاهرات اجتماعية صاخبة.

لقـد تضمن مجال وجوهر المناقشات السوفياتية الداخلية والتي اطلق لها العنان في البحث عن «اعادة النباء» عشرة مسائل رئيسة ومتشابكة. لقد كانت هذه المسائل العشرة مجتمعة الكسر الديناميكي لمظهر وحدة السوفيات المقامة

منذ زمن طويل. وكانت كل واحدة من هذه المواضيع الرئيسة تحت النقاش تميل الى التداخل مع بعضها البعض، وهكذا يتوسع المجال وتتكشف قوة ونشاط الصـراعـات بين المجمـوعـات السياسية والاجتمـاعية المرتبكة في المجتمع السوفياتي. ولقد تضمنت العشرة مجالات في النقاش العام مايلي:

١ ـ الاصلاح الاقتصادي.

٢ ـ الافضليات الاجتماعية.

٣ ـ الدقرطة السياسية.

٤ ـ دور الحزب.

٥ ـ العقيدة، الدين، والثقافة.

٦ ـ تاريخ (الستالينية).

٧ ـ المشاكل القومية الداخلية.

٨ ـ القلق المحلي من الحرب في افغانستان.

٩ ـ السياسة الخارجية والدفاعية.

١٠ ـ الكتلة السوفياتية والحركة الشيوعية العالمية.

الاصلاح الاقتصادي: رغم ان اكثر الاعمال الملموسة في تطبيق اعادة البناء كانت قد حصلت في المجـال الاقتصـادي، فلقد زادت هذه الجهود بالواقع وكثفت النقـاش حول مستقبل الوطن الاقتصادي. ولقد ظهرت مسائل جديدة وتفتحت جروح قديمة في هذه المجالات المتوسعة.

لقد تم تحويل ٦٠ بالمئة تقريباً من المشاريع الصناعية السوفياتية بحلول كانون ثاني عام ١٩٨٨ الى النظام الجديد في تعزيز المسؤولية في وضع خططهم الانتاجية الخاصة، وفي اختيار الممولين، وايضاً والى حد ما وضع اسعارهم الخاصة مستبقين بعضاً من ارباحهم. ولقد أجيزت الجمعيات التعاونية الصغيرة، وخصوصاً في مجال الخدمات، وبحلول منتصف عام ١٩٨٨ كان الموجود من هذه الجمعيات يقدر بثلاثة عشرة الف، مستخدمة ثلاثمائة الف شخص. ولقد

أجيزت ايضاً تجمعات المزارعين، بترك الارض لأستثمار الافراد وذلك لتعزيز ودعم تمويل الانتاج الزراعي الى المدن. ولقد كان لدى غورباتشيف خطط اكثر طموحاً في العمل لأصلاحات انشائية اكثر، وللتخلص من البيروقراطية الزائدة، والـوظائف غير المفيدة، ولقد قدر الاقتصادي المفضل لدى غورباتشيف ابل اجلبجيان (Abel Aganbegian) هذه الوظائف بحوالي ستين مليون وظيفة.

لقد كانت الخطوات المطبقة في مراحل مركزية الاقتصاد السوفياتي، على افضل تقدير بداية متواضعة. فلقد ترك غورباتشيف، في الوقت الحالي على الاقل، نظام التجمع الزراعي، وهو المجال الاكثر جهلاً في اقتصاد الاتحاد السوفياتي الذي لم يلمس بعد. وهذا بحد ذاته اتجه الى اعاقة امكانيات الوطن الاقتصـادية. وبـالاضـافة الى ذلك فقد ادت الاصلاحات الاولية بالواقع الى الاضطراب والتشويش، وامثلة ذلك هو الشراء المسبق خوفاً من ارتفاع الاسعار، كما نشرتها البرافدا في تشرين اول عام ١٩٨٧، لائمة بذلك «الراغبين المرضى عقائدياً» للأصلاح لأثارتهم المتعمدة للقلق العام. ولقد اشترك شبح البطالة في نمو الشعور بعدم الراحة، بينما حرك الغاء المركزية المفاجىء بجهاز التجارة الخـارجية الارتبـاك، وذلك بتذمر رجال الاعمال من التخبط الناتج في صنع القرار. ولقد تباطأ الاقتصاد ثانية، وذلك بعد نشاط مفاجىء في النمو الاقتصادي تبع دعوات غورباتشيف الاولية للاصلاح، وتراجع النمو في العمل الانتاجي في عام ١٩٨٧ و١٩٨٨.

ولقد خاطب الاقتصادي السوفياتي المشهور ل. اي ابالكين (L.I. Abalkin) ورئيس مؤسسـة العلوم والاقتصـاديات الاكـاديمية في الاتحاد السوفياتي، في كلمات صريحة مؤتمر الحزب الخاص في ٣٠ حزيران عام ١٩٨٨ قائلاً: «من المهم جداً ان نوضح بتأكيد بانه لم يحصل اي اختراق او تقدم جذري في الاقتصاد، وانه لم يرتفع عن حالة الركود. ولقد كان نمو الدخل القومي خلال السنتين الماضيتين متباطىء بمعدل اكثر من سنوات الركود [في عهد بريجينيف]».

لقد سار القلق الواضح من المعطيات غير المؤكدة للاصلاح بتوازي مع النقاش المتوسع لأتجاه هذا الاصلاح ومجاله. ولقد كان الاقتصاديون الاكاديميون والباحثون، المؤيدون لغورباتشيف يجادلون بانه يجب ان تتبع الخطوات الاولية تفكيك وتجريد شامل حقيقي لأجهزة التخطيط المركزية والتى، كما يقولون، كانت تهيمن على مهمة الاهداف التنسيقية السنوية لأكثر من اربعة وعشرين مليون مادة انتاجية. ولقد جادلوا قائلين بانه يجب ان يبدل التخطيط المركزي بتقنية تسويقية حديثة والتي فرضت الرغبة في قبول واقع وحقيقة البطالة بنسبة وان تواجه مباشرة الفشل المطبق للتجمع الزراعي المستحث عقائدياً. ولقد وصف ذلك احد مستشاري غورباتشيف الاقتصاديين نقولاي شميليوف (Nikolai Shmelyov) في صحيفة نوفي مير (Novy Mire) في حزيران ١٩٨٧ قائلاً: «لقد اعلنا مرة شعار «تصفية المزراعين الاغنياء» (Kulak) ولكن بالواقع فقد انتهينا الى قلع وخلع الفلاح.. لقد وجب علينا ان ندعو الاشياء بأسمائها الصحيحة: اي الغباء هو الغباء، العجز هو العجز، والستالينية في العمل هي الستالينية في العمل.. من المحتمل ان نفقد بتوليتنا العقائدية، ولكنها موجودة الآن في آخر الاسطر من المقالات المنشور في الصحف فقط. كما انه يوجد لصوصية وابتزاز تحت هذه البتولية اكثر من اي وقت مضى».

ومع ذلك فليس غريباً أن لا يشارك مدراء واداري البيروقراطية القائمة في هذا الحماس للأصلاحات. ولقد حذر بعضهم علناً في البرافدا في ١٦ تشرين ثاني ١٩٨٧، ان مثل هذه التغييرات كانت ستحث الى «الاباحية» والفوضى السياسية، والتخبط» وقد رفضوا مثل هذا «اللعب في الديمقراطية». ولكونهم غير معتادين على المسؤولية الفردية، فلقد فضلوا آمن نظام تركيزي عالي، مع مكافأة متوقعة لأداء ثابت ولكن متوسط وعادي. ولقد كانت البيروقراطية السوفياتية الضخمة ممتعضة بدون شك من تأكيدات مؤيدي غورباتشيف بانها كانت منتفخة وتحتاج الى تصغير كبير. ولقد كتبت اذفستيا بخبث في ٢ تشرين ثاني ١٩٨٧ قائلة: «ان جهاز الادارة الموجود عندنا ضخم بالفعل لأنه يضم حوالي ١٨ مليون

انسان! . . . وهذا يعد ١٥ بالمئة من مصادر العمالة في الوطن. ويوجد ممثل اداري لكل ستة او سبعة موظفين».

لقد لاحظ غورباتشيف في مؤتمر الحزب الخاص في حزيران من عام ١٩٨٨ معارضة البيروقراطيين لأصلاحاته الاقتصادية قائلاً: «اننا سائرون في محاولات غير مقنعة ومكشوفة بافساد اساس الاصلاح، وذلك بتعبئة الاشكال الاداري الجديدة بمضامين قديمة. وفي مرات عديدة متلاحقة، فان الوزارات والدوائر تبتعد عن نص وروح القانون في المشاريع، وباعتراف العديد من الاقتصاديين، ذلك ينتج ان هذا المشاريع لا تنفذ كاملاً». ولقد لاحظ ايضاً ان من خلال اوامر الدولة فان هذه المشاريع كانت مجبرة الى انتاج بضائع غير مرغوبة «وذلك لسبب بسيط هو انهم يريدون ان يحرزوا اهداف شهرة «النتاج الاجمالي».» وهذا تخريب لاصلاحاته والتي ادانها غورباتشيف كونها «نهاية مغلقة وقاتلة».

ولذلك، تبقى الاسئلة الصعبة تطرح نفسها في مفكرة المستقبل وهي اذا يجب وكيف يمكن تفكيك وازالة مزارع الدولة التجمعية، وكيفية التغلب على مشاكل البطالة البنية الاساسية الممزقة، وكيفية تخطي معارضة البيروقراطية المؤسساتية لأي الغاء للمركزية البعيدة المدى. ولقد فرض كل واحد من هذه الاسئلة معاضل اقتصادية محتضرة حقيقية، وكانت خطورتها مركبة من حساسيتها العقائدية. ويكمن في القاعدة الاساسية مشكلة عملية اكثر صعوبة وهي كيفية تبديل النظام القائم لأسعار اصطناعية وتعسفية، مبنية على اساليب احصاية تقليدية غير معتمدة بتقنية تسويقية منظمة ذاتياً. ولقد كانت هذه الامور معقدة بحد ذاتها مع كونها ايضاً مسببة للخلاف والشقاق سياسياً وعقائدياً. ولم يكن هناك اي حل على المدى المنظور.

الافضليات الاجتماعية: لقد قاد النقاش حول مستقبل الوطن الاقتصادي تلازماً الى التصادم والتعارض حول الافضليات الاجتماعية. ولقد كانت

الصناعة، لسنوات عديدة، الطفل المفضل والمدلل للنظام السوفياتي. ولقد كان انتاج الصناعة الثقيلة هو المؤشر الرأسي لبناء الاشتراكية. ولقد تبرر الطوق من خلال الحرمان الاجتماعي على انه التضحية الضرورية لاحراز الشيوعية الكاملة. ولقد أتخذ الحصار الرأسمالي للاتحاد السوفياتي كذريعة للتعهد الضخم بالمصادر الوطنية ـ على اقل تقدير ٢٠ بالمئة من مجمل الناتج القومي خلال كل فترة ما بعد الحرب ـ لبناء قواتها المسلحة ولقذف السلطة السوفياتية الى خارج حدود الاتحاد السوفياتي.

ولقد ادت مناقشة الاقتصاد بشكل طبيعي الى السؤال بوجوب تغيير الافضليات السوفياتية. وبالاضافة الى ذلك، لقد كان لدى العديد من اعضاء المجتمع السوفياتي، بحلول منتصف الثمانينات، معرفة دقيقة ومعقولة لظروف الحياة في الغرب لكي تسمح للحزب الحاكم في الاستمرار في الادعاء بان الحياة في الاتحاد السوفياتي كانت بالاساس افضل من اي مكان آخر. ولقد وجب وضع تشديدات اكثر على التطور السريع في مستوى الحياة في الاتحاد السوفياتي، ومن ثم على الاستهلاك بدلاً من على الاستثمارات في الصناعة الثقيلة او حتى على الابداع التكنولوجي. ولقد اذعن حتى المسؤولون الكبار علناً في صحيفة ترود (Ttud) في ١٣ اذار عام ١٩٨٨ بان «الطلب على السلع الرئيسة يرتفع بسرعة، ونحن غير قادرين على تلبيتها الآن»، مع وجود مشكلة دقيقة من واقع ان «حوالي ١٥ بالمئة من السلع الرئيسة.. لا تدوم كي تباع بسبب نوعيتها الرديئة».

لقد كانت الزعامة السوفياتية مقيدة بهذا الموضوع. لأنه لا يمكن تجاهل الطلبات الشعبية لاطول من ذلك. ومع ذلك فان الزعماء السوفيات خشيوا بالظاهر من ان يفرض تحول الافضلية الاستثمارية الى الطلبات الرئيسة مخاطر ان يبتعد الاتحاد السوفياتي الى مسافة ابعد خلف الولايات المتحدة، واوروبا الغربية واليابان في النمو الاقتصادي ككل، مع عواقب عقائدية عالمية وخطرة للكرملين. لقد كان المفضل لدى موسكو هو في الحصول على اعتمادات

غربية، وذلـك لتمـويل اكتسـاب التكنـولـوجية الغـربية، وايضـاً للتحسن في الاستهلاك، بينما تُركز المصادر المحلية على الافضليات الهابطة بعض الشيء ولـكـن لا تزال مركــزية تقـليدية. ولـكن وحتى يمكن الحصــول على تلك الاعتمـادات، فالمـطلوب ليس فقط التسوية في السياسات الخارجية، ولكن ستكـون التعديلات في الممارسات الاقتصادية المحلية بالنسبة الى المجازفة الخـارجية، والملكية الخـارجية، واعـادة الارباح الرأسمالية، ضرورية. ولقد اظهرت هذه الامور قلقاً مذهبياً، لأن اي خطوة في هذا الاتجاه كان يتخذها الاوروبيون الشرقيون في الماضي كانتُ موسكو تدينها على انها تعديلية متهمة الى «اعادة الرأسمالية».

لقد تواكب واقعان اضافيان الى المأزق المذهبي. وكان الاول في ظهور المتطلبات داخل الاتحاد السوفياتي لمساواة حقيقة في توزيع الخدمات والغاء الامتيازات المكتسبة القائمة. ولقد ادى ذلك الى مشاحنات علنية منشورة داخل لجنة الحزب في موسكو حول النظام الحالي للأمتيازات الخاصة لنخبة الحزب، ابتـداءً من المخازن الخاصة المغلقة، مارة بالمنتجعات الخاصة للأجازات، الـوجبـات الخـاصة المجانية، والمدارس المتغيرة، والعربات بسائق خاص، البيوت الريفية الخاصة، والمستشفيات الخاصة. لقد كان اعفاء بوريس يلتين (Boris yeltsin) من منصبه كأمين عام اول للحزب في موسكو بحلول عام ١٩٨٧ والتـوقف السياسي المفاجيء للذي كان تحت حماية غورباتشيف في يوم ما كأجراء واسع ناتج عن غضب اعضاء الحزب لكونه قد تجرأ واظهر علناً امكانية الغاء مثل هذه الامتيازات باسم المساواة الاجتماعية.

اما الواقع فقد كان بانتشار الاعتراف بالحاجة الملحة لحق المبادرة وانتاجية اكبر. فالبرغم من سلسلة الخطوات المتواضعة المتخذة في تقديم وتعريف بعض حق لمبادرة خاصة في مجال الخدمة، فلقد ظهرت مباشرة تهم حاسدة ضد استفتاء ذاتي مفرط. ولقد تذمر أحد الكتّاب بمرارة في البرافدا في ٧ اذار ١٩٨٨

قائلاً: «لم يتخيل احد انه يمكن ظهور الرجال المليونيرين في مجتمعنا هذا الذي ينشيء ويبني الشيوعية. . . فلقد نجح بعض الافراد بجمع ثروات ضخمة طائلة، ويعيشون برغد من العيش وبحبوحة». وبالفعل فان المنطقة التي يبدو فيها ان تعليم الجماهير المذهبي العقائدي الطويل يحقق بعض النجاح، كان في انتشار المساواة الاجتماعية ـ بنتيجة ان ذلك يعوق الجهود الآن لمكافأة المبادرة الفردية الضرورية لنجاح عملية اعادة البناء.

ولهذا فلا يمكن ان تحدد المناقشات الظاهرة حول السياسات الاقتصادية والافضليات الاجتماعية في محيط الاقتصاد والمجتمع فقط. فلقد اثبتت هذه المناقشات بالنهاية اسئلة سياسية اساسية بالنسبة الى الدور الصحيح الملائم للدولة في الامور الاقتصادية والاجتماعية. ولقد كانت هذه الامور مرتبطة مباشرة بتعاظم وانتشار المناقشة في الاتحاد السوفياتي حول الاشكال المطلوبة والمرغوبة للهيكل السياسي نفسه.

الدقرطة السياسية: لا يمكن احراز وكسب نظام اكثر تنظيماً ذاتياً واقل تمركزية اقتصادية والذي يمكن ان يوجد تشديدات اكبر لأنجاح طموحات المجتمع المادية ولا مجتمع مصبوغ ومشرب اكثر بالقيم الابداعية حيث كان ذلك النظام الذي اوجد في عملية تأكيد لتنظيم اجتماعي صارم كامل، غير متجانس مع التغيرات المتوقعة والمأمولة، ومع الطموحات المتنامية لاصلاحات شاملة وبعيدة المدى بشكل لم يسبق له مثيل في المجالات الاقتصادية والاجتماعية. ولهذا السبب كان على مؤتمر الحزب الخاص في منتصف عام ١٩٨٨ ان يعترف بالحاجة المتفوقة للاصلاح السياسي.

ولذلك فقد كانت هناك اسئلة اثناء النقاش السياسي الناتج، وهي ماذا كان غورباتشيف يعني عندما احدث كلمة الديمقراطية والى اي مدى يمكن لعملية الدقرطة ان تحتمل عفوية وتلقائية سياسية حقيقية من الاسفل. وهل يمكن فعلاً ان تكون الدقرطة حقيقية واساسية اذا حددت بالمبادرات الممنوحة بلطف من

فوق فقط، مهما كانوا بالواقع كرماء سياسياً؟ اذن لقد تعلق الامران الاسياسيان في المحادثات السياسية الطافية على السطح باشكال ومجال الاصلاح المؤسساتي المقدم من الزعامة السياسية القائمة الى الدرجة التي يمكن معها إحياء حتى الظواهر المتواضعة لحياة سياسية مستقلة (والتي صيرها ستالين منقرضة) ان تكون محتملة.

ولقد انعكست تلك الافكار الديمقراطية حقيقية اكثر والتي بدأت تتسطر داخل المجتمع السوفياتي في بعض رسائل القراء المنشورة في الصحف السوفياتية. فلقد نشرت ازفتيسا مثلاً في ٨ ايار ١٩٨٨ شكاوي ضد عمل البرلمان السوفياتي الاسمي اي السوفيات الاعلى عن «ظاهرة الاجماع في الاصوات تقريباً، الامر غير المعروف في بلدان اخرى»، وعن واقع ان «اللجان الدستورية قد اصبحت لجان موافقة القانون التي توافق ببساطة على كل شيء حسبما يتلقوا من تعليمات». ولقد انتقد قراء آخرون الاسلوب الميكانيكي وغير التمثيلي الذي تتبعه بتعمد مؤسسات الحزب.

ولقد اوجدت هذه الامور معاضل مؤلمة للنخبة الحاكمة، المضادة منذ زمن بعيد على تأكيد التحكم الكامل على حياة الوطن السياسية. وحتى الدقرطة المحددة من فوق كانت تعني مسلمات وامتيازات كرهتها هذه النخبة المشبعة والمنغموسة بافكار الخدمة الذاتية الماركسية اللينينية، اي انها كانت المرجع والمخزن للحقيقة التاريخية وحدها، ولهذا فهي المصدر الوحيد للحكمة. ومع ذلك فقد كان على النتائج الواقعية للأنفتاح ان تقلل من المراقبة السياسية على الاعلام الشعبي وعلى الناتج الادبي، وبهذا تنفتح البوابات للتعددية العقائدية. ولقد كان التشدد على الشرعية قد حدت وقيدت من السلطات التعسفية المخابرات السوفياتة (KGB)، والذي بدوره قد قلل من التخويف والترهيب السياسي. ولقد قلص الحديث حول حرية شعبية اكثر في عملية تسمية وانتخاب المرشحين للحكومة المحلية بالاضافة الى امكانية السماح بالمنافسات

الانتخابية، ضمنياً المراقبة السياسية التي كانت تمارسها اللجان الحزبية المحلية والاقليمية.

فلا عجب اذن ان الذين لهم مصالح مكتسبة في استمرار الامر الواقع هذا قد وجدوا هذه الاقتراحات كريهة ومقيتة جداً. ولقد عبرت صحيفة البرافدا، وهي صحيفة الحزب الرسمية، عن آراء العديد من الطبقة الحزبية عندما اتخذت موقفاً عدائياً من هؤلاء الذين يطمحون ان «يحرموا اعضاء الحزب من الاشتراك في انتخابات القادة والزعماء»، وقد ادانت هؤلاء المقترحين دون ان تسميهم، الدعاة والمبشرين للديمقراطية على انهم «قوة جوهرية عمياء». ولقد ذكرت قراءها مؤكدة ان الحزب يبقى «الحزب الحاكم»، ويجب ان يستمر في ممارسة المراقبة المباشرة على عملية الاختيار للذين يمكن ان يشتركوا في الحكومة المحلية او الوطنية.

ومن المحتمل ان رئيس الكي جي بي (KGB) في ذلك الوقت، فيكتور شبكريكوف (Viktor M. Chebrikov) ، وهو نفسه عضو في المكتب السياسي ولذلك يبدو انه مشارك مباشر في المناقشات العالية المستوى حول المجال المسموح به للدقرطة، كان قد انزعج من الرواية الصحفية المتكررة والمتزايدة حول اللاشرعية والفساد داخل جهاز الامن العام، وهذا كله قد احدثه وسببه الانفتاح الاكبر. ولقد طرد من الخدمة ما لا يقل عن اربعين الف مسؤول أمن بين عام ١٩٨٥ وعام ١٩٨٧ وذلك لأعمال غير قانونية مختلفة منها تلفيق التهم والتواطؤ في الفساد، وذلك حسب ما ذكرته البرافدا في ٢٤ تموز ١٩٨٨. ولقد اذاعت محطة موسكو الاذاعية في ٢٠ كانون ثاني عام ١٩٨٨، وهذا احد الامثال، ان احد المسؤولين الفاسدين قد تلقى معونة في اقامة «سجنه الخاص السري المخفي تحت الارض.. حيث كان يضع المحتجين هناك».

ولقد تزامنت هذه الروايات مع نداءات الصحف السوفياتية اليومية لأعلاءه قوة القانون فوق تعسفية اعمال رجال الامن، ولقد هدفت الروايات والنداءات

الى تكـذيب وتحلل سلطة الامن العـام، مع نتـائـج سياسية اساسية واضحة وملحوظة. ولهذا فقد استغل شبريكوف احدى المناسبات في ١١ ايلول ١٩٨٧ في تمجيد مؤسس الشرطة السرية السوفياتية والمنفذ الاولي للارهاب السوفياتي ميلكس دزرزنسكي (Feliks Dzerzhinskiy) ، لكي يصرح علنا انه لا يجب تقليل وتخفيف الـطلب لمراقبة اكثر صارمةً للشرعية الاشتراكية الى التأويل والتفسير الذي يضيق ويفتقر الجوهر العميق لمبدأ الشرعية الاشتراكية»، والتي عرفها واقعياً بذلك الوقت على انها الطاعة الكاملة. ولقد استمر في تحذير هذا حتى يصل الى كل مكان قائلاً:

«لـدينـا اشخـاص يحملون افكـاراً وآراء غريبـة وبصـراحـة اكثـر معادية للأشتراكية. ويسيرون في طريق ارتكاب اعمالٍ مناهضة للدولة وللمجتمع. ومن بين هؤلاء اشخاص يتابعون ويلاحقون مصالحهم الانانية، ويأملون كسب رأس مال سياسي من خلال الحديث الغوغائي ومن خلال القذف مع الدوائر الغربية الرجعية.

ان كل طبقـات شعب وطننـا هذا هي مستهـدفة من خدمات الامبريالية الخاصة. . ولأدراكهم ذلك، فان اعدائنا يحاولون ان يدفعوا بعض الافراد يمثلون طبقـة اهـل الفن الى مواقع الصياب المنتقد، والغوغائية، العدمية والابتزازية لبعض مراحل تطور مجتمعنا التاريخي، والتخلي عن الهدف الرئيسي للثقافة الاشتراكية - وهي رفع الشخص العامل».

لقد كان تحذيره واضح وجلي. لقد افترض رئيس الشرطة السوفياتية السرية بان تلك الدعوات لأنفتاح اكثر ولتعزيز الشرعية يمكن ان تكون تحريض دفعته واثارته مصادر اجنبية معادية. اذن فقد كانت اليقظة والحذر الاشتراكي في امان. وكـان ذلك كل ما يلزم، على الاقل في عيون جهاز الشرطة السوفياتية، لأن الحديث عن الدقرطة من فوق كان يحرك الدقرطة العفوية التلقائية من الاسفل، دون ان تكون الاخيرة هذه هدفاً لمراقبة مركزية.

لقد كان تطور ونمو اعدادٌ كبيرة من المجموعات غير الرسمية والذاتية التنظيم من اكثر الظواهر اللافتة للنظر للدقرطة من الاسفل، مكرسة إنما الى تحسين المسائل والمشاكل الخاصة أو الى مناقشة الامور المختلفة الحالية. ولقد تحدى ظهور هذه المجموعات التقليد القائم بان المبادرة الاجتماعية كانت مستمدة ومُراقبة من الحزب. ولقد اعطى ظهورهم هذا اشارة البدايات، ولكن حتى الآن فقط البدايات، لشيء يمكن من المحتمل ان يصبح اشتراك سياسي مستقل وموثوق به ومتحدياً بذلك احتكار الحزب الشيوعي لكل اشكال النشاط السياسي والاجتماعي المنظم.

على حسب رواية واحدة في البرافدا في الاول من شباط عام ١٩٨٨، فقد انبثق حوالي ثلاثين الف «مجموعة غير رسمية» في كل الاتحاد السوفياتي ـ دون ان توجدها أو حتى تقرها الدولة. ولقد مثلت هذه المجموعات اجوبة المجتمع لمختلف الاهتمامات، مبتدئة من العلاقة البيئية، وتجديد المدنية، النشاطات الاجتماعية، مجموعات الشباب الموسيقية، والحفاظ على المعطيات الدينية والتاريخية، لتصل الى امور سياسية اكثر حساسية مثل المناقشات التاريخية، الامور المتعلقة بالشرعية، الفلسفة، اهتمامات اللغة القومية، النشاطات الدينية، الاعتقالات السياسية المزمنة، والانشقاق السياسي العقائدي. ومع كون هذه المجموعات قد تركزت في موسكو، في لينينغراد وفي العواصم الاقليمية الرئيسة في الجمهوريات السوفياتية، . فلقد شهدت المدن الاصغر ظواهر مماثلة لعفوية اجتماعية ـ بالرغم من المراقبة السياسية الاكثر تقيداً.

لقد كانت ردة فعل الحزب الحاكم متناقضة تجاه هذا التطور الجديد. لقد توجهت اكثر ردود الفعل بفكرة غورباتشيف باعادة البناء، بالاضافة الى تشدده على اطلاق ضغوط التلقائية الاجتماعية من الاسفل، الى الايجابية وحتى الداعمة. ولذلك فقد اقر المعلقون السوفيات الكبار في برنامج «الافضلية القصوى» في ١٣ شباط ١٩٨٨ في اذاعة موسكو، على ظهور مثل هذه

المجموعات كبرهان واثبات على دقرطة الحياة السوفياتية ورد فعل طبيعي للركود الشبابي، المحبط في عهد بريجنيف. ولقد ظهر اقرار اقوى في البرافدا الشبابية، صحيفة الحزب الرسمية للشباب السوفياتي، في ١١ كانون اول عام ١٩٨٧. وكُرست لتعزيز الحياة السوفياتية، وعكست ردة فعل ايجابية من قبل الجيل الاصغر الى العقيدة التقدمية وبيروقراطية التنظيم الشباب الرسمي الاحتكاري، منظمة الشباب الشيوعي السوفياتي (Klomsomol). والشيء الاكثر اجفالاً كان في بعض الاحصائيات التي اشارت الى واقع ان تلك المجموعات الجديدة تقود وتسيطر على مشاركة مستقرة ومكثفة.

ولم تكن جميع هذه المجموعات غير الرسمية، من وجهة نظر الحزب الحاكم، معتدلة او بهذا اللطف. فلقد ركزت عدد منها مباشرة على الافكار السياسية، وهكذا فتكون قد بدأت في فرض تحدي سياسي وعقائدي. وبالاضافة الى ذلك، فقد باشرت بعض هذه المجموعات في اصدار مجلات شبه سرية وذلك لتحسين ورفع اما حقوق انسانية معينة أو مسائل دينية وقومية. ولقد تصادم هذا وتعارض مباشرة مع فكرة الحزب اللينينية باحتكاره السياسي للاعلام الشعبي.

وبالاضافة الى التحدي العقائدي والسياسي من جهة ما يمكن تسميته يسار الديمقراطية، فلقد ظهر تحدي آخر للحزب من اليمين الوطني. وهذه المجموعة اخرى جديدة، ونشطة جداً، وتسمى «الذكرى» (Pamyat) أو (Memory)، والتي كانت مكرسة ظاهرياً لبحث التاريخ الروسي الحقيقي الاساسي، قد استلمت القيادة على هذه الجبهة. ولقد قامت هذه المجموعة، باعضائها الشباب مئتزرين بقمصان سوداء ومتزينين بعلامة جرس الكرملين، بمظاهرات عامة، ونظموا المحاضرات، ولقد صرحوا عموماً ان التاريخ الروسي قد انحرف عن طريقه الحقيقي بتأثير «الماسونية ـ الصهيونية»، والتي اخترقت ونفذت الى الماركسية. ولقد قدمت «الذكرى» (Pamyat) مباشرة، ومن وجهة نظر الحزب بخطورة، وذلك

لضعف وشحوب الدعوة العقائدية الرسمية، الى المشاعر الوطنية للشعوب الروسية العظيمة.

ولقد واجه غورباتشيف في هذا المضمار مع القيادة السوفياتية، مأزق ايجاد الاسلوب لكي يقيدو من مذهب الفعالية الاجتماعية المتزايد وذلك لكي يتقدموا بموضوع اعادة البناء، ولكن دون تعريض سيطرتهم السياسية الفاعلة للخطر. وقد دعى هذا الى تحرك عقائدي مرن وايضاً الى تسوية سياسية. ولقد عالج احد الاكاديميين السوفيات المهمة الاولى في البرافدا في ٣ اذار عام ١٩٨٨. ولقد كتب «لم يمضي وقت طويل على معاملة معالجة اجتماعية وسياسية مجتمعنا والوحدة العقائدية على الطريقة واسلوب التبسيط الكبير: ولقد قيل ان وحدة، وحتى هوية المصالح سوف تظهر ذاتياً تقريباً مع تصفية الملكية الخاصة والاستغلال. ولكن يبدو ان كل شيء في الواقع معقداً اكثر بكثير من ذلك. . . فلم تُزال التناقضات وتحولات المعالج. ولدى كل الفئات، المجموعات الاجتماعية، والطبقات، وايضاً للقوميات، والمجموعات العرقية، مصالحها الخاصة مع تقاليدها». ويقول في الواقع ان على الحزب ان يقبل اشتراك الفريق غير المعادٍ كشيء عادي او حتى مرغوب.

ولقد كان تعزيز وتقوية المشاركة السياسية، ولكن ليست حرية الاختيار التقليدية، هو الحل الذي قدمه غورباتشيف في مؤتمر الحزب الخاص. وبهذا يكون قد اقترح بان يرفع ويزيد من دور السوفيات المحليين الشكليين. وخلاصة القول، فان هؤلاء يمثلون الشعوب السوفياتية داخل النظام السياسي ظاهرياً، ولكن في الواقع فانهم يخدمون الواجهة لحكم الحزب. ولقد اكد انه «لا يمكن اتخاذ اي قرار يتعلق بالدولة، او بالاقتصاد او البنية الاجتماعية اذا اهملت الشعوب السوفياتية». ولقد اقترح ايضاً انشاء صرح حكومي جديد، وهو مجلس نواب شعب جمهوريات الاتحاد السوفياتي، المكونة من ممثلين منتخبين على حسب المناطق الجغرافية، ومن المنظمات المدنية. ويجتمع هذا المجلس مرة واحدة في السنة، وينتخب باقتراع سري برلمان ذي مجلسين تشريعيين، والذي

بدوره يختار الرئيس والمجلس الاعلى للاتحاد السوفياتي - ويمكن منح هذه المناصب ايضاً سلطة حقيقية في ادارة الاقتصاد، السياسية الخارجية، وامن الوطن القومي. ولقد شدد غورباتشيف في نفس الوقت، على ضرورة تقوية وتعزيز دور القانون داخل النظام السوفياتي، الحد من الممارسة التعسفية للسلطة.

ومع ذلك فقد بقي سؤال اين يجب الفصل بين قبول العفوية الاجتماعية وعدم تحمل انشقاق السياسية، بدون جوانب. لأن التطبيق على الاخير سيشق الاول، وبذلك يؤدي موضوع اعادة البناء؛ ومن جهة اخرى فان احتمال كثير للأول، سوف يشجع الاخير، الى درجة الضرر لأحتكار الحزب للسلطة. واذن وبالنهاية فقد كانت المسئلة السياسية المركزية والضمنية في مسار عملية الدقرطة هي الدور الامثل والملائم للحزب نفسه.

دور الحزب: لقد وجد في هذا الموضوع سؤالان حساسان. الاول وهو الى اي مدى يجب دقرطة الحزب نفسه؟ والثاني وهو الى اي درجة ستؤثر دقرطة المجتمع على دور الحزب في ممارسة السلطة مباشرةً. لقد كان السؤال المتضمن في النقاش - ولكن دون ان يظهر جلياً ابداً - ليس فقط الى اي مدى يجب ان يذهب الحزب في التخلي عن الستالينية نفسها، ولكن الموضوع الاكثر حساسية كثيراً، الى مدى يمكن مراجعة واعادة النظر في الفكرة اللينينية للتشكيلية الفوجية الحزبية الداخلية والصارمة، وفي الاخضاع الكامل للمجتمع.

ولقد مال غورباتشيف الى المرونة والليونة في النقطة الاخيرة. وكما قال «لقد فُهمت الاشتراكية مراراً على انها نظام ديرنظري، وذلك بتقسيم المجتمع الى الذين يعطون التعليمات، والذين يتلقونها وينفذوها. اني امقت ان يكون مفهوم التبسط الكبير اداري ميكانيكي للأشتراكي. لقد اكد غورباتشيف في مؤتمر الحزب الخاص بانه «يجب تمييز وظائف الحزب ورجالات الدولة، بانسجام مع فكرة لينين بان الحزب الشيوعي هو الطليعة السياسية للمجتمع وان دور الدولة

السوفياتية هو كأداة الحكومة من قبل الشعب». ومع ذلك، فمن المشكوك فيه ان الـزعماء الاخرين الكبار للحزب كانوا مستعدين للوصول الى هذا الحد، وخصوصاً كان ليغاشيف (Lgachev) معبراً ومشدداً في اعادة تأكيده على مبدأ زعامة الحزب ودوره المركزي.

ورغم ذلك، لقد كان يبدو بوجود اجماع، في بداية عملية الاصلاح، داخل القيادة على ضرورة احياء مبادرة اكبر داخل مؤسسات الحزب وحث المنافسة المـدعـومـة من خلال عملية انتخـاب تنافسية مُراقبة بحذر للسيطرة واخضاع المراكز. ولقد قاد هذا الى تقديم بعض الجبهات الانتخابية، حتى بالاقتراع السري، على المراكز ذات المستوى المنخفض في امانات الحزب، والى تشدد اكبر على التحول المتكرر في كوادر الحزب البيروقراطية. لقد لحق السوفيات بيانياً بالاعمال التي اتخذتها الصين قبل سنة من ذلك التاريخ، وذلك عندما ووفق على اقتراحات غورباتشيف في مؤتمر الحزب الخاص بان يحدد المنصب في المراكز العليا بعدد محدود من السنين وان ينفصل دور الحزب عن دور الدولة.

ولقد كان الاكثر نظرياً والمشاكس مضامين هذا القبول هو في تلاشي وزوال النقـاش بين الاكاديميين السوفيات حول الفائدة الممكنة من انشاء مؤسسات سياسية جديدة وذلك لمنح تمثيل اجتماعي متزايد. ولقد اشاروا بالاخص في هذا المضمون الى تجربة دول اوروبا الشرقية الشيوعية، حيث ان ما يسمى بالجبهات الشعبية أو الوطنية قد خدمت كتحالف للشيوعية المهيمنة ولكنها اسمياً فقط احزاب غير شيوعية زاعمة انها تمثل مصالح الفلاحين والطبقة المثقفة. وفي تقـرير عام لمنـدوبين اجـانب حول تاريخ حكم الحـزب الواحد في الاتحاد السوفياتي، والذي نظمته وزارة الخارجية السوفياتية في ٢٥ شباط ١٩٨٨، كان اكـاديميان سوفياتيان غير معـاديين لفكـرة تجـربة شيء مشابه لتلك الجبهات الوطنية، ولقد لاحظ احدهم (بناء على تاس) «ان هذا كان ممكناً في الاتحاد السوفياتي نظرياً، ولكن بشرط ان تكون لدى الاحزاب الاخرى القاعدة لتعبر عن

مصالح الفئات المختلفة من المجتمع السوفياتي».

لقد كان الواقع بان موضوع المنظمات السياسية الجديدة قد برز، لوحده ملفتاً للنظر. ولقد عكس الواقع ان الجهود التي تعطي بعض الحياة الى صروح النظام السياسي السوفياتي الهاجع في طور السبات كانت نشطة طبيعياً، وكانت تهدف الى التأثير الواضح على موقع ودور الحزب نفسه. ولقد قادت النداءات الى الدقرطة السياسية بالفعل الى المناشدات لمزيد من التمازج لأعضاء الحزب مع غيرهم من غير الاعضاء في اجتماعات مشتركة، وفي نقاش المواضيع الوطنية. ولهذا فقد نُقضت الاقتصادية السياسية المتلازمة لعضوية الحزب. ولقد فرض عدم وضوح الخط الفاصل بين العضوية وغير العضوية، بالنسبة الى المدافعين الرسميين عن مسميات الحزب، وبالاضافة الى فتح الابواب لأشكال جديدة من المشاركة السياسية، تهديد التعديلية واعادة التعريف للموقع الخاص جداً في الحياة السوفياتية التي ساندها ودعمها الحزب منذ عام ١٩١٧.

العقيدة، الدين والثقافة: لقد كان مأزق الحزب مرئياً اكثر في مناطق المعتقدات، ماذا كان يمكن ان يُفرض من فوق، والى أي مدى كانت القيم الشخصية، الجماليات، والاقتناعات لتكون ملكاً خاصاً، غير معرضة الى مراقبة وتحكم الحزب؟ لقد كانت هذه الامور، والتي قد حلها ظاهرياً لينين وستالين مرة والى الابد، اثارةً وتهيجاً للجالية المثقفة، ومربكة لمثاليي الحزب.

لقد كانت اداة النظام العقائدية اذن في مأزق كبير وعميق. فلقد كانت ليس فقط التطورات العملية في الاقتصاديات والمجتمع السياسات المتجهة بعيداً عن الحقائق المؤكدة منذ زمن طويل، ولكن ايضاً تحكم الحزب العقائدي على نظام قيم المجتمع تحت التهديد والخطر. لقد هزت وصدمت المناقشات العامة المتجهة في كل حالة بعيداً عن الممارسات العقائدية المقدسة والقائمة، دكتاتورية الطبقة العاملة والمنطبقة من احتكارية الحزب، في مجتمع مذهبي الشكل مع نظام تخطيطي مركزي، مبنيٍّ على الافضلية العليا للصناعة الثقيلة،

ومع زراعة تجمعية. ولتعقيد الامور اكثر، فقد ثار علناً ضد المذهب القائم، وحتى الدين ايضاً كان مُهدداً بالعودة.

لقد ظهر الاهتياج الجماهيري لصالح الانفتاح بسرعة في القطاع الثقافي، محركاً حدة وقسوة قاسية وصارمة وحتى مكاشفات سياسية في العديد من المنظمات الثقافية والادبية والتي تبنى وتنشىء حولها الحياة الفكرية السوفياتية. وقد انفجر الصراع للسيطرة على اعمدة التحرير في الصحف، على اللجان التنفيذية للكتاب، اتحادات السينمائين، وعلى المسارح ودور العرض الرئيسة، وبذلك بحلول ١٩٨٧، عندما كان غورباتشيف في المرحلة الاولى من اعادة البناء. لقد رحب بالمقالات الممنوعة من الانتشار لمدة طويلة، وأمر باعادة نشرها، ومع ان صحيفة (Sovetskala Kultura) قد كشفت في ٢٢ اذار عام ١٩٨٨، بانه لا يزال يوجد حوالي ستة الاف عنوان لأعمال سوفياتية على لائحة المحرمات. ولقد رفضت، علاوة على ذلك، الادانات المذهبية السابقة، واصدرت الدعوات الى الشخصيات الثقافية الرائدة للعودة الى الوطن من النفي الخارجي.

لقد نجح المؤيدون المنتشرون في كل مكان للأنفتاح الحقيقي غير المكبوت، ومنذ انفجار الحماس الاول في الاستيلاء على عدة صحف ثقافية رئيسة وفي كسب المواقع المسيطرة على الفن الدرامي. ولقد كان بأمكانهم شن حملة، من هذه الاماكن المتميزة، وانتاج اعمال (مثل فيلم «الندم» والذي عُلل وهتف له) التي تفضح الستالينية وتدير وتعبىء الدعم للتغيرات السياسية والاجتماعية المرغوبة والمطلوبة. ولكنهم كانوا اقل نجاحاً في اتحاد كتاب جمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية الهام، الهدف الخاص لأنتباه مثالي الحزب منذ امد طويل، حيث نجحت الزعامة القائمة (وذلك بتشجيع من جهاز الحزب المركزي) في صد المحاولات لبناء واقامة سقف اصلاحي. ولكن حتى في ذلك المكان، فلقد حرك الواقع بوجود امكانية حدوث المشاحنات والصراعات، تفجر التعبير الحر لاعناً في انتقاده الواقع السوفياتي.

لقد كانت الطبقة المثقفة المبدعة المصدر الاكيد لأكثرية الدعم الحماسي لأصلاحات غورباتشيف، ولقد قبلته على انه واحد منها. ولهذا ايضاً فان اكثر زعماء حزب الاصلاح حذراً منذ البداية الاولى في نضال وجهاد لأحتواء الاهتياج العقائدي داخل الجالية المثقفة. ولقد كفلوا ما يمكن ان يكون في الواقع هجوم مضاد، والذي تزعمه مساعد غورباتشيف، يجوز ليفاشيف، امين الحزب في ذلك الوقت والمشترك مباشرة في المسائل العقائدية والثقافية. ولقد اصر ليفاشيف علناً على الجالية المبدعة ان تظهر «تفاؤل اجتماعي» اكبر، وطالب في اكثر من مناسبة، وفي لغة عامة وعادية، ان يظهروا ليس «الحقيقة من جانب واحد» ولكن «كل الحقيقة الكاملة» حول انجازات الاشتراكية. ولقد ذهب مؤيدوه الى ابعد ذلك بان قارنوا هجوم الانفتاح على المعتمد التقليدي بالاجتياح الالماني عام ١٩٤١ متهمين، في صحيفة ليتراتونيا روسيا (Litteratmrnaia Rossiya) في ١٤ اذار عام ١٩٨٧ ان «الاشخاص المضاربين والمعتدلين والمشبوهين جداً» كانوا خلف ذلك.

وقد كان احد مظاهر المناقشات المهمة في خرقه شكلية النظام السوفياتي المؤسساتي. ولقد اصبحت بعض المؤسسات الصحيفة السوفياتية من اكبر الانصار، كلما تجمعت معطيات حملة اعاد البناء، مذيعين وناشرين وممارسين الانفتاح الى النهاية، بينما تفاعل آخرون في اسلوب بادر ملحوظ. واصبحت هذه المجلات مثل نافي مير (Navy Mir) ، واجونيوك (Ogonyk) ، وصحف مثل موسكونيوز (Moscow News) وحتى البرافدا (Pravda) ويكتراتورينا كازيتا (Literturnara Gazeta) ، مشهورة في دعمها للتغيير المتزايد، بينما اظهرت مؤسسات مثل الصحيفة اليومية في موسكو سوفيتسكايا روسيا (Sovetskaia Rossilya) ، والصحيفة العسكرية كرسنا زفيردا (Krasnaia Zvezada) بروداً، وحتى دافعت الى حد معين عن الماضي الستاليني. ولقد حدث اختراق خاص ومشهور وواضح شجداً للأجماع المألوف في الاعلام الجماهيري السوفياتي في بداية ١٩٨٨، عندما نشرت صحيفة سوفيتسكايا روسيا دافع جريء ونشط عن الستالينية في ١٣ اذار،

واستنكرته البرافدا في ٥ نيسان كمظهر معادٍ لاعادة البناء. وكان هذا الخلاف المؤسساتي تطوراً جديداً وغريباً مألوف، وكسر حاد للنواميس الاستبدادية، صادماً بذلك التقليديين السوفيات.

لقد احدث هذا الخلاف ردود فعل مريرة من مسؤولين الحزب ذوي العقلية الاكثر تقليدية. وعبر ليفاشيف عن شعورهم هذا عندما ادان، في هيجان عام في مؤتمر الحزب الخاص، صحيفة موسكو الرائدة لتحريفها المزعوم. وقد اضاف صارخاً، وذلك عندما اثار موجة من التصفيق العفوي من المسؤولين المجتمعين: «اننا نغذي البديل عن الصحيفة، عن مثل هذه الصجيفة المشهورة والمعروفة ـ واود ان ادعوها شيئاً مختلفاً ـ مثل موسكوفسكي نوفوستي (Moskovskiye Novosti).

لقد عكس الاهتياج الجماهيري في الابداع الفني والاعلام الشعبي ازمة العقيدة الرسمية الاكثر اساسية نفسها. لأن هذه العقيدة لم تستطع مسايرة تعقيدات الحياة الحديثة، ولا ان تزود المركب الابداعي الذي كان استجابة للظروف الاجتماعية القائمة، والى الرغبات الاجتماعية الملحة. ولكي تكون الامور اكثر صعوبة للمحافظين على الحقيقة الرسمية، فقد كشفت المناقشات التي حدثت عن الفراغ الروحي للاتحاد السوفياتي المعاصر. ولقد ساهم التشدد على القيم المادية، والتي كان النظام غير قادر في الواقع على ارضائها، بل كان يدعي في اكتفائها التام، في ذلك الفراغ وفي مذهب الكلية المنتشر. ولقد حدد المهنيون، وكذلك السياسة وحالة القسوة وعدم الرحمة للشرطة، وعرفوا الصورة المعنوية للبلاد بانها ظرف مُفسد روحياً.

وقد كان هذا اتهام خطير بشكل خاص باعتبار الدرجة التي اكدها الحزب لمدة سنين بان وصايته الماركسية ـ اللينينية على المجتمع قد نجحت في انشاء وايجاد الانسان السوفياتي المتميز باعلى المستويات من الاخلاق الاشتراكية. ولقد ظهرت مقالة ملفتة للنظر في البرافدا في ١٤ اشباط عام ١٩٨٧، كتبها

شنجز ايتماتوف (Chingis Aitmatov) مؤلف القصة «وضم الجلاد» (The Executioneris Block) والتي اثارت جدلاً واسعاً والتي ادانها التابعون لتقليد الحزب على انها «توجه الى الله»، أو انها دينية خالصة. ولقد صرح بباسطة بان السبعين سنة للسلطة السوفياتية قد نجحت فعلياً في اقتلاع القيم المسيحية ولكنها فشلت في ابدالها باي شيء ايجابي. ولقد اتهم المجتمع السوفياتي بانه مجرداً من فكرة الشفقة، وتسيطر عليه النظرية التي تقول «ان امكانية النجاح في الحياة يعود بالفعل الى القسوة والامتصاص والاحتيال والخداع المشكوك في التجارة او في قطاع الخدمات أو اخيراً في الخدمة الخارجية. ولقد طوقت افكارنا عن العدالة الاجتماعية بهذا الاسلوب.

وركز كاتب آخر معروف، دانييل جرانين (Daniil Granin) على نفس الافكار في صحيفة ليتراتوريا كزيتا في ١٨ اذار عام ١٩٨٨. ولاحظ صفة القسوة في المجتمع السوفياتي، وفقدان اي روحٍ للرحمة والشفقة في نظام القيم، وتبع اسس وجذور تلك الحالة الى الوحشية غير العادية والتي بها فرضت التجمعية على الشعوب السوفياتية الريفية. ولقد كتب «فقدان الشفقة لم يكن مصادفة» واضاف «لم يكن مسموح للناس في السنوات الصعبة لأخضاع الجماهير، بان يساعدوا زملائهم، او جيرانهم وعائلات الذين يساء معاملاتهم. ولم يكن ممكناً ايواء اطفال المتهمين أو المرحلين. ولقد كان الناس مجبرون على مدح الاحكام القاسية. وحتى التعاطف مع المسجونين كان ممنوعاً. وكانت مشاعر الشفقة للقريب يعامل كمشتبه به، او حتى مجرم... ويمكن ان تكون الشفقة قد تداخلت مع عدم الشرعية والقسوة، وتداخلت مع السجن، الادانة، خرق القانون، الضرب، التصفية. لقد اختفى هذا التعبير من كلماتنا في سنوات الثلاثينيات والاربعينيات، واوقف استعماله بعد ذلك».

يجب ان يكون المحافظون على تعاليم الحزب ـ المذهبيون المتفرغون في اللجنة المركزية ومختلف المجندين المتقاعدين من أل ان كي في دي ـ كي جي بي (NKVD - KGB) ، والمسؤولون في مسميات الحزب، مشدوهين ومذعورين

عند قراءة هذا الكلام. لأن اي نقاش للفشل المعنوي للشيوعية، بالنسبة الى هؤلاء، كان يفرض ليس فقط تحدي عقائدي ولكن ايضاً تهديد اساسي لبناء السلطة القائم. ومن المحتمل ان قلقهم في هذا المجال له ما يبرره، لأن تخفيض هذا الادراك الجديد المتنامي للتعفن والفساد الاخلاقي قد فتح الابواب مشرعة للدين.

لقد ساعد الفراغ الاخلاقي الموجود، واستنهاض الشعور للتاريخ القومي بين الشعوب الروسية العظيمة في اضرام جديد للمصالح في التقليد الروسي القويم وفيَ دوره في الحياة القومية. وكان هذا تطور مهم بقدر ما برهنت الكنيسة الاورثوذكسية الروسية بسهولة اخضاعها للزعماء السوفيات، وذلك بسبب تقليدها الخاضع لسلطة الدولة. ونتيجة لذلك، بدا الالحاد على احراز تقديم ملحوظ اساسي، وخصوصاً في المراكز المدنية، وذلك بتحديد الدين المنظم الى بعض الكنائس القليلة الباقية واحالتها الى عنايات عائلة خاصة. وعلى النقيض من ذلك، فلقد استمرت الممارسات الدينية بين الكاثوليك الاقل عدداً، والمتمركزين بالاكثرية في ليثوانيا (Lithuania) واكرانيا الغربية (West Ukraine) وبين مسلمي اسيا الوسطى (Central Asia). ولقد كانت مثل هذه الرعايا تمثل بالنسبة لهم ـ بجانب المجال الروحي ـ شكل من المقاومة القومية للروس والهيمنة السوفياتية.

ومن السابق لأوانه في هذه المرحلة الحديث عن انبعاث الايمان الارذوكسي، ومن الخطأ التفكير في ان الكنيسة الارثوذكسية تفرض او تشكل اي تحدي للحزب (كما كانت الحالة مع الكنيسة الكاثوليكية في بولندا، البلد المجاور الشيوعي). ولقد بقيت الكنيسة الارثوذكسية كمؤسسة تحت مراقبة وتحكم الحزب اللصيق، مع تغلغل السياسة وحتى الشرطة السرية بين الاكليروس. ولكن من جهة اخرى كانت الارثوذكسية الروسية كأيمان مسيحي متأصل، قد بدأت في عملية عودة ملوحظة كونها المصدر الوحيد للطموح الاخلاقي وتعبير وطني اساسي لقيم ثقافية مستمرة. ولقد تمثل في المعنى

الجواب العميق الجذور لأرض مجدبة روحياً وثقافياً والتي تحولت اليها الشيوعية السوفياتية.

والذي انعش هذا الاتجاه حقيقة ان عام ١٩٨٨ كان الذكرى الالف لتحول روسيا القديمة الى المسيحية (وهي منطقة جغرافية مساوية لحجم اوكرانيا الحالي). ولقد ايقظ الاحتفال اليوبيلي مصلحة الشعب في الدين ودوره في التاريخ السوفياتي. ولقد اصبحت ممارسة الشعائر الدينية من الامور العصرية الحديثة بين الطبقة المثقفة، وايضاً الانشغال في الاحياء الفني لكنائس منتهكة ومهجورة، منذ زمن طويل، ولهذا فقد كان الدين «بالداخل» بنظر الاعداد المتزايدة من المفكرين الروس، والعقيدة «بالخارج».

ولم يكن اعضاء الطبقة المثقفة الوحيدين الذين استسلموا لسحب الدين. ولكن كان تحول جورجي مالنكوف (Georgye Malenkov) ، وهو اخلص الرجال التابعين لستالين في السنوات الدموية في التطهير الكبير، الى الايمان الارثوذكسي رمز انتشار التجدد الروحي ـ وقد لوحظ هذا قليلاً في الخارج، ولكن كان ملاحظاً كثيراً في موسكو. ولقد امضى سنواته الاخيرة في متابعة الاشتراك مع الجوقة الدينية، وقد اصر على مراسم الدفن المسيحي عند موته في عام ١٩٨٧. ومهما ظن اعداء الستالينية عن مالنكوف، فان هذا العمل بذاته من خليفة ستالين المختار اوضح فشل نشر واذاعة الحزب للالحاد.

لقد اعترف غورباتشيف، في مؤتمر الحزب الخاص عام ١٩٨٨، ويبدو انه قبل ايضاً اعادة ولادة الدين في الاتحاد السوفياتي. وقد قال: «اننا لا نخفي موقفنا تجاه النظرة الدينية كون الدين غير مادي وغير علمي. ولكن هذا ليس سبباً لموقف عدم احترام لذوي العقول الروحانية من المؤمنين، ولا لممارسة الضغط الاداري للتأكيد على النظرية المادية». وبهذا يكون غورباتشيف قد اشار الى فشل المسيرة الالحادية ـ وهذا دين الحزب ـ ومنح حالة احترام اكثر للدين الاصلي.

تاريخ (الستالينية): لقد كان موضوع الستالينية قبل كل هذه المواضيع المثيرة للخلاف. وكان كل نقاش تقريباً يقود بالنهاية الى التناسب العصري للنظام الستاليني، والى المناقشات المريرة حول المدى الذي يجب ان يعلن فيه عن الماضي، والى موضوع الملومية الفردية لأبشع جرائم الستالينية (وليس جرائم ستالين فقط) والذي لا يزال محرجاً جداً.

لقد خلق موضوع الستالينية معضلات خطرة للقيادة ونظامها السياسي. فمن جهة كان من الضروري تخطي ليس فقط الجهود والقصور الذاتي البيروقراطي ولكن ايضاً مقاومة التقاليد والمؤسسات الستالينية، وذلك لدفع الاصلاحات الى الامام. وتفرض عملية اعادة البناء رفض الطرق والاساليب المتبعة منذ زمن طويل لانجاز الاعمال، وكانت اكثرية هذه الطرق قد أسست خلال ربع القرن الذي سيطر فيه اعادة بناء ستالين الوحشي للمجتمع السوفياتي. ومن جهة اخرى كان الرفض الكامل لهذا القدر من الماضي يهدد باطلاق العنان للعواطف المكبوتة، والذكريات المضغوطة منذ زمن طويل، وذلك يقوض الاساسين اللذين كان الحزب الحاكم يرتاح عليهما.

فلا عجب اذن من ان القيادة قد ماطلت وناضلت. ولقد ادان غورباتشيف ستالين والستالينية بمصطلحات واضحة وحادة، وذلك في تقييم رسمي للستالينية، وزع بموافقة المكتب السياسي نفسه في الذكرى السبعين للثورة البلشفية، ولكنه تجنب الخصوصية الدرامية، متحدثاً بعمومية وموضوعية عن «الالاف» من ضحايا ستالين. واضاف غورباتشيف في مؤتمر الحزب الخاص حول هذا الموضوع المحرم مشيراً فقط إلى «ان هذا واقع حقيقي ـ ويجب ان نقر ونعترف بذلك الآن ـ ان النظام السياسي القائم نتيجة لثورة اكتوبر (تشرين اول) قد خضعت في بعض المراحل لتشويه خطير». ولقد دعا زعماء آخرون كبار، وخصوصاً ليفاشيف، الى اظهار متعادل ومتجانس للماضي، اي انه لا يزيل او يمحو الكشف عن شرور الماضي ذكرى الانجازات المزعومة. ولكن حالما فتحت الابواب لرفض هذا العهد كان من المستحيل احتواء الاحزان

المنهمرة، فيضان الذكريات، اعادة تجميع الاعمال الوحشية الغير معلنة والاكثر خطورة النداءات، لبذل بعض المجهود للتعويض وحتى احتمال العقوبة.

لقد اصبح الاعلام السوفياتي والصحف متخمة بالروايات لمعاناة فردية وجماعية، وفي مرات عديدة تكون غير طبيعية مؤلمة ومثيرة. وبعض هذه الروايات يظهر بوضوح الانحلال والتفسخ الذي اوقعه ارهاب ستالين الكثيف والغبي بوضوح على الاشخاص البسطاء وذوي المنزلة المخفضة. وزود آخرون الصحف والاعلام بروايات شخصية عن ظروف تحيط بسقوط شخصيات كانت مهمة، والعديد منهم قد اختفى بدون اي أثر، مقحمين عائلاتهم للنبذ الاجتماعي غير المتوقع او النفي او الموت ايضاً. ومثال ذلك، لقد نفذ حكم الاعدام بزوجة المعدوم المارشال تخهاشفسكي (Marshal Tmkhachevskiy) وابنه ايضاً. وآخرون ايضاً تعاملوا مع الارهاب الستاليني بابعاد ونتائج اكبر واوسع، مثل التدمير الجسدي حرفياً لعدة ملايين من الفلاحين الاوكرانيين والعديد من سلك الضباط (والذي ادى الى الهزيمة السوفياتية الاولى امام الاجتياح النازي عام ١٩٤١).

والشيء الملفت للنظر، ان بعض المواضيع لا زالت محظورة فلقد تجنب الاعلام والصحافة الرسمية السوفياتية اي نقاش شامل للقهر الستاليني على الاشخاص من غير الروس. فقط بُحثت مواضيع مثل سحق الطموحات القومية للأوكرانيين واليشوانيين بعد الحرب العالمية الثانية، وايضاً الترحيل الجماعي من جمهوريات البلطيق (بعد ضمها عام ١٩٤١ ومرة اخرى بعد اعادة احتلالهم في عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥) بشكل عام. والشيء الآخر الحقيقي والصحيح هو طرد وترحيل بالقوة الى سيبريا (Siberia) لحوالي مليون ونصف المليون بولندي، أخذوا بأقصى وحشية في اواخر شتاء عام ١٩٤٠، من نصف بولندا التي حصل عليها الاتحاد السوفياتي بموجب معاهدة هتلر ستالين عام ١٩٣٩. ولقد بقي الاعلام السوفياتي صامتاً بالنسبة الى ١٥,٠٠٠ ضابط بولندي، اسروا في عام ١٩٣٩ واغتيلوا واحداً بعد آخر في سرية تامة في غابات كاتين (Katyn) وامكنة اخرى في

ربيع عام ١٩٤٠. ولهذا فان الستالينية لا زالت متمتعة ببعض الدلال والمغفرة على حسب تأكيد الامبريالية الروسية العظيمة.

مع ذلك فقد اظهر الكشف عن جرائم ستالين المحلية، ثلاث مسائل اخرى، كل واحدة مثيرة للنقاش والخلاف. ولقد انفرضت الاولى منها علناً وبكثافة متزايدة؛ ولقد بُحثت الثانية خلف الابواب في حجرات الحزب الداخلية؛ اما الثالثة فلم تفصل ابداً علناً ولكن كانت متضمنة في المطالبة للحقيقة التاريخية.

اما المسألة الاولى فكانت متعلقة بالملومية الفردية. هل كان ستالين وحدة مسؤولاً عن جرائمه؟ وهل يمكن تصديق ذلك، باعطاء هذه الجرائم المقياس التاريخي الذي لم يسبق له مثيل؟ واذا كان الجواب بالنفي، اذن ماذا عن شركائه وتابعيه؟ وللتأكد، من ذلك فلقد توفي كل مساعديه، ولكن العديد من الجلادين، المعذبين، المحققين وحراس المخيمات المركزية وحتى القادة لا زالوا بالتأكيد احياء. ومثل ذلك فان رائد في ان كي في دي (NKVD)، بعمر خمس وعشرون عاماً عندما كان يعذب سجنائه اثناء الارهاب الكبير في اواخر الثلاثينيات، سيكون عمره الان خمسة وسبعون سنة؛ وايضاً الضابط والرجال الذين اعدموا الضباط البولديين في غابات كابتن، سيكون اعمارهم الآن في اواخر الستينيات او بداية السبعينيات. وايضاً المعذبين في ام في دي (MVD) لضحاياهم المعتقلين في عملية التطهير لليهود، وكذلك في عملية الارهاب الاوسع في اواخر الاربعينيات، ستكون اعمارهم الآن في بداية الستينيات.

لقد كان من المستحيل الكشف عن جرائم ستالين دون اظهار اوسع وحتمي لموضوع الملومية. ولقد ظهرت بالفعل عام ١٩٨٧. ولقد اظهر عدد من الكتاب بوضوح جلي مسئلة مساعدي ستالين. كاتب في الصحيفة الاجتماعية السوفياتية صتصيولوجسكي اسليدو فانيا (Sotsiologieheskie Issledo Vonia) (وفي الاصدار الثالث عام ١٩٨٧) لم يستخدم ل. جـ ايونين (L.G. Ionin) الفكرة الغربية للاستبدادية

لتحليل طبيعة الفكرة الستالينية وتعني (مسئلة الذنب) في وضع السؤال عن ذنب الآخرين. وظهر الموضوع ايضاً في الصحف الشعبية. فلقد اشارت ازفستيا، في كانون اول عام ١٩٨٧، الى احد القراء الذي كتب يقول بانه «يجب ان يكون العديد من المضطهدين لا زالوا احياء.. واني لا استطيع ان اتصور بانهم يضحكون على منشوراتكم».

لقد اشترك التلفزيون السوفياتي في هذا الموضوع. ففي برنامج مكرس لجرائم ستالين في ٢٢ تموز عام ١٩٨٨، لاحظ ان بعض المعذبين السابقين يجدون انفسهم في «وظائف جيدة» ومضيفاً:

«ولهذا فيرتفع سؤال منطقي: لماذا يوجد قانون وتشريع تحديد وتعريف هذه الجرائم الرهيبة، مثل اي انسان الذي مثلاً، يسرق حقيبة او يضرب جاره في شجار سكران؟ بينما لا يوجد تشريع لتحديد جرائم الحرب، او الخيانة العظمى، اذن لماذا يوجد تشريع للخونه الذين يطلقون النار على شعبهم، الذين يعذبون الشعب السوفياتي الشريف؟ وكيف يمكن الاحتفاظ بتشريع التحديد هذا لهم؟ اليس هم خونة للوطن؟

وفي محاولة واضحة لتحقيق التعادل والتجانس في هذا الموضوع الحساس، نشرت المجلة الاسبوعية الواسعة الانتشار نيديليا (Nedelya) في شباط ١٩٨٨ مقالٍ طويل لعالم سوفياتي شهير مركزاً بشكل خاص على موضوع الملومية. لقد برىء «العديد من المحققين» كونهم شيوعيون لينينيون شرفاء لا عيب فيهم، مؤكداً انه «حتى اعداداً اكبر من الاشخاص الذين خدموا في وحدات (NKVD - MGB) الرئيسة والوحدات الجانبية ليس لها اي علاقة مباشرة مع الضغط والكبت والقهر»، ولكنه وضع رسم معاكس مع الافراد المحققين، المستجوبين، الحرس، والمتهمين الذين يتقاسمون المسؤولية للستالينية. ولكنه لم يكن مستعداً بان يذهب الى ابعد من ذلك، تاركاً بدون شك العديد من الضحايا الاحياء مع شعور الاحباط.

وبينما بقي الموضوع مفتوحاً، فلم يكن من المحتمل ان يتابع بنشاط. وهذا

ليس فقط لأن القيادة السياسية لم ترد ان تتفـاقم الخلافات والانشقاقات بان النقاش حول الستالينية قد طفى الى السطح ولأنه لا يزال يوجد عددٌ جيدٌ من المسؤولين السـوفيات والمـواطنين لا زالـوا تابعين للستالينية، ولكن أيضاً لأن المجتمع كان مرتبكاً حول الوقائع الفعلية وكان متأرجحاً في موقفه. ويظن البعض ان الشباب سيكون ميال لأن يكون من اقصى المنتقدين لستالين، ومع هذا فقد جرى استطلاع مزعوم للرأي بين الطلاب داخل الجامعات ومدارس الحزب العليا التي اظهرت، كما اوردتها تاس في ٢٤ كانون ثاني عام ١٩٨٨، ان ٨ بالمئة فقط شهـدوا بان لديهم معلومات كافية عن الماضي، بينما ٧٢ بالمئة اعطوا ستالين شخصياً تقييماً مختلطاً، ٣ بالمئة توافقوا معه، و١٨ بالمئة انتقدوا سياساته.

لقـد بين التأرجح الاجتماعي، وليس فقط التكتم والتحفظ الرسمي، ان موضوع الستالينية سيستمر في النخر داخل الضمير السوفياتي ولكن دون حل فاصل ورفض كامل واضح قاطع. وكان هذا بدوره يتجه ليس فقط الى تعقيد عملية إعادة البناء، ولك منع الشيوعية ايضاً من تنظيف نفسها من وصمة العار المعنوية الستالينية.

وكـانت المسـألة السياسية العقائدية الحساسة الثانية تتعلق بتوريط اعادة الاعتبـار لبعض ضحـايا ستـالين البلشفيين الاكثر شهرة. لقد انتجت محاكم التطهير من ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ الى اعدام كل القيادة اللينينية الاحياء، والذي لم يثق ستالين باكثرهم واختلف مع البعض الآخر عقائدياً. ولم يُناقش موضوع هؤلاء الاشخاص القياديين الذين قتلوا بدون وجه حق وبظلم ودون قانون او شرعية بعد ذلك ابداً. ولقد جرى رد الاعتبار والاستعادة التاريخية بطقس رهيب ومـروع والـذي يمكن وصفـه بانـه التداول السوفياتي الوحيد للنخبة بعد وفاة الشخص. ولكن ازعج رد اعتبار آرائهم بوضوح قيادة الحزب حيث ان رد الاعتبار هذا يمكن ان يفسـخ ويمزق اجماع الحزب العقائدي المتوتر اصلاً. ونتيجة

لذلك، فقد ناضل الكرملين لوضع ورسم خط فاصل بين رد الاعتبار الكامل والقانون الشرعي وبين رد الاعتبار الجزئي المذهبي، وبذلك تسوق الجهود المخيبة والمحبطة للأبتعاد عن الستالينية الكامل الامتعاضات والاستياءات من اقارب الضحايا الاحياء.

اما المسألة الثالثة غير المطروقة للحديث بالنسبة الى ان لدى الستالينية تضمينات بعيدة المدى، وهي العلاقة بين الستالينية واللينينية. ولقد نشر سولجنتسين (Solzhenitsyn) في كتابه (Gmlag Archipelago) بتفرد ان جذور ارهاب الستالينية تمتد الى اللينينية وخصوصاً الى اسلوب لينين تجاه اعادة بناء المجتمع الاجباري. ومع ذلك، لقد كان على القيادة السوفياتية ان تضع خطاً واضحاً، وذلك لكي تحتفظ بمظهر الشرعية التاريخية، بين ستالين الشرير ولينين الكامل. وبينما كانت مسألة ملومية لينين للستالينية قد برزت في الصحف السوفياتية قبل مؤتمر الحزب الخاص، فقد كان واضحاً وجلياً انه يجب ايقاف الكشف الرسمي للستالينية قبل ان يقود الرفض الكامل لجرائمها الى كشف كامل ومتساوٍ لأسبابها الحقيقية - وبذلك التأكد من ان شبح الستالينية سوف يستمر في ارباك وحيرة المستقبل السوفياتي.

المشاكل القومية الداخلة: لقد كان بادياً ان ستالين قد انهى مسألة القومية مرة والى الابد - وخصوصاً بقتل كل الزعماء غير الروسي اصحاب الافكار الاستقلالية. ومع ذلك لقد كشف الرفض الجزئي للستالينية ان هذه المسألة قد بقيت من اكثر المعضلات السياسية المحلية غير المحلولة اساساً لقد اوجد ستالين مظاهر مصطنعة للتناغم العلماني، وذلك بعض سمعة لكل مظاهر الاستقلال حتى الرغبة في الاستقلال بين السوفيات غير الروسي، وتسيطر على هذا التناغم تصريحات الاحترام والعاطفة الشعائرية «للأخ الكبير» الروسي. وحتى اكثرية المراقبين الغربيين قد توجهوا لقبول فكرة ان مشكلة «القومية» قد حُلت اعراض هذا التوجه في القبول غير المقصود في الغرب للمصطلحات

السوفياتية والتي على اساسها كان الروس العظام يصفون بـ «امة» اما غير الروسي ـ والذين يعدون بحوالي ٥٠ بالمئة التعداد السكاني السوفياتي ـ فقد لقبوا فقط بـ «القوميات».

ولكن لقد تهشمت واجهه الوحدة الوطنية السوفياتية، حالما امتد الانفتاح ليصل موضوع الستالينية نفسها. وطفت عل السطح الطموحات الوطنية المكبوتة والتنافر القومي بسرعة بين العديد من امم وقوميات الاتحاد السوفياتي التاريخية الحقيقية ومكذبةً بذلك الادعاء بان تلك القوميات قد اصبحت مغمورة ومنصهرة في معنى اكبر للقومية السوفياتية. لقد حدقث بين كانون ثاني عام ١٩٨٧ ومنتصف عام ١٩٨٨ بعض ثلاثمائة حادث شغبعرقي وقومي، والبعض منهم بشكل جماعي، في تسع جمهوريات من اصل خمس عشرة جمهورية غير روسية. وتبدأ هذه الحوادث من الاجتماعات الشعبية، ـ باشتراك عشرات او حتى مئات الالاف من المشتركين المستحثين، لتصل الى اراقة دماء الكوميون الداخلي، مخلفةً العشرات من الضحايا والفواجع.

لقد مرّت شكاوي القوميات غير الروسية في اتجاهين رئيسين:

١ ـ عامودي، ضد السيطرة والهيمنة المركزية من الروس العظام في موسكو.

٢ ـ افقية، من خلال العبارة الاكثر صراحة للمصالح المتناقضة بين القوميات غير الروسية.

لقد نشر بعض الذين استاءوا من تحكم الروس العظام في البداية في اصلاح وتعويض الظلم الماضي، كما كان الحال مع التتار من اهل القرم الذين رُحلوا بالقوة من خليج البحر الاسود الدافىء الى مسافة بعيدة تصل الى آسيا الوسطى وسيبيريا. واعترض آخرون مثل المفكرين الاوكرانيين والبيلوروس ضد تحويل ثقافتهم ولغتهم الى الروسية. ولقد اصبح آخرون مثل مسلمي اسيا الوسطى، اكثر جزماً وتوكيداً في مطالبتهم بالاستقلال الديني والثقافي. وقلة آخرون ذهبوا ابعد من ذلك، مثلما هي الحال مع اليشوانيين واهل التفانيا

وايستونيا، الذين ثاروا، بعد اربعة اجيال من القهر والكبت، في مظاهرات ضد الدمج الاجباري في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٠.

لقد كان انهمار العواطف الوطنية متفجراً خصوصاً في بلاد البلطيق. والذي يبدو ان ستالين قد سحقه، ولكن لم يفقد اهل ليثوانيا، لتفانيا وايتوانيا ابداً شعور الهوية المميزة والواضحة والتي لديها عوامل مشتركة مع البلاد الاسكندنافية اكثر من كونها مع روسيا السوفياتية. لقد اطلق انفتاح غورباتشيف العنان لهذه المشاعر، ولقد عبرت عن نفسها في البداية في نشر واعلان الرايات والاعلام القومية المضمورة منذ زمن طويل، وفي غناء النشيد القومي الوطني المضمور ايضاً منذ زمن طويل في مظاهرات شعبية صاخبة، كان المتحدثون الرئيسيون في بعضها الفدائيين المقاتلين السابقين ضد السوفيات. ونهض ايضاً بعض اعضاء الحزب الكبار، بعد الشعور بالنشاط في البلطيق، مدافعين علنا عن الوضع الجديد المحسن لهذه الجمهوريات السوفياتية وتحويل اقتصادهم المراقب في موسكو الى «منطقة اقتصادية حرة»، (وهذه الفكرة تبناها مساعد غورباتشيف الاقتصادي ابل اجنبجيان (Abel Aganbegyan))، وشبه ذلك المناطق الساحلية الصينية التي حُولت للمشاريع الحرة والاستثمارات الاجنبية. ويمثل النهوض العفوي للجبهات الشعبية البلطيقية، والتي شكلت وأسست خطط طموحة لحكم ذاتي حقيقي وشبه سيادة لبلادهم، البداية ايضاً لبناء سياسي يمكن ان يصبح المنافس والند للحزب الشيوعي الحاكم، واما المطالبة الرسمية لسيادة وطنية حقيقية، فانها مسئلة وقت فقط اذا استمرت عملية الانفتاح.

وفي نفس الوقت فقد افادت الادانات ضد الستالينية كحجاب للمشاعر المباشرة المناهضة للروس والتي لا تزال اخطر من ان يعلن عنها علناً. ولهذا فقد تمكن الكاتب الاوكراني في ليثوانيا ـ اوكرانيا في ١٨ شباط عام ١٩٨٨، من ادانة ستالين ولقبه «بالوحش» لأغتياله النخبة المفكرة والسياسية الاوكرانية اثناء التطهير والتعجيل بحدوث المجاعة الشعبية العامة، ولكن دون ان يشير باصبعه مباشرة الى الروس العظام. وتمكن اهل البلطيق من التجمع مرتين، بحلول عام

١٩٨٧، وفي ربيع ١٩٨٨، وذلك لتكريم ضحايا تهجير الستالينية وللضغط للحصول على حقوق اكثر دون التعرض او ادانة ضغط الروس العظام مباشرة. وتمكن التتار من التظاهر لكسب حق العودة الى اوطانهم كأسلوب للتعبير عن رفضهم للنفي الذي فُرض عليهم بالقوة. وايضاً تمكن مسلموا اسيا الوسطى من تنظيم على ما يبدو حج ديني الى قبور الملالي الذين قتلوا اثناء مقاومتهم لأخضاع وقهر ستالين لمنطقتهم، وايضاً لزملائهم المسلمين الذين اعدموا رميا بالرصاص لرفضهم الخدمة في الجيش الاحمر في الحرب العالمية الثانية. وانتهز آخرون عملية تبديل غورباتشيف الحاكم غير الروسي بروسي عظيم، كعذر وسبب للتظاهر ضد الحكم المركزي، كما حدث بعنف ولعدة ايام في اواخر عام ١٩٨٦ في عاصمة كزغستان، المااتا (Alma - Ata). لقد شاركت كل هذه الظواهر القومية في الرغبة المشتركة لحل وفك ويمكن ايضاً لقطع القيود التي فرضها من فوق الروس العظام في موسكو.

لقد كان كون الدين الاساسي للجزم الذاتي القومي مهماً وخصوصاً في حالة اسيا الوسطى، بوجود خمسة واربعين الى خمسين مليون مسلم. فقد اعترفت الصحف والاعلام السوفياتي في عام ١٩٨٧ وعام ١٩٨٨، وذلك بعد سنوات من التصريحات بان التمسك «بالخرافة» قد انتهى، بان الاسلام كان يمر في حالة انبعاث واحياء ملحوظ، وبان النشاطات الدينية السرية كانت في ازدياد ملحوظ ايضاً، وان الحرب في افغانستان قد اشعلت واحيت الشعور بالهوية الاسلامية. وقد قيل ان بعض المسؤولين الشيوعيين في المناطق الاسلامية كانوا يشتركون في الطقوس الدينية ويعرفون انفسهم في العادات المحلية والتقاليد القومية. ولقد اشتكى احد الكتاب في مجلة ليتراتورانايا كازيتا (Literaturnaia Gazeta) في ٢٠ ايار عام ١٩٨٧ في طشقند: «بان كلام وخطابات غريبة قد بدأت تظهر على لوحة الاعلانات خصوصاً كل يوم في المركز العام المختص للأتصالات. . حيث يعمل عادةً الاشخاص المثقفون. . وتدعو هذه الخطابات زملائهم الى الحوادث والممارسات الدينية» وان الامين العام المحلي للحزب

قد دعا الناس «لأحياء ذكرى مع قراءة صلاة من القرآن».

ولقد وضعت الجبهات القومية تهديداً خطراً مشابهاً للحوادث والشغب. فلم يكن هناك حب مفقود بين القوميات غير الروسية، وخاصة في القوقاس. لقد تعادى وتخاصم اهل جورجيا والارمن والازدربيجانيين منذ قرون حول الدين والارض. لقد بقي العداء العنيف كامناً ومستتراً خلال سنوات التكملية الستالينية، مع ان المنطقة تشكل خارطة فسيفسائية من الاديان المسيحية والاسلامية والطوائف، ولقد تعقدت بالامتزاج الصعب للسكان العلمانيين. لقد تفجرت الحوادث عنيفة ومميتة في القتال الارمني الازاري في بداية عام ١٩٨٨ حول منح حصة الارمن القاطنين في مقاطعة ناجورنور كارابخ (Nagorno - Karabakh) الى الاذربيجانيين منذرةً بمواجهات اوسع عرقية ودينية في المستقبل. لقد قتل العشرات، ولقد سيطرت الجماهير الصاخبة على عاصمة ارمينيا، باريفان، لعدة ايام، ولقد أجبر الكرملين غير مشكور على مهمة التوسط بين الانفعالات القومية المتنامية بين الارمن والاذربيجانيين.

لقد سمحت سياسة غورباتشيف لكل هذه المشاكل بان تظهر وتطفو على السطح. ولقد كان السبب بسيط جداً، وذلك لأنه من المستحيل التبشير او حتى بممارسة الانفتاح والديمقراطية دون السماح للتعبير عن المظالم القومية. ولقد كان تراث الستالينية مريراً جداً، واعادة تجمعات مفاسد وسوء استعمال الروس العظام يانعة جداً للمفكرين والطلاب من غير الروس بان لا ينتهزوا الفرص التي يقدمها الانفتاح الآن. ولقد اعترف غورباتشيف نفسه بان المجبهات الافقية ايضاً قد تحولت لتصبح رفض عامودي لحكم الروس العظام، ملاحظاً في ١٩ تموز عام ١٩٨٨ في الاصطدام بين الارمن والازاري، «ان الانفعالات الى حد ما تخرج عن نطاق السيطرة. ويظهر هناك شعارات مناهضة للأشتراكية وللسوفيات وللأسلوب والصفة الروسية». وبالاضافة الى ذلك فان ابطال المركزية الاقتصادية البسيطة قد افادت في تقوية الضغوط المحلية لسيطرة مباشرة اكبر، ومشعلة بذلك ومعقدة ايضاً المتطلبات لأصلاح اقتصادي مع الموضوع القومي المنفجر.

لقد فاجأت هذه التطورات الجميع حتى القادة المعتدلين وذوي النيات الحسنة في الكرملين. لقد ظهر المركز بانه قد انخدع من دعاياته الخاصة، وانه قد صدق وآمن ان المشاكل القومية لم يعد لها وجود، وذلك من الحكم الناتج من التحليل للمشكلة القومية المنشور في موسكو بعد اندلاع النزاعات القومية. لقد تراوحت اذن ردود الفعل من ادانات ازفستيا الوحشية في ٩ شباط ١٩٨٨ «للمخربين العقائدين» في ليثوانيا والذين قالوا بان ينظر الى الشيوعيين «كخونة للمصالح القومية»، الى ان تصل تحليل غورباتشيف الخاص الاكثر ارباكاً والذي وصفه على اثر حوادث العنف في الما ـ اتا (Alma - Ata) ، مناشداً بان لا ينظر الى المشاكل القومية باسلوب سطحي بسيط «وكذكرى في اوقات الانتخاب الاحتفالية بدلاً من الدراسات العلمية الجدية». لقد صفت اذا المشكلة القومية النائمة سياسياً منذ الثلاثينيات ـ وهذه المرة كفكرة رئيسة للمطالبة في اعادة البناء وبالاساس كأكبر واخطر تحدي له ايضاً.

اما المصادر الثلاثة الديناميكية المتبقية للأنشاق المحلي فانها متعلقة بالشؤون الخارجية. وتوجهت هذه المصادر الى اشراك دائرة اصغر من المجادلين والمتنازعين والذين حُددوا بنخبة سياسية السوفيات خاصة ومع ذلك فقد كان النقاش حول الشؤون السياسية الخارجية بدعة جديدة مروعة في النظام السوفياتي، شاهداً على الانتشار الملحوظ للديمقراطية او الاكثر احتمالاً، فقدان السيطرة المركزية المتزايدة للطبقة الحزبية.

الحرب في افغانستان: لقد افرزت هذه السياسة الخارجية بالتدريج اوسع نقاش عام. مع انه في البداية، لم تُناقش اهداف الحرب علناً، ولكن اعداد الاصابات المتزايد حرك الشعور المتنامي ضد جهود الكرملين بأبقاء موضوع الحرب بعيداً عن الاجماع العام. ان الدفن السري واشارات الحميد على شواهد القتلى الى «واجب الطبقة العمالية العالمي»، والمعاملة غير الخاصة للجنود العائدين او حتى العجزة ـ بدون ذكر التأجيلات لأبناء الرسميين الكبار ـ كل هذا

سبب المرارة التي لا يمكن تجاهلها الى الابد، وخصوصاً في مجرى حملة الانفتاح المتوسع.

وبالطبع، فقد اذيعت كل هذه الشكاوي، حتى المواضيع الاكثر حساسية. وعلى سبيل المثال، لقد قدم الحزب تفسيراً، ولو انه ضعيف، في البرافدا في ٢٥ تشرين ثاني ١٩٨٧، للأفضلية الممنوحة الى ابناء الشخصيات السياسية الكبار: «اننا نرسل الافضل في كل شيء الى افغانستان، والذين هم في الدرجة الاولى في الشروط المطلوبة. واما ابناء مسؤولي القيادة، ومع ان هذا يبدو غريباً، فغالباً ما يكونوا غير مؤهلين للخدمة في الجيش». وبينما كان هذا يجب ان يغضب عائلات الذين تشوهوا او قتلوا في الحرب، فكان من المهم ان كل هذه الامور قد نشرت في عام ١٩٨٧، جاعلةً بذلك من الحرب موضوع عام مشيراً للخلاف والجدال.

وبمرور الوقت، ادت هذه الشكاوي الشخصية الواسعة الى مسائلة عامة اكثر دلالة لحكمة القرار الفعلية الصادر من الكرملين لأطلاق هذا الاجتياح. وقد انتشرت الاشاعة في موسكو بان بريجينف ورفاقه الرئيسيين كانوا سكارى فعلياً عندما اصدروا القرار الاخير بالاجتياح. ولم يسبق لهذا الانتقاد العلني لسياسة خارجية لا تزال مستمرة مثيلٌ في التاريخ السوفياتي القريب. وعلاوة على ذلك، فقد احدث او. بوجوملوف (O. Bogomolov) سوفياتي معروف مختص بالشؤون الخارجية، كشفاً استثنائياً انه بعد ثلاث اسابيع من الهجوم، ارسل مجمع اقتصاديي النظام الاشتراكي العالمي التابع لأكاديمية اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية للعلوم الى قيادة الحزب تحليلاً حول «عدم جدوى والطبيعة المدمرة لهذا العمل». ولقد ناقش اختصاص آخر في الشؤون الخارجية أ. بوفين (A. Bovin) في اذاعة موسكو في ٢٢ ايار ١٩٨٨ ان من الآن فصاعداً «ان ارسال القوات المسلحة السوفياتية الى الخارج للأشتراك في نشاطات حربية، يجب ان يتم فقط بعد مناقشة في اعلى المؤسسات التشريعية للبلاد، ويجب ان يحظى بموافقتهم».

ويستطيع اي شخص يحدس ان القرار الحتمي لسحب القوات السوفياتية نتج جزئياً عن الضغوطات المحلية، مع ان الجيش السوفياتي والشرطة السرية كانوا من المحتمل انهم انزعجوا جداً من التورطات الواسعة والطويلة لهذا الاعتراف الضمني بالهزيمة. ولذلك فمن المحتمل ان النقاش حول افغانستان سيستمر حتى بعد انهاء اشكال الاشتراك السوفياتي المباشر، وخصوصاً في حالة ان الهزيمة تشير جزم وتوكيد ذاتي قومي اوسع داخل الاتحاد السوفياتي.

السياسة الخارجية والدفاع: مع انه قد جرى النقاش حول السياسة الخارجية في عدة مؤسسات متخصصة، كان الميل في السؤال عن تظاهرات الماضي والدعوة الى «تفكير جديد» (والتي وصفها الفرنسي المعروف والمختص بالشؤون السوفياتية ميشيل تاتو (Miehel Tatu) باستهزاء وازدراء بانها البديل «لعدم التفكير» الماضي). لقد زود يي بريماكوف (Ye paimakov) وهو من العقول الذي يثق بها غورباتشيف، اكمل تصريح لطريقة التعديلية، والذي دعا في مقال رئيسي بعنوان «الفلسفة الجديدة للسياسة الخارجية» (New pholosofhy ofForeign Policy) في البرافدا في ٩ تموز عام ١٩٨٧، الى رفض فكرة ان التواجد السلمي كان يمثل فقط فترة وجيزة، طالب بالتخلي عن تصدير الثورة كمظهر لسياسة السوفيات، واكد على الواقع الجديد للتوافق العالمي. وكانت نفس الافكار متطورة اكثر في كتاب غورباتشيف الخاص، بينما بدأ االاستراتيجيون في الحقل العسكري يطورون فكرة «المذهب الدفاعي» (Defensive Doctrine) كنقطة انطلاق الى علاقات استراتيجية اكثر رسوخاً مع الغرب. ولقد كان التناقض بين تلك الافكار والسياسة السوفياتية السابقة في كل هذه النقاط، اخاذاً ولافتاً للنظر.

الكتلة السوفياتية والحركة الشيوعية العالمية: لقد اكد غورباتشيف في احتفال موسكو بالذكرى السبعين للثورة البلشفية، على المساواة الاسمية لكل الاحزاب الشيوعية، ورفض بصراحة اي ادعاء لأي دور خاص قيادي للحزب السوفياتي وهذا ابتعاد مذهبي عن ادعاءات موسكو السابقة بان مصالحها يجب ان تكون الدليل والموجه لكل الشيوعيين في كل العالم. وبينما ان مذهب

بريجينيف لم يرفض رسمياً، فقد المح غورباتشيف بانه لن يطبق لمنع التغييرات التـاريخية في اوروبا الشرقية، والتي قادت بدورها بعض دول اوروبا الشرقية للتأكيد بان ما حدث في عام ١٩٦٨ من احتلال شكوسلوفاكيا لن يحدث ابداً بوجود غورباتشيف في السلطة. ومع انه لا يمكن تجربة صلاحية هذه الظاهرة، فالنتيجة كانت تشجع تلك الدول في اوروبا الشرقية التي كانت تضغط وتحث للتغيرات متقدمة بكثير عن سرعة اعادة البناء السوفياتية. وبنظر بعض الزعماء السوفيات، فقد كان وضع غورباتشيف مثيراً للمشاكل بدون شك. فاي عدم استقرار رئيسي في اوروبا الشرقية كان من المحتمل ان يحرك مناقشات حادة في الكرملين حول موضوع السياسة الخارجية هذه.

لقد اوجدت كل هذه المناقشات المتشابكة تأثير نشط ديناميكي. فالمطالبة للتجديد الاقتصادي حركت الضغوط للديمقراطية، والتي بدورها هددت احتكار الحزب للسلطة والمعتقدات الرسمية، فاتحة بذلك الابواب مشرعة النداءات المتنـافسـة للدين والقـومية، وفـارضـةً خطر الانشقاق السوفياتي المؤجل ومن المحتمل المتزايد والمكشوف. ولقد كان حدوث هذه المناقشات فعلياً، ولم تحدد او تحدث داخل المجرات الداخلية للحزب له معنى هام خاص وذلك لثلاثة اسباب.

اولاً: لقد كانت تمثل انفصال هام وملحوظ عن العادات والشرائع السياسية القـائمـة. لقـد اشـركت الاستبـدادية السـوفياتية ولعدة اجيال التنظيم الصارم للمجتمع داخل دولة قيم غير سياسية مع اجماع سياسي بالظاهر. لقد وقف الواقع الجـديد من المشاحنات الاجتماعية والسياسية في تناقض حاد مع الانسجام والتطابق الصامت للستالينية، المسيطرة منذ عام ١٩٢٨ على اقل تقدير.

ثانياً: لقد وضعت خطراً على سلامة المذهب الماركسي ـ اللينيني وايضاً خطراً اسـاسياً على وحـدة الاتحاد السوفياتي. لقد كانت مناقشة مُفكر وعالم مفتوحة، ومبنية على استيعاب لتبصرات علمية جديدة، وطبقات وفئات فلسفية،

متضاربة ضمنياً مع مذهب يرى نفسه كنظام مغلق يحتوي على اجوبة صحيحة وعلمية لكل المعاضل الاجتماعية. وبالاضافة الى ذلك فاذا لم توصل المناقشات الظاهرة باعداد كبيرة بشكل ما الى عملية التعددية المؤسساتية او ان تكبح وتكظم، فمن الممكن ان تحرك تهديد متصاعد نشط. وحتمي للسلامة الحقيقية للأتحاد السوفياتي نفسه.

ثالثاً: لقد كذبت وشوهت الشيوعية السوفياتية خاصة، وبالاشارة، الشيوعية عامةً. لقد اكدت الاظهارات بالشبه الى جرائم الماضي، والانتقادات للتطبيق الحالي والماضي، كل ما كان الباحثون الغربيون قد كتبوه عن الستالينية، والذي بسببه قد قُدحوا ونعتوا في الصحف السوفياتية «كمناهضين متأصلين ضد الشيوعية». وفعلياً، فقد كانت الروايات المفصلة والمؤلمة حقاً، والحادة والمؤثرة للمعاناة. والمآسي التي وقعت على الابرياء من الجنس البشري والتي ظهرت في الصحف السوفياتية، مدمرة في تضمينها العقائدي اكثر من الكثير الذي كتب في الخارج. وايضاً قد اظهرت المناقشات معطيات اضافية بالنسبة الى الفشل الماضي والحالي في الاقتصاد والمجتمع السوفياتي، مؤكدةً بذلك التأكيدات الغربية الاكثر انتقاداً للتطبيق الشيوعي ككل.

الفصل السابع

هل الشيوعية متطورة ام مضمحلة؟

ان المسألة الحقيقية بالنسبة الى المستقبل ليست فيما اذا كان غورباتشيف سوف يستمر ويبقى او انه سوف ينجح او يفشل. ولكن المسألة الحقيقية هي فيما اذا كانت الشيوعية السوفياتية متطورة الى نظام متسامح ومبدع اقتصادياً الى حد بعيد أو انها مضمحلة أو ايضاً منكسرة. لأنه من الممكن، بعد كل هذا، ان يُعزل غورباتشيف من السلطة او ان يتوفى او يموت في ظروف غامضة وبعد ذلك واحدٌ من المعلمين يكمل العملية، حتى ولو في اسلوب اكثر حذراً. ويمكن كبديل لذلك ان يستمر اسمياً في السلطة ـ وبسبب شعبيته فمن الممكن انه لا يزال مفيداً للكرملين كرئيس دولة في مكان غروميكو ـ ولكن يتخلى تماماً عن سياساته. واخيراً هو نفسه يمكن ان يبطىء أو ايضاً ان يسارع في سياساته لأنقاذ سلطته بينما يطرد منافسيه من مناصبهم ـ مثل ليفاشيف ـ.

والسؤال الاساسي هو فيما اذا كان النظام السوفياتي يستطيع ان يتطور بنجاح الى نظام اكثر تعددية، الذي يحرك ابداع اقتصادي واجتماعي اكبر وبذلك يجعل من الاتحاد السوفياتي منافس حقيقي في المسرح العالمي. ويعتمد جواب ذلك ليس فقط على مصير الاتحاد السوفياتي كقوة رئيسة ولكن ايضاً على الافكار الشيوعية بشكل عام. ومن المحتمل ان يكون هذا الاهتياج الحالي اشارة لذلك التغيير، ولكن ايضاً يمكن ان يكون المرحلة الاولى لتكسر النظام نفسه.

لقد لقب هذا النظام بالاستبدادي، ليس فقط لأنه اخضع المجتمع للنظام السياسي بالاكراه، ولكن ايضاً لأن هذا المجتمع قد اعيد تشكيله بعنف حسب

برنامج عمل عقائدي. ولقد وجدت بذلك شرط القيم المسيسة، وتوقفت الحياة السياسية، وبدا ان صمت كامل يخيم على الاجماع للمجتمع. واصبحت السياسة الحكر والحق المقصور على القادة الكبار فقط.

ولذلك يتطلب التخلي النشوئي عن خصيصة نظام الاستبداد بتأكيد تنظيمي تدريجي لأطار سياسي اكثر تعددية، والذي يسمح للمجتمع بان يقوم بدور اكثر نشاطاً ويحيا سياسية حقيقية ليصبح مظهراً لوجود اجتماعي طبيعي. ويعتمد الجواب النهائي لسؤال مشابه لذلك النشوء على امكانية اجتياز معضلتين متضاربتين متضمنتين في الواقع السوفياتي الحالي: الاولى، هل يمكن تحقيق وانجاز الاحياء الاقتصادي بدون اعادة تحديد وتعرف لدور الحزب الشيوعي في الادارة الاجتماعية؟ والثانية، هل يمكن انجاز اللامركزية الاقتصادية وكذلك التقليص المصاحب لها فيدور حكم الحزب المركزي دون تقوية ودعم لسلطة غير الروس الى الدرجة التي تصبح فيها اللامركزية متساوية حتمياً مع التفكك التدريجي للاتحاد السوفياتي.

لقد اعترفت قيادة الحزب السوفياتي في منتصف عام ١٩٨٨ بافضلية الاصلاح السياسي على الاقتصادي. واعلن قرار الحزب بوضوح «انه يجب اعطاء الافضلية القصوى للأصلاح التقليدي للنظام الساسي». ولكن وكما اعترفت البرافدا حرفياً بعد ثلاثة ايام في ٧ تموز «ان عمليات الدقرطة تتقدم الى حد الآن ببطء، على المستويين، المركزي والمحلي». لم يعاني اعضاء الحزب الاسميين لأي نقص بسبب الاصلاحات الاقتصادية ولا تغيرات غورباتشيف السياسية المقترحة في الدور الملائم للحزب قد أُعيد تنظيمها. ويبدو ان الاستغاثات المتواصلة لمركزية التراث اللينيني قد اكدت على اصرار الحزب على التمسك بالموقع الخاص وباحتكارية السلطة، بغض النظر كون هذا له فاعلية اقتصادية ام لا.

ولذلك، فقد اصبح السؤال الآن، هل يمكن للأصلاح الاقتصادي ان ينجح

اذا لم يكن الحزب راغباً في التراجع. ويبدو ان الجواب بالنفي. لأن وجود التقنية التسويقية، وظهور البيئة التسعيرية المركبة على اسلوب العرض والطلب، وانشاء التدفق العمالي الحر، مع ظهور الطبقة الادارية ذات الميول والنزعة الى المخاطرة مع حرية المغامرة الرأسمالية، وتحرير الزراعة، كل ذلك هي شروط مسبقة لأي نجاح اقتصادي فعلي. ولكن ذلك يتطلب ايضاً نقصان هام في دور الحزب بنفس نوعية الاساليب التي لا يريدون ويرفضون اعضاء الحزب السوفيات ان يتحملوها. ان الفجوة الساطعة بين الانفتاح واعادة البناء متأصلة في هذا الشرط. ولذلك فان هذا الاصلاح متجه الى انتاج خيبات امل مدمرة.

وبالاضافة الى ذلك، فان التفتح الاجتماعي الاصلي للأصلاحات المطلوبة مفقود. حيث ان العادات القديمة والقصور الذاتي تضع معوقات ضخمة امام التغيير. ولأن الجماهير شكوكية على افضل تقدير، ومهتمة بالنتائج الاقتصادية الفورية لعملية اعادة البناء. ولقد ذوّت العمال اسوأ هيئات المساوئية، ومرتبون من الاصلاحات التي تشير الى مكافئة الانجاز الجيد. وايضاً فالتقليد الفلاحي قد دمر. والمدراء يخشون عظم المسؤولية وفقدان باعث وحافز المقاولة والمسؤولون يفضلون المركزية. وبهذا يكون التاريخ الروسي والواقع السوفياتي يتعاونان ضد اعادة البناء.

والمشاكل القومية هي ايضاً من المعاضل المركبة لعملية اعادة البناء. فمعدل النمو السكاني كان اعلى الى حد بعيد بين غير الروس، وخصوصاً بين سكان وسط اسيا، والذي ارتفع عددهم بمعدل ٧٢ بالمئة تقريباً بين عامي ١٩٥٩ و١٩٨٩، بعكس معدل النمو الذي وصل الى ١٩ بالمئة للسوفيات السلافيين. وبهذا، سيشكل الروس الاكثرية بين الشعب السوفياتي قبل مرور وقت طويل. ومع ذلك فالروس العظام يستحوذون على السلطة السياسية لوحدهم في المركز، مع تمثيلٍ رمزي لغير الروس. ويتمتع الروس عامة بحرية وافضلية احسن لمواقع النخبة الحالي على المكتب السياسي. وايضاً فالسياسة اللوغية

تفضل اللغة الروسية، ومثال ذلك فقد نشر عام ١٩٨٦ ١٤ كتاباً بالروسية لكل روسي يعيش في الاتحاد السوفياتي بينما نشر ٢,٤ كتاباً في اللغات الاخرى لكل غير روسي. وعلاوة على ذلك، فان سياسة الكرملين الاقتصادية تفضل الاستثمارات الرأسمالية والتطور في الجزء الروسي من البلاد.

ومن المقرر للامركزية ان تنتج مطالبات لتصحيح هذه المظالم، ومع ذلك فالسيطرة المركزية الروسية مطوقة بأحكام وعمق بأجراءات قائمة حتى ان الاصلاح ينتج المشاعر القومية، ولكن من الممكن ان يغذي الاصلاح شهوة اكبر بين غير الروس للسلطة. ويمكن للمواقف الانفصالية، وخصوصاً بين اهل البلطيق، والمسلمين السوفيات الذين يحفزهم ويحثهم انبعاث الاسلام في انحاء العالم، ويشجعهم على ذلك ايضاً الفشل والهزيمة السوفياتية في افغانستان، ان يضع تهديد حقيقي للوحدة في الاتحاد السوفياتي.

والمسألة الجديرة بالمراقبة والرئيسة ستكون القومية المتنامية بين الاوكرانيين السوفيات، بوجود خمسين مليون انسان ومصادر طبيعية كبيرة. فلقد ازدادت النشاطات السياسية، الدينية، والثقافة الاوكرانية الشبه سرية في مدن كييف ولفوف (Kiev and Lovov) منتهزين فرصة الثغرات الذي اوجدها الانفتاح. وكان ضغطها وهجومها يهدف الى التشديد والتأكيد على الخراب والاذى الذي اوقعته سياسات السوفيات الماضية على الاوكرانيين، والواجب القومي لمقاومة التحول الى روسيا. ان اكثرية الاوكرانيين يلومون موسكو، بالصواب والخطأ لكارثة شيرنوبل، ـ ونتيجة لذلك فالروس ملامون استنتاجياً ـ ويعتبرونها ثاني اكبر كارثة (بعد المجاعة في الثلاثينيات) وقعت على امتهم سببها الحكام في الكرملين. واذا ما تطورت المشاعر اللغوية والثقافة والتي تستخدم خالياً علناً وبحماس شديد حتى في الاعلام الرسمي الاوكراني، الى طموحات انفصالية مدعومة بقسم كبير وهام في الشعب الاوكراني، فسوف تصبح مشكلة القومية ازمة بقاء ووجود للاتحاد السوفياتي.

لقد زودت البرافدا الصادرة في موسكو دلالة منذرة عن اشياء قادمة، وذلك في رؤيا نشرت في ١ تموز عام ١٩٨٨ عن تجمع جماهيري في مدينة لفوف (Lvov) ولقد تحول التجمع، الذي نظم ظاهرياً للأحتفال بذكريات تاريخية، والذي يضم عدة الاف من الناس، بسرعة الى مظاهرة قومية ضخمة. وتزعم تلك المظاهرة القوميون الفاعلون وهيمن على تلك الامسية مطالبات سياسية مشحونة عاطفياً. لقد ادانت واستنكرت الصحف الروسية المتحدثين الاوكرانيين في التجمع ووصفتهم بانهم «منحدرين الى جنون مؤقت لا يليق بأنسان، مواطن، ووطني».

ان المشكلة القومية هي بوضوح عقب اخيل بالنسبة الى اعادة البناء. لقد كان اعلام الشعبي السوفياتي مسلماً ومعترفاً بان المشكلة القومية كانت ابعد من كونها قد حُلت، وذلك بحلول ربيع ١٩٨٨. وبنفس الوقت، فقد كان ادراك الروسي العظيم المتزايد للمشاعر القومية المناهضة لموسكو، مناعة لعرض اللامركزية الاصلية، والتي من المحتمل انه كان بامكانها تطوير نشوء بناء للنظام. ولكن هذا المنع قد عزز حصة الروس العظام المكتسبة في ممارستهم للحكم المركزي، حتى وان كان ذلك على حساب عدم فاعلية الاقتصاد.

ولالغاء مركزية اقتصاد مملوك لدولة، يجب الغاء مركز النظام السياسي كذلك؛ ولكن من ناحية اخرى فان الغاء مركزية نظام امبراطورية مكونة من قوميات عديدة يعني تسليم السلطة الى القوميات التي اخضعت من قبل. وبناء على ذلك، يجب على عملية اعادة النباء، وحتى تنجح اقتصادياً، ان تشترك في اعادة بناء «الاتحاد» السوفياتي وتحويله الى كونفدرالية حقيقية، منهية بذلك حكم موسكو او الموسكويين (Muscovite) . وذلك معادل بالفعل لتفكك الامبراطورية. ومن المشكوك فيه ان تكون النخبة السياسية الروسية مستعدة لمقايضة فقدان سلطتهم الامبراطورية مع حسنات ومنافع لامركزية الاقتصاد.

لقد اعلنت صحيفة موسكو نيوز منذرةً (Moscow News) ، الداعمة علناً

لاصـلاحـات غورباتشيف، عن ظهور حركة الروسي العظيم الارتجاعية ضد الديمقراطية، على الاراضي التي كانت تنتج القوميين غير الروسي. ولقد نشرت في ٣ نيسـان ١٩٨٨ ان «العديد من الاشخاص يعتقدون ان مشكلة القومية الداخلية قد اصبحت خطرة متفاقمة من عملية دقرطة المجتمع فجأة». ان قوات ظلام محافظة تلوم وتوبخ قوات التجديد لكونهم قد «فقدوا السيطرة»، مشيرة بجهد الى (سجل معرفتهم) وهذا كله جلبه عملية الانفتاح الى السطح والذي (يقوض النظام) حسب رأيهم. ولقد نشرت الصحيفة الشيوعية الايطالية لونيتا (Lunita) في ٢٣ آيار ١٩٨١، النص الاصلي للهجوم العنيف على عملية اعادة البناء والذي كان قد نشر في وقت سابق من نفس السنة في صحيفة سوفيتكايا روسيا (Sovetskaia Rolliya) والذي يحتوي على جزء اختارت حتى هذه المؤسسة التقليدية ان تحذفه وهو: «ان الخطر الاكبر. قد شكله قومي مفتري ومخزي لقوميات غير هامة مثل تتار القرم واليهود الصهاينة، والذين هدفوا باعمالهم هذه الى تدمير الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفياتي».

ان خوف الروسي العظيم هذا من المشاحنات القومية المتزايد، والمتنامية، ومن اعاقة الاصلاحات المطلوب، تعزز الاحتمال بان النظرة المستقبلية الحقيقية للشيوعية السوفياتية هي اضعاف مفسد وليس نشوء بناء. وامكانية حدوث نجاح تجـديدي حقيقي، والـذي يمكن ان يقود الى مجتمع سوفياتي ذاتي النشاط والحركة، خلاق ومبدع، هي فقط في تفكيك المذهب، تبديد سلطة الحزب، وتحـرير واعتاق غير الروسي من حكم ومراقبة موسكو المركزية. وانه من غير المحتمل ابداً، ان تكون قيادة الحزب مع النخبة الحاكمة مستعدة للمخاطرة بالذهاب سياسياً الى هذا الحد، مهما كانوام مشتاقين وتواقين الى الاحياء الاقتصادي.

واذا فمن حق اي شخص ان يشك بان نجاحاً اساسياً، والذي يمكن ان يكون اختيار قم ١، موجود في عملية غورباتشيف لاعادة البناء. ولهذا يجب

الاخذ بالاعتبار اختيارات اخرى، والتي يمكن ان تضم:

اختيار رقم ٢: اضطراب مؤجل ولكن غير حاسم.

اختيار رقم ٣: تجديد الركود، حيث ان عملية اعادة البناء قد فقدت القوة.

اختيار رقم ٤: انقلاب سياسي ارتدادي وقمعي، كرد فعل لأختيار رقم ٢ أو ٣.

اختيار رقم ٥: تشظي وتكسر الاتحاد السوفياتي، كنتيجة لبعض التركيبات السابقة.

ان البديل الاكثر احتمالاً بين هذه الاختيارات لعدة سنوات قادمة هو اختيار رقم ٢، ولكن مع احتمال كبير بان عملية البناء سوف تفقد تدريجياً بعض زخمها في مواجهة المعوقات الداخلية. ويمكن للأضطراب المتنامي والركود المتجدد ان تحض بدورها على جهود متجددة لأجل انضباط سياسي واجتماعي. ويمكن لهـذه الاخيرة ان تقود الى دكتاتورية عسكرية، وخصوصاً في حالة ان يبرهن الحزب عن كونه مغرور وغير مؤهل في ترويج وتعزيز التغيير او في المحافظة على النظام. ان هذا التحول في الاحداث سيؤذي الافكار الشيوعية التاريخية. لأن الـركـود الاقتصادي والتكنولوجي سيعوق الاتحاد السوفياتي في سباقه مع امريكا. وسوف يعني القمع تجدد انثلام السمعة العالمية لنظام لم يصل الى حل مع ماض الستالينية الاخير.

على اي حال، فسوف يكون من الصعب جداً اعادة مارد التوكيد والجزم الاجتماعي الى زجاجة الاستبدادية، حيث ان المجتمع السوفياتي قد ملك بعض المنـاقشات غير الهامة واصبح بشكل عام اقل حصانة ومنعاً تجاه الاتصالات والافكار الخارجية. وكذلك وبالتأكيد فسوف تستاء الطبقة المثقفة السكرى من عملية الانفتاح، جداً وبمرارة شديدة من اي عودة للقمع والقهر. ولذلك فأي تلازم في فشل النظام السياسي في التطور او في المجهود لقمع المجتمع، هو امكانية جديدة لعدم استقرار سياسي متنامي او تكسر جهازي حتمي. وبالرجوع

الى بعض المصـطلحـات المـاركسية، وفي اسفـل السطر ان «البنية الفوقية» لأستبداد سياسي لا تستطيع ان تتواجد على قاعدة اجتماعية تكف عن كونها هدفاً لتحكمهم الشامل.

ان سياسات غورباتشيف مساهمة، بدون قصد ولكن «بموضوعية» لاستعمال مصطلح ماركسي آخر في بناء وضع ثوري اصلي. فان اصلاحاته توجد جمهور انصـار للتغيير. انهم يطلقـون العنـان للأمال والتي مقدرة بان تخيب املها. يوجـدون الاضطراب والتشويش، وفي نفس الوقت فانهم يحولون نوعية حياة انسان متوسط الى الاسوأ. ويخفضون ايضاً من مستوى الخوف السياسي ـ مع انهم يرفعوم مستوى الاحباط الاجتماعي. ان مثل هذا التركيب هو متفجرٌ ضمنياً.

ويوجد احتمال لتنازلات اكبر وتغييرات يائسة للرد على المصاعب الطافية على السطح ـ من الممكن اصلاحات جدية في الزراعة او اعمال رمزية، مثل الترحيب بعودة الكسندر سولزنستين (Aleksandr Solzhenitsyn) . ومع ذلك، فمن غير المحتمل ان يكون الأرباك المؤسساتي، وخيبة الامل الاجتماعي قد خلصت بذلك. بل على العكس من ذلك، فمثل هذه الخطوات من المحتمل ان تضخم الازمة السياسية الظاهرة. لقد ساعد واقع فشل الاصلاح الاقتصادي والذي أجبر غوربـاتشيف على اعـطاء اقصى افضلية للتغيير السياسي لتـأكيد الافتـراض التاريخي الثوري ـ والذي لا يستطيع غورباتشيف ان يعلنه بصراحة ـ ان الصدع النهائي في النظام السوفياتي هو في التراث اللينيني.

وبـذلك فان عدم اتباع هذا التراث ـ وذلك لعدم وجود بدائل مذهبية أو تنظيمية حالية ـ يمكن ان يطلق سراح قوات جبارة متضمنة في الفساد، الاحباط والخصومة المتراكمة في الحياة السوفياتية المعاصرة. وايضاً فالمطالبة المستمرة لعملية اعادة البناء يمكن ان تزيد من هذه المتناقضات، لأن من المحتمل ان تحرم الاصلاحات المطلوبة العمال من المنافع المبدئية التي كانوا يتمتعون بها

تحت ظل النظام السوفياتي القائم ـ وخصوصاً، ضمان الوظيفي، والرواتب الثابتة بغض النظر عن نوعية الانجاز ـ ودون منحهم امتيازات متشابهة. ومن المحتمل ان الطبقة العمالية المدنية هي الطبقة الاكثر تأثراً عكسياً من النتائج الاجتماعية القصيرة المدى لعملية اعادة البناء ـ مثل التضخم، زيادة بدل الايجارات (والتي كانت متجمدة منذ عام ١٩٢٨!) ومن المحتمل ايضاً البطالة ـ ومن المؤكد ان هذه الطبقة سوف تشعر بالاستياء والامتعاض. ونتيجة لذلك، فمن المحتمل ان يأتي التفرق والتشتت وحتمية عدم الاستقرار الثوري من العمال السوفيات الاكثر وعياً سياسياً، والذين سوف يأتوا ليأخذوا شعارات الاشتراكية لديمقراطية العمال والذين من المحتمل ان يصابوا بعدوى مثال تضامن عمال بولندا.

ومن المحتمل ان تساهم المشاحنات الدينية والعرقية او الطموحات الانفصالية بين غير الروس، والمرارة من استمرار سيطرة موسكو، في الامكانية للتكسر والتشظّي الجهازي. ولا يستطيع الاتحاد السوفياتي ان يتجنب عصر القومية، وان الملازمة في الانشقاق والذي يظهر نفسه الآن هو اظهار للمشاعر القومية المتضاربة ضمنياً. ان المطالبة لأستقلال اقتصادي محلي اكبر ترتفع الآن الى طلبات من على الاقل غير الروس لحكم ذاتي سياسي، هذا اذا لم تصل بعد الى الاستقلال الحقيقي. ومن المحتمل ان تختفي هذه الطلبات في البداية تحت شعارات الاشتراكية والديمقراطية، ولكن توريدها النهائي الى الاتحاد السوفياتي سيكون مميتاً. لانه لن يكون سهلاً للكرملين ان يتعامل مع مثل هذه الطموحات دون بعض الاستعانة بالأكراه، والاجبار.

ويمكن لتعطيل وانهيار النظام التدريجي ان يقود الى انقلاب في المركز، تحت قيادة العسكر، وبدعم الكي جي بي (KGB) . والاكثر احتمالاً ان قيادة مثل هذا الانقلاب سوف تأتي من تحالف الضباط الروس العظام الساخطين، وبيروقراطي الحزب المركزي الخائفين، ومسؤولي الـ كي جي بي (KGB) الخانقين، مصممين عن اعادة ضبط «الوحدة الوطنية» بأسم القومية الروسية اكثر

من كونها باسم الاشتراكية السوفياتية. ويمكن ان يدعو بالشرعية التاريخية لهذا العمل بالنداء الى الوطنية واستدعاء الانضباط الفوري لمواجهة التخبط المحلي. وبذلك سوف تشوه اكثر الشيوعية كعقيدة.

وباختصار فان معضلة النظام الشيوعي المميتة في الاتحاد السوفياتي هي ان نجاح اقتصادها يمكن ان يأخذ على حساب الاستقرار السياسي، بينما يمكن الحصول على الاستقرار السياسي على حساب الفشل الاقتصادي.

الجزء الثالث

الرفض العضوي

ان حقيقة واحدة اساسية مفردة هي المفتاح لفهم مستقبل الشيوعية في اوروبا الشرقية وهي: ان الماركسية ـ اللينينية هي مذهب غريب فرضته على المنطقة سلطة استبدادية صاحبة حكم يكْرهه شعوب هذه المنطقة المحكومة ويبغضه ثقافياً. ولذلك فان عملية رفض مجتمعات اوروبا الشرقية العضوي للشيوعية ـ وهذه الفكرة تشبه رفض الجسم البشري لزراعة عضوية، ـ قادمة على الطريق. وتمارس هذه العملية في مباراة بين القوات القومية التي تسعى لأيجاد الطرف لتحرير مجتمعاتها من مبدأ وعقيدة موسكو، ومحاولات السوفيات لتطوير طريق جديد للحصول على حكم وتحكم نهائي على مصير المنطقة.

ومع ان الماركسية كانت قد أُنشئت وكونت في اوروبا الغربية، فان تبنيها لثقافة روسيا الشرقية الاستبدادية السياسية قد حولت انسانيتها الشرقية الاساسية الى وحشية. وعندما طعم ستالين بالقوة بلدان اوروبا الشرقية بالشيوعية السوفياتية الاسلوب، فيكون بذلك قد زرع الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية في مجتمعات، تعرف بانها مع ثقافة، ودين والتراث الفكري لاوروبا الغربية. وبهذه النتيجة، تكون الامبراطورية السوفياتية في اوروبا الشرقية فريدة من نوعها تقريباً في التاريخ الاستبدادي: ان الشعب المرؤوس لا ينظر الى الامة المسيطرة على انها متفوقة ثقافياً.

لقد كان التفوق الثقافي عامل خطر في قدرة الامبراطورية الرومانية والبريطانية والفرنسية لكي يتحمل لمدة طويلة، حتى وان اعترفت به الشعوب

المسيطرة عليها سرياً وعلى مضض. ولكن على العكس من ذلك، فانه ينظر الى الامبراطورية السوفياتية في اوروبا الشرقية ـ خطأ او صوابا ـ كأضافة والحاق متراجع ومتقهقر من امة ادنى درجة واقل شأناً ثقافياً. ولهذا وبعد اربعين سنة من فرض ستالين للحكم السوفياتي، فلا تزال مجتمعات اوروبا الشرقية تغضب وتفرك تحت الانظمة الشيوعية.

لقد استطاعت العقيدة الشيوعية لفترة وجيزة مع ذلك، ان تعوض هذا الظرف. ومع ان اكثر الاوروبيين الشرقيين نظروا الى السيطرة الروسية على انها تراجع ثقافي، فلقد اعتقد العديد منهم انه كانت لدى المذهب الشيوعي القدرة على سرعة التحديث والتصنيع. وبما ان الاتحاد السوفياتي كان قد اعتبر في وقتٍ ما على انه المثال للشيوعية في الممارسة، فلقد افادت العقيدة، ليس فقط بتقليد الاتحاد السوفياتي ولكن ايضاً قبول سيطرة الكرملين، كضرورة تاريخية ايجابية.

ولهذا فان فشل المثال السوفياتي له نتائج مدمرة اساسية لحقل الحكم الاستبدادي السوفياتي. فانها تسارع تآكل المذهب الشيوعي كرباط لوحدة الامبراطورية. وتزيد وتكشف من الاستياء ضد السيطرة الخارجية، وينظر اليها بتزايد على انها مصدر تخلف المنطقة المتنامية ثقافياً واجتماعياً. وتفرض على موسكو الحاجة بان تدعم الامبراطورية بعلاقات جديدة. وكل هذا بدوره، يحفز ويحرض الى عداوة قومية اضافية ضد حكم الكرملين المركزي.

لقد ناضل الكرملين في السنوات الاخيرة لصياغة علاقات عسكرية واقتصادية جديدة مع اوروبا الشرقية. ولقد عززت سيطرتها على حلف وارسو بالاخضاع المتزايد للجيوش القومية المختلفة تحت قيادة سوفياتية عليا ولقد وضع غورباتشيف في نفس الوقت اولوية خاصة لاستخلاص رأس المال، وتكنولوجيا جديدة وايضاً العمال المختصين من اوروبا الشرقية، وذلك لتجديد الاقتصاد السوفياتي. ولقد كانت هذه المبادرات ايضاً كجواب للأعتراف المتنامي في

موسكو بان قوة الربط العقائدي كانت تضعف، وان القومية في اوروبا الشرقية كانت في نهوض، وان الاتحاد السوفياتي كان قد فقد الكثير من هيبته التاريخية.

وبالنتيجة، يوجد الآن سحبان متعاكسان يعصران بنية الامبراطورية السوفياتية في اوروبا الشرقية. فمن جهة اولى فان عملية التحرير الذاتي من الحكم العقائدي السوفياتي يهدد بتفكك الأواصر بفصل الروابط الاستبدادية. اما من جهة ثانية، فان الجهود التي يرعاها السوفيات لدعم وزيادة الدمج والتوحيد الاقتصادي ـ العسكري تسعى الى مقاومة هذه القوة النابذة. اذن ان الاولى تضم الرفض العضوي للشيوعية من اكثر اوروبا الشرقية. والثانية تستلزم الجهود لتعزيز اعتماد اوروبا الشرقية لمصلحة اقتصادها ولأمن اراضيها على ارادة وقرارات الكرملين.

الفصل الثامن

الاذراع والتحويل العقائدي

لقد نقل سيزلوميوز (Czeslw Milosz) في كتابه المشهور «العقل السجين» (The Captive Mind) بشكل مأساي كيف كان الاستحواذ الاولي في سيطرة المذهب الماركسي ـ اللينيني حتى على الاوروبيين الشرقيين غير الشيوعيين، والذين سحقهم هتلر، وبعد ذلك «حررهم» ستالين. ولقد عكس النظام الستاليني شعور قوة لا تقاوم. ونقلت الديمقراطية الغربية بنفس الوقت شعور اللااخلاف والموافقة على مصير اوروبا الشرقية. وقد اوجدت اوروبا الشرقية شعوراً متراكماً، بتواجدها مع المجال الضخم للتجربة الاشتراكية، للحتمية التاريخية بسوفياتية (Sovietizati-on) المنطقة. وقد بدا ان هذه المصير قد املى حالة قبول وحتى حالة تحول.

ولقد كان توهج التعصب بين المعتقدين الحقيقيين ـ وهم نخبة السلطة الشيوعية المقامة حديثاً ـ على درجة اعلى ايضاً. لقد نظروا الى انفسهم على انهم راكبون ذروة التاريخ. ولقد اسر الهتاف الابتهاجي من احد اكثر الزعماء الستاليين تعصباً، ميزيسلو موكرز (Mieczyslow Moczar) ، الى اللجنة المركزية للحزب البولندي الحاكم، تماماً الحالة النفسية المنتشرة بين المؤمنين المنضبطين: «ان الاتحاد السوفياتي، بالنسبة لنا، نحن اعضاء الحزب، هو الوطن الام، واني لا استطيع تحديد حدودنا الآن، فاليوم هي خلف برلين، وغداً «جبرالتار» (Givaraltar) (جبل طارق).

وبالاضافة الى ذلك، فقد كان هناك بعض الايجابيات المادية الملموسة للمنطقة في بداية التحويل الى الشيوعية. واذن فلم يكن مجرد انجذاب

عقائدي. فلقد نهضت اوروبا الشرقية من الحرب مدمرة، وواعية بدقة بتحلفها الملحوظ بالمقارنة مع اوروبا الغربية الاكثر تقدماً صناعياً ومع روسيا الستالينية المصنعة جديثاً. ولقد جعلت النخبات الشيوعية المفروضة من السوفيات في هدفها المركزي توحيد الاصلاحات الاشتراكية المطلوبة، وخصوصاً توزيع الاراضي الاكثر الحاحاً الى الفلاحين، مع التصنيع السريع. ولقد وضعوا هدف الوصول الى التطابق في خلال عقدين، وبعد ذلك يتخطون بانتاج الصناعة الثقيلة اقتصاديات اوروبا الغربية الاكثر تقدماً. وفي الواقع، فقد تحقق معدلات نمو صناعي سريع في الفترة الاولى ولمدة قصيرة.

وايضاً فقد كان العقد الاول من الحكم الشيوعي في اوروبا الشرقية فترة ترقية اجتماعية للمحرومين اجتماعياً. وخصوصاً في البلاد الاقل تقدماً، مثل رومانيا وبلغاريا، وايضاً في بولندا وهنغاريا ولكن على مدى اقل. وكان لدى هذه البلدان اعداد كبيرة من الفلاحين الفقراء، وكذلك كان لديهم عمال صناعة راديكاليين، والذين كانوا يريدون بل تواقون الى التطابق مع النظام الجديد. لقد فتحت بداية الحكم الشيوعي لهؤلاء العمال، المجالات لتقدم سريع من خلال فرص تعليم اكبر، وكذلك من خلال مؤسسات النفود الجديدة، مثل خصوصاً الشرطة والجيش. وكان ذلك ايضاً صحيحاً في تشكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية، ولكن على مدى اقل، مع انه في هذين البلدين، كانت الطبقة العمالية الصناعية مصدر وفرة للتطوع والتجنيد في النظام الثوري.

لقد كان في مقدرة الحكام الجدد ايضاً، في الفترة الاولى من البناء الشيوعي، ان يفجروا حماس بعض قطاعات من جماعات المفكرين والمثقفين والذين اندهشوا واسروا من التنظيم الاجتماعي التي رعته الدولة والنظرة العلمية الزائفة للشيوعية. ولقد حركَ النظام الجديد ايضاً في السنوات الاولى دعم ومساندة العديد من الشباب، التي جذبتهم النظرة الى عصر جديد، والى مدنية عظيمة وفخمة والمشاريع الصناعية والى الاهداف الانسانية للاصلاح

الاجتماعي. لقد كانت فكرة بناء نظام اجتماعي جديد وعادل على مخلفات الماضي النداء الاول والاساسي للذين جرحتهم الحرب وآذتهم الحرب العالمية الثانية، وكانوا يلتمسون بعض افكار التوجه التاريخي الجادة ولكن مثالية.

ولم تكن انظمة اوروبا الشرقية الشيوعية الجديدة دون خلفية اجتماعية اولية واساسية، بالرغم من اعتمادها الكبير على قوة وسلطة الاتحاد السوفياتي. ويمكن ان يقال ان الشيوعية كأغلبية واسعة في تشكوسلوفاكيا وبلغاريا، قد تمتعت بأفضل دعم محلي، وبأقل دعم في بولندا. لأن الحركات الشيوعية القوية، كانت موجودة في تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا قبل حلول السلطة العسكرية السوفياتية، ومتصاحبة مع صلة تقليدية هامة مع الروس. اما في بولندا، فقد كانت مقاومة السوفياتية (Sovietization) قوية ومتواصلة.

وبينما كانت الشيوعية تتمتع ببعض الدعم، لم تكن تحصل على اكثرية الدعم ولا في اي مكان. وبالواقع، فقد كان الحكام الجدد في هذه المرحلة الاولى، مشغولين في سحق وتصفية متصاحبة لأي بديل سياسي محلي. ولقد استخدمت فكرة النضال الطبقي التي دعمها وعززها مذهب ستالين «الجدلي» بان النضال يتكشف فعلياً مع النجاح المتنامي في بناء الاشتراكية، لتبرير التطبيق الطويل للأرهاب الستاليني النوع في جميع انحاء البلاد. ولقد كانت فترة ما بين ١٩٤٨ الى ١٩٥٣ بالخصوص سنوات العنف، والتي خلالها كانت اوروبا الشرقية هدفاً لسوفيتية (Sovietization) عنيفة جداً. ولقد اعدمت الانظمة الشيوعية عشرات الالاف، وسجنت مئات الالاف، واقامت المحاكم الصورية ومارست الرعب الشعبي.

ولم يكن ارهاب ستالين وحشي فقط بل كان بعض المرات شاذاً. فلقد نشر المؤلف الالماني عام ١٩٨٦، هانزر هنينغ بايزكي (Hans - Henning Paetzke) كتاباً معنوناً بالالمانية (Andrsden Kende In Wngarn)، ويحتوي على مقابلات مع اشخاصٍ عديدين من حركة الانشقاق الهنغارية. وكان واحدٌ منهم اسمه لاسلو

رجْـك (Laszlo Rajk) ، وهو ابن زعيم شيوعي بنفس الاسم، والذي اعتقل في منتصف عام ١٩٤٩، وعُذب، وأجبر على الاعتراف بانه جاسوس صهيوني، واعدم شنقاً في وقت لاحق من نفس العام. ان رواية الابن لقدره ومصيره الخاص توضح بشكل مأساوي فساد الارهاب الشخصي والبيروقراطي كسياسة اجتماعية.

لقد كان عمر رجك اربعة اشهر فقط عندما أعتقل والده. ولقد سجنت امه وجدته ايضاً، وقد «صادرت» الدولة الطفل ووضعته في بيت التربية والارضاع. وقد كان هذا البيت مليئاً باطفال آخرين سجناء سياسيين. وعندما شنق الاب، حكم على الام بالسجن لمدة طويلة، ولكن لم تُعطى عائلتها اي اخبار عما حدث لها. ولم يكن بالامكان معرفة ما اذا كانت على قيد الحياة ام لا، ولم تكن السلطات لتجيب على اي استفسارات. واستمرت اخت الام في النداء والمناشدة لصالح الولد، ولكن لم تتلق اي اجوبة، بالرغم من ساعات الانتظار الطويلة في مكاتب الشرطة المختلفة. ولقد كانت هذه النداءات تقابل بالعداء والصمت.

بعد يومٍ واحد من موت ستالين، استلمت الخالة اشعار من الشرطة السرية بانها في يوم معين وساعة محددة يجب ان تكون واقفة على زاوية شارع ما في في بودابست. واندفعت عند ذلك سيارة رسمية، وخرج منها ولدٌ بعمر ٤ سنوات، واسرعت السيارة بعيداً. ولقد تبنت الخالة الولد وكأنه ولدها، دون ان تعرف ماذا حصل للأم، واكتشفت ان اسمه، والذي هو نفس اسم ابيه قد تغير الى اسم مختلف تماماً. ولقد حصل ذلك «بناء على طلبه الخاص»، عندما كان عمره اربعة اشهر فقط، وذلك بناء على السجلات الرسمية. وبالفعل، فلم يكن الطفل يعرف شيئاً عن نفسه او هويته، ولقد عرف كل ذلك في وقت لاحق بعد عدة سنين عندما افرج عن امه الحقيقية من السجن.

وبدون الدخول في جدل طويل وعقيم حول المعاناة البشرية التي لا حد لها، فيمكن لبعض الاحصائيات القليلة ان تساعد في نقل درجة الارهاب التي

تضمنته سوفياتيت اوروبا الشرقية. ففي هنغاريا، وبناءً على حسابات دقيقة وحذرة لِـ بول لندفاي (Poul Landvai) في كتابه (Das Eigenwillige Mngarn) عام ١٩٨٧ فقد سجن حوالي ٣٨٧,٠٠٠ شخص رغم انهم مناهضون سياسيون، من اصل ٦ ملايين نسمة عدد سكان هنغاريا بين عامي ١٩٥٠ و١٩٥٣، اي اكثر من ٥ بالمئة من الهنغاريين. وفي عام ١٩٥٦، اعدم نظام كادار (Kadar) والذي وضعه السوفيات، ما يقدر بـ ٢٠٠٠ الى ٤٠٠٠ شخص من المناهضين السياسيين وذلك بعد قمع انتفاضة الهنغاريين. وقد بدأ النظام الشيوعي بفحص ماضيه في ربيع براغ عام ١٩٦٨، واظهر بذلك احصائيات مذهلة: فقد حجز اكثر من ١٠٠,٠٠٠ شخص عام ١٩٥١ في تشيكوسلوفاكيا المذعنة (ومن ضمنهم ٦,١٠٠ كاهن وراهب وراهبة» في معسكرات الاعتقال، بينما انتجت عملية التطهير الدموية داخل الحزب اعدام ٢٨٧ شخص من كبار زعماء الحزب، اما في بولندا فقد اوقع سحق المقاومة المسلحة للحزب الشيوعي حوالي ٤٥,٠٠٠ قتيل، وتبع ذلك ما يقدر بِـ ٥,٠٠٠ عملية اعدام لمناهضين سياسيين مختلفين. ويجب ان يضاف الى ذلك عدد غير معروف، ولكن يقدر بالتأكيد بعشرات الالاف ـ من الذين رُحلوا الى معسكرات الاعتقال السوفياتية ولم يعودوا من هناك ابداً.

لقد كان النظام الشيوعي البولندي مصمماً بشكل خاص على التخلص من اي اشارات او رموز لقيادة سياسية مستقلة. ولقد ركز النظام البولندي اكثر شراسته على الزعماء الاحياء لحركة مقاومة النازية السرية، وخصوصاً القادة والضباط السابقين «لجيش الوطن» (Home Army) والذي كان اكبر منظمة سرية في الحرب العالمية الثانية. ولقد تعرضوا لوحشية خاصة، وصممت محاكمتهم الصورية لوسمهم بانهم من المتعاونين مع النازية. لقد زُين بعضهم بقطيعات من ورق الصحف على شكل الصليب المعقوف، واحتجز آخرون في زنزانات الموت مع المحكومين من مجرمي الحرب النازيين.

لقد نجح الزعماء الشيوعيون، ومن خلال العنف الضخم والمنظم، في فرض النظام الاستبدادي السوفياتي الاسلوب الجديد على اوروبا الشرقية. ولقد سحقوا المجتمعات القائمة وبذلك جعلوا في الامكان ايجاد نظام سياسي واجتماعي جديد. ولكن من الخطأ تعريف مميزات الحقائق الدنيوية في ارهاب منظم تحت نظام استبدادي. فلقد استعمل الارهاب المنتشر والكثيف كسويلة لاعادة بناء المجتمع واداة نهاية لاستمرار وتخليد النظام. ولكن يصبح هذا عند انشائه، مميزاً قبل اي شيء، ببيروقراطية منتشرة وضيقة الافق على مجالات الحياة الطبيعية. وكان هذا الوضع قد وصل الى درجة، وفي اسلوب لا يستطيع اي مراقب خارجي من غرب تعددي وديمقراطي ان يدركه.

ولقد نقل التشيكي السياسي المنشق مكلاف هافل (Vaclav Havel) في ايست يوربيان ريبوتر (East European Reporter) (رقم ٣ تاريخ ١٩٨٧) بافضل اسلوب اساس النظام الشيوعي الذي ظهر من الارهاب النظامي القاسي: «ان الاستبدادية شيءٌ يجب ان يختبرها الشخص في البداية. انها شيء لا يمكن رؤيته عن بعد.. ان العنف في نظامنا روحي اكثر منه جسدي، اي انه مخفي ومقنع. وتبدو الحياة في نظر الأقربين عادية جداً، لأنهم يستطيعون ان يشاهدوا الناس يسيرون في الشوارع، ويتحدثون بسعادة ويتسوقون ـ فمن الخارج لا شيء يَبدو غير طبيعي أو سيء، ولا يوجد اشارات للمذابح. ولن يرى اي سائح او زائر ابداً عنف النظام».

واضاف هافل شارحاً، ولاختبار القمع الحقيقي نظام، يجب على الغربيين ان يعيشوا تحت ظله، وان يكونوا باستمرار «تحت رحمة بيروقراطي صاحب نفوذ، حتى اذا احتاجوا الى اي شيء تافه عليهم ان يتقربوا من احد المسؤولين أو من آخر. وسوف يلاحظون التدمير التدريجي للروح الانسانية، وللكرامة البشرية الاساسية.. ان الناس يعيشون حياتهم في حالة من الذل الدائم. هذه هي صورٌ للنظام الاستبدادي والذي لا يمكن للتلفاز ان يصوره، او ان يشرحه بسهولة واسهاب للزائرين. وحتى يروه يجب عليهم ان يختبروه.

لقد دفعت ضربة النظام السوفياتية الاسلوب الذي وقع على اوروبا الشرقية طبقة حاكمة جديدة، والتي تدين بكل شيء الى الشيوعية عامةً والى الاتحاد السوفياتي بشكل خاص. وعلاوة على ذلك، فكلما قل الدعم الاجتماعي التي تتمتع به هذه الطبقة، كلما توجهت الى مطابقة نفسها مع الاتحاد السوفياتي، راعيها وحاميها. وكذلك تستطيع موسكو ان تعتمد على ولائها، وفعلياً خنوع، هؤلاء الذين يعتمدون مباشرة على الكرملين في حياتهم ووجودهم. وبهذا، تكون المصلحة الذاتية والعقيدة قد اوجدت رباطاً محكماً من الاخلاص والتبعية، مع تأليه وتعظيم ستالين على قمة هرم السلطة المنظم والمنضبط.

ولكن من ناحية اخرى، فقد حجب التماسك الخارجي الظاهر للكتلة السوفياتية الهشاشة الداخلية الضمنية للأنظمة الجديدة. ولقد ظهرت هذه الهشاشة بعد موت ستالين بوقت قصير. وبحلول بداية الخمسينيات، بدأ لمعان سراب التبسط العظيم الماركسي ـ اللينيني بالتحلل امام الحقائق القاسية. فلقد تلاشى الحماس الاولي للشيوعية بشكل كبير حالما انتج الادراك الدارج لشفاء اوروبا الغربية الاسرع كثيراً، تمرراً من الوهم والامتعاض. وعلاوة على ذلك فقد حُرمت القيادة السوفياتية باختفاء ستالين الفجائي من شخصية عنيفة ومرعبة.

وعندما تطورت الانقسامات السياسية داخل قيادة الكرملين، وحالما بدأ الزعماء السوفيات. ولولا التدخل العسكري السوفياتي المباشر، لكانت الثورة الناتجة في المانيا الشرقية عام ١٩٥٣، وعدم الاستقرار الكبير الذي تبعها في بولندا، والعنف الواسع في هنغاريا هي السبب الاكيد في انهيار الشيوعية في كل اوروبا الغربية. وحتى في البلاد الاصلية ذات الميول السابقة نحو موسكو، فقد برهنت التجربة مع نظام سوفياتي الاسلوب انه مخيب للأمال تماماً. وقد اظهرت حوادث ربيع براغ عام ١٩٦٨، والذي سحقته الاسلحة السوفياتية عدم رغبة الشعب المتواصلة في قبول نظام سياسي واجتماعي اقتصادي مستمد من تقليد غريب. ولقد حول الاحتلال العسكري السوفياتي بدوره وضع التبعية المستمرة ومنزلة الانظمة الاوروبية الشرقية الشيوعية الى لُعبٍ.

ولا عجب ان يتوجه الاستياء والسخط لأن يكون الاقوى في مجموعة الدول التي لديها اعمق العلاقات الثقافية مع اوروبا الغربية وهي: المانيا الشرقية، تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا، وبولندا. لأن السوفياتيت (Sovietezation) بنظرهم كانت تعني انفصال عميق عن الماضي السياسي والثقافي. وقد كان بالامكان ولفترة قصيرة قمع التاريخ والتقليد، وان يُلغى من وجه الحياة الاجتماعية. ويمكن لعقيدة سياسية جغرافية مبنية على السيطرة من خلال قوة ساحقة، مثل مذهب بريجينيف، ان تحدد الحدود الخارجية للأنشقاق، مُوجدةً صورة خادعة للأستقرار، ومحرضة ايضاً على المظهر الخارجي لاستقالة. وايضاً يمكن لحياة ثقافية ان تمارس الاشكال الخارجية لطاعة مذهبية ويمكن ايضاً للطموحات القومية ان تخرس. ولكن ومع كل هذا، فان الاستياء والسخط والامل يستمر بالهيجان، منتظرة فرصة لتأكيد نفسها مرة اخرى.

لقد تعلم الاوروبيون الشرقيون من نجاح التدخل العسكري السوفياتي ان التحدي المباشر للتفوق السوفياتي ولأنظمتهم الشيوعية لن تجدي نفعاً. لأن الغرب لن يساعدهم. لأن نخبتهم الشيوعية المرهبه سوف تلتمس المساعدة السوفياتية، ولأن الاستبداد السوفياتي سوف يستعمل القوة كي يسيطر. ولهذا يجب تطبيق اساليب غير مباشرة مع صبر اكثر. لأن التحول يجب ان يأتي من الداخل، متخذاً اشكالاً سليمة ويظهر تدريجياً. وفي هذا المعنى، يجب متابعة تسلل تاريخي باستمرار وتواصل. ويجب استخدام على الاقل قسم من الطبقة الحاكمة المختارة للحصول عى النجاح ويستلزم بعض التنسيق والتعاون غير الرسمي مع مؤيدي التغيير المجاورين لدول اوروبا الشرقية. وايضاً يجب انتهاز فرصة انشقاق ملائم داخل القيادة السوفياتية.

لقد اوجد اصرار موسكو على استخدام السلاح، في حالة الضرورة، للابقاء على الشيوعية في السلطة في اوروبا الشرقية تأثير اضافي وغير متوقع. فلقد طمئنت النخبات الشيوعية حتى الاكثر ضعفاً، مثل بولندا، بان الكرملين لن يسمح لشعوبهم المستاءة بان تثور عليهم وتنجح. وشيء طبيعي فان هذا قد

افاد بتقوية الشعور بالامان الشخصي والسياسي للشيوعيين المحليين. ولقد اوجد تعزيز سلامة وأمن النخبة بنفس الوقت، انطباع متناقض لتضييق الفجوة بين تلك النخبات وشعوبها. ولقد اصبحت تلك النخبات اكثر حساسية لمناشدة الطموحات القومية العميقة الشعور، وذلك بتشجيع وتقوية الشعور بالمصير المشترك بين الحاكم والمحكوم. ولقد اصبحت الطبقة الشيوعية الحاكمة تدريجياً اقل ذلاً قومياً، وذلك حالما اصبحت اكثر منعةً سياسياً، وحالما شعرت بثقة اكثر تاريخياً.

وعلاوة على ذلك، فقد كانت الفترة الستالينية اقصر من ان تعيد شق المجتمعات الاوروبية الشرقية تماماً، ومن ان تلغي شعورها بالهوية القومية والثقافية، ومن ان تدمر تقاليدها السياسية الخاصة. ولقد ظهر شعور بالتميز والوضوح مع مرور الوقت، ولكن على درجات مختلفة، وبالضرر من الحكم السوفياتي. فقد تركز هذا الشعور في المانيا الشرقية على متابعة متزايدة لأتصالات بشرية اقرب مع باقي المانيا. اما في رومانيا، فقد ضم هذا الشعور بروز الدكتاتورية الشخصية المتعالية، والقومية المتلاحقة مذكراً بالحرس الحديدي الفاشي في ما قبل الحرب بطرق عديدة. ولقد ركز نفس الشعور في هنغاريا على تحريك الجهد للوصول الى نظام اقتصادي لا مركزي والى فتح قنوات اتصال اجتماعية ثقافية مع النمسا المجاورة. وحتى في بلغاريا الاكثر اخلاصاً، فقد مارس هذا الشعور على شكل برنامج طموح لكسب دوراً اقتصادياً واضح ومختص. وفقط في تشيكوسلوفاكيا المكتئبة، فقد عمت الاستقالات خلال كل فترة عهد بريجينيف، بعد الاحتلال السوفياتي عام ١٩٦٨.

الفصل التاسع

تحرير المجتمع البولندي الذاتي

لقد حدث اكبر تغيير واعظم تحدي، ولم يكن هذا مفاجئاً للتحكم السوفياتي المستمر وللنظام ذي العلامة المميزة والواضحة بالاسلوب السوفياتي في بولندا. فان بولندا قبل كل شيء، الاكبر والاكثر تجانساً عرقياً بين كل دول اوروبا الشرقية التي يسيطر عليها السوفيات. ولقد عُرف تاريخها الحديث بشكل عام باسلوب المعارضة للهيمنة السوفياتية. وتفيد ديانتها الكاثوليكية الرومانية، والتي تفصل بولندا عن جيرانها الاقرب، واعدائها التقليديين، في تقوية الشعور القومي وتصطبغ به مع قناعة مذهبية على اختلاف مباشر مع الشوعية. وكل شيء تقريباً في المجتمع والتاريخ البولندي يتآمر ضد نظام شيوعي فرضته موسكو على وارسو.

وكلمة «يتآمر» ليست تبجح حرفي. ولكنها توصف بدقة الوضع البولندي المعاصر تجاه النظام الشيوعي السائد في بولندا، وتجاه العلاقة غير المتساوية التي فرضتها روسيا. ولقد غرس اخضاع بولندا لمدة ١٢٥ سنة من جيرانها بعمق تقليد المقاومة المتآمرة في الروح القومية. لقد كان على البولنديين ان يتعلموا كيفية ممارسة الحياة القومية المدمجة ذاتياً، وان يتعاونوا فيما بينهم ليتجنبوا المحاولات الوحشية المتكررة للتخلص والغاء كل علامات الاجماع القومي وذلك لمقاومة التقسيم وللمحافظة على هويتهم القومية. ولقد حدد واقع ان الروس قد مارسوا اقسى انواع القمع في القرن التاسع عشر، على البولندين مقاومة قوية في القرن العشرين ضد مذهب ليس فقط غريب عن تقاليدهم ودينهم

ولكن اقحمه على مجتمعهم نفس الروس هؤلاء . ؟

لقد اخترق بعض الشعور المناهض للروس حتى النخبة الشيوعية البولندية الحاكمة الخانعة خلال اسوأ سنوات الستالينية. لقد باشرت صحيفة مغامرة بولندية، تيريزا تورانسكا (Teresa Toranska) عام ١٩٨٠ بعمل سلسلة من المقابلات المتعمقة مع الاحياء الباقين (ومعمرين جداً في وقت المقابلة) من اكبر واقوى اعضاء القيادة البولندية الستالينية. وتكشف هذه المقابلات، والتي نشرت في البداية سرياً في كتاب بعنوان «هم» (ONI) ، الى اي مدى حتى هذه المجموعة من الناس المكرسة للستالينية كانت تخفي مشاعر عميقة ثابتة ضد موسكو. ولم يكتفوا بوصف بعضهم البعض بتابعين لموسكو فقط، ولكنهم اتهموا بعضهم البعض بكونههم عملاء مباشرين لِـ اف كي في دي (NKVD) (والتي اصبحت كي جي بي KGB)، بينما وضع كل واحد منهم نفسه الى تورانسكا (Toranska) على انه كان المخلص الرئيسي لبولندا من الدمج المباشر داخل الاتحاد السوفياتي .

والاهم من هذا، فقد مكن بقاء واستمرار قوة الشعور القومي، بولندا من الاحتفاظ خلال عهد الستالينية ببعض العُزلات من القومية والاصالة الذاتية. وأهم شيء منها كانت الكنيسة الكاثوليكية. ولقد احتفظ ببعض الثقافة الذاتية ولكن الى مدى محدود جداً. ولقد حرر الفلاح بعد ١٩٥٦ من الجهود الضاغطة لفرض الاسلوب السوفياتي بالتجميع على الزراعة البولندية. وبهذا فقد انخفض الى حد بعيد مجال تحكم الدولة السياسي والمذهبي على المجتمع.

لقد لعب الجهد الاجتماعي العفوي لغرس تاريخ المقاومة البولندية السرية خلال الحرب العالمية الثانية في ذهن الشباب ضد الغزاة النازيين والسوفيات، دوراً مهماً كذلك. وكلما زاد قدح وذم النظام الشيوعي لتلك المقاومة، كلما اصبحت تقاليدها وتضحياتها اكثر جاذبية الى جيل ما بعد الحرب الاصغر سناً. ولقد افاد ذلك بابقاء الكثير من جيوب المقاومة التآمرية السالبة والهادئة ضد

التشيع الروحي. وقد ابقت تلك المقاومة السالبة الاختيار مفتوحاً للوصول يوماً ما الى التحرر الاجتماعي الاكثر طموحاً.

لقد بزغ فجر ذلك اليوم في السبعينات، ومنذ ذلك الوقت اصبح التحرر من وهم النظام القائم منتشراً. ولقد اصبحت حتى الطبقات الاجتماعية والتي بالأصل متعاطفة مع بعض الاصلاحات الاجتماعية التي ترعاها الشيوعية، تنظر الى الاتحاد السوفياتي والنظام في بولندا على انهما كوابح في التقدم الاجتماعي. ولقد كان المثقفون كلهم ساخطين ونافرين، وقد تكيفوا تماماً مع الغرب. ولقد كان طموح كل مثقف تواق، وكل فنان مبدع ان يمضي بعض الوقت في الغرب، وكان يُنظر الى الاتحاد السوفياتي على انه حالة ركود محلية. وكانت المبادلات الثقافية والاكاديمية التي عرفتها امريكا، وخصوصاً التي طورتها وانجزتها مؤسسة فورد خلال عدد من السنين، لها مفعول رئيسي في تخريب مجهودات عقدين من الزمان برعاية النظام لربط البولندية مع ثقافة جارتها الشرقية. ولقد نسيت الشبيبة البولندية افتتناهم الاولي (وهو على اي حال جزئي ومختثر) بفكرة بناء مجتمع جديد، ولقد كانوا مدركين تماماً ومنجذبين الى اسلوب الحياة الغربية الجديدة، والتقدم التكنولوجي، والخبرات الثقافية. وقد كان التحرر الفلاحي تقريباً كاملاً، كاثوليكي وتقليدي في مظهره.

لقد حدث اكبر تغيير في الموقف السياسي في الطبقة العمالية الصناعية. مع ان بولندا الزراعية كانت ضعيفة عددياً، فلقد كانت تملك تقليد نقابي قوي وكانت في الاصل اشتراكية شرقية. ولقد كان الحزب الاشتراكي *البولندي في الجبهة الامامية في النضال لأعادة مولد بولندا القومي، ولعب دوراً سرياً رئيساً في الحرب العالمية الثانية. لكن لقد سحقت الشيوعية الحزب بعد الحرب ودمج ما تبقى منه داخل الحزب الحاكم الجديد، والذي تهيمن عليه كلياً شيوعية موسكو. ولقد انجز الحزب الحاكم تصنيع البلاد بعد الحرب، منشئا بذلك طبقة اول جيل صناعي، الزراعي سابقاً اكثر حساسية الى العقيدة الشيوعية والتعبئة التنظيمية. ومن الجدير بالذكر، ان الذي باشر بثورة العمال عام ١٩٥٦ في

بوزنان (Poznan) ، والتي سرعت بظهور نظام شيوعي في وارسو اقل خنوعاً تحت قيادة فلاديسلو جومولكا (Wladyskaw Gomulka) ، هم العمال الاكبر سناً، والاكثر تقليداً وادراكاً سياسياً، ولكن برنين وتأثير اقل بين الجيل الاول من الطبقة العمالية الصناعية.

وبحلول السبعينيات، بدل تطوران مهمان مركزيان الوضع بعنف: الاول: طورت الحركة العمالية الصناعية الجديدة اجماع سياسي خاص بها، مماثل كثيراً للتقليد الاشتراكي البولندي السابق ولكن صُبغ بروح دينية قوية (وذلك بسبب اصوله الفلاحية القديمة). والثاني، لقد صاغت وشكلت روابط جديدة مع الطبقة الفكرية النشطة سياسياً، المناهضة للشيوعية، ذي التوجه الشرقي الاجتماعي الديمقراطي. وكان هذا ائتلافاً قوي، وقادراً على تفصيل برنامج بديل (بفضل الطبقة المثقفة) وتحريك ضغط سياسي (بفضل العمال المحرضين سياسياً حديثاً). وبالاضافة الى ذلك، فقد مُدت يدٌ حامية ومشجعة من الكنيسة الكاثوليكية العظيمة والجبارة، قادها الى بداية الثمانينات رئيس الاساقفة صاحب الاحترام العالمي الكردينال ويزنسكي (Cardinal Wysznski) ، والذي اذعن اليه حتى الزعماء الشيوعيون ولكن على مضض.

ولقد ربحت التيارات الاجتماعية رأس حربة مهمة ورمزية من خلال ظهور ساحر الجماهير وساحرها الزعيم العمالي لينح فاليسا (Lekh Walesa) . تاريخه الشخصي ونضجه السياسي منظار لهذه الاتجاهات الاوسع والاشمل. لقد ولد فاليسا في عائلة فلاحية، وانشأ في بيئة متدينة جداً، وتحول الى عامل في حوض السفن في دانزغ (Gdansk) من خلال عملية تصنيع بولندا بعد الحرب، ونفر وغضب من الفقر المستمر للطبقة العاملة المدنية، وتحول الى مناهض للشيوعية بسبب الامتيازات وسوء استعمال السلطة من طبقة اعضاء الحزب المركزي الذاتي، ومارس السياسة بسبب المواجهات الدموية بين عمال حوض السفن وقوات الشرطة في بداية السبعينيات، وبالطبع فقد ساعدته مجموعة من المفكرين السياسيين الفاعلين، وبذلك اصبح فاليسا الزعيم والرمز للحركة التي

اثارت بولندا وكسبت اعترافاً عالمياً.

لقـد اتخذت كلمة تضامن (Solidarity) ، وهي اسم الحركة، اهمية رمزية كبيرة. ان اساس الحكم الاستبدادي هو في تصفية اي حياة سياسية ذاتية وتذريه المجتمع. والهدف من ذلك التأكد من ان كل فرد قد تُرك وحيداً في مواجهة النظام مجتمعاً، ويشعر بانه معزول وغالباً بلا هدف في داخله ولكن دون ان يصرح باي معارضة ابداً. ولقد نقلت التضامن الرسالة المعاكسة تماماً. واشارت الى واقع جديد لشعور ووعي مشترك وثقة مجتمعة، وتحالف بين فئات اجتماعية او طبقات. ولقد واوجهت النظام الشيوعي فوق جبهة واسعة، عقائدياً من خلال اعتمـادهـا على الـدين وتشددها على الديمقراطية والتزامها الكثيف للوطنية؛ وتنـظيمياً من خلال البنـاء القـومي الـواسـع والشـامل ومن خلال تحالفها مع المثقفين، والشباب، وخصوصاً مع الكنيسة.

ولقد افادت التضامن ايضاً من الفشل المادي والمتكرر للنظام الشيوعي، فلقد بدد زعماء البلاد الشيوعيون ببساطة، والذين اقترضوا حوالي ٣٠ بليون دولار في بداية السبعينيات، هذا الادخال الكبير من رأس المال من خلال عدم الكفائة والفساد، والذي كان يمكن ان يُستخدم في احياء الاقتصاد. وواجبت الازمة الاقتصادية الاجراءات التقشفية والتي ليس فقط اشعلت شرارة عدم الاستقرار العمـالي، ولكن دمرت ايضـاً ما تبقى من احتـرام المجتمـع لحكـام البلاد الشيوعيين، ولم تعد الشيوعية تمثل اي تقدم اجتماعي لأي طبقة اجتماعية رئيسة.

وكذلك الفلاحين، فقد احتقروا النظام بسبب المواجهة المريرة مع التجميع الـزراعي وبـذلـك لم يصـدقـوهـا حتى في تطبيق اصـلاح الارض لمنتصف الاربعينيات. وايضاً لقد عانت الطبقة المدنية بشدة من نقص الاسكان، وقلة وعدم صلاحية الخدمات، والوقوف في الطابور الذي لا نهاية له حتى لأبسط الاشياء الضرورية، واسعار الغذاء المرتفعة تدريجياً. وكذلك، فلم يعد النظام

التعليمي يخـدم كمصدر للنهوض الاجتماعي، والذي كانت الشيوعية تفتخر بشكل خاص بهذا النظام، وتقارنه مع الوضع ما قبل الحرب في بولندا. وقدمت دراسة الى مؤتمر اتحاد علم الاجتماع البولندي ووزعت في النشرة السرية «ولا» (Wola) في ١ تموز عام ١٩٨٧، موثقة هذا الركود بالتالي:

«لقد احدثت مقارنة للعمال في وقت ما قبل الحرب وما بعد الحرب، قدمها جيرزي كرزليوسكي (Jerzy Krezlewski)، وهو عالم اجتماع من بوزنان (Poznan)، شعوراً عميقاً. لقد قدم معطيات عددية دقيقة تثبت انه بالرغم من (الوجود الفعلي للاشتراكية) فان عمال الجمهورية الشعبية البولندية بنفس مستوى، أو حتى اقل من مستوى وضع العمال ما قبل الحرب. والاسوأ من ذلك، ان وضع العمال البولنديين هو من اسوأ الاوضاع في اوروبا في الوقت الحالي وقارن بوضع العمال في بلدان العالم الثالث. وان المعلومة التي تقول بانه قد حصل بعض التحسن والتطور في مجال ادخال ابناء العمال الى الجامعات (قبل الحرب كانت بنسبة ٢٥ بالمة من الطلاب، الآن ٣١ بالمئة)، فلقد تحقق اكبر تقدم في هذا المجال في الجامعات الكاثوليكية، حيث ان الغالبية من الطلاب تأتي من عائلات عمال، وقد رُحب بذلك بتعجب».

ان الوعي المشترك للمحرمات والتحول الى السياسة، بالاضافة الى التضامن الاجتماعي الاوسع لا يمكن تدميرها، ولا حتى بفرض الاحكام العرفية في كانون اول عام ١٩٨١. لأنه بحلول ذلك الوقت، فقد صبغ ادراك قومي جديد، والذي توحد واندمج مع نظرة الجماهير الى التقاليد وحتى الذكريات التاريخية التي جاء من اجل ان يشبعها لمدة ثلاثين سنة النظام الذي يرعاه السوفيات. لقد اصبحت اعادة الشخصية القومية الموثوق بها هي التراث الباقي من فترة الوجود العلني الواعد للتضامن، وكان لديها التأثير لتحويل الشكل العام السياسي لبولندا.

واذن، فقد سرعّت التضامن بعملية التحرر الذاتي الروحي للبلاد، مع ان

الوضع السياسي السابق قد استمر بسبب الاحكام العرفية. ومع ذلك فقد مُلىء الـوضـع السياسي بمـادة وجوهر مختلف منذ ذلك الوقت بالرغم من استمرار المؤسسات الرسمية الشكلية. لقد كانت الاحكام العرفية قادرة على تدمير سطح المظاهر التنظيمية للتضامن، ولكن لم تستطع ان تمنع ظهور وبروز الامر الواقع البديل للنخبة السياسية، واعادة ولادة متزامنة للحياة السياسية الحقيقية في بولندا حتى وان كانت هذه الحياة الجديدة لا تزال تعمل جزئياً اسفل السطح الرسمي.

الفصل العاشر

من التضامن الاجتماعي
الى التعددية السياسية

لقـد كانت الحياة السياسية تمثل بالنسبة الى الشيوعية في بولندا هزيمة مرهقة. ولقد قصدت الى تخريب عدة عقود من محاكاة التجربة السوفياتية. ولم تعني باقل من انها نهاية مرحلة الاستبدادية في تاريخ النظام الشيوعي البولندي.

بالطبع لا يزال النظام الشيوعي يحكم، ويمارس احتكار السلطة. ولكنه لم يعد يستطيع ان يحتكر الحياة السياسية للبلاد. لأن هذه الحياة تتطلب المصداقية لذاتها ووجود مستقل عن تحكم سياسي شيوعي. ولقد اظهرت هذه الحياة نفسها بعدة طرق واساليب، ابتداءً من النشاط التآمري الى الافكار السياسية النصف علنية، والنوادي، والمظاهرات. ولقد فرضت الاحكام العرفية في كانون اول ١٩٨١ الحـافز الخطر: فقد سرّعت بظهور طوفان من النشرات السرية والتي أصدرت بين نهاية عام ١٩٨١ ونهاية عام ١٩٨٧ ـ وحسب لائحة من مصدر سري ـ حوالي الف وخمسمائة صحيفة وجريدة يومية، وحوالي الفان واربعمائة كتاب وكـراسة. وتوجهت الى تشكيل مجموعات سياسية تثامرية، ابتداء من اليسار الاجتماعي الديمقراطي الى كاثوليكي اكثر محافظة، وايضاً حتى وصلت الى جناح اليمين القومي المتطرف.

لم يكن الاعلام السري مجرد عداء للشيوعية او عداء للأستبدادية بل بيّنت بتفصيل متـزايد برامـج شاملة وواقعية للسياسـة، الاقتصـاد، والاصـلاحـات

الاجتماعية، جهزتها مجموعات ولجان دراسة منتظمة. وبالفعل فقد كان لدى المفكرين باستقلالية القطاع السياسي الكثير لتقدمه اكثر من النظام، وذلك في مجالات حساسة. وخطيرة، مثل التدمير الاحيائي للبلاد، التخلف الزراعي البولندي أو مؤسسة وادارة القطاع الصناعي. وكان ذلك عائد بمجمله الى واقع انه بحلول منتصف الثمانينات اصبح التعاون مع مبادرات مستقلة وسرية بعض الشيء اكثر احتراماً وتقديراً بنظر قطاع الخبراء والمثقفين من التعامل مع الحكومة، وذلك بعد تشويه وخزي الشيوعية، وادراك ان النظام انما هو نسخة غير صالحة للنظام السوفياتي.

ولقد ادى احياء الحياة السياسية الى اظهار الاختلافات التقليدية لما قبل الثورة الشيوعية. وكانت الاكثر وضوحاً ونشاطاً في البداية فروع النظام الديمقراطية الاجتماعية نفسها. فلقد تحول الشيوعيون السابقون الفاعلون، والذي كان بعضهم من الستالينيين المتطرفين النشطين في وقت ما، والذين خاب املهم، الى الديمقراطية الاجتماعية كعلاج للأمراض والمظالم الموجودة. ومن المحتمل انهم اجتذبوا التقاليد العميقة والقوية للحزب الاشتراكي البولندي لما قبل الحرب وبقاياه المادية في ابعاث اشتراكية بديلة لوضع الامر الواقع. ولقد هدف توجههم شبه الماركسي لأعطائهم بعض الشرعية المحدودة في نظر حتى الشيوعي البيروقراطي الاقل جزماً.

لقد كان نجاح اليسار الديمقراطي في تنظيم لجنة الدفاع العمالية، بالرغم من انها كانت ومضايقات الشرطة المتكررة، نقطة انطلاق لتحالف المثقفين مع العمال. وهذا بدوره ادى الى الظهور المصيري التاريخي للتضامن. ولقد مهد الطريق ايضاً لظهور ثاني لأتجاهات سياسية اخرى، والتي قمعت بوحشية اثناء مرحلة الستالينية. ولقد ضم ذلك مجموعات بنيت على نظرية الزعيم البولندي قبل الحرب مارشل جوزيف بلسودسكي (Marshal Josf Pilsudski) في تشددهم على الاستقلال الوطني، والتعاون مع القوميات المكبوتة غير الروسية مثل الاوكرانيين،

وليشوانيين والبلوروس ضد موسكو؛ وايضاً على تعاليم المحافظ والمنتظر القومي المتشدد قبل الحرب، رومان دمويسكي (Roman Dmowski) ، والذي فضل تحالف كاثوليكي علماني متجانس مع روسيا ضد المانيا؛ وكذلك على تراث مؤسس حركة الفلاح البولندي، وينستني ويتوس (Wincenty Witos) ، والذي اكد واصر على الدور الرئيسي لملكية الارض الزراعية الخاصة المستقلة في الحياة السياسية للبلاد.

لقد عدّلت هذه المجموعات وحدثت برامجها لتلائم ظروف الوقت وسيكون افراط في التبسط لهذا الخليط السياسي لتحديدها وتعريفها باساليب وطرق اظهار بسيط للماضي. ومثل ذلك، فالمحافظون اشاروا الى النجاحات الاقتصادية المزعومة لأدارة ريغان وحكومة تاتشر في دفاعهم عن المغامرة الحرة كحل وحيد لأزمة بولندا الاقتصادية العميقة. وآخرون اشاروا الى السويد كمثال مناسب لنجاح الديمقراطية الاجتماعية والمزعوم. ولكن جميعهم اخذوا المساندة من تعاليم البابا البولندي ودمجوا مذهبه الكاثوليكي الاجتماعي ذاتياً، وخصوصاً تشدده على مركزية الشخصياتية (اي اهمية الشخصية الانسانية التي لا يجوز انتهاكها) في برامجهم.

ولم تكن المناقشات المذهبية النشطة الا مظهراً لأحياء الحياة السياسية القومية الاصلية. وكانت المناقشات حول كيفية استرداد التحكم على المصير القومي منتشرة بشكل واسع ايضاً. وقد فضل البعض تغييراً نشوئياً متقدماً ونشيطاً، ويضم ذلك بعض خطوات التعاون مع النظام القائم، بشرط ان هذا النظام كان راغباً بان يحترم الاستقلال الاجتماعي وان يسمح باتحادات تجارية حرة. وكان لنح فاليسا رمزاً لتلك الفكرة.

وقد جادل آخرون بان لا شيء اقل من انهيار وتفسخ النظام يجعل الاصلاحات المطلوبة ممكنة، وان تجديد المواجهات كان حتمياً. ولقد شدد البعض على الحاجة الى تشكيل جبهة مشتركة مع الاوروبيين الشرقيين

المكبوتين، وذلك لتجنب اي تدخل عسكري سوفياتي. ولقد توخوا عند هذه النقطة تشكيل تحالف اوروروبي شرقي لحركات المعارضة. ولكن جادل آخرون ان الصعوبات الداخلية السوفياتية كانت تمنع عمل سوفياتي مباشر، وان النظام الشيوعي لا يستطيع التطور، ويجب القيام بكل التحضيرات والاستعدادات لأسقاط وقلب هذا النظام. ولقد اكتسبت هذه النقطة دعم قوي خاص في سيلسيا البولندية (Polish Silesa) ، وقد اقترحتها منظمة شديدة الانضباط وعميقة التآمر، دُعيت بتلائم التضامن المحاربة.

ولكن مهما كانت الميول السياسية، فلقد انتشر حنين الى الاستقلال حقيقي في ظهور محادثات الحكم الذاتي السياسي. ولقد سلم بذلك حتى الاعلام الشيوعي البولندي الرسمي. ولقد لخصت صحيفة وارسو (Rzeczywisloc) في ٣١ كانون ثاني ١٩٨٨ هذا الحنين والشوق القومي بصراحة ملحوظة:

«ليس لدى بولندا سياساتها الخاصة بها، ومن المستحيل ان يكون لبولندا استقلالها السياسي. وتبدو هذه النظرة عامة جداً في مجتمعنا.. وتوجد قناعة عميقة باننا نعتمد على جارتنا الشرقية، وان هذه الجارة هي التي تقرر السياسات البولندية، والتي في هذه الحالة لا تعد بولندية، بل مجرد امتداد وتنفيذ للسياسات السوفياتية. ويمكن لأي شخص ان يقول ان هذه النظرة، والتي يحملها المعارضون ويفضلونها على غيرها، قد تغلغلت بعمق في الاجماع القومي. لقد رافق هذه النظرة الحنين المتنهد وذكريات فترة ما بين الحربين عندما كانت «الجمهورية الثانية» تزعم بأنها تملك سياساتها المستقلة الخاصة، والتي لم يفرضها احد من الخارج».

ومن جهة اخرى فقد كان لدى احياء الحياة السياسية البولندية نتائج اضافية ومتساوية بالاهمية: فلقد قصدت اعادة ميلاد نخبة سياسية بديلة، لها القدرة الاساسية لتتخذ مكان الحكام الشيوعيين الحاليين في يوم ما. وهذا ايضاً فقد كان تطوراً بعيد المدى، مخرباً الصفة المركزية ليس فقط للستالينية، ولكن

للينينية ايضاً. ولم تعد بولندا بحلول منتصف الثمانينات، الارض المهملة سياسياً مع وجـود الشيوعية فقط لتمثل طبقـة اجتمـاعية مفصلة وواضحـة سياسياً. فالشيوعيون لا زالوا في السلطة بفضل الدعم السوفياتي لهم. ولكنهم لم يعودوا يحتكروا الفكر السياسي، الحياة السياسية، أو ـ وذلك بنظر الكثيرين ـ مستقبل البلاد السياسي.

وبـالاضافة الى ذلك، فقد كان الشيوعيون البولنديون انفسهم في عملية تحول. فلقد رئس النظام رجل عسكري ذو خلفية استقراطية متواضعة والذي نقل بخـطبه واسلوبه، مع كونه ملتزم بالشيوعية ظاهرياً، بعض الانطباع الظاهري والسطحي عن التوصل مع ماضي البلاد. ولقد اختلف وجسياخ جاروزلسكي (Wogclech Jaruzlski) في هذا المجـال بشكـل كبير مع زعمـاء ما بعـد الحرب الشيوعيين الاولين، الذين من ذوي الدوافع المذهبية الغريبة والخارجية أو حتى كان تشكيل عرفي، والذين تفاخروا وتباهوا بخنوعهم لموسكو. لقد كان على نظام الجنرال (جارولسكي) ان يهدىء ويخفف كثيراً من مراقبته الخاصة على الاعلام والكتب، وذلك لكي يشترك وينافس في الوفاء السياسي في عملية ظهور واقع المنافسة السياسية. وبخلاف ذلك فان النشرات السرية ستزدهر اكثر. ولكن كان ثمن ذلك مناقشة اكثر علانية حول الامور القومية، وحول مواضيع كانت محظورة سابقاً، محرضةً على تفسخ وتحلل اضافي للعقيدة الرسمية نفسها.

وبـالفعـل، فلم يكن واضحـاً بحلول منتصف الثمانينات مقدار تماسك العقيدة. فلقد تشوهت الستالينية تماماً وحتى رسمياً. ولقد كانت اللينينية تذكر تملقاً فقط، وخصوصاً في الاحتفالات التذكارية مع الروس. ولكن فقد اصبح جوهر مذهب الحزب الحاكم ليس فقط غامضاً، بل في بعض المجالات مذكراً باشتراكية بولندية تقليدية اكثر.

ولقد نشرت صحيفة الحزب الشيوعي الرسمية العقائدية، نوي دروجي (Nowe Drogi) (عدد ٦، ١٩٨٧) مقالا تبين موضوع ونوعية هذا الاتجاه. ومع ان

كاتب المقابل منظِر حزبي مغمور، الا ان توجهه الى مفسري الاشتراكية التقليديين اللينيين بانتقاد مدمر ومهلك، ولقد افسحت له الصحيفة مكاناً بارزاً وواسعاً. ولقد بدأت بذكر ان التغييرات الجارية في بولندا كانت قد اوجدت «انطباع غير مكبوت بان شريعة وقانون المبادىء الاساسية والتي أُسس عليها تصرفنا وسلوكنا الاقتصادي والاجتماعي هي عُرضة للأتهام والاستفسار». وصرحت الصحيفة بعد ذلك انه ان من المفروض اعادة فحص كل الافتراضات في هذا المجال، التي هي نُبني عليها النظام الحالي وخصوصاً بان الاشتراكية سوف «توجد اشكال ارقى من الحياة الاجتماعية.. الغاء استغلال الانسان للأنسان، تصفية استغلال رأس المال الاجنبي، التخلص من الظلم الاجتماعي، وتصفية الازعاجات الاجتماعية مثل البطالة، محدودية التعليم، غياب وفقدان العناية الصحية، التشريد،.. وضمان انتصار العقلانية على اللاعقلانية». وطرحت بعد ذلك الصحيفة السؤال التالي: «ماذا يمكن ان يقال عن هذا البرنامج بعد اربعين سنة من التطبيق»؟.

ولقد كان جواب مؤسسة الحزب العقائدية الخاص قاسياً وصريحاً: «للأسف الشديد فانه من الصعب الرد بنعم لتلك الاسئلة». وعلاوة على ذلك فقد اضافت بانني سلّمت بان سياسات الحكومة الشيوعية تستلزم «بطرق عديدة.. العودة الى الاشكال التي كانت مُدانة في السابق». فقد عادت الملكية الخاصة، وقد دُعيت رؤوس الاموال الاجنبية، وأُوجدت التقنية التسويقية، واختلفت المداخيل، وأُجيزت البطالة، واصبح هناك تقرب الى الدين ايضاً. ولقد تساءلت الصحيفة بالم: «هل يعني هذا باننا مبتعدون عن الاشتراكية عند عمل مثل هذه التغيرات»؟

وقد كان الجواب وضع مطول من اصلاح النظام باسم الفاعلية، ومبادرة اكبر، وعدل اجتماعي اساسي، زائد الخطوات المذكورة سابقاً. وحتى الالحاد الرسمي كان يجب رفضه، «لأنه يوجد في الدين عدد من الامور كافية تلتقي مع الاشتراكية في المجال الاخلاقي، وذلك للتمسك بفكرة الدين العالمية والتي

تعتبر مفضلة للاشتراكية». واذن «فلا يوجد سبب حتى تحارب الاشتراكية فعلياً فكرة الدين العالمية». واضافت الصحيفة برفض دور «الدولة الخالدة» وبالتأكيد والاصرار على فكرة المبادرة من اسفل. وايضاً يجب حل المواجهات الاجتماعية بالحوارات والتسويات، ومنع الهيمنة والسيطرة من مصالح ذو نفوذ وسلطة: «فمن الضروري انشاء وخلق نظام مؤسسات وقوانين». (اي التعددية).

وبنظر الصحيفة الرسمية نوي دروجي (Nwoe Drogi)، فان لدى الذين يعارضون التغيير مفهوماً سطحياً جداً للأشتراكية، يوازنها مع الحفاظ على «بناء السلطة الحالي في شكل لا يبدل». وصرحت الصحيفة مضيفة ان مثل هؤلاء الحزبيين الرسميين «يعتقدون ويتصرفون بطريقة وكأن الاشتراكية هي تصرف سلطة وليست الهدف من وجود السلطة». وتنهي نوي دروجي مقالتها قائلة: «ان مواقف من هذه النوعية تجرد السلطة من مظاهرها الهامة الأخرى، وتصبح وسيلة الى غاية. وبهذا سيكون من الصعب طلب ادانة بليغة لأساس التراث اللينيني أو وصف مقيت للتحريض الحقيقي للحكام الشيوعيين الحاليين.

ولذلك، فليس غريباً ان يدافع ناطق بولندي آخر في صحيفة يومية رائدة (Zycie Warszawy) في ٢٢ آب ١٩٨٧ عن التفاعل الماركسي والفكر الكاثوليكي الاجتماعي، وقد اعرب عن رضاه للأستعمال المتزايد والمنتشر لفكرة «الشخصانية الاشتراكية» مهيئة بذلك للمذهب الرسمي، عقيدة من تعاليم البابا الحالية. ولقد افسدت واتلفت هذه التصريحات بدون شك، حتى وان نشرت لاسباب تكتيكية في بلد ذا ولاء ساحق للكثلكة ومدعوم بمشاعر ولأء خاص للبابا كرجل دولة، توجه المذهب المادي والالحادي، بينما دعمت وعززت المؤسسة الاكثر أهمية وهي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

ولقد عكس تحليل الاعلام الحزبي الواسع ومفسريه الذاتي العام ـ ولكن ايضاً اثار ونبه الى ـ تسارع تفكك المذهب اللينيني ـ الماركسي في بولندا. ولقد وضع وفرض هذه التفسخ والتفكك امكانية التحول التطويري، البعيدة حتى

الآن، للحزب نفسه. وبالفعل فقد قايض مجتمع متيقض سياسياً، ومدرك ذاتي تاريخياً، والذي كان يظهر انه معرض للهجوم بكثرة، الحركة الشيوعية البولندية الحاكمة، وعلى عكس الحزب السوفياتي، بعملية انسلاخ بطيئة ولكن نهائية ومصيرية بنماذج اكثر مطابقة مع الثقافة السياسية البولندية التقليدية.

وللتأكيد، فقد تعرضت هذه العملية للمقاومة. فقد بقي الحزب الحاكم مصراً على الاحتفاظ بالسلطة. ولعمل ذلك هناك طريقة واحدة، وهي السحق التدريجي لحركات الاصلاح التي كانت تهدد سلطته، ولكن بعد ذلك يتبنى بنفسه اجزاء رئيسة من برنامج الاصلاح. ولقد حصل هذا في اعوام الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ـ ومع ان كل موجة اصلاحات كانت تقطع جزءاً من الصرح والبناء الستاليني الاصلي. ولقد هددت الإصلاحات المطلوبة بتواصل في منتصف الثمانينات في بولندا، وكنتيجة لأستمرار تآكل النظام اللينيني ـ الستاليني، بقايا الستالينية وحتى الاسس الاصلية للينينية: وهي مركب العقيدة مع الفوجية التنظيمية.

ومع ذلك، فقد كان مجال الاصلاحات المطلوبة في ذلك كثيفاً. فقد كان الاقتصاد بحاجة الى الغاء المركزية، وايضاً كانت الحياة السياسية بحاجة الى التعددية، والمجتمع ايضاً كان بحاجة الى افضل واكثر الفرص للتعبير الابداعي الفردي. ولقد واجهه جاروزلسكي وقيادته بذلك معضلة ادق واعمق من كل الذي واجهوها سابقوه. وقد كان يستطيع جوملكا (Gommlka) والذي تلاه ادوارد جيريك (Edward Gierek) النضال للاحتفاظ بالبنية الشيوعية بتقديم بعض التنازلات، وحتى وان كانت رئيسة، بينما يتمسكوا بالمحرك الرئيسي للسلطة: مثلاً الغاء التجميع الزراعي، ولكن يحتفظوا بالتحكم الكلي السياسي على الاقتصاد؛ والتكيف مع الكنيسة، ولكن مع الاحتفاظ بالرقابه واحتكار الاعلام؛ وحتى التسامح مع المعارضة السياسية، ولكن مع الاحتفاظ بالتفوق الشديد والكامل على طرق واساليب الاكراه والاجبار.

وعلى العكس من ذلك، فقد واجه جاروزلسكي اختيار اكثر صرامة وشدة الا وهو: اما الركود الاجتماعي الاقتصادي المستمر مع خطر الانفجار السياسي الحتمي، أو التعـددية الاقتصـادية والسياسية مع نتـائجهـا التفككية الحتمية لأحتكارية الشيوعية للسلطة. ولم تعد الاصلاحات الجزئية تكفي، وخصوصاً بعد الحمـاس الـذي حركـه عهـد التضامن وبعد الاستقطاب الذي حركه الحكم العرفي. وبنفس الوقت، فلم يبقى هناك مجال اوسع للنظام الشيوعي لتطبيق نصف الاجراءات. ولقد منح فرض الحكم العرفي واللامبالاة الاجتماعية التعب السياسي، النظام الشيوعي البولندي فترة راحة لفترة وجيزة، وقد بدت سلطته آمنة اصطناعياً. ولكن من جهة اخرى، فقد تعمقت المشاكل الاجتماعية الاقتصادية في البلاد في نفس الوقت، واصبحت الخيارات محددة بصرامة وشدة اكثر.

لقـد كان من الضروري ادخال التقنية التسويقية لأحياء الاقتصاد، وحتى مستشارو جاروزلسكي الرسميين قد اعترفوا بذلك. ولكن من جهة اخرى فلا يمكن فصل هذه الخطوة عن التعددية السياسية المتزايدة. ولقد كان قبول حياة سياسية علنية مبنية على مبدأ الحوار والمنافسة ضرورياً لأي تقدم اقتصادي. وكانت هذه الحياة موجودة بذاتها، من تحرر المجتمع الذاتي، ولكن كان ينقصها التنـظيم المؤسسـاتي قبـول النظام الرسمي. ولقد كان استخلاص واستخراج الشرعية لما كان موجود بالواقع يتطلب قفزة حاسمة لتغيير نظام نوعي، وهذه القفزة التي كان المسؤولون في الحكم يخشونها بالطبع.

ولم تكن خشية وخوف الشيوعية من التعددية السياسية مجرد موضوع شرط عقائدي. بل كان الذي بحث على هذه الخوف بالاكثر هو الخوف من فقدان وخسارة الامتيازات. ففي بلد اوروبي متوسط الحجم بتعداد سكاني يقدر بـ ٣٩ مليون نسمة ـ ومنهم فقط عشرة بالمئة على الاكثر متعاطفون مع النظام وذلك حسب عدة استفتاءات أجريت ـ فقد بقيت الغالبية العظمى من مراكز المسؤولية الاجتماعية محجوزة تقريباً وبشكل خاص. الى اعضاء الحزب. ولقد احتفظ

اعضاء الحزب بـ ٩٠٠,٠٠٠ مركز اداري في البلاد من اصل ١,٢ مليون مركز موجود، وذلك حسب احصائية للصحيفة الاسبوعية الرسمية بوليتكا (Polityka) في ١٤ ايار عام ١٩٨٨، وهذا يعني ـ وكما صرحت الصحيفة نفسها ـ «ان ٥٠ بالمئة من اعضاء الحزب، وذلك حسب ما ذكرت نفس الصحيفة. وبالاضافة الى ذلك، فقد كان ثلثي رؤوساء الجامعات البولندية، واربعة اخماس مدراء المدارس، وثلاثة ارباع مدراء الخدمة الصحية من اعضاء الحزب.

ولقد وضعت الطلبات الاجتماعية المتصاعدة لتعددية سياسية حقيقية تهديداً لمثل هذه الامتيازات المرسخة. ولقد كان جواب النظام المحاصر من جزم وتأكيد المجتمع الذاتي بتشجيع وتعزيز فكرة «التعددية الاشتراكية». ولقد باشر جاروزلسكي وقيادته في برنامج تنازلات سياسية، مع وجود معارضة واضحة وتردد كبير، وذلك عند ادراكهم لضعفهم السياسي، وعزلتهم الاجتماعية، ولكن دون ضغط من الكرملين واضح للأشتراك في القمع، وايضاً لشغفهم للحصول على مساعدات اقتصادية غربية. ولقد انشأ مجلس استشاري، مكون من اعضاء من خارج الحزب بشكل رئيسي مع سمعة الاستقلال الفكري ليعملوا كمستشارين له. وكان هذا المجلس قادراً على ان ينفس عن مظالم المجتمع وشكاويه المختلفة (ومع ان ذلك غير صحيح بشكل مباشر). وقد دافعت النقابة عن عدد كبير من المواضيع المحرمة سابقاً. ولقد سمح للمعارضة السياسية التعبير عن ارائها، ولكن في غير القنوات الرسمية. ولقد برزت الى الوجود ايضاً النوادي وفرق النقاش والحوارات، مشتركة في احياء اكثر لحياة سياسية اصلية. ولقد سمح بالمظاهرات المناوئة للحكومة تدريجياً بين فترة واخرى، ومن المحتمل لجعلها كصمام امان لأطلاق الغضب الاجتماعي. ولقد رفع تدهور الازمة الاقتصادية الى الاسوأ في منتصف عام ١٩٨٨ من شأن المحادثات بين متحدثين باسم الحكومة وممثلين عن الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك مع زعماء التضامن الظاهرة جزئياً للنظر في امكانية تشكيل تحالف وطني «مناهض للأزمة» او «ما قبل الاصلاح».

ولقـد عكست هذه التنازلات ضعف النظام، وفشله الاقتصادي، وارباكه العقائدي. ولقد اقر الحزب الحاكم، بالتجائه الى شعار «التعددية الاشتراكية» بان ايام الاحتكار اللينيني للسلطة، وايام القمع الستاليني للحياة السياسية قد ولت الى الابد. وكانت هذه «التعددية الاشتراكية» التي قدمها الحزب في ذلك الوقت لا تزال بعيدة جداً عن «التعددية الديمقراطية» التي كان المجتمع المحرر ذاتياً يطالب بها في ذلك الوقت: لأن هذا المجتمع كان تواقاً ليس الى مجرد الحق في نقـد وتقـديم الاقتـراحات الى الحزب الحاكم، بل الى الحق في الاشتـراك في صنع القرارات السياسية، وبالتالي حتى الحق في وضع اسس للخيارات السياسية.

ولذلك فقد كان الفرق بين «التعددية الاشتراكية» و«التعددية الديمقراطية» فرقاً جوهري. وقد كان الاشتراك في السلطة المحور المركزي وكانت الهاوية التي تفصـل بين اللينينية والديمقراطية الاجتماعية. ان التوقع الاكثر احتمالية للشيوعية في بولندا هو في الانهاك المستمر لخصائصها المفروضة من الخارج والتحول الى عملية «البولندية» سياسياً (Polonization) ، فيما اذا حال دون ذلك انهيار مأساوي للنظام، والذي سوف يؤدي الى تدخل سوفياتي اكيد، او تبني النظام المفاجىء لسياسة القمع الجماعي، والذي سوف يولد انتفاضة شعبية والتي بدورها ستقود الى تدخل سوفياتي ايضاً. ومن المحتمل ان الفجوة سوف تتـوسـع بين بولندا ونموذجها السوفياتي الاصلي، وذلك بعد الرفض الرسمي للستـالينية، والتملق الظاهر فقط للينينية، وانهاك المظاهر السوفياتية المستمر للنظام البولندي. والشيء هنا مسألة وقت فقط قبل ان يتحول النظام الشيوعي في بولندا الى شيوعية حقيقة في قمة الهرم السياسي فقط.

وبذلك فيكون الشيوعيون ـ في البداية الثوريون انفسهم اما الآن فحكامهم ايضاً ـ قد انهزموا في المرحلة الاولى لعملية الثورة المصوبة ضد حكمهم. وقد عرف هذه المرحلة المنظر الايطالي الماركسي انطونيو كرامتشي (Antonio Gramsci)

على انهـا معركة افكار وفكر. والمرحلة القادمة هي حصار الدولة نفسها كما يقـول. ولقـد اصبح الفشل الاقتصادي الشيوعي في هذه الحالة في ما يشبه «الطابور الخامس» السري لقوة التعددية الديمقراطية. ولقد ساعد هذا الفشل في اضعاف الطبقة الشيوعية، وفي تفور الجماهير، وحتى في ازدياد عزلة القيادة السياسية. ويعني هذا ان على القيادة الشيوعية البولندية ان تتنازل تدريجياً، وبدون شك حاقدة، عن احتكارها للسلطة السياسية على مراحل متعاقبة، او انها سوف تواجه عند نقطة ما بعنف ثوري شامل.

الفصل الحادي عشر

الاضطرابات الاقليمية الظاهرة

لقد جعل تطورٌ جديد من امكانية الانهاك التدريجي للحكم الشيوعي، او انتفاضة ثورية ضده، مصدر قلق متزايد للكرملين: فلقد كان العديد من الفعاليين غير الشيوعيين في بولندا يتوقون الى ربط قضية تحرير بولندا مع قضايا الاوروبيين الشرقيين المجاورين. ولقد جعلت محاولات غورباتشيف للاصلاح من الجهود المبذولة لذلك عملية سهلة، بل لقد منحت هؤلاء الفعاليين الخطة المطلوبة لذلك. فقد كان بامكانهم الاشارة الى غياب الاصلاحات في البلدان الاوروبية الشرقية المجاورة، دون الحديث عن جمهوريات ليشوانيا واوكرانيا السوفياتية (حيث انعكس تأثير الثقافة والسياسة البولندية بسهولة) كبرهان على الصلابة في مناهضة الشيوعية، ولعدم رغبة الزعماء الشيوعيين المحليين في تقليد المثل السوفياتي.

ولقد بدد انجذاب غورباتشيف الى التعديلية وحديثه العابر عن حقوق السيادة للدولة الشيوعية بعضاً من الخوف الذي سببه واثارة القمع السوفياتي في ربيع براغ. ويوجد بعض التشابه الملفت للنظر في هذا المجال بين التأثير على اوروبا الشرقية الستالينية عندما جعل خروشوف في منتصف الخمسينيات من هرطقه تيتو امراً شرعياً، وبين انجذاب غورباتشيف لأفكار مرتبطة سابقاً مع مصلحين اوروبيين شرقيين غير تقليديين. ولذلك فبدون شك ان اعادة البناء لم تخلق فقط أملاً اكبر واعظم في اوروبا الشرقية، بل لقد زودت المعارضة ايضاً بشرعية تكتيكية مقنعة.

ولقد احتل البولنديون الصدارة في مضمار تحريك تحالف اوسع للمعارضين الاوروبيين الشرقيين الديمقراطيين ضد الانظمة ذات الاسلوب السوفياتي. وبالنظر الى التحرر الذاتي للمجتمع البولندي، فقد كان بامكان البولنديين ان يحشدوا، وان ينظموا، وان يتحركوا بافضل من زملائهم المنشقين الاكثر انضباطاً في الدول المجاورة. لأنه قد استلزم الاوروبيين الشرقيين الآخرين، لمثل هذا النشاط، مخاطر وكلفات اكبر واعظم مما استلزم البولنديون الذين حصلوا بتضحياتهم السابقة، على مقدارٍ من التسامح الرسمي. وعلاوة على ذلك، فقد كان لدى البولنديون تقليد لنشاط تآمري اكثر تطوراً، وبالنظر الى تاريخهم، فقد كان لديهم ميلٌ طبيعي للتفكير باساليب اقليمية كنقطة انطلاق في مقاومة السيطرة والهيمنة السوفياتية (ومن قبلها الروسية).

ولقد اصدرت المعارضة البولندية في عام ١٩٨٦ صحيفة خاصة ايضاً، مكرسة لرفع وتعزيز المعارضة الاقليمية ضد الحكم الشيوعي تحت اسم «التحالف الجديد» (Nowa Koalicja) . ولم تكن تغطيتها تشير رمزياً فقط الى وارسو (Warsaw) ، براغ (Prague) ، براتسلافا (Bratislava) ، بودابست (Budabest) ، بوخارست (Bucharest) ، وصوفيا (Sofia) ، ـ اي كل العواصم الاوروبية الشرقية ـ بل كانت تشير ايضاً الى كييف (Kiev) ، منسك (Minsk) د فلنيوس (Vilnius) ، وايضاً (Riga) ، وتالين (Tallin) ـ اي كل عواصم الجمهوريات التي ضمت الى السوفيات والتي لها مقدرة على الانفصال القومي. ولقد عقد اجتماع مشترك في مكان سري على الحدود بين تشكسلوفاكيا وبولندا على جبال تاترا (Tatra) لمعارضين بارزين من البلدين بمناسبة الذكرى التاسعة عشر للغزو السوفياتي لتشكوسلوفاكيا. ولقد اصدر المشتركون بياناً طالبوا فيه بالحقوق الانسانية الاساسية، وارسلوا رسالة تضامن خاصة الى الاكاديمي السوفياتي اندريه سخاروف (Andrei Sakarov) ، رمز الانشقاق السوفياتي. واثنى المجتمعون على اصلاحات غورباتشيف في الاتحاد السوفياتي، واشاروا اليها كاسباب لتغييرات ابعد مدى في اوروبا الشرقية.

ولم يكن هذا القبول والانحناء الشعائري لعملية اعادة البناء لغورباتشيف ليطمئن الزعماء السوفيات. فلقد كانت التطورات في بولندا مهددةً بشكل كافي، دون تفاقم اكثر لتحالف اوروبي شرقي اوسع ضد الهيمنة والسيطرة السوفياتية. وبينما كان الكرملين راغباً في تكييف نفسه ظاهرياً وعلى مضض، على حكم ذاتي بولندي اوسع، كبديل للقمع الدموي (والمكلف عالمياً)، فلا يمكن ان تتسامح القيادة السوفياتية مع نشر العدوى البولندية الى الدول الاوروبية الشرقية المجاورة. لأن هذا الاحتمال سوف يوقع ليس اقل من خطر قائل على تماسك الامبراطورية السوفياتية نفسها.

ومع ذلك فقد استمرت هذه العدوى في الانتشار. فلقد صدرت البيانات المشتركة الاولى، في اعمال اكثر جراءةً، للمعارضة الديمقراطية في كل من بولندا، هنغارية، تشيكوسلوفاكيا، والمانيا الشرقية، داعيةً الى الديمقراطية في بلادهم. ولقد وقع على هذه البيانات في المرة الاولى ٣٠٠ شخص، وفي مناسبة ثانية، وقع ٤٣٨ شخص، من بينهم اشخاص من يوغوسلافيا، والاتحاد السوفياتي نفسه. وهذه الاحداث لم يسبق لها مثيل، واستلزمت تحليل نفسي وتاريخي. لأنها المرة الاولى منذ فرض ستالين الاقليمية، تندمج فيها قوة معارضة اوروبية شرقية ضد الحكم السوفياتي، وتعبر عن نفسها علناً.

ولقد تبع ذلك اصدار البيان البولندي ـ التشيكي المشترك بمناسبة الذكرى العشرون لغزو تشيكوسلوفاكيا، وقد وقعه ستة وعشرون ممثلاً عن مجموعات المعارضة البولندية والتشيكية. ولقد طالب هذا البيان باعادة النظر بحلف وارسو، بحيث ان يحترم حق كل دولة منفردة في السيادة بشكل كامل. وهذا الاطار، فقد اكد البيان على انه نشر كل الوثائق المتعلقة بالتدخل السوفياتي في برلين عام ١٩٥٣، وفي هنغاريا عام ١٩٥٦، وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، والتهديد بالتدخل في بولندا عام ١٩٨٠ وعام ١٩٨١؛ والوثائق المتعلقة ايضاً بالاعتقالات الجماعلية للمواطنين البولنديين عام ١٩٣٩، وعام ١٩٤١، ١٩٤٤ وعام ١٩٤٨،

ويمذبحة كاتين (Katyne) في عام ١٩٤٠، وباغتيال ايمر ناجي وعدة مئات من اتباعه؛ وايضاً الوثائق المتعلقة بنشاطات الكومينفورم (Cominform) ، وبالاغتيالات الجماعية في المحاكم التشيكية عام ١٩٤٨، وعام ١٩٥٦.

وبهذا فقد تشابكت معضلة موسكو في مواصلة عملية اعادة البناء الداخلية السوفياتية مع التحدي الذي وضعته التغييرات الدراماتيكية الجارية بالاكثر في بولندا وفي اوروبا الشرقية بشكل مماثل ايضاً. ولم تكن مهمة الرد على هذا التحدي شيئاً سهلاً. ولقد ساعدت ازمة اقتصادية أقليمية متصاعدة، بالاضافة الى الدوافع القومية المتفجرة الكامنة، على دفع وحث تلك التغييرات السياسية. ولقد اوقفت هذه الازمة، المتجذرة في العديد من نفس اسباب صعوبات الاتحاد السوفياتي الخاصة، فاعلية الرد المبني على القمع البوليسي البسيط، لأن وضع الناس في السجون لن يزيد من الناتج الاجمالي القومي، بل يمكن ان يسرع في الانفجار الاقليمي. ولهذا فيجب ان يمارس الزعماء السوفيات وزملائهم في اوروبا الشرقية الحذر. وكان لصعوبات اوروبا الشرقية احتمالية التصعيد والنمو، وبذلك تزيد وتكثف من الاضطرابات السياسية. ولم يكن في الامكان وصف أي الانـظمـة المفروضة من قبل السوفيات في المنطقة بانها ناجحة اقتصادياً واجتماعياً، فيما عدا نظام المانيا الشرقية الذي يتلقى معونة كبيرة (رزمة بالعديد من بلايين الدولارات من المانيا الغربية). ولقد انجزت اقتصادياتها بشكل اكثر فقراً من نظيراتها القريبة منها الغربية. ولقد طبقت كل اقتصادياتها بشكل فقير من القرينات الغربيات المتشابهات تقريباً. وقد كان بعضهم، وخصوصاً رومانيا وبولندا، متخلفين اقتصادياً بشكل سحيق ومطبق، ومع وضع خاص لحالة رومانيا المتضاعفة في السوء بظهور فساد الشخصية الدكتاتورية المتعمق، والذي انشىء وعزز العبادة الشخصية بتشابه فقط مع انفرهوكسا (Enver Hoxha) في البانيا أو كيم أل سونغ (Kim Il Sung) في كوريا الشمالية.

ولقد لخصت صحيفة النيويورك تايمز، في مسح لها في ٢٠ كانون اول عام

١٩٨٧، الوضع المقيت والمستقبل الاكثر مقتاً للأقتصاديات الشيوعية في المنطقة، بمصطلحات، واساليب صارمة، وصارخة، وقد قالت من ضمن ذلك:
«تبقى اوروبا الشرقية مظهراً للعصر الصناعي السابق، بينما تنشيء دول العالم الثالث المصنعة حديثاً، مصانعها بالتكنولوجيا الاكثر تقدماً، وتتحول اوروبا الشرقية حالياً وبسرعة الى جزء من العالم الثالث - بل ان العديد من هذه الدول قد تخطاها اقتصادياً. فمثلاً تصدر سنغافورة، وهي دولة بمليون نسمة في شرق آسيا، الآت الى الغرب بكمية تزيد ب-٢٠ بالمئة عن كل اوروبا الشرقية.

ولقد كان الانهيار الاقتصادي الاقليمي، وعملية التحرر الذاتي في المجتمع البولندي، مع النضالات حول عملية اعادة البناء في الاتحاد السوفياتي كلها مجتمعة، متناقضات مطلقة العنان، ولكنها قوات تشويش وتزعزع في اوروبا الشرقية. وكان الزعماء يتملقون اصلاحات غورباتشيف، ذلك لوقف استمرار الخلاف مع موسكو. وكان لهذا التملق تأثيرات غير مرغوب فيها، وهي لست فقط تشريع الضغوطات الداخلية لاصلاحات رئيسة، بل اجازة واقرار غير مباشر بالمثل البولندي، وخصوصاً بسبب العلاقات الوثيقة بين غورباتشيف وجاروزلسكي. وبالنتيجة، فقد كان كل نظام في المنطقة تحت ضغط متزايد كي ينطلق لوحده لايجاد حلاً محلياً طبيعياً للمشاكل الاقتصادية المتنامية، او للوصول الى توازن سياسي اجتماعي داخلي جديد. ولقد اختلفت ردود فعل الاحزاب الحاكمة كثيراً مع الشكل الكلي للاصلاحات كان بعيداً عن النموذج السوفياتي - وفعلياً فقد اصبحت كلمة اصلاح مرادفة اكثر فاكثر لكلمة الغاء التبعية السوفياتية (De - Sovietization). فلقد كان في مستطاع المانيا الشرقية وبلغاريا ان ملتزما وتعملا باسلوب قريب جداً من اسلوب موسكو، بالنظر الى الاستقرار الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي الصارم الفاعل لديهما. وبالفعل، فقد اصبحت جمهورية المانيا الديمقراطية النموذج للمصلحين السياسيين السوفيات الاكثر حذراً، بينما اطلقت عملية اعادة البناء السوفياتية في بلغاريا العنان لهبة خفيفة من التجديدات غير الهامة في القطاع الاقتصادي، وقد نسخت اسمياً حسب

افكار غورباتشيف، ولكن مع تأكيد الزعيم البلغاري تودور جيفكوف (Todor Zhivkov) بعد مؤتمر الحزب السوفياتي الخاص في تموز عام ١٩٨٨، مشيراً الى ان تغييرات غورباتشيف السياسية المقترحة، «لها اهمية خاصة للاتحاد السوفياتي».

لقد نزلت على هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وخصوصاً رومانيا، كوارث اقتصادية اكثر صعوبة. فلقد دخل اصلاح الاقتصاد الهنغاري، والذي هو بالاساس تسوية متوسطة بين حالة مذهبية، وسوق حرة محدودة، في صعوبات خطيرة متزامنة مع الموضوع السياسي في خلافة جانوس كادار (Janos Kadar)، زعيم البلاد منذ عام ١٩٥٦ بدون منازع، ولقد اختلطت واهتاجت الاصلاحات الاقتصادية حتى انها قد بدأت تفسد، وذلك عندما حُشرت هنغاريا في المكان المثالي بين الحاجة المعترف بها لأستمرار اقتصاد لامركزي، وبين مصلحة الحزب في استمرار التحكم السياسي المركزي. ولقد تصاعدت وارتفعت الديون العالمية وذبل النشاط الاقتصادي. ولقد ظهر التضخم والبطالة، مبرزةً القلق والخوف الاجتماعي المتنامي، بينما وصل الفساد داخل النخبة البيروقراطية الى نسب كبيرة وكثيفة.

ولقد عقّدت التوترات بين السياسة والمعطيات الاقتصادية في الحياة الهنغارية، البحث عن علاج مقبول، مطلقة العنان للمجابهة المتوترة بين النظريين والتقنيين. ومع ذلك، فقد استمر الشكل الكلي في الاشارة باتجاه لامركزية اضافية، وتوسع اكبر في التقنية التسويقية، وتبني المقدرات الشخصية، وتكثيف الجهود لتطوير مشاريع مشتركة مع رأس مال اجنبي، منتجاً هذا كله تفكك وتحلل النظرة السوفياتية للاشتراكية. ولقد تشوهت العقيدة السوفياتية بشكل خاص بين الجماهير، تماماً كما حدث في بولندا، بعد اربعين سنة من التعليم العقائدي المكثف، وافرزت نوعاً غريباً من فقدان الذاكرة السياسية، والتي اوضحتها جيداً المقابلات العامة التي اجرتها الاذاعة الهنغارية في مناسبة احتفالات الاول من ايار عام ١٩٨٥.

ولقد اجريت المقابلات عشوائياً في ساحة بودابست الرئيسية، ساحة كارل ماركس، بسؤال المارة من كان ماركس هذا، وقد كانت الاجوبة، كما أُذيعت كما يلي:

الشخص الاول: «آه، لا تسلني مثل هذه الاسئلة».

اذاعة بودابست: «ولا حتى بعض كلمات»؟

الشخص الاول: «لا افضل ذلك، افهمت»؟

اذاعة بودابست: «لماذا»؟

الشخص الاول: «الحقيقة، لم يكن لدي الوقت لأدرس هذه الاشياء».

اذاعة بودابست: «ولكن لا بد انك قد سمعت عنه شيئاً في المدرسة».

الشخص الاول: «لقد كنت غائباً معظم الوقت».

شخص ثاني: «لقد كان فيلسوفاً سوفياتياً، وكان انجلز (Engels) صديقه. حسناً ماذا استطيع ان اقول اكثر، لقد مات بعد ان عمر طويلاً».

شخص ثالث: «بالطبع، لقد كان سياسياً. ولقد كان كما تعرف، ما هو اسمه - لينين اعمال لينين، لينين - حسناً لقد نقلها الى اللغة الهنغارية».

شخص رابع: «لقد كانت الدراسة عنه اجبارية، ولذلك فنحن نعرف عنه».

اذاعة بودابست: «اذا ماذا عن بعض كلمات عنه»؟

الشخص الرابع: «هيا الآن، لست بحاجة الى امتحان للصف الثامن الدراسي، حيث كان علينا ان ندرسه. لقد كان المانياً، ولقد كان سياسياً و. . . اعتقد بانه أُعدم».

اما في تشيكوسلوفاكيا، فلقد ايقظ ونشط غورباتشيف نفسه جزئياً المسائل التي بقيت هادئة منذ عام ١٩٦٨، والتي بدت وكأنها قد حلت بالغزو السوفياتي. ولقد اعطى جنادي جيراسموف (Gennadi Gerasimov)، المتحدث باسم غورباتشيف، اثناء زيارة الاخير لبراغ في بداية ١٩٨٧، الجواب الاكثر وضوحاً لسؤال خلال مؤتمر صحفي عن الفرق المبدئي والرئيسي بين غورباتشيف ودوبتشك، زعيم ربيع براغ ١٩٦٨، قائلاً: «تسعة عشر سنة». ولقد المح بذلك

ان دوبتشك كان المحضر والمبشر التاريخي، وليس تعديلي وتحريضي مثير للفتن. ولقد كانت امكانية ان نظام غورباتشيف يمكن ان يعيد النظر في ملائمة وصحة الغزو السوفياتي عام ١٩٦٨، وهي الفكرة التي اعلنها مؤيدو غورباتشيف في الاحتفالات بذكرى الثورة البلشفية في تشرين ثاني عام ١٩٨٧، لها تأثير بارد ومزعج للزعماء الشيوعيين التشيكيين، والذين وضعوا في السلطة بعد ذلك الغزو.

اما رومانيا فقد كانت الاسوأ. فقد كان اقتصادها المنهار على حافة الهاوية، بالاضافة الى نقص الغذاء، وفقدان الكهرباء في الشتاء، وخصوصاً عدم وجود المواد الاساسية. ولقد التجأ النظام الى الوطنية الخبيثة مؤكداً على وحدانية واستثنائية ثقافة الامة الرومانية، ومشاركات زعيمها المذهبية المثمرة في العالم الاشتراكي. ولقد افترضت عبارة شخصية دكتاتور البلاد، نقولاي شاوشيسكو (Nicolae Ceauseceu) بمعطيات مخبلة وصاعقة. ولقد مجد بانتظام في الصحف الرومانية. فلقد وصفته مثلاً صحيفة الحزب اليومية سشنيتا (Secnteia) في تموز ١٩٨٨ بانه «البطل بين ابطال الامة، والمقاتل البارز، والمفكر الوطني الثوري، والشخصية الخالدة للشيوعية العالمية وحركة العمال، وبطل السلام، ورمز النضال للدفاع عن استقلال وسيادة الامم لانشاء نظام عالمي جديد» والذي وحده جعل من «اسم رومانيا موضوع اندهاش واحترام اينما ذُكر».

ولقد انغمس النظام الروماني في تجريع وممارسة القمع ضد الاقليات العرقية، وخصوصاً الملايين العديدة من الهنغاريين الذين يعيشون في ترسلفانيا الرومانية. ولقد باشر شاوشيسكو بمشروع وحشي وغير طبيعي، وذلك بمزج جبري لألاف القرى التي يقطنها الهنغاريون الترسلفانيون في مدن زراعية موحدة المعايير، على أساس ان هذا سيقدم دخولهم الى مرحلة الشيوعية الكاملة. ولقد ابرز هذا الترحيل القسري، والذي حفز بالعديد من الهنغاريين للهروب الى هنغاريا، احتجاجات قوية وغير مفاجئة من بودابست. ولقد توجه النظامان بعد ذلك الى اثارة الدعم الشعبي من خلال النداء الى القومية التقليدية، والذي ادى

بالعلاقات الرومانية ـ الهنغارية الى ان تسوء بشدة.

وبالفعل، فلقد ماتت عالمية الماركسية في منتصف الثمانينات، وهيمنت القومية التقليدية. فقد تابع البلغاريون اضطهادهم التعصبي ضد الاقلية التركية. وقد انشغلت بولندا والمانيا الشرقية في نزاع علني على حدود بحرية. وقد كان الرومانيون والهنغاريون يكيلون التهم لبعضهم البعض حول مشكلة ترنسلفانيا القديمة. ولقد كان اليوغسلاف والتشيكيين يتجادلون حول حصة المصادر الاقتصادية لأجل التطوير الداخلي. وبعكس ذلك، فقد كان البولنديون، والتشيكيون، الهنغاريون، والرومانيون ميالين الى الاشتراك في منظور متشابه فقط نحو موضوع الروس.

ولكن رغم ذلك، فقد كانت الحياة السياسية العلنية العادية ما تزال مفقودة في اوروبا الشرقية، فقد كان المنشقون خارج بولندا لا يزالون محدودين في مجموعات صغيرة نسبياً، وبصحف سرية في المناسبات، وتأكيد الاحتجاج المرحلي. ولكن كانت القوة الكامنة لاحياء فجائي لمثل هذه الحياة في ازدياد واضح، متخذة من حملة غورباتشيف للأنفتاح شرعيتها العقائدية، ومُعززة من الذي حدث في بولندا، وميسرة من طرق الاتصالات الجديدة وكذلك من حرية الاتصال مع الغرب، والتي اجبرت الانظمة الشيوعية على القبول بها لضروريات اقتصادية، ومن المؤكد تقريباً انه في مرحلة ما في المستقبل القريب نسبياً، وبالنظر الى الغليان الاقتصادي والسياسي، ستعود السياسات كتعبير لطموحات اجتماعية اصيلة، لديمقراطية تعدد الاحزاب، حقيقةً الى حياة الاوروبيين الشرقيين. وسوف ينتهي الاسلوب السوفياتي بدمج واتباع المجتمع للدولة مع التشويه السياسي المتعمد للمجتمع.

ولقد ذهب الاحياء للحياة السياسية الى ابعد مداه في هنغاريا، مع انه لم يطابق في مجاله او كثافته التحرر الذاتي للمجتمع البولندي. لقد بدأت الحياة السياسية في البروز على ضفاف الدانوب. ولقد اصبحت المعارضة السياسية

بحلول ١٩٨٧ ، في هنغاريا واقعاً قائماً، لديها الثقة لكي تقيم بعض التجمعات الشبه شعبية، وحتى القيام ببعض المظاهرات في بودابست. ولقد استطاع المعارضون من اقامة بعض المحادثات غير الرسمية، واعلان المطالبة لحوار علني مع الحكومة. ولقد بدأت النشرات السرية في التكاثر. وعلاوة على ذلك، فلقد ارتفعت اصوات داخل المستويات العليا من النظام الشيوعي طلبت بتنظيم وشرعية حالة المعارضة السياسية. ولقد ذهب ايرم بوزسجاي (Ymr Pozsgay) ، رئيس الجبهة الشعبية الوطنية، وهي مظلة النظام بعيداً في اقتراحه في اواخر ١٩٨٧ ، بانه يجب اعتبار دكتاتورية الحزب الواحد الحالية، «اجراء مرحلي وقتي».

ولقد اختلف هذا التطور سياسياً عن بولندا، في مجال واحد مهم. لقد جاء الكثير من الزخم والقوة لهذا التغيير والتجديد السياسي من زعماء الحزب الحاكم نفسه الاكثر ذكاءً. فلقد كانوا راغبين بالتسليم علناً بانه كان يجب تبديل النظام القائم، وان بعض اشكال التعددية كانت حتمية ومقدرة، وكان يجب اعادة تحديد «الدور الطليعي للحزب»، وذلك لكونهم كانوا مصقولين اكثر، وامنين سياسياً اكثر من زملائهم البولنديين المعزولين وطنياً اكثر، وكانوا مشغولين في المناورة لتقديم بعض التنازلات. ولقد اعترفوا ان ايام كادار (Kadar) كانت معدودة، وتحركوا بكثافة لتحديد خليفته. ولم تتداخل المنافسة فيما بينهم فقط مع الضغوطات الاجتماعية من الاسفل، ولكنها اشتركت في اعادة اظهار الحوار السياسي، والذي لم يعد مقتصراً فقط على القيادة العليا للحزب.

ولقد قاد قوة الدفع التعديلية اذن، التغيير السياسي في هنغاريا، وعلى العكس من بولندا، الى درجة مهمة من الاعلى الى اسفل. ولقد كانت القيادة السياسية الشيوعية مصممة على احتواء الضغوطات الاجتماعية النامية لمزيد من الاصلاحات الاساسية، ولقد تحركت بتصميم في ايار عام ١٩٨٨ لتجديد نفسها، وتعيد كسب التحكم والمراقبة المتحكمة على مجال واتجاه تغييرات متزايدة. ولقد نجح قادة الحزب في تبديل جانوس كادار بـِ كارولي جروسز (Karoly

(Grosz ، وهو اصغر سناً ونشطاً. والذي كانت محافظته العقائدية السابقة مطمئنة للمسؤولين في الحزب بان الاصلاحات لن تفلت من ايديهم، تماماً كما زود صغر سنه النسبي بشيراً لدينامية وتجديد اكبر.

ولقد كانت اعادة التنظيم المتزامنة للمكتب السياسي، والتي منحت الاتجاه الاصلاحي اغلبية واضحة، اكثر اهمية ايضاً. ولقد كان مهماً ايضاً وملفتاً للنظر بوزسجاي (Pozsgay) مقعداً في قمة هرم الحزب، وهو الذي ينظر الكثيرون اليه على انه الزعيم المقدر لدقرطة هنغاريا من الاساس. ولكن لحظة الحقيقة الاساسية للقيادة الجديدة سوف تأتي عندما تبدأ الصعوبات الاقتصادية الداخلية المتضمنة في التحول الاقتصادي من ادارة الدولة الى القاعدة التسويقية، في الدخل مع المطالبات البارزة للتعددية السياسية. وسوف تتصادم عند هذه النقطة المطالبات لنظام متعدد الاحزاب حقيقي - والتي اعلنت علناً في بودابست - مباشرة مع رغبة مسؤولي الحزب، ومن المحتمل ان ينضم اليهم المصلحون ايضاً، بالتمسك بتوليهم للسلطة. وبذلك فمن المحتمل ان يقدم الشعب الهنغاري واحدة من اولى التجارب، باسلوب اكثر دقة واقل شغباً من تحررية المجتمع البولندي الذاتي، لموت قدرة اللينينية والتي لا تزال غير اكيدة، بسلام.

ولقد ظهرت تذمرات عامة في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا، بالرغم من التسلط البوليسي المحكم. فقد اندلعت مشاغبات عمالية في رومانيا في بداية عام ١٩٨٨. وقد كسر دوبتشك حاجز الصمت في تشيكوسلوفاكيا، والذي كانت تطبق عليه الموت السياسي، وذلك في مقابلة مشهورة مع الصحيفة الشيوعية الايطالية لونيتا (Lunita). ولقد قارن بين سياساته الخاصة عام ١٩٦٨، والسياسات التي ينتهجها غورباتشيف في الوقت الحالي، مديناً ومتنكراً التدخل السوفياتي، والسياسات التعليمية المذهبية الصارمة التي انتهجها الذين فرضهم السوفيات مكانه بعد ربيع براغ عام ١٩٦٨. ولم يكن المسؤولون في براغ، والذين ادانوا تصريحات دوبتشك وادائه، مطمئنين، وخصوصاً بعد تصريحات احد الاكاديميين السوفيات، ومؤيد لعملية غورباتشيف في اعادة البناء، الى صحيفة

الحزب الشيوعي الياباني، اكاهات (Akahata)، الذي اعلن ان التدخل السوفياتي في تشيكوسلوفاكيا كان خطأً. وعلاوة على ذلك، فقد كانت حقيقة والواقع البسيط بان دوبتشك قد شعر بالشجاعة والجرأة الكافية ليعلن ويعبر علناً عن اخلاصه وتمسكه باهداف ربيع براغ، تعني بوضوح بان تشيكوسلوفاكيا ايضاً سوف تمر، وقبل مرور وقت طويل، في عملية ولادة سياسية جديدة.

ولقد انذرت عمليات استطلاع قامت بها اذاعة اوروبا الحرة بين المغادرين من الاوروبيين الشرقيين الى الغرب، بامكانية طرح اي نوع من الحياة السياسية المتجددة. ولقد بينت هذه الاستطلاعات بشكل غير رسمي تقريباً، ومع كونها قد استهدفت بالتركيز الذين لديهم إذن بالسفر والعودة، ان الحزب الشيوعي يتمتع بتأيد لا يزيد عن ١٥ بالمئة فقط في الغالب من اجمالي عدد السكان، وتقل هذه النسبة بعض الشيء في بولندا، وتزيد بعض الشيء في بلغاريا. ولقد عرّف اكثر الذين اجابوا على الاسئلة على انفسهم باسلوب المجتمع الغربي الديمقراطي، مثل يسمى ديمقراطي، او ذو توجه ليبرالي تحرري. فلقد كانت الديمقراطية الاجتماعية في بداية السبعينيات لا تزال تهدف الى ممارسة جذب ملحوظ ومهم. ولكن، لقد اظهرت وحفزت زيادة حادة في الانجذاب الى اقتصاد تسويقي حر واضح في منتصف الثمانينات، بروزاً لمصلحة في بعض اشكال الليبرالية المحافظة.

ولقد اكدت هذه الاستطلاعات على التأثير الضخم والهائل على المواقف السياسية للثورة في الاتصالات الجماهيرية. وعلاوة على اذاعة اوروبا الحرة، فقد كان على الاعلام الشيوعي ان يجاهد ويناضل ضد الانتشار الكثيف للأشرطة السينمائية والاشرطة المسجلة في جميع انحاء المناطق، وبذلك انتشرت الافلام غير المراقبة، مع حوادث سياسية، وبرامج انشقاقية. ولقد تحطمت المراقبة والتحكم الشيوعي التقليدي على الاتصالات الجماهيرية المحلية، هذا بالرغم من الجهود الرسمية لفرضها، وذلك بالازدياد السريع في عدد الاشرطة السينمائية في اوروبا الشرقية. ولقد قدرت اذاعة اوروبا الحرة - تقرير اذاعة الحرية، وذلك

في ٢٢ كانون ثاني عام ١٩٨٨، وبحلول عام ١٩٨٨، العدد التقريبي للاشرطة السينمـائية المـوجـودة في بولنـدا، بمليون شريط، و ٣٠٠,٠٠٠ شريط في هنغاريا، ويوجد ايضاً حوالي ١٥٠,٠٠٠ شريط في تشيكوسلوفاكيا، و ٥٠,٠٠٠ شريط في بلغاريا التي لا تزال محكومة ومراقبة بشدة.

لقد كانت عملية الظهورات السياسية الجديدة، ومع كونها غير متساوية، متعلقة باحياء شعور بهوية اوروبا الوسطى الواضحة تاريخياً، وبالاخص حضارياً - وليس اوروبا الشرقية، ولقد قدم الحماس على الهوية الحضارية الاقليمية بديلاً للتـأكيد الـذاتي السياسي في تشيكـوسلوفـاكيا، حيث كانت الحياة السياسية الحقيقية مكبوتة بشدة وحزم اكثر مما هي في بولندا أو حتى في هنغاريا. ومن الجدير بالذكر ان دوبتشك كان قد صرح مشيراً انه عند الحديث عن اوروبا «فليس مصادفة اني لا استعمل مصطلح «غرب» أو «شرق»، لأن تشيكوسلوفاكيا تنتمي الى اوروبـا الـسـوطى، نظراً لمـوقعهـا الجغـرافي، وتقـاليدهـا، وايضاً تجاربها». وعلاوة على ذلك، فلقد فرض التعريف الذاتي التاريخي، وخصوصاً للتشكيين، والهنغاريين، والبولنديين بهوية اوروبا الوسطى، رفض فكرة الثقافة الاشتراكية المشتركة المفروضة من موسكو. ويجب عدم التقليل من اهمية ذلك، نظراً الى جهود الكرملين لعدة عقود، لغرس فكرة المجتمع الحضاري والثقافي المشترك، والذي يكون مركزه الوسطي موسكو.

ولقد نشط مضمون ايجابي فكرة هوية خاصة باوروبا الوسطى بجانب رفض موسكو كمركز اشعاع حضاري وثقافي، وهي فكرة ذات مغزى اقليمي كبير. ولقد بشر هذا المضمون بظهور مجتمع حضاري اوسع، مذكراً بشكل ما بالامبراطورية النمساوية الهنغارية القديمة، وبفكرة القرن التاسع عشر لحضارة اوروبية وسطى (Mitieleuropa). ولقد احتوى هذا المضمون فكرة ان «اوروبا» لم تكن كيان مقسم الى جزئين باتقان - اوروبا غربية واوروبا شرقية، وكل جزء ايضاً هدف لأن يقسم الى سلطة اوروبية اضافية - بل مجتمع حضاري تاريخي بطبقات متشابكة ولكن

ايضـاً واضحة، بتجربة وقيم وحضارة مشتركة. ويوجد في هذا المنظور رؤية اوروبا المستقبل، والتي من خلالها يمكن لاوروبا الغربية ان تتداخل طبيعياً أو كمـا يقال «عضوياً» مع اوروبا وسطى مستقلة ذاتياً او من المحتمل حيادية. ويكـون لأوروبـا الوسطى هذه بدورها روابط واتصالات خاصة بها مع اوروبا الشرقية الحقيقية ـ وهي دول البلطيق، اوكرانيا، واوروبا الروسية نفسها ـ اكثر مما تستطيع اوروبا الغربية تقويره.

وبذلك تكون اهمية هذا التوجه التاريخية لها معنى ثوري بحد ذاتها. لانها تنذر بشيء ليس اقل من التآكل المستقبلي للتقسيم القائم لأوروبا الى جبهتين منفصلتين، وذلك لأرتباطها مع تقدم عملية الاحياء للسياسات الداخلية الاصلية داخـل كل دولة اوروبية شرقية (او وسطى) منفردة. وبناء على ذلك، فيكون الرفض العضوي لمنطقة كانت تشعر نفسها مرة اخرى انها وسطى وليس اوروبا شرقية، لمذهب غريب هو نقطة بداية وانطلاق للتفكك الحتمي للبقايا الاخيرة من الامبراطورية العالمية المتعددة القوميات.

الفصل الثاني عشر

خندق الاستبدادية

«ان وضع القناعة الاشتراكية في عدد من الدول يبقى غير ثابت وعرضه للتراجع والارتداد». هذا ما صرح به الكسندر بوفين (Aleksandr Bovin) ، من مؤيدي غورباتشيف المقربين، في صحيفة ازفيتا في ١١ تموز عام ١٩٨٧ . ولقد اشار هذا الاقرار الفريد من نوعه من معلق سوفياتي معروف، بضعف الانظمة التي عزرتها موسكو قبل حوالي اربعين سنة، الى اعتراف الكرملين المتنامي بانه لا يمكن للتجانس العقائدي والمؤسساتي المفروض من السوفيات من ان يبقى وتستمر. ونتيجة لذلك، فقد كان على الاستراتيجية الاقليمية السوفياتية ان تتحول من تأكيد العقيدة الى الدفاع عن الامبراطورية.

لقد تميزت ثلاث معطيات رئيسية اساسية للدفاع الاستراتيجي الاستبدادي بحلول اواخر الثمانينات. وقد كانت جميع هذه المعطيات تضم الاستمرارية - ولم تكن اي منها توقف صارم مع الماضي - ولكنها صُممت مجتمعة لتقوية ودعم العلاقات المذهبية الشكلية مع روابط مصلحية اصولية اساسية. ولقد ضم اول عنصر من التأكيد المعزز على التعاون العسكري والمصالح السياسية - الجغرافية المشتركة؛ اما العنصر الثاني فقد اكد على تكثيف التعاون الاقتصادي والدمج؛ ولقد وضع العنصر الثالث تأكيداً خاصاً حصة النخب الحزبية في الاحتفاظ بالسلطة والامتيازات، في اطار احتمال اكبر لأختلاف محلي. ولقد رجت موسكو بان ينتج تشابك هذه الامور الثلاثة صيغة قادرة على احباط سحب التحررية لسياسات وحضارة اوروبية شرقية اصلية متزايدة.

لقد كان البعد الجغرافي ـ السياسي ذا اهمية خاصة في الحفاظ على العلاقة الاستبدادية مع بولندا، وايضاً مع تشيكوسلوفاكيا، ولكن بقدر اقل. لأن البلدان كانا مهتمين بعلاقاتهما المستقبلية مع المانيا، وكانت بعض اشكال المعونة السياسية القادمة من روسيا (بغض النظر عن شكلها العقائدي) مصدر ضروري وهام لهما للأطمئنان ضد اي طموحات المانية كامنة في اراضيهما. ولقد زودت هذه الاهتمامات الوطنية الاساسية بدورها موسكو بالبديل المفيد لضعف الروابط العقائدية، ولقد افادت ايضاً في تبرير استمرار وجود حلف وارسو، وحتى تعزيزه وتقويته ـ والذي لولا ذلك، سوف ينظر اليه حتى بعض حكام هذه الدول على انه خرق وانتهاك استبدادي لسيادتهم.

ولذلك فقد تعاظمت الجهود السوفياتية في اواخر السبعينيات وبداية الثمانينات لتقوية ودعم الدمج العسكري للجبهة بشكل كبير. ولقد نجحت موسكو في فرض قيادة ادارية جديدة للحلف بالرغم من اعتراض رومانيا القوي والتحفظ البولندي. ولقد منح هذا التجديد، القيادة العليا السوفياتية حق ممارسة المراقبة المباشرة على الجيوش الوطنية المختلفة للحلف، عند المبادرة بالهجوم على حلف الناتو حتى بدون العلم المسبق للسلطات السياسية في اوروبا الشرقية. ولقد اصبحت هذه التفاصيل المروعة معروفة للغرب في بداية الثمانينات، نتيجةً لأرتداد الكولونيل البولندي ريسزارد كولنسكي (Ryszard Kuklin-ski) الى الغرب. فلقد كان نظام القيادة الصارم، وكذلك الاجراءات المصممة لتعزيز الدمج العسكري، جزءاً من سياسة الكرملين المدروسة لتقوية حلف وارسو، لأتخاذه كأداة لأخضاع المنطقة عسكرياً وسياسياً للتحكم السوفياتي.

ولقد تساوى وتناغم هذا التشدد في تقوية الروابط العسكرية ـ السياسية، والذي صُمم ليعوض تلاشي واضمحلال حيوية العلاقات العقائدية، مع الجهود المكثفة جداً لتوسيع مجال الدمج الاقتصادي للدول الاوروبية الشرقية الشيوعية مع الاتحاد السوفياتي، ولقد اثار مثل هذا التعاون المباشر، الذي اخذ خارج نطاق المراقبية الوطنية، المخاوف في اوروبا الشرقية، بان هذه المبادرة تقدم

تصميم سوفياتي آخر لكسب تحكم سوفياتي اكبر على اقتصاد المنطقة. ومن الصعب على مصلحة غورباتشيف المصرح بها علنا في حفز استثمارات اوروبا الشرقية في الاقتصاد السوفياتي او على التأكيد التي وضعته موسكو على استغلال علاقات واتصالات اوروبا الشرقية مع الغرب لكسب مدخل للاتحاد السوفياتي الى احدث التكنولوجيا الغربية، ان تهدي وتلطف من هذه المخاوف والاهتمامات.

ويمثل هذا التأكيد السوفياتي على دمج اكبر واقرب للروابط الاقتصادية للعديد من الاوروبيين الشرقيين مرحلة اخرى من عملية طويلة لسوفياتيت (Sovet-ization) مجتمعاتهم، ويضع هذا التشديد على الروابط الجانبية، وعلى الاستثمار المشترك خطراً حقيقياً لعزل اكثر لاوروبا الشرقية عن بقية القارة، وبذلك تعرقل سبيل عملية التحرر الذاتي الثورية، وذلك بعدما أجبرت اوروبا الشرقية ليس فقط على تقليد النموذج السوفياتي في التصنيع، بل ايضاً على تبني الطريقة السوفياتية في التنظيم الصناعي. وبهذا يكون فرض مشاركة موسكو في تخلفها التكنولوجي والذي يتضمنه بوضوح الوحدة اللصيقة مع الاقتصاد السوفياتي بمثابة شؤم.

ولقد كانت مقابلة السفير السوفياتي فلاديمير بوفيكوف (Vladimir Bovikov) مع اذاعة بولندا في ٣١ تشرين اول عام ١٩٨٧ كاشفة وواضحة جداً. فبعد ان حيا ومدح «الزخم والدفع الجديد للتعاون» والذي حركته ونشطته الاتفاقيات الجانبية على مستوى التفرع الصناعي بين المشاريع السوفياتية والبولندية، وبعد ان المح ان عدة مئات من المشاريع قد اشتركت في هذا، اخذ السفير السوفياتي باستنكار واستهجان من «العديد من المشاكل والصعوبات» و«الجبن» والتي اعاقت سبيل توسع هذه العلاقات. ولقد اضاف مؤكداً ان سفارته قد «عملت بنشاط لتخطي العوائق في هذا المجال»، مؤكداً بذلك مصدقاً التقرير عن المعارضة البولندية.

واخيراً وليس آخراً، فلقد كانت احدى الفوائد المهمة الكامنة في هذه الجهود لتعزيز عملية «الاتكال المتبادل» من وجهة النظر السوفياتية، في جعل

النخب الحزبية الاوروبية الشرقية معتمدة مباشرة على الرفاه الاقتصادي للاتحاد السوفياتي. ومن المحتمل انها لم تكن مصادفة ان الجهود السوفياتية باقامة علاقات اقتصادية ملزمة قد ذهبت الى ابعد مدى مع بولندا، الدولة التي اظهرت بالفعل اعظم اصرارٍ وتصميم لتحقيق التحرر الذاتي. فلقد وقع غورباتشيف وجاروزلسكي في نيسان عام ١٩٨٧ على وثيقة تعاون مشتركة في المجال العقائدي، العلمي، والثقافي بين الحزبين الحاكمين، وهذا الاتفاق الاول من نوعه في التاريخ السوفياتي. ويمكن لأي شخص ان يحدس ويظن هنا ان مصالح غورباتشيف وجاروزلسكي قد تشابكت، بحيث ان جاروزلسكي كان قد ادرك التهديد الحتمي ضد سلطته وسلطة نخبته من تقدم عملية الظهور الجديد للحياة السياسية في بولندا المبنية على مجتمع متحرر ذاتي متزايد. ويمكن ذلك ان يساعد في شرح التلهف الظاهر والواضح في اجابة نظام جاروزلسكي على جهود غورباتشيف لتكثيف الروابط الاقتصادية وحتى العقائدية مع الاتحاد السوفياتي. ولقد كانت العلاقات الاقتصادية الاكثر التصاقاً، والتي تحرك قيود المصلحة الخاصة، والروابط العسكرية الاكثر صرامة، والتي تستند على الاهتمامات الجغرافية ـ السياسية المشتركة تفيد كتعويض عن الظهور الحتمي لخلاف عقائدي وجهازي متزايد في المنطقة. ولم يكن في الامكان سحق ذلك الخلاف، والذي ادركته موسكو اخيراً، بحيث كانت الجهود السوفياتية لغرض تجانس مذهبي، مؤسس على تقليد اعمى للتجربة السوفياتية، قد اثبتت انها تعطي انتاجاً عكسياً، اذ انها تمضي وتحفز على رفض عضوي اكثر كثافة للنموذج السوفياتي. وقد كان ذلك هو السبب في انكار الزعيم السوفياتي، اثناء الاحتفال في الذكرى السبعين للثورة البلشفية، لأي رغبة في فرض كيفية بناء الاشتراكية داخل الاطارات القومية الخاصة. ولكن كان هذا الانكار بدوره قد جعل من صياغة قيود بديلة للوحدة اكثر اهمية من اي شيء آخر، خشية من ان تكون النتيجة تسارع تفكك وتحلل الامبراطورية السوفياتية.

لقد كان الواقع الذي لا يمكن انكاره ان عملية غورباتشيف لأعادة البناء

كانت تسمح بظهور التوجهات التي كانت تفك قيود التحكم والاتكال. وقد كان لحديثه عن «البيت الاوروبي المشترك» - والذي هدف الى جر الاوروبيين الغربيين بعيداً عن امركيا - تأثيراً غير مقصود ايضاً في تشريع اندفاع اوروبا الشرقية باتجاه اوروبا الغربية الموحدة، مسبباً بذلك تآكل متزايد لصرح الاستبداد السوفياتي. ولقد شحذ كل هذا المواجهة بين رغبة المنطقة الذاتية للتحرر وبين اخضاعها الموضوعي المستمر. ويمكن للنتيجة ان تكون عملية اضمحلال وتفسخ طويلة، تقاطعها تفجيرات من عدم الاستقرار للأضطرابات النامية. ولذلك فان المنطقة بحاجة واضحة، بل راغبة بشدة الى تحولٍ منظم من دولة اشتراكية باسلوب سوفياتي، الى شكل ما في دولة رفاهية ديمقراطية متعددة الاحزاب. وتطمح الى اكثر من ذلك ايضاً، بان تكون جزءً من اوروبا ديمقراطية وتعددية حقيقية اوسع، والتي تشعر بنفسها انها جزء مكمل حضارياً لها.

ومع ذلك، فالنخب السياسية - الاقتصادية في تلك المنطقة، لا تستطيع ان تقود تطوير في ذلك الاتجاه، لأنها تعرف ان اي نجاح سوف يحولهم الى مهلمين وغير ضروريين. وهذا يفسر صمت القيادة الهنغارية ايضاً، والذي يعتبر نظامها اليوم من اكثر العقول المصلحة في اوروبا الشرقية. ويكمن في ذلك سبب انجذاب الحكام الشيوعيين المرتعدين لأندماج اكثر قرباً من الاتحاد السوفياتي. وايضاً سبب التخلف المأساوي - والخطر المتفجر - لوضع اوروبا الشرقية.

وبالنهاية، فانه يمكن لعدم القدرة في دفع تطوير سلمي وتقديم اشتراك اجتماعي حقيقي في القرارات السياسية الرئيسة، ومن ضمنها المشاركة الحتمية في السلطة، ان تثبت انها سبب خرابٍ ودمار للشيوعية في اوروبا الشرقية. وببساطة اكثر، فان غالبية شعوب هذه المنطقة يرون في انظمتهم الشيوعية على انها العائق الرئيسي امام رفاههم الخاص وامام التقدم الاجتماعي بشكل عام. وبالفعل، فلقد هيمن الاجماع الثوري ضمنياً وهو ان التصدع والخلل القاتل والمشؤوم موجود في انظمة اوروبا الشرقية المفروضة من السوفيات، على طبع

ومزاج اقسام كبيرة من شعوب هذه الانظمة.

ان ذلك الخلل القاتل هو احتكار الحزب الشيوعي للسلطة، وسببه الجذري هو السيطرة السوفياتية. ويعتبر الآن ان تصفية هاتين الحالتين هي الشرط المسبق لولادة اجتماعية جديدة، وذلك بعد اربعين سنة من فرض الشيوعية على اوروبا الشرقية.

الجزء الرابع

الشيوعية التجارية

لقد قدر للأصلاح الشيوعي الصيني احتمالياً ان ينجح . وهذا النجاح سوف يفيد الصين من ناحية، وممكن من ناحية اخرى سوف يكلف غالياً، للتقليد العقـائدي الشيوعي، وللتجانس السياسي للشيوعية الصينية. وباختصار، فان الشيوعية في الصين، وبخلاف الرفض العضوي في اوروبا الشرقية، تواجه فكرة الامتصاص العضوي من تقاليد وقيم البلاد الثابتة.

ومن المحتمل انه في غضون عدة عقود قادمة ان تتحول الصين الاكثر تقدماً والاقوى الى محرك سياسي واقتصادي رئيسي في المسرح العالمي . ويمارس قادة الدولة الشيوعيون انفسهم اعادة تحديد وتعريف مهمة لروحهم الارشادية وذلك اثنـاء عملية قيادة تلك الـولادة الجـديدة التـاريخية للصين. وتصبح نظراتهم المهيمنـة وحتى مفـرداتهم السياسية اقل تمييزاً لحزب ثوري يدعي بانه يمثل دكتاتورية الطبقة العمالية، ويمثل اكثر دكتاتورية حزب مستحدث للطبقة التجارية الصينية المراقبة من الدولة.

وللتأكد من ذلك، فلم يكن الشيوعيون الصينيون حزب طبقة عمالية حقيقي ابـداً. بل لقـد كانت قيادتـه السياسية مكونة من طلاب راديكاليين ساخطين بالاصل، والذين اصبحوا فيما بعد ثوريين ماركسيين. ولقد حول هؤلاء الفعاليون النظريون بنجاح المشاعر المتبادلة والمعززة للوطنيين والفلاحين والمدنيين لصين يقظة ولكن مشوهة السمعة الى ثورة عقائدية منتصرة. ولقد قاموا بهذه الثورة تحت شعار حزب طبقة عمالية شيوعية موجه الى مهمة تجديد الصين من خلال برنامج

ساحق للتصنيع المبدئي ـ وخصوصاً في بداية الخمسينيات ـ ومشابهاً الى حد بعيد الترجبة السوفياتية. ولقد وجه قادة الحزب من الجيل الجديد بعد عقدين من ذلك الوقت ـ ومع كونه لا يزال يقوده ويشرف عليه من جيل الثورة الاصلي، المسيطر دنغ كياوبنغ (Deng Xiaoping) ـ الى طريق واسلوب مختلف، وذلك جواباً على التراجعات المحلية المتكررة. ولقد اصبح الانفتاح الواسع على العالم الخارجي ـ والذي توقع اشتراك الصين المقدر والنشط في هذا العالم كمشاركة تجارية مهمة ـ هي الاساليب لتحقيق التحديث الاجتماعي.

ويختلف بذلك مسار الشيوعية الصينية التاريخي بشكل كبير عن شيوعية اوروبا الشرقية او شيوعية الاتحاد السوفياتي. وبخلاف شيوعية اوروبا الشرقية، فالشيوعية الصينية هي انتاج محلي، ولم تُستورد من الخارج، ولم تفرضها قوة خارجية ايضاً. وفي اغلب الحالات، فلم يكن الشيوعيون الصينيون من تدريب الاتحاد السوفياتي. فالاعضاء الرئيسون في الثورة قد ظهروا من خلال الجماهير. مثل ماوتسي تنغ (Mao Zedong) ، والجنرال شوته Chuteh) طلاباً راديكاليين وقد برزوا في مواقع قيادية في جيش ثوري ذي قاعدة فلاحية. ولقد اكتسب آخرون، مثل زهو انلاي، (Zhou Enlai) ، ودنغ كسياوبنغ (Deng Xiaoping) ، مبادئهم الماركسية الاولى وهم طلاب في اوروبا الغربية، وبالاخص فرنسا، قبل ان يشتركوا مباشرة في النشاطات الثورية في بلادهم. ولقد اشترك جميعهم في التجربة الوحيدة لأسطورة مسيرة الجيش الاحمر الطويلة.

ولقد كانت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ مصدر الهام هام للقادة الصينيين الشباب ـ ولكن لم تؤخذ كنموذج ملزم. فلقد كانت ظروف الصين التاريخية تختلف بعمق عن ظروف التاريخ الروسي، ولذلك فلقد شعر القادة الصينيون انهم مبررون باعادة تعريف المذهب الماركسي ـ اللينيني، وتحديده لكي يناسب اوضاعهم. والاهم من ذلك، وكورثة للمدنية الصينية القديمة، فقد كان عندهم الثقة بالمفكرين وحضارتهم للقيام بتجربتهم الثورية الخاصة وبعمل تخطيطهم الخاص ايضاً. ولقد كان القادة الصينيون مستعدين تماماً لتجاهل نصيحة ستالين

ـ والتي كانت عدم الحصول على النصر الثوري بضربة واحدة، بل على مراحل ـ حتى وبعد ان وصلت هيبته الشخصية ذروتها بعد الانتصار السوفياتي في الحرب العالمية الثانية، ولقد استمروا بالهجوم الثوري الشامل. لقد عظم انتصارهم النهائي من احساسهم بالهوية المنفصلة، ومن ثقتهم السياسية بانفسهم، وذلك على العكس تماماً من تجربة رفاقهم الاوروبيين الشرقيين التابعين للسوفيات.

وعلى العكس من رفقاهم في الكتلة السوفياتية، فقد كان بامكان الشيوعيون الصينيون ان يربطوا عقيدتهم بفاعلية اكبر وبطريقة مباشرة مع تاريخهم الصيني. فلقد أستمدت الدعوة العقائدية ليس فقط من المواجهات الاجتماعية مثل الجوع الزراعي الى الارض والاحاسيس المدنية ضد التفجرات الصناعية، بل ايضاً من المشاعر العميقة للوطنية المجروحة الناتجة عن الاذلال القومي لمدة قرن من الوقت والذي اوقعه الاستبداد الغربي على الصين والذي اضرمه فيما بعد الغزو الياباني. ولقد انحط التاريخ الصيني الى الدرك الاسفل في القرن التاسع عشر، ولقد اثار هذا بين العديد من الصينيين المفكرين المفتخرين اعظم مشاعر الغيظ والغضب ضد الاجانب المكرهوين، وضد حكامهم الضعفاء والمتفسخين.

وبذلك فقر تزامن ظهور الوطنية الحديثة مع الدعوة الى مذهب التجديد الاجتماعي الراديكالي في الصين. ولقد كان بمقدور الشيوعية الصينية ان تمزجهم في شكل بحيث ان اي من الاجماع الوطني تاريخياً والشيوعية لم يكونا عرضين متميزين انفرادياً. وبالفعل فلقد كان الانتصار الشيوعي يمثل للعديد من الصينيين بالاجماع التحرر الوطني من السيطرة الاجنبية الممقوته ولم تكن الحالة نفسها في اوروبا الشرقية التي يسيطر عليها السوفيات، حيث تعني الشيوعية للعديدين، استسلام الى سلطة اجنبية. وحتى في الاتحاد السوفياتي نفسه، فلقد حدث مزج الوطنية القومية مع الشيوعية فقط في ايام الحرب المرهقة ضد الالمان.

ولقد كان القادة الصينيون، والذين بدأوا ببناء المجتمع الشيوعي ميالين الى رسم تقاليدهم الثقافية والاجتماعية الخاصة بهم، وذلك نتيجة لهذا المزيج من الوطنية والشيوعية، دون النظر الى التجربة السوفياتية او توقع ردود فعل سوفياتية مسبقة. وبهذا يكون عمر مرحلة التقليد الصيني للأتحاد السوفياتي قصيراً. فلقد عبرت القربة العقائدية عن ذاتها مع الاتحاد السوفياتي، بعد سنوات قليلة من انتصار الثورة، وبدأ العداء الكبير مع الولايات المتحدة المعادية، من خلال الاندهاش العفوي، وليس المفروض، للاعمال السوفياتية، ومن خلال التقليد لعملية التصنيع في الاتحاد السوفياتي الموجهة من الدولة.

وباستعادة الاحداث الماضية، فقد كان قصر تلك المرحلة والسرعة الذي تحـول بهـا الشيوعيون الصينيون لرسم تقاليدهم وقيمهم الخاصة في سعيهم لتجديد الصين ملحوظاً. وحالما حدث هذا التحول، فقد وجب على احتجاب القادة الصينيين في هويتهم الوطنية الاصلية ان تفرز اعادة تعريف وتحديد هام وملحوظ للشيوعية الصينية نفسها. ولقد قدمت الحضارة الصينية المتطورة ببساطة - بفلسفتهـا الكنفوشية الواضحة، وبالتقليد الفريد لطبقة موظفي الدولة الكبار وخدمتهم، وبمهاراتها التجارية المتقدمة قوةً اعظم من لا تمارس تأثيراً قوياً ومشكلاً.

الفصل الثالث عشر

التجارب الصينية الثلاثة

المضاعفة

لقد كان وصول الشيوعية الى السلطة هو المجهود الثالث للصين في القرن العشرين لتخطي تخلفها، وابطال اذلالها الوطني. ولقد بدلت الشيوعية، حالما وصلت الى السلطة، مسارها ثلاث مرات في محاولة لخلق صين جديدة واكثر تقدماً. ولقد انخفضت سيطرة وهيمنة المبدأ لعقيدة مشتركة بشكل عام مع الدول الشيوعية الاخرى بتقدم كل مرحلة من مراحل التبديل، وخصوصاً مع الاتحاد السوفياتي، وتزداد تأثراً من تكيفات المذهب الملائم لظروف الصين، ولتقاليدها القائمة، والمحدد بواقعية اكثر للأحتياجات الوطنية.

ويمكن للقليل من الغـربيين ان يرحبوا بالفجوة التي كبرت خلال القرن التاسع عشر بين الشعور الصيني بتفردهم الخاص، والاحتواء الذاتي، وبتفوقهم بالحضـارة المـدنية (بـالنسبة اليهم) وبين الاجماع الصيني بضعفهم في وجه الاذلال الذي اوقعته بهم تعمداً السلطات الاوروبية المقتحمة. ولقد حول شكل المعـاهـدات والمواثيق، والاجراءات الارضية الاستثنائية، والتي فُرضت على الصين في القرن التاسع عشر، ليس فقط حالة غضب الصين كدولة، بل ايضاً كشعب الى واقـع ملموس. ولقد تعارض وتصادم هذا الانحلال والاذلال مع الاحساس الصيني بان ماضيهم ـ وحتى الماضي القريب ـ كان اغنى حضارياً واقوى سياسياً من ماضي المتطفلين عليهم المتعجرفين.

وبالواقع، ان الوهن والضعف الاقتصادي والسياسي للصين كان عائداً الى العهد الاخير نسبياً. فلقد كان معدل الدخل القومي الصيني بالنسبة الى رأس المال متساوياً تقريباً لمعدل الدخل القومي البريطاني في اواخر القرن الثامن عشر. وعلاوة على ذلك، فلقد احتلت الصين المركز الثاني في ١٨٦٠ في العالم في المجال المقدرة الصناعية. ولقد انتجت الصناعة الصينية، وذلك على ما ذكر بول كندي في كتابه «نهوض وسقوط القوى العظمى» (The rise and fall of the great powers) ١٩,٧ بالمئة من بضائع العالم المصنعة ـ وهذه النسبة بالكاد استطاعت بريطانيا ان تتخطاها الى ١٩,٩ بالمئة، وبذلك بقيت في مقدمة كل المنافسين الآخرين. وفعلياً، فقد كانت الصين في بداية القرن العشرين الرائدة بدون منازع في الصناعة، وعُدت تقريباً ثلث المقدرة العالمية صناعياً ومتقدمة بشكل كبير عن اي دولة اخرى. وتفند هذه الحقائق المقولة الغربية المنتشرة بان الصين هي امبراطورية جامدة وراكدة ومنحلة، وضحية جاهزة للاوروبيين المستثمرين النشطين. ويساعدوا ايضاً في تصفية الاستياء الكثيف ضد الغرب، وقلة الصبر والتلهف الذي سعى من خلاله الصينيون الى طمر والغاء الفجوة، ويعيدون بذلك الصين الى سابق عهدها التاريخي.

وبالنتيجة، فلقد شهد هذا القرن ثلاثة احداث رئيسة من ضمن الجهود الصينية الكثيفة لنهضة، وتنظيم وتنشيط بلادهم ثانية. ولا يمكن ان يُنظر الى اي من هذه الحوادث بمعزل او كجزء منفصل عن الواقع التاريخي. ولقد سبق هذه الحوادث وتبعها ايضاً حوادث اخرى كانت جزءاً من سلسلة مسببات تاريخية مستمدة من الامتعاض الصيني المتنامي من ظرفهم المستفتح. ولكن يمكن ان تنسب هذه الحوادث بتوافق في اسلوب القيادة التي مارسها ثلاثة شخصيات ثورية مشهورة في هذا القرن وهم: صن ياتسن (Sun Yatsen)، شيانغ كاي شك (Chiang Kai - Shek)، وماوتسي تونغ (Maw zedong).

ولقد جذبت كل واحدة من هذه الحوادث قوة سياسية وطنية بارزة، وخصوصاً وطنية الطلاب الصينيين، وايضاً من الاستياء المتزايد من فقر الصين. ولقد اقتبس

كل حادث افكاراً سياسية من العالم الخارجي لصياغة وتشكيل حركة محاولة مبكرة لتكييف الافكار الغربية في النظم الدستورية، والجمهورية، والوطنية لظروف الصين، والمتأثرة جزئياً ايضاً من التقليد الياباني والذي يبدو ناجحاً للأنجازات التنظيمية والصناعية الغربية. ولقد تزامنت جهود صن مع الصراعات المتشنجة لنظام الصين الاستبدادي القديم، والتي وهبت هذه الصراعات السرمدية التاريخية، مع ان بقايا سياسة وحضارة الماضي قد اثبتت بانها مرنة اكثر من ان تجعل جهوده تنجح.

ولقد رفع احد تابعين صن، بعد فترة من الاضطرابات والذي جاء ليسيطر على نتائج عقدين من الاهتياج، شعار التجديد. ولقد كانت ثورة شيانغ ايضاً محاولة لتكييف افكار غربية للتحديث، لظروف صينية متمردة، ومع ان مزيج المحاولة الثانية يختلف بشكل كبير. ولقد وضعت الوطنية بجانب الماركسية كشعور موحد، مع ان شيانغ نفسه كان قد تعرض لتدريب سوفياتي، وقد تعاون في احدى المرات مع الفعاليين الشيوعيين الصينيين الظاهرين في النضال لأيجاد صين جديدة. ولقد انتهى هذا التعاون عام ١٩٢٧، بأنهيار ما سمي الجبهة الموحدة، والتي بدأت بنضال دام اثنين وعشرين سنة دون توقف تقريباً مع الشيوعيين. ولقد وضع تصميمه وتشديده الرئيسي على التنظيم العسكري كوسيلة لتخطي صن وتشظي الصين السياسي. ولقد انشأ حزب وحيد احتكاري، الكوومنتانغ (The kuomintang)، والذي شابه الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، والاحزاب الفاشية في اوروبا، حتى يعبر عن شعور جديد للوحدة الوطنية. ولقد اظهر اسلوبه التهذيبي المتسم بالاناقة اللغوية تعقيد العمل الداخلي للجذور المحلية والدوافع الخارجية الجديدة داخل النضال لتجديد الصين.

ولقد فشل شيانغ، مثل صن، بان يترجم الامتعاضات ضد الماضي الى صيغة لصقل المستقبل. فلقد رفعته الحرب مع اليابان في البداية الى رمز المقاومة الوطنية، ولكنها استنزفت قوته ودعوته في النهاية. ولم يكن في مقدوره

تخطي الثنائي المفسد داخل حركته الخاصة، الطبقة المحاربة والفساد، بينما انطفأ نجمه الوطني تدريجياً. ولقد سمح ترنح شيانغ بظهور صيغة بديلة للتغيير، هذه الصيغة التي حركت بأثارة اكبر الاحباطات الوطنية والاجتماعية للصين المعاصرة، والتي عرفتهم بمصطلحات مذهبية اكثر وضوحاً، والتي اسندتهم الى منظمة سياسية مؤثرة ومنضبطة. فلقد اثبتت الحركة الشيوعية، والجيش الاحمر الشيوعي، والذي قاده منذ المسيرة الطويلة في منتصف الثلاثينيات الزعيم الماركسي ذو النشئة المحلية ماوتسي تونغ (Mao Zedong) تفوقه العقائدي والتنظيمي في التناقض المتشنج للتحكم على الشكل التاريخي والمحتوى الفلسفي لنهضة الصين الكبيرة بعد الحرب العالمية الثانية.

ولقد كيف الزعيم الجديد، وهو ماركسي متعمق، ولكنه ايضاً مبدع في مجال النظرية الثورية، فكرة ثورة الطبقة العمالية مع الوضع الفلاحي الزراعي في الصين. ولقد كسب مكانة مرموقة بحلول الاربعينيات لصياغة مذهب ثوري صيني مستقل، وذلك لنشاطه منذ بداية العشرينيات في الحركة الماركسية الاولية. وبالفعل، فلقد رُحب باسهاماته العقائدية واتخذت على انها «افكار ماوتسي تونغ»، ولقد وضعت على درجة مبادىء ارشادية للحزب، وكأمتداد للماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية، وذلك في المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الصيني والذي انعقد في قيادة الجيش الاحمر الصيني في ينان (Yenan) ، خلال ربيع عام ١٩٤٥ ـ اي قبل اربع سنوات من انتصار الشيوعية النهائي، ويشهد ذلك ليس فقط على مكانة ماو وعظمته الفكرية المهمة، بل ايضاً على الثقة السياسية بالذات للشيوعيين الصينيين.

مع ذلك فلقد كان ماو مثل من سبقوه في عملية المطالبة لتجديد الصين، وطني صيني دخل وانغمس في تاريخ بلاده. ولقد كان الامبراطور كين (Qin) ، الذي وحد الصين عام ٢٢١ قبل الميلاد احد ابطال ماوتسي تونغ، ذلك على ما ذكر المؤرخون لتاريخ الصين الحديث، ولم يكن اعجاب ماو به موضع شك به، بل مرتبطاً بادراكه ان عدم وحدة الصين المعاصر قد ساهم في تراجعها.

ولقد لاحظ المؤرخون ايضاً وجود بعض الصلات القوية بين الافكار الشيوعية الصينية لحكومة اصلاحية ومسيطرة وبين تشدد سلالة كين (Qin) الحاكمة على الانضبـاط والحكم الـدائم والمستمر لطبقة الموظفين المتفوقة روحياً واخلاقياً ومصبوغة بفلسفة واضحة.

ومع ذلك، فلقد عم النظام الجديد في البداية ليس فقط بين القدماء، بل هيمن على تفكير وبرامج القيادة الوطنية الجديدة للصين. ولقد منح المذهب الشيوعي مع التجـربـة الشيوعية المبكـرة في الاتحاد السوفياتي نقطة انطلاق لتجـديد الصين. ولكن مع الـوقت، ومع تقدم عملية الادراك لفشل النموذج الشيوعي التقليدي، فلقد بدأت صيغة، وهي مزيج من المذهب الجديد مع حكمـة تجـربة الصين الخاصة*، بالظهور وبتحديد وتعريف برنامج اقل جزماً لتحقيق عملية تجديد البلاد كاملة. ولقد قاد انتصار ماو على شيانغ في سياق النهضـة الاجتمـاعية والوطنية للصين، قاد البلاد الى ثلاث محاولات شيوعية ضخمة لالغاء الفجوة التي اوجدت بتوسع كبير في القرن الماضي ـ وكانت اثنتان من هذه الثلاثة، مكلفتين جداً.

لقـد كانت المحاولة الاولى ـ والتي وصلت ذروتها في ما يسمى «القفزة العظيمة الى الامام» (Gredtleap Leap Forward) ـ قد انبثقت من تراكب المذهب مع وجود المعونة السوفياتية. وحالما عزز الشيوعيون سلطتهم على جميع انحاء البلاد بعـد الانتصـار الاخير في عام ١٩٤٩، فقد باشرت البلاد في برنامج طموح للتصنيع ـ مع الاحتفاظ بايمان عملية التبسيط العظيم في الفوائد* الاجتماعية الخارقة من الصناعة الثقيلة. ولقد وجب لغاية ذلك الوقت فهم وادراك المعونة والتقنية السوفياتية باسرع ما يمكن، مذكرة بعدة اساليب بخطط ستالين للخمس السنوات. ولقد تدفق المستشارون السوفيات الى البلاد، واندفعت افواج الطلاب الى الجامعات السوفياتية، ولقد اثنت الصحف الصينية بالانجازات السوفياتية. ولكن، من جهة اخرى، فقد كان القادة الصينيون نافذي الصبر، وغير راغبين بقبول فكرة ان التطور يجب ان يمر من خلال عدة مراحل تاريخية على الطريق

الطويل للأشتراكية. ولقد بلغ تلهفهم وميلهم الى عدم الاعتماد التام على التجربة السوفياتية ذروته في البرنامج الساحق المعلن في الجلسة الثانية من اجتماع الحزب الثامن في ايار عام ١٩٥٨ لتجميع الزراعة الصينية وتصنيع الاقتصاد.

ومقراً، فلقد استلزم ماو تشكيلة عقائدية جديدة لتبرير هذه الخطوة المؤثرة داخل العصر الصناعي للبلاد والتي على ما ذكر المذهب الرسمي، والاحصائيات الموضوعية، كانت لا تزال مجتمع فلاحي متخلف بشكل بارز. ولقد ادعت القيادة الشيوعية الصينية تعسفاً في ايلول عام ١٩٥٦ في الجلسة الابتدائية لاجتماع الحزب الثامن، وهو الاول بعد انتصار عام ١٩٤٩، وبدون خجل من التعامل مع مذهبهم، بان الصين قد دخلت فعلاً «المرحلة المتقدمة» من بناء الاشتراكية. ومع تحقيق الاهداف الفخمة لعملية «القفزة العظيمة الى الامام»، فسوف تكون الصين جاهزة للدخول في مرحلة الشيوعية الفعلية. ولقد حُددت اهداف الصين ليس لمصطلحات المبدأ الماركسي، بل ايضاً بمبدأ المساواة وبعد ذلك تخطي القدرة الصناعية لبريطانيا العظمى، الدولة التي كانت الند الوحيد في الانتاج الصناعي للصين قبل قرن واحد فقط، وهي اوقعت ايضاً اقصى انواع الاذلال عليها.

ولقد انتج الجهد المتعصب والوحشي لأعادة هيكلة الفلاحية الصينية في ما يسمى اللجان الشعبية بؤساً بنسب ضخمة. ولقد مات الملايين ـ وفي بعض التقديرات ٢٧ مليون انسان ـ نتيجة لعملية الترحيل، العنف، والجوع. ولقد صارت الصين قليلاً افضل في القطاع الصناعي، ولقد ساءت حالة الاقتصاد بعد ذلك بظهور التصدع في العلاقات الصينية ـ السوفياتية، والتي ادت الى انهاء ووقف تام وحقيقي لجميع انواع المساعدات السوفياتية في اواخر الخمسينيات. لقد انتج ذلك تمزق في المشاريع الصناعية الجارية، وخصوصاً بعد رحيل الفنيين السوفيات الفجائي، وفُقدت قطع الغيار السوفياتية، ولقد تُرك القطاع الصناعي الصيني لوحده فجأة. ومع انحلال عملية «القفزة العظيمة الى الامام»

داخل البؤس المتردي تاريخياً، فقد كان الانجاز الاقتصادي كئيباً. فلقد انخفض الناتج الاجمالي الزراعي بين عام ١٩٥٨ ـ وعام ١٩٦٢ فعلياً بنسبة ٢٨ بالمئة، وذلك حسب ما ذكر ج. س. شو (G.C. Chow) في كتابه الاقتصاد الصيني (The chinese economy) ، وكذلك الصناعة الخفيفة بنسبة ٢١ بالمئة، والصناعة الثقيلة بنسبة ٢٣ بالمئة.

لقد اخلى وهم وخيال المستقبل الطري لجنون العظمة بالنسبة الى الحاضر ولقد ساهم شعور الفشل المؤلم لعملية «القفزة العظيمة الى الامام» في المرحلة الثانية المثيرة من المحاولة الثالثة للشيوعية الصينية لتجديد الصين. ولقد تابع ماو منـذ منتصف الستينيات برنامجاً طموحاً لثورة شبه فوضوية، دُعيت تلطيفاً الثورة الثقافية. ولقد استولى اشتداد العنف المفاجىء على الصين، مع كبر سن ماو وعجزه المتزايد الذي حث اتباعه على تدمير بعضهم البعض في مسار مفهوم تجديد الثورة. ولقد أُدينت التجربة السوفياتية علناً في ذلك الوقت، واتهمت بانها تساهم في التعديلية المضادة للثورة. ولقد وجب اعادة احياء نقاء وصفاء الثورة من خلال النضالات الداخلية ضد الطبقة الحاكمة والتقاليد القديمة.

وبالنتيجة، فلقد شهدت الصين منذ عام ١٩٦٦ الى منتصف السبعينيات سلسلة من التصفيات الوحشية، والقتل الجماعي لعدة مئات من الالاف من مسؤولي الحزب والقادة العسكريين (ومن بينهم شخصيات شريفة من المسيرة الطويلة ومن الثورة الصينية ايضاً)، بالاضافة الى سجن ونفي عدة ملايين الى معسكرات الاعتقال. وتشبه هذه الفترة في الصين أسوأ فترات الارهاب والتصفية الستالينية، مع ان عدد الضحايا لم يُعرف ابداً. ولقد عزز وغذى هذا العنف الصراعات الكثيفة على التركات السياسية، مع ان ماو ومساعديه الرئيسيين قد حثوا وحفزوا الى هذا العنف، ولقد صفي جسدياً في هذا الاطار على الاقل اثنين من الذين أُعتبروا خلفاء لماو.

ولقد استغرق مساعد ماو المهذب سشو انلاي (Zhou Enlai) ، العديد من

السنوات من المناورة والدهاء بالاشتراك مع بعض القادة الكبار السابقين الذين أعيد اعتبارهم تدريجياً، مثل دنغ كسياو بنغ (Deng Xiao Ping) ، لكي يضعوا النشاطات المدمرة للثورة الثقافية تحت السيطرة. وبموت ماو في ايلول عام ١٩٧٦، فقد كسبت عملية التسوية والتطبيع اخيراً الزخم والقوة. ولكن حتى في ذلك الوقت، فقد مرت خمس سنوات من قبل ان يجمع دنغ السلطة في كلتا يديه بشدة. فلقد اعفى منافسه الرئيسي من السلطة فقط في المؤتمر الثاني عشر للحزب الذي انعقد في ايلول عام ١٩٨٢، محولاً بذلك الصين الى طرف جديد في السعي الى الاهداف المميزة من استعادة الروح الوطنية والهيبة العالمية. ولقد افترض البرنامج الجديد المعلن عنه في اواخر السبعينيات ووصف «بالتجديدات الاربعة» - وهي الزراعة، الصناعة، العلوم والتكنولوجيا، والدفاع - والذي نما وكبر خلال السنوات العديدة التي تلت، الانفتاح الكامل الواقعي على العالم الغربي، والرغبة المتزايدة والثابتة في التلاعب بالتقليد العقائدي في البلاد.

ولقد توافق ذلك المسار الجديد مع التغيير الاساسي لموقع الصين العالمي: فلم تكن فقط استعادت العلاقات الكاملة مع الولايات المتحدة، بل لقد بدأت علاقات اقتصادية وسياسية واسعة النطاق بالظهور، مع النمو التجاري الصيني - الياباني، والذي خفزها وحثها الخوف المشترك من التوسعية السوفياتية. ولقد ساهم التحول في العلاقات الصينية الخارجية الى التخلي عن الرؤيا العقدية لعالم متوجه الى الدخول في حرب ذرية، وتبني مبادىء جديدة اكثر مرونة تقودها الى مشاركة متزايدة في الدبلوماسية والتجارة العالمية. وكان بامكان برنامج الاصلاح الظاهر ان يصبح، فعلياً، النموذج الصيني المشابه لأعادة مييجي الياباني (Japans Meiji Restaration) ، والتي اقحمت اليابان فعلياً داخل العالم الحديث.

الفصل الرابع عشر

المواجهة الساسية

وميلاد الاصلاح

لقد وجد البرنامج الجديد في مضمون صراع مرير على السلطة، ولقد حددت صراعات مريرة جوهر هذا البرنامج. ولقد استغرق دنغ كياو بنغ، وهو الشخصية المهيمنة الظاهرة في الصين ما يقارب من العشر سنوات من الكفاح السياسي لكي يصوغ ويفرض برنامج عمل شامل لمسار بديل لتطوير الصين. ولقد اعاده الاوهام الشخصية والمواجهات السياسية صقل العقيدة، كما حدث في السابق في الاتحاد السوفياتي في سباق الصراعات العنيفة بين ستالين وتروتسكي. فلقد اعاد ماو تعريف الماركسية ـ اللينينة في خضم الثلاثينيات مشدداً على ان الراديكالية الفلاحية هي مصدر القوة الثورية، وكان على دنغ بعد ذلك ان يعيد تعريف الاشتراكية حتى يعزز ويدعم الاقتصاد الفردي والانتاج التجاري.

ولقد ضم الاجراء السياسي الاولي بعد موت ماو عام ١٩٧٦ نوعاً من السلطة الثنائية. فلقد اكد التوجه الحكومي المنبثق برعاية تابعه الشاب هواكوافنغ (Hua Gufeng)، بينما اشار انبثاق الاتجاه الواقعي للحزب الى استعادة الحالة السوية، والتخلي عن الثورة الثقافية برعاية واحد من اكثر المتضررين من ضحايا هذه الثورة، دنغ كياوبنغ. ولقد اظهر دنغ رسمياً ادعائه بالاخلاص الى تعاليم ماو. ولقد صرح في عام ١٩٧٩ بانه على كل مواطن صيني ان يلتزم «بالمبادىء الاربعة»: وهي طريق الاشتراكية، ودكتاتورية الطبقة العمالية، وقيادة وزعامة

الحزب، وافكار الماركسية ـ اللينينية وماوتسي تونغ. وبالواقع، فلقد باشر دنغ رغم ذلك، تحت مظهر الادعاء بالاستمرارية، بتعديل مدروس لخط مسار الحزب القائم، والذي كان عليه ان يتخطى في هذا المجال، سلسلة من العقبات السياسية الرئيسة الحقيقية.

ولقد بدأت هذه العوائق من الركود المتوارث، ماراً بالتقليد العقائدي حتى يصل الى المعارضة العلنية داخل وخارج الحزب ـ ولقد عقدت كل مرحلة منها عملية صقل وفرض الاسلوب البديل لدخول الصين الى العالم الحديث. ولقد تأهل الواقع المتوارث في طبيعة الشيخوخة لقادة الصين الكبار قبل ماو. ومع ان هو (Hua) القائد الاسمي الاعلى، كان لعتبر شاباً في المنظور الصيني العام، فلقد تكونت القيادة العليا من معاصري ماو، والذين لم يكن اغلبهم مستعدين لمخالفة دنغ شخصياً أو مذهبياً، وعلاوة على ذلك، فلقد نظر اغلبية هؤلاء المحنكين القدماء بتشكك ليس فقط الى جهود دنغ لتشكيل اسلوب جديد، بل الى دعواته الحادة لتجديد الكوادر العليا نفسها.

ولقد تداخلت هذه الاعتبارات مع الحقائق السياسية والعقائدية. ولقد كانت دعوة دنغ «للتجديدات الاربعة» غامضا عقائدياً، مع ان برنامجه الاصلاحي كان قد ظهر تدريجياً، وذلك لأنه لم يفترض المناويات الرئيسة لدور الحزب، ولم يستجوب بوضوح استمرارية الحاجة الى دكتاتورية الطبقة العاملة. وكان على اكثر العقول التقليدية للقيادة العليا الصينية ان تشعر بعدم الارتياح من التأكيد على الانفتاح على الغرب. لأن هذه الاقتراحات المبكرة في مفهومهم، قد استلزمت الدعم والتعزيز المستمر للأعتبارات الأفكار الادارية، وكان واضحاً انها لم تستمد اصلاً من المظاهر المذهبية التقليدية بالنسبة الى البناء الاشتراكي.

وحتى تتعقد الامور اكثر، فلقد ظهرت معارضة علنية ضد الدكتاتورية الشيوعية القائمة بشكل مفاجيء ـ ولقد شجع هذه المعارضة ومنحها الجرأة خطوات دنغ الاصلاحية الاولى المتواضعة. ولقد اتخذ الطلاب الفعاليين بخلاف

مؤثـر مع ايام الثورة الثقافية، بدون تردد موقفاً ديمقراطياً غربي ومدمر مذهبياً ومناهض للمؤسساتية. ولقد اظهر هذا الموقف نفسه ديمقراطياً في وقت مبكر يصـل الى ١٩٧٨، من خلال المـظاهـرات والاعلانات الملصقة على حائط الديمقراطية قرب المدينة المحرمة في بكين. ولقد عبر اعلان الصقه احدذ زعماء الطلبة، ويي جنكشنك (Wei Jingsheng) عن رسالة المحتجين: «لا تحديث دون الديمقراطية». ولكن دنغ من جهة اخرى لم يكن تحرري نظري. ولقد اصبح ذلك واضحاً ومثبتاً باسهاب عندما حكم على ويي (Wei) بالسجن خمسة عشر سنة لدعوته الى «التحديث الخامس».

ولقد فرض الحذر والادانة العقائدية على ردود دنغ. ولقد استلزم الحذر الرفض الواضح جداً للتعاطف مع الديمقراطيين المتحملين من الطلبة، لأن اي شيء غير ذلك سوف يشير وينبه الزعامة والطبقة الحزبية ضد اي اصلاحات مطلوبة. فلقد صممت هذه الاصلاحات قبل اي شيء لأستعادة السوية في البلاد وتبنيه الحـزب الحاكم إلى فوضى العقد الفائت الواسعة، وكذلك للتقدم في تحديث البلاد ولقد انعكست الادانة من الاصرار على التمسك بالمراقبة «من اعلى» غلى عملية الاصلاح، وبخلاف ذلك تصبح العملية ارتفاع وازدياد عفوي مفاجيء، والتي يمكن ان تهدد مرة اخرى اولوية وافضلية الحزب. لأن الاصلاح لم يكن في اي وقت يعني عند دنغ تنازله او تنازل حزبه عن السلطة ابداً.

وعلى العكس من ذلك تماماً، فلقد سعى دنغ الى متابعة الاصلاح من موقع الاستقرار والاستمرار، وبخلاف ثورة ماو المتهورة الرومانتيكية، فاتحاً الطريق بذلـك للبرنامج طويل الامد للتجديد الاجتماعي ـ الاقتصادي للصين. ولقد تطلب ذلك ليس فقط تجديد القيادة، بخلافة منظمة لدنغ نفسه. وبخلاف ذلك فمن الممكن ان ينغمس الحزب مرة اخرى في نوع من الفوضى التي دمرت البلاد في العقدين السابقين بشكل كبير، ومزقت الحزب. وقد كان على القائد الاعلى اولاً ان يجمع السلطة في يديه، وان يتخلص من منافس قائم او مخفي،

وان يضبط الوضع بشدة وصرامة، وايضاً ان يعين ويدعم خلافائه، وذلك لكي يطمئن على عملية تحويل منظمه. ولقد كان ذلك مخطط دنغ منذ بداية الثمانينات.

ولقد تابع دنغ مخططه خلال عدة مراحل صعبة مثابرة ومواظبة ملحوظة، بالرغم من بعض التراجعات الخطيرة. فلقد نجح في عام ١٩٨٢ باعفاء هوا كوافنج رسمياً من السلطة، وفي طرد البقايا الاكثر راديكاليا من حاشية ماو المباشرة ـ او ما سمي «بعصابة الاربعة»، ومن بينهم ارملة ماو نفسها، والذين أدينوا وحكموا بالسجن لمدد طويلة لملوميتهم الاجرامية في وحشية الثورة الثقافية ـ ونجح ايضاً في تقدم مجموعته الاصغر سناً الذين اختارهم من خلافائه. ولقد وافق مؤتمر الحزب الثاني عشر في ايلول عام ١٩٨٢، في اطار عملٍ رسمي هام، على اختيار دنغ لِـ هو ياوبانغ (Hu Yaobang) كزعيم قادم للحزب، وزهاو زيانغ (Zhao Ziyang) كزيعم حكومي. وقد حقق دنغ بذلك، على مستوى السلطة، تقدماً ملحوظاً.

ولكن بقيت مسألة المذهب والبرنامج. فلقد استمرت المناقشات الداخلية الكثيفة لعدة سنوات، وقد سببت حتمياً بازمة سياسية جديدة. ولقد تطور هو (Hu) من المصادق الحذر نسبياً على الاصلاحات المحدودة ـ وخصوصاً بعد خطابه الرئيسي في مؤتمر الحزب الثاني عشر عام ١٩٨٢ والذي لم يبدأ اي عملٍ جديد ـ الى زعيم متقدم ليس فقط لاصلاح اقتصادي شامل، بل ايضاً لمجالات متناقضة بان الاصلاحات السياسية يجب ان تواكب التغييرات الاقتصادية. وسوف يتداعى الاصلاح الاقتصادي، بالنسبة اليه، اذا حدد فقط للاقتصاديات. ولقد طرح نقاشه علناً ـ والذي اصاب مركز وقلب مجالات الاصلاح في كل الدول الشيوعية ـ وباسلوب هام واكثر صقلاً في المجالات الخاصة.

ولقد عقد هو (Hu) في صيف عام ١٩٨٦ جلسة طويلة خاصة، وبعد ذلك، استضاف على مأدبة عشاء خاص، مسؤولاً امريكياً عالي المستوى. (ومصادفةً

فقد كان هذا العشاء، الذي اقيم في قاعة الشعب الكبرى، رمزاً للروح الجديدة: فلقد قُدم الى هذا المسؤول، الذي تصادف ان يكون هو نفسه مؤلف هذا الكتاب، افضل المأكولات الفرنسية الحديثة، مع النبيذ الفرنسي الفاخر، بدلاً من لائحة الطعام الصينية التقليدية». ولقد كشف هو في محادثة استغرقت خمس ساعات عن ادائه بالنسبة الى الحاجة الى الاصلاحات الاقتصادية والسياسية في الصين. ولقد تكلم بصراحة غير عادية دون الاعتماد على اي نصف نص كتابي، واستعمل كلمات لا يتفوه بها عادة القادة الشيوعيون الكبار. فلقد صرح مباشرةً انه يجب اعادة هيكله النظام السياسي القائم حالياً، ومع ان ذلك سوف يأخذ بعض الوقت من القيادة العليا لرسم البيانات الاساسية لتحديد التغيرات المطلوبة. ولقد اضاف قائلاً ان التوظيف الزائد في الحزب المركزي والدوائر الحكومية ـ وبوجود العديد من مئات الالاف من المسؤولين الكبار محتشدين في ١٠٧ من هذه الدوائر ـ قد ضاعف المشكلة. وباختصار، فقد كانت تقنية الدولة بحاجة الى فحص شامل دقيق وقاس.

ولقد ادرك (Hu) ان التغييرات السياسية تتطلب تقديم حكم القانون. ولقد اشار بشكل خاص الى اهمية الاحكام الموضوعية المحددة والتي تنطبق على كل انسان. وبدون هذه القوانين والاحكام، فسوف يظهر ثانية القرار التعسفي المتقلب، مترافقاً مع نتائج سلبية للتطور الاجتماعي. ولقد ربط هذا المطلب بالرغبة بفصلٍ اكثر حدةٍ لدور الحزب والدولة، منتقداً بشدة تدخل الحزب المتكرر في الادارة المباشرة. وعلاوة على ذلك، فلقد استمر في المجادلة بانه من المرغوب به المحفز والحاث الى مشاركة سياسية اكبر في المناقشات العامة حول السياسة، وذلك بدعم مجال المشاركة في العملية السياسية «للاحزاب» الصينية غير الشيوعية ـ وهم الصينيون المساوون للأوروبيين الشرقيين المحكومين من الاحزاب الشيوعية، والتي تزعم انها تمثل المصالح الخاصة «غير المضادة» للفلاحين واهل الفكر. ولقد كانت هذه المجموعات، بنظر هو (Hu) ، هدفاً لأدارة الشيوعية المكثفة.

ولقد ابدى مرونة كبيرة في مناقشته لطبيعة ودور العقيدة الرسمية. ولقد عرّف المفهوم الرئيسي للماركسية باسلوبها مناقشته لطبيعة ودور العقيدة الرسمية. ولقد عرف المفهوم الرئيسي للماركسية باسلوبها في تحليل العالم وفي فهم مشاكله، وكذلك في اعطاء التوجهات لنباء مجتمع جديد. ولقد قال، متوسعاً في هذا التعريف الغامض لمذهب اكد دائماً وتقليدياً على مركزية المسائل العقائدية، ان الماركسية هي عملية تطوير ويجب ان تثبتها انجازات مادية ملموسة. ولقد ظهر استشرافه العملي المذهبي من ملاحظته انه بتجنيد اعضاء جدد في الاديان، فسوف يتوجه الحزب بذلك الى الذين بمبادرتهم يمكن ان يقودوا آخرين الى الرخاء والازدهار حتى ولو اصبح البعض اثرياء قبل غيرهم.

ولقد كان المفهوم الكامل لتعليقاته التباس فضولي. حيث ان قوة حديثه، والذي اعلنه بوضوح وحيوية ملحوظة، كان في ان التغييرات السياسية الاساسية كانت مطلوبة، ويجب ان تترافق مع التغييرات الاقتصادية والتي كانت القيادة الحزبية مستعدة لكي تتبناها في عملية المتابعة «للتجديدات الاربعة». بما ان قوة الدفع العريضة لأظهار البرنامج الاقتصادي قد اشارت باتجاه اللامركزية الكثيفة، فلقد اضافت انه يجب تطوير التغيير السياسي بدرجة مساوية اساسية لتشتيت السلطة السياسية المركزية. ولم يكن هو (Hu) متردداً ولا متناقضاً في المسائل العقائدية الحساسة، وذلك بتعريف الماركسية بمصطلحات واسعة كبيرة دون اللجوء الى لائحة الاوامر اللينينية.

ولقد طفت على السطح، عند بدء نقاش دور الحزب مع ذلك، التأثيرات المتشابكة للمصالح السياسية المكتسبة للظرفية العقائدية، وللنزعة الخاصة لجميع الزعماء الشيوعيين بان يروا من انفسهم المفسرين الحقيقيين بشكل نهائي للواقع المعقد حولهم، في تأكيدات واسعة بان دور الحزب الحاكم يجب ان يستمر، مثل «الديمقراطية المركزية»، وهي تسمية لينين الخاطئة للطاعة العمياء. ولقد فسر ذلك بدوره ان المعضلة النهائية للتغيير، وخصوصاً موقع رسم الحد الملائم بين الاصلاحات الاقتصادية والسياسية، بقيت دون حل.

ولقد كان زعماء صينيون آخرون، والذين اغلبهم قد اتخذوا مواقف اقل تجديداً من هو (Hu) ، اكثر حيرة وتعقيداً، وغير مرتاحين بالنسبة الى هذه المسألة المركزية المهمة، والمعقدة فعلاً. ولقد لعبت المنافسات الشخصية بدون ادنى ريب دوراً مستمراً في المناقشات الداخلية حول ظهور برنامج الاصلاح. فلم يكن اختيار دنغ لـِ هو (Hu) كخليفة رئيسي له، قد رحبت به بالاجماع الصفوف العليا للحزب، كما اظهرت ردود فعل القيادة للأضطرابات الطلابية الواسعة والتي تفجرت مرة اخرى في كانون اول عام ١٩٨٦. فلقد تظاهر عدة مئات من الالاف في مدن الصين الرئيسة، مطالبين بحرية اكبر، حاثين لأصلاحات ديمقراطية، ومتحدين بشكل عام ادعاء الحزب في السيطرة الاحتكارية على برنامج الاصلاح. ولقد قمعت قيادة الحزب بالقوة، بردود معاكسة، تلك التفجيرات والتي قادها في العديد من الحالات ابناء الطبقة الحزبية الحاكمة. ولقد التمس كبار قادة الحزب شخصياً دنغ اعفاء هو من منصبه متهمة إياه على الاقل جزئياً بالتسبب بالاضطرابات الاخيرة وميوله الشديد باتجاه التعديلية السياسية والعقائدية.

ولقد اعاد اعفاؤه فتح موضوع الخلافة مرة اخرى، وابقته مسألة الاستراتيجية الكلية للأصلاح بدون حل. ولقد واجه دنغ مرة اخرى الحاجة الى تهدئة الوضع والى تأكيد الاستمرارية السياسية بعد غيابه عن المسرح السياسي. ولقد استغرق دنغ معظم عام ١٩٨٧ لتثبيت الوضع العام، وتعيين فريق خلافة جديدة، وتنظيم برنامج ولقد خضع دنغ للضغوط في كانون ثاني، واعلن اعفاء هو (Hu) من منصبه، فقد اصبح دنغ نفسه غير مرتاح من ميل هو (Hu) لتقدم وترأس عملية التجديد السياسي. ولقد حدثت مناقشات مطولة خلال الربيع والصيف بين القادة الكبار. ولقد كان فريق جديد مستعداً للتعيين رسمياً بحلول عام ١٩٨٧: فلقد حول زهاو (Zhao) الى تسلم مسؤولية الحزب، بينما عُين لي بنغ، وهو قائد حزبي اصغر سناً، والذي كان برعاية شوان لاي المتوفي، والذي عاملهم مثل ابن بالتبني، ليصبح رئيس الحكومة الجديدة.

ولقد مثل هذان الرجلان بوضوح الجناح الاصلاحي، ولقد حدد الاثنان انفسهما بنظرية دنغ بان التحديث الداخلي يجب ان يتطابق مع الانفتاح الخارجي على العالم. ولقد سلم الاثنان بان بعض التغييرات السياسية التقويمية الحذرة يجب ان تطابق الاصلاحات الاقتصادية الاكثر طموحاً. ولقد شارك الاثنان ايضاً رأي دنغ مع ذلك، بانه لا يمكن السماح لأنشقاق سياسي داخلي ان يتقدم على الاصلاح الاقتصادي ـ ويجب قمع الانشقاق الاول حتى يستمر التالي تحت الادارة والتوجيه الصارم الشديد من الاعلى.

ولقد القى زهاو بتصريح شامل حول الاسلوب الكامل للاصلاح امام مؤتمر الحزب الثالث عشر في بكين في اواخر تشرين اول عام ١٩٨٧، ولقد دمج الاصلاحات المختلفة المتبعة منذ اواخر السبعينيات بعد تلخيصها مع رؤية اوسع للمستقبل، وقد سعى الى اعطاء اهمية عقائدية منطقية الى المبادرات السابقة والخطط المستقبلية. ولقد عين المؤتمر ايضاً رسمياً قيادة حزبية جديدة مكونة من اعضاء اختارهم دنغ مسبقاً. مستجيباً بذلك لرغبة طويلة بتجديد متطرف وشديد لكوادر الحزب العليا. ولقد اوضح بقاء هو (Hu) في المكتب السياسي، دون ان يزج في الظلمة السياسية، وانه كان يُرى كجزء من القيادة خلال تقدم اعمال المؤتمر، التزام القيادة في الاصلاح.

ولقد اظهر المؤتمر معلماً هاماً وحدثاً واضحاً من تاريخ الصين قبل ماو. ولم يتركز الخلاف الداخلي بعد ذلك حول اولوية دنغ او الرغبة في اصلاحات شاملة، بل حول افضل الطرق لمتابعة الاستراتيجية الاصلاحية. ويمكن لهذه المسألة، وفي بعض النقاط هناك احتمال كبير، ان تتطور وتتوسع الى اختلاف حول السياسة، وخصوصاً في نطاق احداث الصراعات على الخلافة. ومن المحتمل ان جولات الصراعات المستقبلية بين خلفاء دنغ حول وضع واستمرار برنام اصلاح طموح فعلاً.

الفصل الخامس عشر

االاستراتيجية الاصلاحية

والمرونة العقائدية

لقد افادت الصراعات الطويلة والمتزايدة على السلطة كمواد حافزة للتغيير العقائدي. فلقد اتجه النظام الشيوعي في اطار قيادة صارمة ومنشئة جلياً، الى جعل التوجه المذهبي صلباً ولقد مالت المحافظة البيروقراطية والتقليد العقائدي الى دعم للعقيدة المنشئة. ولكن الصين من ناحية اخرى لم تتجمد مثل الاتحاد السوفياتي، حيث انها لم تمر بتجربة الستالينية المحضة لمدة خمس وعشرين سنة تحت حكم ستالين، ولا بتجربة الركود الستاليني لمدة عشرين سنة تحت حكم بريجينيف. ومن ناحية اخرى فقد ضمت سياسات ماو الخاصة عدة تراجعات قاسية، بينما دفع عجزه الجسدي في وقت لاحق الى عقدين من عدم الاستقرار السياسي متميزة هذه الفترة، بالصراع القاتل للخلافة.

اما في اطار المواجهة الحادة الشديدة للسلطة ـ وهذا بالنهاية لا يعني باقل من كونه صراع يائس للمحافظة عل البقاء الشخصي، ومعطيه الوصف المهلك والمميت للسياسات داخل النظام الشيوعي ـ فلقد مالت العقيدة للخضوع لقانون الغاب، ولتصبح اداة للمواجهة، وبذلك تُفسر من وقت لآخر للأستمرار مع ملائمة السلطة. ويفيد هذا كله بدوره في فتح الطريق امام معايير اخرى اكثر واقعية. لأنه يمكن للأعتبارات الاقتصادية المادية مثل الانتاج والفاعلية ان تجلب الامتيازات المذهبية بشكل متزايد. ويتفكك المذهب مع استمرار هذه العملية.

وكما يلاحظ، فقد تجمعت عملية اصلاح ذات خطوط متعرجة ومختلفة بزخم وقوة كبيرة منذ اواخر السبعينيات، ولقد بلغت ذروتها في مؤتمر الحزب الثالث عشر في عام ١٩٨٧ ولقد اعطى المؤتمر في حدث ذى اهمية تاريخية، الاطار لثلاثة تطورات حساسة. وقد كان التطور الاول ايجاد منتدى عام لنقاش اعادة نص لالتزام الصين في تطور مذهبي متنامي، وتقييم انجازات الاصلاح المنفذ في اطار جهود دنغ لاحتواء السلطة. وانتج الثاني خطة مفصلة لأصلاحات اقتصادية و«سياسية» صينية متزايدة. اما الثالث فلقد بين بوضوح تشكيلاً عقائدياً جديداً وهاماً، عُمل لكي يبرر الطابع الطويل المدى لتجديد الصين المذهبي المرن.

ولقد سجل مسار الاصلاح الصيني الاول رقماً قياسياً مهماً. فقد كان الانجاز الاكثر تأثيراً واكثر التجديدات المذهبية جرأة في البداية قد حدث في القطاع الزراعي. ولقد كان على هذا القطاع ان يمنح القادة الصينيين السبب للقناعة الذاتية والايمان في منهج العمل هذا. وكما اتضح في اجتماع اللجنة المركزية المكتملة العدد في كانون اول عام ١٩٨٧، فلقد اظهر الغاء التجميع او الغاء التشيع (Decomnmnization) في القطاع الزراعي الصيني واندفاع مؤثر في الانتاجية. وبالفعل، فقد تحولت الصين في خلال عدة سنوات من مستوردٍ للغذاء الى مصدر فاعل له ـ على العكس تماماً من جارتها الشيوعية الشمالية، والتي بقيت حتى تحت قيادة غورباتشيف متجمدة في التزامها لنظام التجميع التالف.

ولكن من ناحية اخرى، فقد وجد الصلاح من ذلك نتائج عقائدية عميقة. فلقد اوضحت ان الغالبية العظمى من الشعب الصيني قد توقف عن العيش داخل اطار شيوعي مصقول بدوافع عقائدية. وعلى العكس من ذلك، فقد كان المجتمع الريفي يعيش اقتصادياً وثقافياً في بيئة تقليدية مختلفة عن الافكار الشيوعية المألوفة، وذلك باعطائه السلطة على التحكم بارضه، بايجار طويل الامد، وببيع انتاجه بحرية في اسواقٍ علنية، وباسعار يقررها مبدأ العرض

والطلب. ولقد استلزم هذا التناقض مع الماضي امراً واقعاً مخفضاً من تحكم الحزب المباشر على الكثير من الشعب الصيني. ولقد تقلص بذلك التحكم السياسي المركزي، كلما توسعت قوة الاقتصاد الصيني.

لقد كان الشيء التافه العقائدي في الغاء شيوعية القطاع الزراعي قد استنبط من جراء تأجير الارض للفلاحين، بدلاً عن التخلي عن الملكية لهم. اي ان الفلاحين في المعنى الرسمي كانوا لا يزالون غير مالكين للارض، ولكنهم مستأجرين لأملاك عامة. ولكنهم مع ذلك، قد منحوا في الواقع حق التحكم الكامل على الانتاج. ولقد المح الرسميون الصينيون علاوة على ذلك، بان خطوات اخرى سوف تتخذ لتشريع حق شراء مثل هذه «الايجارات» مستعيدة بذلك حق الملكية الخاصة. ولقد كان نجاح الاصلاح الاقتصادي المثبت ذاتياً بدون ادنى شك الحافز الى ميول هؤلاء القادة لتحويل هذه الاصلاحات الى عملية دائمة ومنتشرة. ولقد نما الانتاج الزراعي الشامل، على ما ذكر ج ل. شيرير (J.L. Scherer) في كتابه «وقائع وارقام سنوية في الصين عام ١٩٨٦».

(China Facts and figures annma) بنسبة ٩ بالمئة عام ١٩٧٨، وارتفع الى ١١ بالمئة عام ١٩٨٢، والى ١٤,٥ بالمئة عام ١٩٨٢، حتى مع جمود وركود الزراعة السوفياتية. وعلاوة على ذلك، فقد حث تجديد الزراعة الى نمو في انتاج الصناعة الريفية، والتي زادت بشكل مذهل بنسبة ٤٠٠ بالمئة بين عام ١٩٨١ و١٩٨٦، وارتفع بالنسبة ٣٦ بالمئة عام ١٩٨٧ وحدها.

ولقد شقت تغيرات في مجالات اخرى مماثلة طريقها منذ اواخر السبعينيات. ولقد اعطت نتائج مقنعة ذاتياً ايضاً مع بعض اشارات التحذير الخطرة الكامنة في الافق. فلقد خططت القيادة الصينية، عندما باشرت في عملية الاصلاحات الزراعية، لبرنامج صناعي جديد وطموح لكي تحقق «التجديد الثاني» من تجديدات دنغ الاربعة. ولقد كان الهدف المسبق كما اوردته صحيفة الحزب اليومية في ٩ اذار عام ١٩٧٨ هو «الإقتراب، أو مساوٍ،

أو متجاوز» الانتاج الصناعي «لاكثر البلاد الرأسمالية تطوراً». ولكن دنغ واتباعه ادركوا بسرعة ان الهدف كان طموحاً اكثر مما ينبغي. ولذلك فلقد خفض دنغ، بعد التخلص من هو كوافنـغ (Hua Guofng) عام ١٩٨٢، من البرامج الفخمة للتصنيع، وخصوصاً من الصناعة الثقيلة. ولقد وضع اولوية اكبر للصناعة الخفيفة في عملية تراجع عقائدية مهمة عن الالتزامات المذهبية السابقة، مثلما هو الحال مع الصناعة الريفية المزدهرة اصلاً.

ولقد حفزت النتائج المشجعة لهذه التحولات الواسعة في الاولويات بدورها على «قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني لأصلاح البناء الاقتصادي» في ٢٠ تشرين اول عام ١٩٨٤. ولقد مثل هذا القرار الخطوات الاصلاحية التي اتخذت في السابق، واعطاه دفعة الى الامام لألغاء العقائدية (Deideo ligzation) في النظام الصيني. ولقد كان القرار، والذي عُرف بانه «الطريق الوحيد للمجتمع كله نحو الازدهار»، قاصراً على المذهب من حيث المبدأ ومسهباً في التغييرات المطلوبة المحددة. ولقد اعلن بصراحة وتبسط انه «بسبب عدم وجود مؤسسة في الدولة تستطيع ان تعرف كل التفاصيل، وان تتلائم مع كل شيء في الوقت الملائم»، فلقد كان توقيتاً جيداً وملائمة «لأن يتحول المشروع حقيقة» الى كيان اقتصادي مستقل نسبياً». وقد كانت الاستقلالية تكمن في توظيف وفصل العمال، في تدبير الحصول على التموين اللازم، في تنظيم الرواتب والاسعار، في اعادة استثمار الفوائد، وذلك في منهج الخطة الوطنية الشاملة وفرض ضرائب الدولة، واخيراً في وضع اهداف محددة ومعروفة.

ولقد ترافق هذا الاصلاح مع ظهور المشاريع الخاصة الصغيرة، وخصوصاً في المجال الاستهلاكي. ولقد أعلنت هذه المبادرات الخاصة كفاعليات اقتصادية واجتماعية لملء الفجوات العديدة التي تركتها المشاريع الحكومية، والتي لا تزال ضمن خطة الحكومة الاقتصادية الشاملة، ولا تعطي قناعة ملبية لأحتياجات المستهلك. ولقد ابرزت حضارة المجتمع الصيني المولعة بالمبادرة الملتزمة نفسها بسرعة، حالما ظهر هذا الانفتاح. ولقد برز الى الوجود

٣٠٠,٠٠٠ مشروع من تلك المشاريع، بالاضافة الى ٢٠ مليون مشروع بادارة شخص واحد، او عائلة واحدة عام ١٩٨٧، حسب ما ذكر تقرير المخابرات المركزية الامريكية، والذي قدم الى الكونغرس الامريكي في نيسان عام ١٩٨٨.

وسوف تُتابع الاصلاحات، كما صرح دنغ في عام ١٩٧٨، في القطاع الريفي، والتغييرات المنتشرة في القطاع الصناعي ـ والتي قدمت تجديدن اثنين رئيسين من «تجديداته» ـ في اطار الانفتاح الواسع على العالم خصوصاً على العالم الغربي المتقدم. ولقد اعبتر دنغ واتباعه ضرورة لأسباب استراتيجية، واقتصادية ايضاً. فلقد توسعت وكبرت العلاقات الاقتصادية والسياسية بشكل مدروس مع الولايات المتحدة، على الرغم من الخلاف المستمر حول تيوان (Taiwan). ولقد نمت العلاقات الاقتصادية مع الولايات المتحدة بزخم اكبر، وايضاً مع جارتها اليابان بتوسع اكبر. ولقد انشأت القيادة الصينية، لزيادة هذه التوسع، ولأعطاء مثل آخر على المرونة العقائدية، في بداية الثمانينات، ما يسمى بالمناطق الاقتصادية الحرة، فوق المناطق الساحلية للصين وخصوصاً في (Shenzhen)، (Shantou)، (Zhuhai)، (Xiamen). ولقد كان الانجذاب الاجنبي والنشاط الاقتصادي يتم في هذه المناطق من خلال وضع عقائدي وثوري لأغراءات والقاب خسه، وموجودة بالفعل، سلسلة من الجزر الرأسمالية داخل الاقتصاد الصيني.

لقد كان هدف دنغ هو دفع وتقوية تجارة الصين العالمية. ولقد ادرك القادة الصينيون تواً، وبحدة اكثر صقلاً من زملائهم السوفياتي بانه يمكن للتجارة العالمية ان تكون القاطرة والمحرك للتطور الداخلي، وان ذلك كان المصدر الرئيسي لقوة معدلات النمو الملحوظة التي حققتها لعديد من جارات الصين على شواطىء المحيط الهادي في العقود الماضية. ولكن من ناحية اخرى، يجب على الصين ان تكون جاذبة اقتصادياً، لدفع ودعم التجارة العالمية، ولقد سعى دنغ لعمل ذلك من خلال المناطق الاقتصادية الخاصة، بالاضافة الى الاصلاحات المحلية. ويمكن للذين نعوا وبكوا على الصفاء المذهبي، ان

يبتهجوا للنتائج المذهلة. لأن منطقة الساحل الصيني كانت قد شهدت بحلول منتصف الثمـانينـات، تفجـرات اقتصـادية غير عادية في النمـو الاقتصـادي والانتاجية، مع تجديد ملحوظ ومستمر لمدن هذه المنطقة. ولقد تضاعف الانتاج القومي الاجمالي للصين منذ عام ١٩٧٨. ولقد نمت تجارتها العالمية بنسبة ١٥ بالمئـة تقريباً سنوياً منذ عام ١٩٨٢، ولقد ارتفعت صادرات الصين في عام ١٩٨٧ بنسبة ٢٥ بالمئة، ولقد وصلت تجارة الصين الخارجية الى مستوى رفيع بلغ ٨٠ بليون دولار، وهذا يعادل اربع اضعاف ما كانت عليه عام ١٩٧٨.

ولم تكن رغبة الصين للسماح لعدد كبير نسبياً من طلابها المقتدرين - وفي العديد من الحالات من لهم صلات افضل سياسياً - بان يدرسوا في الخارج رمزاً للأنفتاح على العالم فقط، بل ايضاً هامةً في نتائجها المذهبية والعملية. ولقد كانت نتيجـة ذلـك فقـدان التحكم العقـائـدي المبـاشر المسلم برغم بعض الاعتـراضات الرسمية والتواترات من حين لآخر، وذلك لكسب بعض الفوائد التكنولوجية والعلمية من الغرب الاكثر تقدماً. ولقد كان الامر الاكثر دهشة هو ان العـدد الاكبر من هؤلاء الطلاب قد أُرسلوا الى الولايات المتحدة، العدو العقائدي السابق. ولقد قُدر بحلول عام ١٩٨٧ ان سبعة وعشرين الف طالب صيني كانوا يدرسون في الولايات المتحدة. ولقد اعلنت جامعة هارفارد (HARVARD) بأن جامعة بكين قد اصبحت واحدة من اكبر عشر كليات رافدة في العالم لبرامج التخرج لجامعة هارفارد.

ولقد انتجت نسبة تقدم هذه التغييرات، والمرونة العقائدية، ومعضلة ملائمة الدولة والقطاع الخاص تزامنياً مع تعقيد اقتصادي متزايد، تواترات وصعوبات لا مفر منها. ولقد طلب مجلس الحزب الثالث عشر من القادة الصينيين، ليس فقط تقييم ما تم انجازه، بل مواجهة المشاكل التي اوجدها الاصلاح ايضاً. ولقد واجهت هذه الصعـوبـات القادة الصينيين بضرورة اتخاذ قرار اما ان يخفضوا ويحذفوا وأما ان يدفعوا الى الامام مع اصلاحات اكثر طموحاً، وبخلاف ذلك، فسوف يضعف برنامج الاصلاح ومن ثم يتوقف، وبعد ذلك يتجمد. ولقد اختاروا

الاندفاع الى الامام. فلقد منح المجلس القاعدة، ليس فقط لتعريف التغييرات الاضافية المطلوبة، بل ايضاً لبيان السبب العقائدي الهام للأصلاحات الصينية الشاملة.

ولقد كشفت عدة اشارات تحذيرية عن واقع ان اصلاحات مثل هذه لم تكن بدون الم. ففي قطاع الزراعة مثلاً، لقد اوجدت الغاء الشيوعية تكاثر ضخم للبيوت الزراعية الصغيرة، تصل الى ١٨٠ مليون مزرعة. ولقد جعل صغر المساحة الاكثرية الافادة من التدرج الاقتصادي مستحيلاً، بعد التفجر الانتاجي في البداية. ولقد اصبحت زيادة محصول زراعي كبير بالنتيجة غير محتملة. ولقد بدا واضحاً انه يجب تشجيع بعض اشكال الدمج. وعلاوة على ذلك، فلقد حث تفكك التحكم المركزي على الحصص الانتاجية العديد من المزارعين الى التحول لزراعة محاصيل مربحة نقدياً بدلاً من زراعة الحبوب. ولقد اجبر تغير الاسعار الناتج عن ذلك السلطة الصينية الى زيادة اساسية للدعم الممنوح للمستهلكين المدنيين تعويضاً عن ارتفاع التضخم.

ولقد اصبح الفساد ايضاً مشكلة متنامية. ولقد ثبت ان الاغراء للتحول الى الثراء السريع لا يمكن مقاومته عند عدد من المسؤولين الصينيين، وذلك بعد ان حثهم الانفتاح المفاجىء للمشاريع الحرة، واقتحام رؤوس الاموال الاجنبية، وخصوصاً في المناطق الاقتصادية الخاصة. فلقد كشفت تقارير الصحف الصينية عن حوادث تكلفت بها الدولة بسبب بعض المسؤولين، عدة ملايين من الدولارات ـ وفي احدى الحالات اكثر من بليون دولار ـ وذلك عن طريق التهريب، والاحتيال، والاستغلال العلني. ولقد اصبحت الرشوة للحصول على بضائع او مواد نادرة، وعلى مستوى المنتج والمستهلك، مشكلة مفسدة. ولقد اصبح سوء استعمال السلطة السياسية ايضاً وكذلك المحاباة في توزيع الموارد الاقتصادية مثل المحروقات، منتشراً. ولذلك فقد حث هذا كله قادة الحزب الى اطلاق حملة في كانون ثاني عام ١٩٨٦ ساعين الى «تقويم اسلوب الحزب». ولكن طالما ان توزيع هذه الموارد ليس مقتصراً على الاسواق، بل تتدخل به

الحكومة والجهاز الحزبي، فمن المحتمل ان تستمر مثل هذه الانواع من المفسدات.

ولقد خلق تواجد اقتصادي مبني على تحديد اسعار مركزي وتعسفي، مع اقتصاد يعتمد على مبدأ السوق، ارباكاً كبيراً للمخططين الصينيين، ولمدراء المصانع التابعة للدولة المستقلين، وللمقاولين الخاصين الجدد، لرجال الاعمال الاجانب. ولقد كان الارباك في نظام التسعير هو المعضلة الرئيسة في الاقتصاد، ولقد شارك في الضغوطات التضخمية الخطرة الكامنة. ومن المحتمل ان تبقى عملية كيفية تخلص الصين من هذه المشكلة المحيرة، المعضلة الاقتصادية المبدئية والمذهبية الرئيسة التي تواجه الصين، ومن المحتمل ايضاً ان تقسم، القادة الصينيين.

ولقد طفت على السطح ايضاً مشاكل سياسية. فلقد ظهرت اولاً معضلات نتيجة لالغاء المركزية الاقتصادية مع استمرار المركزية السياسية. فلقد كانت اللامركزية الاقتصادية متوجهة الى التصادم مع المركزية السياسية كلما جمعت الزخم والقوة اللازمة. ولقد كان على القادة الصينيين ان يختاروا بين التسوية مع اللامركزية، او التنازل للتحكم السياسي. ولقد كان التنازل على الجبهة السياسية يعني بحتمية التقليص الاضافي للدور الاداري للحزب. اما الثانية والتي كانت مرتبطة بالمشكلة الاولى، فلقد كان الدور الحصري والمقيد للحزب قد فتح الباب على مصراعيه للأنشقاق السياسي. ولقد ارتفعت السمة البارزة لهذه المشكلة بظهور مثل هذا الانشقاق بين الطلاب والمفكرين. ولقد كانت المطالبات المفرطة، بنظر قادة الحزب، لحرية سياسية اضافية ـ والتي ازدادت في اواخر الثمانينات ـ حالات مؤلمة مصاحبة للتغييرات المحتملة.

ولم يتجاوب القادة الصينيون وهذا موقف سجل لهم، بالنظر الى هذه المعاضل، كتأكيد لأسوأ مخاوفهم ـ والملتهبة عقائدياً ـ على انها عدوى رأسمالية. بل، وبدلاً من ذلك ونتيجة لأصرارهم وثقتهم فلقد اعترفوا ان هذه

الصعوبات هي النتائج الحتمية لعملية الاصلاح المزدهرة بنجاح. وبناءً على ذلك، فلم يتراجع مجلس الحزب الثالث عشر، والذي سيطر عليه خلفاء دنغ الذين اختارهم، والجيل الجديد من القادة. ولقد ظهرت القيادة الصينية رمزياً في اشكال مختلفة من الاطقم الغربية الفخمة (وعلى العكس من زملائهم في المكتب السياسي السوفياتي، والذين يبدو انهم يفصلون اطقهم جماعياً) وقد أسهموا مع الصحافة الاجنبية مثل المقاولين الناجحين على شواطىء المحيط الهادي. ولقد ذهب المجلس في الاساس الى ابعد من اعادة التأكيد على التزام القيادة بالتجديد، فقد ركز لمصطلحات صلبة وقاسية على التغييرات السياسية والاقتصادية المستقبلية المطلوبة.

ولقد صرح الامين العام زهاو زيانغ (Zhao Ziyang)، انه في الحقل الاقتصادي، سوف يكون ٣٠ بالمئة فقط من الاقتصاد الصيني في بداية التسعينيات تحت التخطيط المركزي. وسوف يحفز تبني مدروس لما يمكن تسميته الاستراتيجية الساحلية، الاستثمارات الاجنبية الاضافية. وسوف يضم هذا برنامج لتسارع تطويري مختار للمقاطعات الصينية البحرية، والتي يسكنها حوالي ٢٠٠ مليون نسمة. وسوف ينضم هذا الجزء من الصين، في مقدمة بقية اجزاء الصين الى دائرة حواف المحيط الهادي المتساوية بالازدهار، وذلك بايجاد مجال اكبر للمشاريع المحلية الحرة وللرأسمال الاجنبي. ويتم تشجيع هذا الاخير من خلال احتمال بيع بعض قطع الاراضي للاجانب.

ولقد كشف خطاب زهاو والاقتراحات الاساسية الاكثر تفصيلاً، بوضوح ان القطاع الصناعي سوف يكون هدفاً ليس فقط لالغاء المركزية، بل ايضاً الى توسيع القطاع الخاص المنافس. ولقد رفضت صحيفة الحزب الرسمية رنمين ريباو (Renmin Ribao) في ١٨ تموز عام ١٩٨٨ جهراً اي فكرة ان نمو المشاريع الخاصة كان كثيفاً وانها موضع نقاش قائلة «ليس صحيحاً ان المشاريع الخاصة تتطور بسرعة اكبر من اللازم، وان عددها قد زاد عن الحد». ولقد طرحت

مشروعاً انه يجب ان تمثل المشاريع الخاصة ما نسبته ١٠ بالمئة من مجمل القطاع الصناعي الصيني. وسوف يُعطى مدراء المصانع السلطة للاحتفاظ بالارباح لأستعمالها في الاستثمار، والعلاوات الحافزة كذلك. وسوف يقدم قانون الافلاس، بينما سوف تُخفض البيروقراطية الشخصية للدولة تدريجياً بنسبة ٢٠ بالمئة بشدة وقوة. وسوف يكون التركيز في القطاع الزراعي على تشجيع انشاء المزارع الخاصة الواسعة الكبيرة. ولكن، فلقد تردد القادة الصينيون في موضوع واحد - وهو اصلاح الاسعار. ولقد انعكس هذا في الصعوبات الاقتصادية العملية، والحساسة العقائدية الخاصة. فلقد بقيت القيادة حذرة من حرصها على مسار التضخم، من الذوبان الشامل. وهذا بدوره كان يعني ان موضوع اصلاح السياسة التسعيرية سوف يستمر بارباك، ومن المحتمل حتى بتقسيم صانعي القرار الصينيين.

ومن المحتمل ان الاكثر اهمية حتى من الاصلاحات الاقتصادية، كان الميل الواضح للقادة الصينيين للدخول في موضوع التغييرات السياسية. ولقد اعترف زهاو في تقريره المبرمج تحت عنوان «التقدم في طريق الاشتراكية بالصفات الصينية» وقد وضع تشديداً خاصاً على انفرادية الظرف الصيني، قائلاً «ان تعمق الاصلاح الجاري للبنية الاقتصادية، يجعل من اصلاح البنية السياسية مسألة عاجلة بشكل متزايد». ولقد استمر في تأكيده، بعد ان تعرف على الصلة بين المعطيات الاقتصادية والسياسية للتجديد، قائلاً: «ان الحل لاصلاح البنية السياسية هو في فصل الحزب عن الحكومة»، وهذا استنتاج هام لم يصل اليه غورباتشيف والمصلحون السوفيات ويعلنوه الا بعد سنة فقط من ذلك التاريخ. ولقد بيّن زهاو بايجاز في خطابه، الخطوات المطلوبة لتحريك ودفع الامور في ذلك الاتجاه، واضعاً ضغطاً خاصاً على ضرورة موظفي الخدمة العامة، بان يكونوا متدربين وحرفيين وغير متميزين، وان يختاروا على الفحوصات التنافسية، وان يكون تطبيقهم الحرفي هو الذي يقرر مجال اعمالهم، بدلاً من المعيار السياسي او العقائدي. وهذا نوع من الخدمة المدنية، والتي من المحتمل انها

تذكر بطبقة الموظفين الكبار، فان الحزب سوف ينفصل عن الاشتراك المباشر في الادارة، ولكنه سيبقى مسؤولاً عن تنشيط النظام، وتزويد الروابط الضرورية بين السياسة والرأي العام.

ولكن، فلا تزال هذه الخطوات بعيدة جداً عن ما يمكن ان يقارب عن بعد الاسلوب الغربي في الديمقراطية التعددية، وذلك بالرغم من كون هذه الخطوات قد اشـارت الى الادراك الجـدي للربط السببي المتبـادل بين الاصـلاحـات الاقتصـادية الفاعلة، ومرونة سياسية اكبر. فلقد كانت هذه الخطوات بافضل حالها، خطوة متواضعة مبتعدة على تجميع السلطة التقليدي على كل المستويات بين يدي الحزب الحاكم، وخطوة باتجاه نظام سياسي مبني على قوانين اجرائية قائمـة، وتديره خدمة عامة يرشدها مستويات موضوعية من السلوك. وفي هذا المعنى، فيمكن اعتبار الصفات التعسفية والاجبارية تراجعاً، مع ان هاو كان قد صرح بوضـوح قائـلاً: «اننا لننقدم ابداً الاسلوب الغربي لفصل السلطات الثلاثة، وباحزاب مختلفة تحكم البلاد كلٌ بدورها.

ولقـد صاغ القـادة الصينيون فكرة عقائدية خاصة، لتشريع التزام الصين ببرنامج تطويري طويل الامد مبني على اقتصاد متشابك بازدياد، ومُتابع في الأطار الذي فيه بأمر الحزب، ولكنه لا يدير مباشرة، وهذه الفكرة هي «المرحلة الاولى من الاشتراكية». ولقد عُلل الابتعاد عن الماركسية ـ اللينينية التقليدية بالاشارة الى الصفة غير المتطورة لقوى الانتاج، والى انفرادية ظرف الصين التاريخي. ولقـد عرف زهـاو المـدة الـطويلة المتـوقعـة لهـذه «المـرحلة الاولية» ببعض الخصوصية، قائلاً:

«نحن لسنـا في الـوضع الذي تخيله مؤسسو الماركسية. . لهذا نحن لا نستطيع ان نطبق ما يقوله الكتاب دون تميز، ولا نستطيع ايضاً ان نقلد آلياً تجارب الدول الاخرى. بل يجب ان نجد طريقة لبناء الاشتراكية بالمواصفات الصينية من خلال الممارسة، مبتدئين من ظروف الصين الفعلية، ومدمجين المبادىء

الرئيسة للماركسية مع تلك الظروف. . وسوف تمر على الاقل ١٠٠ سنة ابتداءً من الخمسينيات، عندما تم التحول الاشتراكي من الملكية الخاصة، ومن طرق الانتاج اساساً، الى الوقت الذي سوف يكون فيه التحديث الاشتراكي هو الانجاز الاساسي، وتعود كل هذه السنوات الى المرحلة الاولى من الاشتراكية».

ولقد اعطى التبني الرسمي لفكرة «المرحلة الاولى» تناقضاً مؤثراً مع الادعاءات الطموحة عقائدياً في الخمسينيات، وبالرغم من التصريحات المنذرة المبكرة التي ادلى بها هو ياو بانغ (Hu Yao Bang) . ففي ذلك الوقت، ادعى الخط الحزبي ان الصين كانت متقدمة فعلاً على طريق الاشتراكية. وفي بناء الاشتراكية على أسس المبادىء الماركسية ـ اللينينية السارية المفعول عالمياً، والتي اغنتها افكار ماوتسي تونغ. اما في هذا الوقت، فلقد عُملت صياغة زهاو الجديدة لتبرير التغييرات الواقعية التي طبقت وضرورة المدة الطويلة ايضاً لنمو اقتصادي لا اشتراكي.

ولقد وجب تأسيس تحديث الصين بالفعل بأسلوب الاستيعاب داخل اقتصادها للعناصر الرأسمالية، ثم التقنية التسويقية، الملكية الخاصة، الاستثمار الخارجي، المغامرة الرأسمالية، البطالة والافلاس، وكذلك المزارع الخاصة. ويجب ان يتطور جزء رئيسي من الصين قبل بقية البلاد من خلال تكثيف الاستيعاب التجاري داخل العالم الخارجي. ويجب ان ينسق هذا كله خدمة مدنية محايدة، ويراقبها الحزب الحاكم، مؤكداً هذا الاخير بان هذه العملية سوف تسير بالصين الى الاشتراكية المتقدمة مع بقائها بعد ذلك شيوعية.

وبالفعل، فلقد اوجد زهاو صيغة عقائدية خالية من مضمون عقائدي، وذلك لنشر فكرة «المرحلة الاولى من الاشتراكية». ولقد كان هذا على ما يبدو متعمداً. فلقد فسر غياب الاساس المذهبي بمعناه الواسع، المرونة التكتيكية، مع ان الصيغة قد توقعت بوضوح عملية طويلة الامد لتطوير شبه رأسمالي، تستمر لعدة اجيال. ومع ذلك فلقد حمل فقدان المرساة العقائدية نتائج هامة متوقعة. لأن

مرحلة التـطور الطويلة الامد هذه سوف تولد ديناميكيتها الاقتصادية والسياسية الخاصة. ويمكن لهذا ان يعيد صقل المضمون الموضوعي والذي من داخله استخدم الحزب السلطة، وحتى وان شعر الحزب على المستوى الواقعي بان ذلك قد عُمل متعمداً. وسوف يظهر سؤال نتيجة لذلك وهو كيف يمكن للحزب ان يحتفظ بالسلطة وان يبرر سيطرته، وخصوصاً اذا كانت ديناميكية تطور شبه رأسمالي قد اعادت صقل المجتمع والاقتصاد الصيني.

وبهـذا فان الصعوبات العقائدية تتجه الى التضخم والارتفاع. لأن فكرة دكتاتورية الطبقة العمالية ـ ومع وجود الحزب الحاكم الفارض نفسه ممثلاً للطبقة العمـالية ـ تصبـح مع مرور الوقت متضاربة مع الصيغ المرنة اقتصادياً والتي اصدرها القادة الصينيون بافكارهم لدولة تديرها بيروقراطية غير عقيدية، حرفية، وذو توجه وظيفي. ولقد حل القادة الصينيون العبارة المرادفة المتناقضة «دكتاتورية الشعب الديمقراطية» محل «دكتاتورية الطبقة العمالية» في مؤتمر الحزب الثالث عشـر مصـادفـةً، مستبقين على ما يبدو المعضلة المذهبية ـ وتخلو مجموعة الكلمات هذه من اي مضمون خاص لصيغة ماركسية ـ لينينية كانت في وقت ما مقدسة. واخيراً، فلقد جعل تشددهم المتزايد والمتضخم على التفردية الوطنية كمحددة للمذهب ـ وليس فقط جوانب او اطراف هذه المذاهب، بل الجوهر الداخلي ايضاً ـ من اي تعاليم عالمية دارجة بالنسبة الى عمليات واساس البناء الاشتراكي، موضع سخرية وتهكم.

ومع ذلك، فان الاصلاحات الصينية تتطلب هذا النوع من المرونة المذهبية في تعريف الاشتراكية. فلقد اظهر هو كيلي (Hu Qili) ، وهو القائد الاصغر عمراً، وقد رقي الى مركز رفيع في المؤتر مفسه، الى اي مدى يمكن التوسع فيهذه الكلمات. ولقدقالم خاطباً المروجين الحزبيين، وساعياً الى ارشادهم الى النقاط العامة الجديدة للحزب، ومفسراً بسلطة ان «اي شيءر يمكن ان يفيد تطوير القوى الانتاجية، فهو مطلوب ومسموح به للأشتراكية، واي شيء آخر لا يفيد،

فهو ضد الاشتراكية العلمية». ولا عجب، فقد فتحت هذه الرياضة العقائدية المجال لغرس اوسع لأفكار غربية جديدة داخل لاصين. ولقد حرك هذا التطفل، وخصوصاً داخل مجالات تفكير بكين، الافتتان عند النظريين لما قبل المجتمع الصناعي، مثل دانيال بيل (Daniel Bell) ، وللنتائج الاجتماعية للتشكلات التكنولوجيا الجديدة مثل ايليا بربروجين (Ylya Priprogine) ، ولصقل المستقبل، مثل الفن توفلر (Alvin Toffler) . ولقد كان لدى هذه المنظورات القريبة ما تقدمه الى الجوهر الحقيقي وتوجيه «المرحلة الاولى» اكثر مما لدى «كتب» الماركسية ـ اللينينية، والتي افادت كلمات زهاو الخاصة في الغاء شرعيتها، وذلك بنظر عدد متنامي من المفكرين الصينيين.

ولقد فرض كل هذا سؤالاً أساسياً لا مفر منه وهو: متى تتحول المرونة العقائدية الى تفكك مذهبي؟ ويمكن ان يكون الرد المحتمل «بعد فترة وجيزة» قد جاء به رمزياً الاعلان عن توقف اصدار صحيفة الحزب النظرية «ريد فلاج» او «هونغ كي» (Red Flag) أو (Hong - Qi) في بكين في ايار عام ١٩٨٨. فلقد اصبحت هذه الصحيفة القاعدة للاداء المحافظة، العقيدية، والمناهضة للأصلاح، بعدما كانت مصدراً رئيساً للأرشاد المذهبي. وكانت صحيفة اخرى ستحل محلها بعنوان عبارة دنغ كياوبنغ وهي «شيشي كويشي» او «سيك تروث فرم فاكتس» والتي تفسيرها «البحث عن الحقيقة من الحقائق» (Shishi Quishi) or (Seek truthe from facts) وهذه الحادثة تتكلم عن نفسها.

الفصل السادس عشر

الثورة الثقافية

الحقيقية

لقد كشف اسلوب وفحوى مؤتمر الحزب الثالث عشر عن ان غالبية القيادة الصينية، وخصوصاً الاعضاء الاصغر سناً، لم يلقوا على الدقائق المذهبية. فلقد تركز جل اهتمامهم على ان تتطور الصين بفاعلية وثبات، وعلى اوسع قاعدة ممكنة منفتحة ومستوعبة لأحدث التكنولوجيا والعلم الغربي. ولقد كان هذا الهدف الاول، والسبب الرئيسي لممارستهم السلطة.

وكذلك غورباتشيف، فلقد القى خطاباً رئيسياً برامجياً ايضاً، بعد ايام قليلة من خطاب زهاو في المؤتمر لنخبة الحزب السوفياتي الذين تجمعوا للأحتفال بالذكرى السبعين للثورة البلشفية. ولقد هدف خطابه الذي اخذ عدة شهور من التحضير والنقاش الى تلخيص ما تم انجازه بالفعل، والمتوقع عمله في اطار عملية اعادة البناء. ولقد زودا خطابا زهاو وغورباتشيف الاثنان بعض المقارنات الاقتراحية بالنسبة الى تقدم، وطبيعة، ومجال الاصلاحات التي يتبعها كلّ منهما، مثلما تمسكا، وتعلقا بالنتائج العملية لفشل المذهب الشيوعي.

ولقد كان الصينيون متقدمين على السوفيات، على المستوى العقيدي والعملي، في السعي للتجديد والتحديث الاجتماعي. فلقد قدم غورباتشيف حالة عقائدية فاترة، مقارنة بالتزام زهاو الجريء «للمرحلة الاولى للأشتراكية» النشطة والطويلة الامد. ولم يعطِ كذلك تعريفاً عقائدياً محدداً لأهمية جهود،

ولا حتى وقت مفهوم محدد لأمتداد عمر عملية اعادة البناء. ولقد عرّف بمصطلحات غامضة اعادة البناء على انها «مرحلة تاريخية لتقدم مجتمعنا الى الامام. ويجب ان يُرد بتحديد وتعريف واضح جواباً على تساءل اللينينية عن مجال تحركنا. نحن ننقل نوعيات جديدة الى الاشتراكية - وكما يقال رياح جديدة». ومن المشكوك فيه انه يمكن اشتقاق ارشاد طويل الامد في التشكيلات المحيرة.

ولقد اظهر غورباتشيف في رغبة اقل في التجديد في محيط دور عمل الحزب الخاص. ومع انه قد دعا الى الديمقراطية، وخصوصاً على مستوى المجالس السوفياتية، لتعزيز الحكم المحلي، ولمستويات شرعية اكثر موضوعية، فقد رافق هذه التذكيرات بتأكيد مبسط على دور الحزب المركزي قائلاً: «ان الزمن يطلب في تلك الظروف الجديدة ايضاً ان يتقدم الحزب امام التجديد الثوري. . لأن الدور المتنامي للحزب هو عملية منطقية». وظلت القيادة السوفياتية، وبخلاف القيادة الصينية، حتى عام ١٩٨٧ لا تزال غير راغبة في جذب الحزب الى خارج عمل الادارة. ولم تكن مستعدة ايضاً بان تطابق مع القرار السياسي الصيني الحساس بتحديد مدة بقاء زعيم الحزب الاعلى، (ورئيس الوزراء ايضاً) لفترة خمس سنوات تجدد مرة واحدة فقط بأقصى حد.

ولقد استغرق السوفيات ما يقارب العام لكي يحذون حذو الصينيين، ومن المحتمل كذلك قوة المثل الصيني، فلقد اعطى الاعلام السوفياتي تغطية كاملة خلال عام ١٩٨٧ وعام ١٩٨٨ للاصلاحات الصينية بالتفصيل وبتعاطف متزايد ويمكن لأي شخص ان يأمل ويتوقع ان لا يكون القادة السوفيات مختلفين على امكانية ان الصين يمكن ان تبرهن انها اكثر تجديداً واكبر نجاحاً. على اي حال، فلقد تبنى الحزب السوفياتي اخيراً، بعد حث غورباتشيف له، تحديد مشابه لتولي الرسميين الكبار المناصب، وقد وافق ايضاً على الاقتراحات لسحب الحزب الى خارج الادارة في الحكومة المحلية.

لقد شكلت نسبة التقدم السوفياتي الاكثر بطئاً ـ بالرغم من ميول غورباتشيف التعديلية ـ بدون شك تعبير بتوجهٍ تجميعي اكبر للقيادة السوفياتية العليا من ميول غورباتشيف الخاصة. ولكن المهم سياسياً هذه المرة هو التخلف والتواني. فلقد حدد التناقض بين الاساليب السوفياتية والصينية. ولقد لمس صحفي سوفياتي، فيدور بورلاتسكي (Fedor Burlatsky) ، والذي كان قد دعم غورباتشيف، جوهر ذلك التناقض، وخصوصاً بمصطلحات الاسلوب تجاه العقيدة، عندما لخص في صحيفة ليتراتوريا كازيتا في ٢٠ نيسان عام ١٩٨٨، ردود فعل الجمهور السوفياتي لأنطباعه من زيارة قام بها الى الصين:

«لقد سنحت لي فرصة للتحدث عن الاصلاحات في الصين بعد عودتي من هناك بوقت قصير. وخصوصاً عن اسلوب التعهدات العائلية والتي أُستعملت بنجاح لحل مشكلة الغذاء، ولزيادة انتاج الحبوب بنسبة اكثر من الثلث في مدة ٥ الى ٦ سنوات، ولرفع مستوى حياة الفلاحين ثلاثة اضعاف. وفجأة اعتلى استاذٌ مهيب جليل المنبر، وهذا ما قاله حرفياً: «كل هذا جيد. ولكن ما هو الثمن الذي يجب ان ندفعه لذلك؟ ان الثمن الذي يجب ان يُدفع كان التراجع عن الاشتراكية، واقتراض اساليب الرأسمالة. وهل هذا ثمن باهض يدفع لنمو اقتصادي»؟.

ولقد سمعت دون شك القيادة السوفياتية العليا هذا النوع من المجادلات. ولقد كانت تمثل العائق الرئيسي لأصلاحات مذهبية اكثر طموحاً. وبالنتيجة، فقد كان الصينيون اكثر جرأة ليس فقط عقائدياً، بل ايضاً سياسياً. فلقد ذهبت اصلاحاتهم الى مدى ابعد من اصلاحات الاتحاد السوفياتي. ولقد كانت اصلاحات حقيقية، وخصوصاً في القطاع الزراعي. وهكذا كانت الحال في المدينة والصناعة الريفية، وفي التجارة الخارجية، والاستثمار الخارجي، في المواد الاستهلاكية، والتعهد الخاص. واستطاع الفلاحون في الصين ان يمتلكوا ارضهم. ولقد سُمح للالاف من المشاريع المملوكة بالكامل للأجانب ان تعمل

في المناطق الاقتصادية الخاصة. ولقد شهد قطاع الخدمات تكاثر في التعهدات الخاصة. ولقد شُجع تحول رئيسي الى انتاج المواد الاستهلاكية وذلك من خلال اقامة مشاغل ريفية ومصانع صغيرة. اخيراً وليس آخراً، فقد قامت الصين بعمل تخفيضات في القوة العسكرية هامة وكبيرة وكذلك في مصروفات الدفاع. ولقد كانت هذه التغييرات في كل القطاعات في الصين اكثر واقعية من تلك التي في الاتحاد السوفياتي.

وعلاوة على كل ذلك، فقد كان التقبل الاجتماعي لهذه التغييرات اكثر وضوحاً في الصين. والواقع ان هذا التقبل هو السبب الرئيسي لأحتمال نجاح الصين، بينما من المحتمل ان الاتحاد السوفياتي سوف يترنح. لأنه وعلى العكس من الاتحاد السوفياتي فلم يتعرض الفلاح الصيني للأبادة، ولهذا فسوف تكون استجابته للفرص الجديدة، انتاجية اعلى. ولأنه، وبعكس الاتحاد السوفياتي، فالشعب الصيني لديه موهبة المقاولة والتعهد. وبعكس الاتحاد السوفياتي ايضاً، فلم يتعرض الشعب الصيني للهيمنة وخنق الحياة الاقتصادية المستقلة من قبل الشيوعية. وغير ذلك فان الصين تتمتع بمواقع افضل، ليس فقط بالانعاش الاقتصادي داخل الصين، بل ايضاً لنمو هام لدور الصين في التجارة العالمية، وذلك لوجود تقليد اقتصادي ذو جذور اكثر عمقاً، واكثر انتشاراً اجتماعياً. واخيراً فان سكان الصين في الغالب هم شعب واحد، وهو شعب (الهان) (The Han) ، بينما الاتحاد السوفياتي مختلط بالقوة من عدة قوميات. وستبقى الصين متوحدة بذلك في صين واحدة بعد الغاء المركزية، بينما من المحتمل ان يتفكك الاتحاد السوفياتي بعد الغاء المركزية.

ولقد تبنت الصين نتيجة للشعور المحددة بثقة ووضوح اكثر، مجال عمل الذي فيه تأتي عملية اعادة البناء قبل الانفتاح، بينما في الاتحاد السوفياتي، فليس فقط يأتي الانفتاح قبل اعادة البناء، بل ايضاً قد قامت مناقشات حول عمليات الاصلاح اكثر من تطبيق الاصلاح نفسه. وبناء على ذلك فلقد كان

المراقبون الموسميون للمسرح الصيني ميالين الى تأكيد المواقف لتغييرات اضافية بمصطلحات تفاؤلية نسبياً. ولقد كان اجماعهم في ان الصين قد حصلت على فرصة معقولة للحصول على معدلات سياسية عنيفة. وبالنتيجة فيما عدا حدوث كوارث طبيعية كامنة وغير مرئية او هزات سياسية عنيفة. وبالنتيجة فمن المحتمل ان يتخطى الاقتصاد الصيني الشامل بحلول عام ٢٠١٠ الاقتصاد السوفياتي (وبالتأكيد لن يكون ذلك بالناتج الرأسمالي)، وهذا تطور حافل بالمضمون العقائدي وكذلك السياسي ايضاً.

ومع ذلك فمن الضروري ان اي اسقاط في المستقبل ان يكون حساساً لأمكانية عدم الاستمرارية والمخاطر. ومن المحتمل ان اي تراجع سياسي واقتصادي سوف يؤثر عكسياً على هذه المواقف الواعدة. ومن الضروري ان عدة اشباح تلاحق دنغ البعيد النظر. فيمكن للصراعات على الخلافة ان تقسم وتفسخ القيادة مرة اخرى، ويمكن للأختلافات حول المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية للأستراتيجية الساحلية ان تزيد من المواجهات حول السياسة. ويمكن للشيوعية التجارية ان تتحول الى فساد شيوعي، ملوثاً اولاً ومفسداً طبقة الحزب، وبعد ذلك يحث هذا الى رد فعل مركزي سياسي وضاغط، وفي نفس الوقت يمكن ايضاً للتضخم ان يحول الشعوب المدنية الى مناهضة للنظام، بينما يمكن لأزدياد التعددية الاقتصادية ان تولد اضطراب وعدم استقرار مدني متصاعد وظهور طلبات لديمقراطية اضافية.

لقد احدثت التنافسات على السلطة في الماضي تغييرات رئيسة في السياسة. ويمكن لهذا ان يحدث مرة اخرى. فلا يزال من المؤكد ان دنغ قد نجح في ترسيخ ودعم خليفتيه الاثنين. لأنهما يمكن ان يواجها تحديا في السلطة حالما يختفي دنغ عن المسرح، او ان تدفعهما الاحداث، او على الاقل واحداً منهما، في اتجاهات اخرى. وسوف تظهر الاختيارات الصعبة والخلافات السياسية، ونظراً للتعقيد الكبير لبرنامج الاصلاح، مثلما تلاقي الاصلاحات

صعوبات عملية. ومن المحتمل ان هذه الامور بدورها سوف تتشابك مع التنافسات الشخصية، وتبرز المواجهات السياسية الناتجة.

ويتعلق جزء رئيسي من الصراع بما يسمى الاستراتيجية الساحلية لتحديث الصين. فلقد صورت هذه الاستراتيجية، والتي بالظاهر كان زهاو يفضلها، عمليات تطور غير متساوية حتمية، وذلك بعمل تلك المناطق الساحلية كمحرك، وناقل للنمو من خلال عملية تطوير اكثر سرعة من باقي المناطق في البلاد. وبالواقع، فان سكان المناطق الساحلية والبالغ تعدادهم ٢٠٠ مليون نسمة هم اول من ينضمون الى بلاد شواطىء المحيط الهادي غير الشيوعية المزدهرة والحديثة. ولقد قدر المقترحون لهذه الاستراتيجية، وأملوا ان تستفيد بقية اجزاء الصين من استراتيجية الدوران الاقتصادي والتكنولوجي هذا.

ولقد كان قادة صينيون اقل ثقة، بل لقد تصوروا المخاطر من هذه الاستراتيجية. وسوف يبرز نجاحها الكبير الخلافات الاقتصادية الاجتماعية داخل البلاد، وتدفع المرونة العقائدية الى خلف الخطوط المسموح بها، وذلك بتشجيع القيم الرأسمالية المهيمنة، ورفض التقليد المساواتي والمغروس بعمق كبير داخل فكرة الاشتراكية. فلقد نشرت صحيفة ذي بيجنغ ريفيو (The Beijing Review) (في ٢٥ نيسان ـ الى ١١ ايار عام ١٩٨٨)، بان بعض مسؤولي الحزب «كانوا يخشون من ان الاستراتيجية هذه سوف تبطىء وتعيق التطور في مناطق البلاد الداخلية»، وقد اكدوا ان الخطر في مناطق الصين الداخلية «سوف تنزلق بشكل متزايد الى الخلف بينما تتطور المناطق الساحلية». وبالاضافة الى ذلك، فمن المحتمل للتحرر الاقتصادي للساحل ان يعجل بحدوث اهتياج تضخمي اكثر شدة من التضخم الناتج من الاصلاحات الجارية، فارضاً بذلك صعوبات ومضايقات جديدة على السكان المدنيين، ومن المحتمل ان يكون ايضاً مسبباً للأضطرابات العامة. ولقد اظهر رئيس وزراء الصين الجديد لي بنغ (Li Peng) حذراً اكبر في متابعة عمليات الاصلاح، مع تشديد خاص على ضرورة استمرار مراقبة

الاسعار، ولقد صادق على استراتيجية الساحل باساليب ومصطلحات اكثر شدة من زملائه.

ومن المحتمل ان اكبر مثير للمشاكل في عمليات الاصلاح الجارية هو التضخم. ولقد اتجه كل جهد شيوعي لتجربة تبني جزئي للتقنية التسويقية ـ منها المبكرة في يوغوسلافية، والاكثر حداثة في هنغاريه، والاخيرة في الصين ـ الى اهتياج تضخمي مثير. وذلك بسبب ان واقع ازالة المراقبات، بالاضافة الى تحرير النشاط الاقتصادي يهدف الى كشف الفجوات الرئيسة في تطبيق الاقتصاد الشيوعي، محدثاً زيادة في الطلب على التموين، ولكن دون المرونة في الاستجابة المتضمنة في الاقتصاد التسويقي الحقيقي. ولقد اثار الخوف من الاضطرابات العمالية بسبب التضخم افكار ثانية اخرى حتى بين القادة الشيوعيين ذي الاراء الاصلاحية في كل بلد شيوعي عبث ولهو بالاصلاح.

ومن المحتمل اذن ان تحدث المواجهات المستقبلية، وكما يراها العلماء البارزون في دراسة الصين المعاصره، مثل ميشال اوكسنبرج (Michel Oksenberg) وهاري هاردنغ (Harry Harding) ، ليس بين المصلحين، والمناهضين للأصلاح، ولكن بين المعلمين الطموحين والتي تقودهم الالتزامات الاقتصادية النشطة، وبين المصلحين الحذرين الذين يخشون من ان النشاطات الاقتصادية سوف تحفز الى تعقيدات سياسية وعقائدية. فاذا ازدهر الاقتصاد، وهذا هو الاحتمال الاكبر، فسوف تستمر عملية اخضاع العقيدة للنشاط الاقتصادي. اما اذا لم تزدهر، وهذا ايضاً ممكن الحدوث، تصبح بعض التخفيضات[4] في مجال صراعات السلطة المتجددة، اكثر احتمالية. ولكن مع ذلك، فمن المحتمل ان يستمر الالتزام الكبير بالتغيير، بتوقعات عالية بان الصين سوف تصل في سنوات قادمة الى معدلات نمو تفوق معدلات نمو الاتحاد السوفياتي.

ومن المحتمل أن تظهر مشكلة أكثر تعقيداً في الميدان المؤسساتي ـ السياسي. فلقد تقدمت الصين في إعادة البناء الواسعة على قاعدة المبادرة من

فوق. وعلى العكس من القيادة السوفياتية، بقيادة غورباتشيف، فقد قام القادة الصينيون بأقل الجهود لتحريك حملة عامة من الأسفل «للديمقراطية» كأساليب دافعة لجهود من القمة إلى الأسفل. وبدلاً من ذلك، فلقد استحوذوا على العملية بالاعتراف الصريح بأن التغيرات السياسية سوف تترافق مع التغيرات الاقتصادية، وبالأقتراح بكيفية حدوث ذلك، وخصوصاً من فصل الحزب عن الادارة. ولقد اعطى ذلك القيادة الصينية، وبتمسك دنغ بالسلطة في يديه بشدة وصراحة، القدرة على مراقبة العملية، والتقدم إلى الأمام بنفس الوقت. ويشابه العمل الذي نجح دنغ بأنجازه في عده مجالات فكرة ليجاشيف في عملية اعادة البناء المفروضة من القمة اكثر مما يشابه استعمال غورباتشيف للانفتاح كمادة حفازة لأعادة البناء.

ويظهر مع ذلك السؤال عن اثبات قدرة اعمال دنغ في الحقل السياسي. فالبرنامج الاقتصادي الصيني حقيقة طموح. وانفتاح الصين على العالم، وخصوصاً مناطقها الساحلية، واسع، والتداخل مع العالم الخارجي يتوسع بسرعة. ولذلك فإن الضغوطات الاساسية للتمرد تحت تلك الظروف، ومن ثم لديمقراطية حقيقية تتجه الى الازدياد. وتتكاثر علامات هذه العملية بالفعل، ومن المحتمل ان تصبح مرئية أكثر. ومن المحتمل أن يتعرض دور الحزب، وتحكمه بالأتصالات الجماهيرية، واحتكاره للأعمال السياسية للتحدي. وفي نفس الوقت سوف يكون من الصعب قمع الانشقاق السياسي في وضع التغيرات السياسية، التجانس مع وجود تعددية اجتماعية واقتصادية أكبر، وسياسية حتمية.

وسوف تظهر لذلك مشاكل مؤسساتية ـ سياسية في المستقبل. ومن المحتمل أن تصبح أكثر حال ترنح وسقوط البرنامج الاقتصادي. وسوف يعود هذا بالفائدة للأتهامات السياسية والعقائدية الثنائية المضادة بين القادة الكبار. ولكن في حال بقاء التجديد الاقتصادي ناجماً نسبياً، كما يبدو انه محتمل الآن، فسوف يولد ذلك ضغوطات من الأسفل لديمقراطية أوسع، لأن هذه الدوافع كامنة في جوهر

الاصلاحات الاقتصادية الجارية. وسوف يتوجب على القادة الصينيين، عند نقطة ما، وبالتأكيد في خلال عقد أو عقدين، ان يواجهوا الواقع ان التعددية الاقتصادية ـ الاجتماعية الابداعية انتاجياً تتنافر وتتعارض مع نظام حكم الحزب الواحدة، والذي يرفض التعددية.

ومن المحتمل أن يضع هذا التعارض مشكلة بابعاد خطيرة. فإن مقارنة بسيطة للأصلاحات السياسية والتي أوصى بها علناً فانج ليزهي (Fang Lizhi)، وهو فيزائي أشتهر بزخاروف الصين، وتلك التي دافع عنها زهاو رسمياً، توضح الفجوة الدراماتيكية بين الفكرة الشيوعية «للديمقراطية» والأفكار الغربية للتعددية وسيادة الشعب. ولقد وافق وصادق زهاو في خطابه أمام المؤتمر الثالث عشر على فكرة دنغ بوضع الاصلاح السياسي. ولكن فانج من جهة أخرى، فقد عكس هذا النظام للأفضليات، فقد قال «لا يمكن أن يكون هناك تطور دون ديمقراطية».

لقد ضمت ديمقراطية زهاو بالاساس، فصل الحزب والدولة، والغاء مركزية السلطة، تبسيط وتنظيم البيروقراطية ودعم المستويات القانونية، ولكن لم تضم بشكل اساسي دوراً للشعب لأختيار قادته أو تشكيل سياسته الشاملة. ولقد دعى الى عمل «قناة لأيصال منتظم ومتواصل لطلبات واصوات الجماهير الى المراكز العليا»، ولقد دعى ايضاً الى سياسة «المداولة والاستشارة الاجتماعية». ولقد صادق ايضاً على فكرة السماح لتنافس عدة مرشحين للمراكز الانتخابية على المستوى المحلي، مع بقاء اجراءات الترشيح تحت سيطرة الحزب ومجال هذه الانتخابات ضيقة ومحدودة. ولقد ادان بنفس الوقت كل الذين يدعون الى «الديمقراطية البرجوازية» ـ وهذه هي العبارة اللغز في الماركسية ـ اللينينية التي تشير الى الانتخابات بالاقتراع السري.

ولكن في نفس الوقت، فقد دعى فانج واتباعه الى ديمقراطية حقيقية بمعناها الغربي. فلقد اوضح خطاب له في جامعة شنغهاي (Shanghi)، ونشرته الصحيفة الشهرية «شاينا سبرنغ دياجست (Hhina Spring Digest) في عددها الصادر في اذار

ـ نيســان ١٩٨٧، ان «التحـول الى الاسلوب الغـربي هو الاسلوب الـوحيد للتحديث» وشدد على البعد السياسي لهذه الاصلاحات. ولقد اضاف قائلاً «ان اول خطوة لذلك هي تنظيف عقولنا من العقيدة الماركسية». ولقد اضاف بعد ذلك مجادلاً بانه يجب على اي فكرة مقبولة للديمقراطية ان تؤسس على مبدأ حقوق الانسان قائلاً:

«لقد طالبنا منذ فترة وجيزة بديمقراطية لا تختلف كثيراً عن تراخٍ للقيود. ولكن من المهم جداً ملاحظة، مع ذلك، ان الديمقراطية تختلف كثيراً على عملية تراخٍ للقيود. ان التـركيب الاسـاسي لبـرنـامج الديمقراطية هو حقوق الانسان، وهذا موضوع حساس وملموس في بلدنا. لأن حقوق الانسان هي من الامتيازات التي يملكها الانسان منذ مولده، تماماً مثل حقه في التفكير والتعليم، وحقه في الزواج وما شابه ذلك. ولكننا في الصين نعتبر نحن الصينيين هذه الحقوق خطرة. ان حقوق الانسان هي موضوع عالمي واساسي راسخ، ولكننا في الوقت الحاضر نجمل مبدأ الحرية، المساوا ، والاخوية معاً مع الرأسمالية، ونـدينها ونستنكرها معاً بنفس المصطلحات. واذا كنا البلد الديمقراطي الذي ندعي، فيجب ان تكون هذه الحقوق هنا اقوى من اي مكان آخر، ولكنها في الوقت الحاضر ليست اكثر من فكرة مجردة مثالية».

ولقد اتخذ اصلاحات بكين كهدف، بعد ان ادان فكرة تطبيق الديمقراطية بطريقة «شيء ما منجز من الرؤوساء إلى المرؤوسين» والتي لا تضم مسؤولية القادة السياسيين الكبار الى الشعب، وقال: «ان حكومتنا لا تمنحنا الديمقراطية بفك قيودنا قليلاً، ولكنها تعطينا الحرية لكي نتضور جوعاً». وبذلك فلا يزال على القادة الصينيين ان يواجهوا مسألة الحرية السياسية والتي تتجه الى ان تكون موضوع غير قابل للخل.

وفي نفس الوقت، سوف تستمر اعادة البناء والتحديث للصين الشيوعية، وذلك بتحويل الاثنين البلد وسمتها الشيوعية. ويعكس المراحل المثالية لبرامج

الشيوعية المبكرة، فان اصلاحات اليوم هي بشكل عام مستمرة اكثر مع التقاليد الحضارية للبلاد. ولا تتعارض هذه الاصلاحات مع مظهر الظرفية التاريخية. وهي ايضاً تعبيرٌ عن الثقة الذاتية بالحضارة والثقافة ـ وهذه صفة صينية واضحة ـ والذي يجيز للصين بارسال حوالي ثلاثين الف من افضل شبابها للدراسة الى الخارج دون الخوف المريب من التلوث العقائدي. ولا يشعر الصينيون، والذين يعتبرون انفسهم ليس فقط امة، بل حضارة مدنية، وبعكس الروس، بعقدة النقص الضيقة والمضعفة تجاه الغرب. ولقد منحهم ذلك المقدرة على النظر الى تخلفهم التكنولوجي على انه ظرف زمني مؤقت فقط داخل فترة خمسة الاف سنة من الحضارة والمدنية المتفوقة. ولذلك يمكن تمثيل واستيعاب المعرفة الخارجية دون القلق العقائدي والحضاري المترسب بعمق، ودون الالتزام بوضع خاص لأخفاء موطن ضعف الصين الوقتي المرحلي.

ويوجد عاملان صينيان اضافيان وغريبان سوف يساعدان في برنامج الاصلاح: اما الاول فهو التحول داخل الصين باتجاه مركزية اقل، وتجميعية اقل، وايضاً شيوعية بيروقراطية اقل، والتي تسعى الى احياء التجارة، والتجارة الخارجية، واحتمال تفجر التعهدات لثروات رئيسية خارجية: وهي الاربعين مليون صيني الموجودين في الخارج. لأن العديد من هؤلاء اثرياء، ومشغولون في متابعات الاصلاحات الداخلية التي تسعى الى الدعم والتموين. ويحتفظ غالبيتهم بمشاعر وارتباطات خاصة مع الصين، ولقد انتهزوا بالفعل الفرص للمساعدة في بناء صين حديثه اكثر. ولقد اثبتوا وجودهم الرأسمالي الصيني الخارجي فعلياً في المناطق الساحلية المخصصة للوجود الاجنبي. ويضم هذا الرأسمال، وكما قال بعض الاقتصاديين المطلعين في هونغ كونغ، ما يقارب ١٥ بليون دولار، مع احتمال ان يزيد عن ذلك، استثمرها صينيون في تايوان في عملية تصدير الصين الصناعي. وهنا يمكن للمرء ان يرى ان الحكومة الشيوعية في بكين تختار ببساطة ان تكون منفتحة عقائدياً بالنسبة الى هذا الموضوع.

اما الثاني، فهو عودة هونغ كونغ الى الصين في عام ١٩٩٧، والذي سوف

يدعم الدفع الى التغيير. فان تأثير هونغ كونغ على الصين سوف يدعم حتمياً قوة التغيير، بينما تمر على هونغ كونغ نفسها تعقيدات عديدة اثناء عملية الدمج مع الصين الاكبر حجماً والتي لا تزال شيوعية. فسوف تزيد وتدعم وجود الصين التجاري العالمي، وسوف تقدم الى الصين شخصية تجارية واقتصادية بارعة بشكل غير عادي. وسوف تساعد فقط في تقوية الدوافع غير العقائدية لقرار السياسية الاقتصادية.

ولهذا فان عودة هونغ كونغ الى الصين له اهمية اقتصادية رئيسة. ففي خلال عقد من الزمان، . سوف تمتص الصين دولة المدينة الواحدة الصغيرة ولكنها حيوية وبرأسمال ثري جداً، مع ناتج قومي اجمالي حالي يصل الى ٤٠ بليون دولار، وتجارة عالمية تصل الى ٦٠ بليون دولار (او ما يقارب ثلث تجارة الصين الخارجية) مع بنية اقتصادية وصناعية وسياحية تحتية قيمة جداً، بالاضافة الى جمهور كبير يتحدث الصينية مع جالية من رجال الاعمال الاجانب، وحتى ولو سُمح للفرصة لكي تجعل الدوافع العقائدية المتخلفة الصين تحتوي تأثير هونغ كونغ، فان انحراف المصلحة الذاتية سوف يفرض السياسات التي تحفظ دور هونغ كونغ الكبير كمركز تجاري ومالي، مع انعكاس تأثيراتها وقيمها بعد ذلك وبشكل حتمي ليس فقط على المنطقة الساحلية للصين ولكن على كل البلاد بأكملها.

وسوف يكون لدى الصين سبب اضافي لكي تكون متساهلة في تعاملها مع هونغ كونغ؛ وهو انشغالها المسبق بمستقبل تايوان. فان شغف الصين للوحدة ينبثق من المشاعر المستبقية من السيطرة الخارجية السابقة والكامنة في احساس الصين بالكيان الوطني. ويبقى هذا الاحساس قوياً ومخلصاً ومنبثقاً من الوطنية اكثر من الشيوعية. ويجب ان يدرك القادة الصينيون ان التدخل العقائدي الهادف بازدهار هونغ كونغ ـ عدا عن كونه يؤذي الصين ـ سوف يخلق عائق اضافي لأي استعياب لتايوان داخل اجراء تعاوني واسع مع الوطن الام. ولقد كشف دنغ عن امكانية حل مبني على صيغة «دولة واحدة لنظامين»، والذي يمكن تفسيره ان

تايوان تستطيع المحافظة على نظامها الاقتصادي الاجتماعي المؤسساتي التجاري الحر والناجح جداً حتى في محيط الوحدة مفكوكة. وسوف تفيد طريقة معالجة الصين لهونغ كونغ كدرس موضوعي لتايوان. وهذا يجعل من ازدهار ونجاح هونغ كونغ بعد توحيدها مع الصين ذو اهمية مضاعفة. وهذا يعني حتمياً انه لا يمكن احتواء تأثير هونغ كونغ على الصين بطريقة تعسفية.

وبأختصار، فان وجود طبقة الرأسمالية الصينيين الاثرياء بالخارج، والذين يشعرون بمشاعر القربى والصلة مع الصين، وامتصاص الصين المتوقع لهونغ كونغ يمنح الدعم القوي الحقيقي وحافز اضافي للتغييرات التي تجري في الصين. ولا يوجد شيء مشابه كذلك في الوضع السوفياتي الحالي. لأن المصلحين الصينيين متجهون لرسم وتخطيط الاعالة والسند السياسي من هذه الظروف المفضلة والمتخصصة بالوضع الصيني.

وان الملائمة المتناهية للشيوعية المتفككة بتزايد مع حضارة البلاد وتقاليدها الوطنية هي مهمة ايضاً في منطقة القيم الاقل سهولة في التعريف. لأن تلك القيم مهمة بشكل خاص في البلد التي تكون فيها الفلسفة العامة الرفيعة جداً والمتعمقة قد لعبت دوراً دامجاً مهماً لعدة قرون. ومن المستحيل الدراسة والتمعن في تاريخ الصين الشامل ـ مثل الكتاب الذي نشر مؤخراً والفه ج. ك. فيرنبك (J.K Fairbank) ودنيس توتشت (Denis Twitchetie) تحت عنوان (The Chmeridge His Tory Ofchina) ـ دون التأثر من الدرجة التي تخترق فيها المبادىء المتجذرة بعمق في النظام الكنفوشي في المجتمع الصيني بالفكرة والقوانين والتي تنظمه ايضاً. وان الذي يجعل من المجتمع الصيني مختلفاً جداً عن اغلب المجتمعات الاخرى، هو الاجماع الداخلي الملوحظ لهذه المبادىء، ومدى انغماس الشعب فيها، حيث تظهر التقاليد والعادات والقيم الى ان تكون اقل وضوحاً واقل تحديداً وتعريفاً، وايضاً اقل تنظيماً فكرياً.

وفي حال نجاح القادة الصينيين في عملهم الحالي، فيمكنهم التقدم بالثورة

الثقافية الحقيقية: وهي اندماج قيم شعبهم التقليدية مع ضروريات التحديث الحضارية. فلقد اكدت القيم التقليدية لمدة طويلة على الافكار الكنفوشية للقوانين الطبيعية، والابداع الفكري العالي، والتعليم في طبقة الموظفين الرسمية، والتعاون الاجتماعي، والانسجام، والتسلسل في النشاط الاقتصادي، واحترام العمر والاسلاف. اما ضروريات التحديث الحضارية، فانها تضع الاولوية للابداع والابتكار، وللأتصالات، والكفائة، والمخاطرة. ويضع الاثنان اهمية كبيرة على الابتكار الفردي كمحرك للتغيير، يزيل بذلك الشوائب المفسدة من الربح التجاري. ويستطيع اي قائد صيني في المستقبل حتى الذي يعتبر نفسه شيوعي ان يصادق على التقليد الكنفوشي والتي يشغف العالم في الشؤون الصينية في جامعة هارفارد، رودريك مك فاركوها (Roderick Mac Farquhar) في الاشارة اليها دائماً: ان ملكية الفضيلة تمنح حكم الشعب، وتملك الشعب تمنح الانسان الارض، وملكية الارض تمنح الثروة والثراء، والحصول على الثروة والثراء يصبح لدى الانسان مصادر الانفاق، وبهذا تكون الفضيلة هي الاساس والجذر والثراء النتيجة.

ولقد شهدت تضارباً كبيراً في البداية تحت قيادة ماو، بين الشيوعية وهذه القيم التقليدية. فلقد اصبحت عملية الخطوة الكبيرة الى الامام، والثورة الثقافية كوارث مدمرة كاملة، وذلك بتصرف الدولة كمدمرة للمجتمع بدلاً من حامية للموروثات التقليدية. وعلى العكس من ذلك، فان الاصلاحات تبشر بقدرٍ افضل للصين، وذلك بوجود التكاملية المتنامية بين برامج دنغ الواقعية للمستقبل والقيم المغروسة بعمق في الماضي. وسوف يكون في النتائج معافٍ ضمنية للصين كبلد والشيوعية كمبدأ. فسوف تنضم الصين الى الصفوف الاولى من القوى العالمية، وبهذا تستعيد لنفسها مكانتها الاولى السابقة، وسوف تعيد تعريف جوهر مبدئها الشيوعي، بتصور رمزي بان هذا المبدأ لم يعد يمثله عامل مصنع يكدح في مسبك معادن عائد للدولة، بل رجل اعمال رفيع ومنافسٍ نشط في الاسواق العالمية على شواطىء المحيط الهادي.

وسوف يكون الثمن لمثل هذا النجاح التحلل والتفكك العقائدي. فمن المحتمل ان تتمكن الصين من الدخول الى القرن الحادي والعشرين وهي محكومة من الشيوعية، ولكنها لا تكون صيناً شيوعية.

الجزء الخامس

التطبيق المشوه

لقد اصبحت الشيوعية عقيدة مشوهة عالمياً، وذلك بسبب الاهتياج في الاتحاد السوفياتي، والرفض في اوروبا الشرقية، والتحول التجاري المستمر والمتزايد في الصين. ولم يعد «تطبيق» الماركسية ـ اللينينية ـ وحدة النظرية والعمل ـ تحظى باحترام حتى بين اعضاء الحزب، على انها الدليل والمرشد العالمي لأعادة بناء المجتمع، وبالنتيجة فان التوقعات للتقدم العالمي للشيوعية قد هوت عمودياً. ؟

ويوازن العالم في جميع ارجائه بين الشيوعية ذات الاسلوب السوفياتي والتطور اللافت للنظر. ويهيمن هذا الحس في نصفي اوروبا، في الشرق الاقصى، وفي جنوب شرق آسيا، وفي امريكا الشمالية. وباداثه الآن ايضاً في اختراق احاسيس افكار القادة في امريكا اللاتينية وافريقيا. ويرى القليلون في بعض اجزاء العالم الاكثر تطوراً، او ما يسمى بالبلاد المصنعة حديثاً، في الشيوعية برنامج ارتقاء للمستقبل. اما في العالم النامي، فبظهور مصير الدول النامية التي اختارت ان تقلد النموذج السوفياتي عيوب ومواطن ضعف هذا النموذج. وحتى في الصين، فان تحسن وتطور الكفاءة لا تستطيع ان تعوض عن هذا الاحساس بالفشل الشيوعي، لأن النجاحات الاقتصادية الصينية الاخيرة كانت قد أنجزت من التحول الواضح عن التطبيق العملي السابق للشيوعية.

ويمثل هذا الاجماع العالمي تغييراً تاريخياً هاماً، ويحمل نتائج سياسية مدمرة للعالم الشيوعي. فالشيوعية تعتبر جاذبة في المقام الاول وفي هذا الوقت

الى المحبطين من وضعهم الفقير المعدم، او من القمع العرقي، والذين يرون فيها الطريق المختصرة الى السلطة. ولأن الفقر والتخلف والعداء العرقي يقدم افضل الاوضاع لقبول دعوتها. ولكن ان فكرة ان الشيوعية تعني الجمود والتبديد في حال وصولها الى السلطة، هي في تراجع مؤثر للاداء الغالبة والراجحة مؤخراً في عقدين سابقين. ويضم هذا التراجع بدائل ضخمة في المواقف السياسية بالنسبة الى الموضوع الحساس للعلاقة الملائمة للفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالدولة. ولذلك بالنهاية، فان هذا التحول في الادراك والاحساس العالمي هو فلسفة تقليدية اصلية، ونظرة ثاقبة اساسية، وليسس فقط اسلوباً سياسياً او ولاء. انه تاريخي في طبيعته.

ولقد اوضح تجمع غامض حدث في براغ في منتصف نيسان ١٩٨٨ بحدة وشدة التراجع في الاهمية العقائدية والفتنة السياسية للشيوعية المعاصرة. ولقد ضم هذا التجمع ممثلين عن ثلاثة وتسعين حزباً شيوعي او شبه شيوعية في العالم للأحتفال بالذكرى الثلاثين لم اتبقى من المؤسسة الشيوعية العالمية التي يهيمن عليها السوفيات وهي «النظرية الماركسية العالمية»، وللمشاورة ونقاش وضع المذهب الماركسي. ولقد كان غموض وانعزال اللقاء رمزياً. لأن لقاء مثل هذا في سنين سابقة كان يشد انتباه العالم والاعلام العالمي. ومع ذلك فقد انتهى دون ان يلفت انتباه الاعلام الغربي، واستحوذ على ملاحظات موجزة روتينية في الصحف الشيوعية.

ولقد كانت «النظرية الماركسية العالمية» هي كل ما تبقى من الكومنترين (Comintern) في الايام الاولى، وهي المنظمة المركزية للشيوعية العالمية والتي كان موقعها لمدة عقدين ونصف في موسكو، وحتى ما تبقى من ما سبق تلك والاكثر تحديداً قبل الحرب وهي الكومنفورم (Cominform) ، والتي اوجدها ستالين لمراقبة عمل الاحزاب الشيوعية الحاكمة حديثاً في اوروبا الشرقية. ولكن تلاشي الوصاية تلك جعل من عمل «النظرية الماركسية العالمية» محط اهتمام موسكو الشديد،

لأنها كانت تمثل الوسيلة والاداة الاخيرة للتعاون بين المواقع المذهبية ولتحديث المذهب العام في هذه الاوقات المتغيرة. ولذلك فلقد ترأس اناتولي دوبرنين (Anatoly Dobrynin) ، والذي كان في ذلك الوقت امين اللجنة المركزية السوفياتية، ومستشاراً هاماً لغورباتشيف للشؤون السياسية الخارجية، الوفد السوفياتي. ووفود اوروبا الشرقية التي تحت الوصاية السوفياتية بنفس المستوى التمثيلي.

ومع ذلك، فقد كان الاجتماع نفسه اخفاقاً تاماً. فلقد كانت المناقشات المذهبية بطيئة وفاترة وبشكل عام شكلية. ولقد امضى معظم وقته في الدعاية لسياسة غورباتشيف الخارجية الجديدة، بينما كان اشتراكه في الموضوع المذهبي منذراً باقتراب زوال الطبقة العاملة كأساس للسلطة الشيوعية. ولقد اذاعت محطة التلفاز في براغ في ١٥ نيسان عام ١٩٨٨ ما قاله وهو «تبدأ الآن ثورة فنية جديدة، وتتطلب سيطرة تقنية الحاسوب، والرجال الآليون (Robots) . ولذلك، رغبنا ام ابينا، فيجب علينا رغم ارادتنا ان نعيد بناء هيكلة الطبقة العاملة ايضاً». ولقد كان اقل وضوحاً في ما كان يتضمنه هذا لحزب الطبقة العمالية المزعوم، ولكنه سلّم فعلياً بفحوى اضافية للثورة العلمية والتي كانت «ان لدى كل المصالح الانسانية الافضلية» على مصالح الطبقة العمالية. ومن هذا التأكيد، فيكون قد اعطى فكرة ان السلام العالمي اكثر قيمة واهمية من حتى الثورة الاشتراكية، ويمكن لهذه الفكرة ان لا تروق للأحزاب المحبطة الراديكالية، والتي تتوق الى السلطة. وبما ان دوبرنين كان قد عرف السلام بشكله الواسع على مبدأ العلاقات السوفياتية ـ الامريكية، فقد كانت الفكرة الرئيسة في رسالته الشبه طبيعية ـ رغم الاشارات الى الثورة العلمية ـ ان عملية الثورة يجب ان تخضع لمصالح الاتحاد السوفياتي.

ومن المحتمل ان الذين لم يحضروا، قد اعطوا المظهر الاكثر وضوحاً للمؤتمر. فلقد تجاهل الحزب الشيوعي الصيني هذا المشروع تماماً، وكما كان الحال لعدة سنوات سابقة، بينما يعلن اكثر الاحزاب الشيوعية غير الحاكمة تأثيراً

في العالم، وهو الحزب الشيوعي الايطالي، على لسان احد مسؤوليه، «بانه ارسل رسالة الى محرر صحيفة النظرية الماركسية العالمية، يخبره بها بقراره بقطع علاقاته مع الصحيفة». وبهذا فلقد تُرك دوبرنين يسرح ويمرح مع زملائه من اوروبا الشرقية، ومع ممثلين من المنظمات المختلفة مثل الحزب الشيوعي في لوكسبرغ، الحزب الشيوعي في العربية السعودية، والحزب اليساري ـ الشيوعي في السويد، والحزب السنغالي للأستقلال والعمل، والحزب الشيوعي النبالي وما شابه ذلك.

ومن المحتمل ان الوفد السوفياتي كان قد شعر بان هذا الحدث قد اشار الى مرحلة اضافية من الانهيار الخطير للغرب العالمي لوحده النظرية والممارسة الشيوعية. فلقد تحطمت وتكسرت النظرية الشيوعية، بينما يُنظر الى الممارسة بشكل عام وواسع على انها فاشلة. ولقد رمز هذا الاجتماع بدون قصد الى توقف الخضوع المنضبط للاحزاب الشيوعية لتحكم موسكو. ولقد اوضح جلياً اختفاء الشكلية المذهبية، والذبول الواسع للدعوة الشيوعية الشعبية، والتراجع الواضح الناتج في حيوية الحركة السياسية. ولقد تكهن كل ذلك باقتراب نهاية الشيوعية كمظهر عالمي هام.

الفصل السابع عشر

من المنظمة الشيوعية المركزية العالمية الثورية الى المؤتمر السنوي

لم تكن المنظمة الشيوعية المركزية العالمية الثورية (الكومنتيرن) (Cominter) بحلول الثمانينات ألا ذكرى بعيدة، ولكن ذكرى تقف بتعارض بطولي مع المؤتمرالسنوي لفاعليين مسنيين، وبافضل حال باواسط العمر، ومتحمسين، والذين يجتمعون سنوياً الآن في موسكو بمناسبة الثورة البلشفية في تشرين ثاني. ولقد كان الجو ملبداً بالتوقعات الثورية عندما انعقدت اول جلسة للمنظمة الشيوعية المركزية العالمية في موسكو عام ١٩٨٩، بالرغم من ان الحرب الاهلية كانت لا تزال مستعرة في روسيا. ولقد كان الحضور من الثوريين الاساسيين، والذين شدتهم المعارك والسجون وملأتهم عزماً، ولقد كانوا متفائلين. ولقد كان الاهتياج متصاعداً في اوروبا الوسطى، وخصوصاً في المانيا المهزومة، والمنهارة معنوياً، وهي مجتمع صناعي متقدم، والذي كان يبدو يانعاً تاريخياً للقطف، وبالاكثر مع مسايرة التشخيص الشيوعي للتاريخ. ولقد بدا ان التوقعات الثورية قد اكتملت، ولقد أنشأت منظمة جديدة ـ وهي الشيوعية العالمية ـ لتوحيد وارشاد عملية الثورة العالمية.

وبحلول وقت المؤتمر الثاني في صيف ١٩٢٠، كانت التوقعات قد ظهرت من ذي قبل. فالجيش الاحمر، الذي كسب الحرب الاهلية بجدارة وقوة، كان يقف على ابواب وارسو، وقد كانت الطريق الى قلب اوروبا قد بدت مشرعة. ولقد انعقد في نفس الوقت تقريباً مؤتمراً للشعوب الشرقية في باكو السوفياتية لرفع

مستوى الحرب الثورية عالياً ضد الاستعمار، شاقاً بذلك هجوماً على محورين ضد العالم الاستعماري والرأسمالي المفسخ. ولقد هيمن وسيطر على جو الاجتماعات الخطابات الملتهبة التي القاها اكثر زعماء البلشفيين توهجاً ونارية، مثل تروسكي (Trosky) وزينوفيف (Zinoviev)، ولقد دعمت فصاحتهم الشعور بان الانتصار الشيوعي العالمي ليس فقط حتمياً، بل ضرورة تاريخية.

لقد كان تفائل البلشفية الثورية صريحاً وملموساً. فلقد بشر زينوفيف في موضوع دوري للمنظمة قائلاً «سوف تُنسى اوروبا في خلال سنة في مجال الصراع من اجل الشيوعية، لأن اوروبا كلها ستكون شيوعية». ولقد وقى تفائله قليلاً في افتتاح المؤتمر الثاني قائلاً: «من المحتمل اننا قد اندفعنا بعيداً؛ ومن المحتمل في الواقع بانها سوف تستغرق، ليس فقط سنة، بل سنتين او ثلاثة قبل ان تصبح كل اوروبا جمهورية سوفياتية». ولقد اعلن تروسكي اثناء تقديمه البيان الرسمي للمنظمة في المؤتمر، «ان النضال يمر الآن في مراحل مختلفة في بلدان مختلفة. ولكنه النضال الاخير. فهو يضم كل شيء، ولا يمكن مقاومته. انه ينتشر، ويتقوى ويتقي نفسه؛ انه يصفي كل القاذورات القديمة. ولن يتوقف ابداً قبل ان يخضع كل العالم لحكم الطبقة العمالية العالمية». ولقد اشترك لينين نفسه في هذا قائلاً لبعض الضيوف الفرنسيين: «نعم، ان السوفيات موجودون في وارسو. وفي القريب سوف نمتلك المانيا، وسوف نغزو هنغاريا مرة اخرى، وسوف يثور البلقان في وجه الرأسمالية، وسوف تهتز ايطاليا. وسوف تتصدع اوروبا البرجوازية مع كل شق صغير من الاعصار.

ومع ذلك فبالكاد كانت بلاغتهم الواثقة تخفي الجهود الجدية سياسياً والاكثر دنيوية والتي كان القادة البلشفيون الجدد يقومون، وعلى رأسهم لينين، للأستيلاء على نقطة التحكم الفاعلة على الحركة الماركسية العالمية. وفي الواقع فقد سيطر المكتب السياسي الروسي منذ البداية على اللجنة التنفيذية للمنظمة، واصر هذا المكتب على ان الدخول الى المنظمة يتطلب من الاحزاب اليسارية

بان تتبنى واحداً وعشرين شرطاً صارماً. وبذلك فقد استثنوا مجموعات مختلفة من الديمقراطيين الاجتماعيين والسلميين من الدخول الى المنظمة، والذين كانوا معاضدين للبلشفيين، ولكنهم اقل انقياداً للأفكار البلشفية الانضباطية، وحول المكتب المنظمة الى منظمة متعصبة وخاضعة لنظام واحد.

ولقد أجبر الكرملين على اعادة تقييم الامكانيات الفورية للشيوعية، عندما هزمت بولندا الجيش الاحمر المتقدم في معركة وارسو في ايلول عام ١٩٢٠، وعندما ذبل وخف الاهتياج في المانيا واماكن اخرى. ولقد اصبح لينين والقادة البلشفيون الآخرون مشغولين بالضرورة بسلطتهم الداخلية المتماسكة، وذلك اولاً من خلال الخطة الاقتصادية الجديدة، وبعد ذلك من خلال قرار ستالين لبناء اشتراكية في روسيا مستقلة عن اي اتصال او ارتباط مباشر مع العملية الثورية العالمية. ولقد اشتركت هذه القرارات بشكل حتمي بتحول اضافي للمنظمة الى السوفياتية. ولقد اصبحت بشكل متزايد مؤسسة الحزب السوفياتي الحاكم، ومتصلة مباشرة بالشرطة السرية السوفياتية وجهاز المخابرات، ولقد سيطر عليها في البداية ضباط لينين، وبعد ذلك ضباط ستالين.

ولم يجد ستالين في ذلك حرجاً، فلقد وضع الوصف الصحيح للشيوعي الحقيقي على نحو جازم وذلك في بداية ١٩٢٧ في تصريح استجوابي. ولقد اكد ستالين «بانه ثوري، والذي بدون تحفظ وبدون شرط، وعلناً ومعرفة تامة.. مستعد لأن يدافع عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، لأنها اول دولة لطبقة عمالية في العالم تبني الاشتراكية. وهو ايضاً عالمي، الذي بدون تحفظ، وبدون تردد، وبدون شروط، مستعد ان يدافع عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، لأنها قاعدة الحركة الثورية في العالم اجمع».

ولقد بقيت المنظمة خلال الثلاثينيات وحتى الحرب العالمية الثانية للشيوعيين غير الروس، المؤتمن لآمالهم الشيوعية، والمركز لأخلاصهم وولائهم السياسي، رغم التأكيد الثقيل للتحكم السوفياتي، ورغم ضعف ووهن التوقعات

الثورية الفورية. ولقد اصبحت المنظمة مدرسة لنمو وتطور كوادر جديدة من القـادة منضبـطين تمـاماً وستالينيين في نظرتهم الشاملة، وذلك بادارة الثوري البلغاري النشط خلال عهد الستالينية، جورجي ديميتروف (Georgi Dimitrov) ونظيره السوفياتي ديميتري مانيولسكي (Dimitry Manmilsky) ، ولقد اصبحت المنظمة مركز اركان عامة، واكاديمية تدريب للقادة الشيوعيين الذين وضعهم ستالين في السلطة بعد الحرب عام ١٩٤٥، لأن تلاميذ ستالين هؤلاء، قد حلوا مكان العديد من الشيوعيين الاجـانب ذوي الافكـار الاستقلالية والذين اعدمهم ستالين خلال عمليات التصفيات الكبيرة في اعـوام الثـلاثينيات، ولقـد ارسـل بعض هؤلاء التلاميذ الى اوروبا الشرقية، مع تعليمات سوفياتية خلال الحرب، وقد انضم آخرون الى تشكيلات الجيش الروسي المنتصر.

ولقد جعل التحكم السوفياتي الفاعل على الحركة الشيوعية، وكذلك الرغبة في استرضاء التخلفات الانكلورسكسونية تناقضاً من هذه المنظمة غير ذي قيمة. ولقد الغاها ستالين ظاهرياً في عام ١٩٤٣. ولقد أعلن للعالم ـ وقد صدق هذا بسـذاجـه ـ ان الاتحـاد السـوفياتي لم يعـد يتحكم ويراقب الحركة الشيوعية العالمية. ومع ذلك فقد استمر ديميتروف ومانيولسكي في ادارة عملية موسكو المركزية خلال الحرب والتي بعدها مباشرة اصبح ديميتروف نفسه حاكماً على بلغـاريا. ولقد اصبح معاونوه، مثل عميل الـ(ان ك في دي) (NKVD) بوليسلو بييروت (Boleslaw bierut) ، ومسؤولو المنظمة كليمنت جوتوالد (Klement Gotiwald) ، ماتياس داكوسي (Matyas Rakosi) ، ووالتر ألبرخت (Walter Ulbricht) ، الرؤوساء الحاكمون في الاحزاب الشيوعية في بولندا، تشيكوسلوفاكيا، هنغاريا، والمانيا الشرقية على التوالي.

ولقد انتقل ستالين حالما استعرت الحرب الباردة، لأنشاء وعلى قاعدة اضيق ادارة رسمية اكثر للمراقبة السوفياتية العالمية. فلقد انشأ في عام ١٩٤٧ مكتب المعلومات الشيوعية او ما يسمى الكومينفورم (Cominform) . ولقد كان تركيز هذا

المكتب على تماسك واندماج الاحزاب الشيوعية الحاكمة الجديدة داخل الفلك السوفياتي وكذلك صقل استراتيجية مشتركة للاحزاب الشيوعية الاكثر اهمية في اوروبا الغربية، مثل الحزب الشيوعي الفرنسي، والحزب الشيوعي الايطالي. ولقد تأمل بعض القادة السوفيات ليس فقط ان تتمكن هذه الاحزاب أن تعمل على تسارع فك ارتباط امريكا مع هذه القارة، بل ايضاً ان تصل الى السلطة بنفسها. ولقد شاركت الثورة الصينية المنتصرة بايقاظ قصير للتوقعات والاحلام الثورية، وذلك بوجود العلم الاحمر يرفرف فوق اكثر من بليون نسمة.

ولقد اشتركت عدة وقائع في قصر مدة حياة الكومنفورم نسبياً. فلقد الفى هذا المكتب عام ١٩٥٦ اي بعد موت ستالين بثلاث سنوات، وكانت احدى الاسباب انه لم يكن اي من خلفائه ان يماثل الهيبة الشخصية للزعماء الدكتاتوريين الشيوعيين الذين تمكنوا من الاستيلاء على السلطة بانفسهم، امثال ماو في الصين، وتيتو في يوغوسلافيا، ولقد اكد تيتو استقلاليته حتى بوجود ستالين في السلطة في اواخر الاربعينات. بينما كان اختلاف ماو مع الكرملين على عملية الصقل والظهور. ولقد اظهر الصنيون في عام ١٩٥٦ دعمهم للطموح الاستقلالي للزعماء الشيوعيين البولنديين والهنغاريين، وقد مارسوا ضغطاً على الزعماء السوفيات بعد ستالين بان يحللوا ادعائهم - اذا لم يهجر بعد - بالزعامة الرسمية للحركة العالمية. ولقد سُمع صدى لصوتهم عند انجح زعيم حزب شيوعي اوروبي غربي منتخب، الايطالي بالميرو توجلياتي (Palmiro Toglicti) ، وهو الذي صاغ الاسلوب والمصطلح الدعائي «الوسطية المتعددة» كبديل للمركزية الستالينية.

ولقد ادت الرغبة السوفياتية لعلاج التصدع مع يوغوسلافيا، ولتجنب قطع العلاقات مع الصين، ولأستعادة الحزب الشيوعي الايطالي الى الحظيرة، ولتخفيض التوترات مع قادة مثل فلاديسلو جومولكا في بولندا، الى سلسلة من التنازلات التدريجية بحق الاحزاب الحاكمة بان يكيفوا التجربة السوفياتية في بناء

الاشتراكية مع ظروفهم الوطنية الخاصة، مع ان الاتحاد السوفياتي كان لا يُدرج التحذيرات بان التجربة لا يزال لديها الشرعية العالمية. وعلى اي حال، فلقد أُتخذت هذه التنازلات بتذمر وحقد، وتحت ضغط.

ولقد قرر خروشوف ان يعقد مؤتمراً لكل الاحزاب الشيوعية في موسكو ١٩٥٧ كأنعكاس للرفض السوفياتي بالتخلي عن قيادتها المركزية. ولقد سعى الى احياء شعور الوحدة داخل الحركة العالمية، وايضاً لأنعاش الرقابة السوفياتية عليها. ولقد شرح الزعيم السوفياتي اهدافه باسهاب وعلناً في سياق خطابه الذي القاه في ١١ تموز عام ١٩٥٧ للزعماء التشيكيين الفاتري الهمة قائلاً: «ماذا نريد نحن؟ نريد الوحدة، صفوفاً متراصة، وقوات متحالفة. نحن نعترف بالمسارات المختلفة ايها الرفاق. ولكن بين هذه المسارات المختلفة، يوجد مسار واحد عام، والبقية كما تعرفون، مثل النهر الكبير بروافد. وعلى نفس المبدأ يوجد خصوصيات عديدة، ولكن يوجد مسار واحد، ألا وهو مسار الماركسية - اللينينية.

ولقد كان المؤتمر بافضل حاله بمنظار البعد السوفياتي نجاحاً مختلطاً. فلقد كان هذا آخر حدث رئيسي جمع معاً ليس فقط الزعماء التابعين والموالين للاتحاد السوفياتي من الاحزاب الشيوعية الحاكمة غير الحاكمة، بل جمعت معهم ايضاً الصين. فلقد كان الصينيون قد باشروا في ذلك الوقت بعملية الخطوة الكبيرة الى الامام الهادفة بنشاط، ولقد نجح السوفيات بمساعدتهم من الحصول على موافقة المؤتمر (رغم اعتراض اليوغوسلاف) لأدانة التعديلية. ومع ذلك فلم يوافق المؤتمر على الاقتراح السوفياتي بادانة صريحة وشاملة «للذين يصرون ويؤكدون على الخصوصيات لكل دولة بالمسير نحو الاشتراكية وبخلاف عميق مع الماركسية - اللينينية».. وبدلاً من ذلك فقد تبنى المؤتمر صيغة مركبة شددت على «تصحيح معتقد النظرية الماركسية - اللينينية بان قوانين وشرائع اسياسية ملائمة في كل الدول وموظفة في المسار الاشتراكي هي التي تحكم في عمليات الثورة

الاشتـراكية وفي بناء الاشتراكية»، بينما اضاف ايضاً بتحفز «ان هذه الشرائع والقوانين ظاهرة وجلية في كل مكان، ومترافقة مع معالم وتقاليد وطنية عظيمة مختلفة ومكونة تاريخياً، والتي يجب اخذها بعين الاعتبار دون تخاذل.

لقد ابرزت وسارعت عدة حوادث مؤثرة تبعت تجمع ١٩٥٧ ـ والذي كان بالفعل آخر لهث للتفوق السوفياتي ولرجحان اللينينية ـ الستالينية على الشيوعية العالمية ـ في التفتح التاريخي لوحدة الشيوعية ذي الهيمنة السوفياتية. فلقد ظهر في اعـوام الستينيات الانقسـام الصيني ـ السـوفياتي علنـاً والـذي حركه اولاً الاختـلافـات العقائدية، وبعد ذلك اشعله ظهور الخصومات القومية والوطنية المتجذرة بعمق. ولقد اثار التدخل العسكري السوفياتي في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨ الاستنكارات الواسعة حتى من الاحزاب الشيوعية، بينما شوه قرار مبدأ بريجينيف بشكل اضافي الجهود السوفياتية لرفع الوحدة الشيوعية العالمية. ولـذلـك فلا عجب اذن ان يُقـابل ظهور حركة التضامن في بولندا في اواخر السبعينيات بدعم بارز وعلني من الحزب الشيوعي الايطالي واحزاب اخرى.

ولقد كانت الجهود السوفياتية تعقد تجمعاً مماثلاً للحركة الشيوعية العالمية لأستغـلاله لوضع خط عام محدد من موسكو، بغير جدوى. فلقد كانت آخر محاولة لهذا، عام ١٩٨١، معروفة بفراغها العقائدي والسياسي. ولقد توصل القادة السوفيات الى الادراك بالتدريج ان لا شيء ولا حتى عن بعد يمكن ان يذكر بالمنظمة الشيوعية العالمية ومكتب الاعلام الشيوعي يستطيع إن يقيم او ان يحيي وضـع الانشقاق العقائدي القائم، مع تزايد هذه الانقسامات بوجود الخصومات الضيقة بين الاحزاب الوطنية والقومية المختلفة. وببساطة، فلم يكن هنـاك اي ميل بين الاحزاب الشيوعية لقبول المبادرات السوفياتية، المصممة لأستعـادة الوحدة العقائدية والسياسية، ورغبة اقل لأي منظمة برعاية سوفياتية لتحويلها الى مؤسسة.

ولقد كان افضل ما يستطيع الكرملين عمله في ذلك الوقت هو استغلال

الاحتفال بالثورة البلشفية لأقامة مؤتمر للبيروقراطيين الشيوعيين الحاكمين، وللفاعيليين الشيوعيين العالميين، ومختلف المؤيدين اليساريين، والذين يجتمعون معاً لاطراء وتقديم تحية طقسية لأحلامهم الثورية المترهلة والذابلة. ولقد كانت الاجتماعات خليطاً من اطلاق الشعارات العقائدية، والتساوم بالخفاء مع الكرملين المضيف حول مستوى المساعدات المالية السوفياتية، ومهرجان الاستعراض العسكري، والاحتفالات الرسمية، والسهرات في مسارح رقص الباليه والترفيهات الشخصية والتي يقوم بها اختصاصيون في الضيافة في المخابرات السوفياتية. ولقد كان مثل تلك التجمعات المنعقدة تتعارض بشكل مؤثر وكبير مع مبدأ التطهرية الثورية، والحماس المبدئي، ومع معنى الرفقة في الايام الاصلية الاولى للشيوعية العالمية حينما كانت المنظمة الشيوعية العالمية تدير بنشاط استراتيجية ثورية واسعة الانتشار حقيقية، وحتى حين كانت تفرض «الخط العام» للكرملين على عملائها الدوليين المنضبطين.

ولقد كان تعطل وانهيار الانضباط، والذبول المعنوي مرتبطاً مباشرةً بتآكل دعوة الاتحاد السوفياتي الخاصة بانه نموذج الاشتراكية للماركسيين الراديكاليين في العالم. ولقد دعمت الاقرارات السوفياتية غير المأهولة بالفشل الاقتصادي - الاجتماعي، والتي اصبحت بعملية غورباتشيف الانفتاحية طوفان حقيقي من الادانات الاتهامية الذاتية، النظرية القائمة فعلياً والمشتركة بشكل واسع، من ان اكثر ما ظهر في الاتحاد السوفياتي خلال عهد الشيوعيين كان تبديداً وكارثة عنيفة. ولم يعد من الممكن مساواة ادانة التجربة السوفياتية مع الدعاية المناهضة للشيوعية. ولقد كان المتحدثون السوفيات والصحف السوفياتية يتنافسون فيما بينهم في كشف العديد من مواطن الضعف الحاضرة، والجرائم السابقة الظاهرة.

ولقد سلم المتحدث السوفياتي بصراحة بالانخفاض الناتج بالاعجاب بالاتحاد السوفياتي حتى لدى الشيوعيين في العالم. ولقد صرح المعلق الكسندر يوفين في مقال في الصحيفة الشعبية ازفستيا في ١١ تموز ١٩٨٧ بان «التراجعات، التناقضات، والازمات والركود» السوفياتية الداخلية قد شوهت

النموذج السوفياتي، والذي صورته موسكو، ونظر اليه العديدون من الخارج على انه المستحق بان يطبق. لقد كان يُعتبر النظام السوفياتي قبل واحدة وعشرون سنة فقط البديل الجدي للسيطرة الامريكية على العالم، مع قيادة المفكرين اليساريين الغربيين، امثال جان بول سارتر، ومتناقضاً مع التطهرية والمثالية السوفياتية بالمادية الشديدة للمنافس الند عبر الاطلنطي. ولقد كان القادة السوفيات انفسهم يترعون التفائل مع خروشوف موزعاً النصائح مجاناً في سياق ترحاله في دول العالم الثالث في كيفية تطبيق المسار السوفياتي في التصنيع السريع والتحديث على افضل وجه.

لقد اكتست المناظر المدنية الطبيعية السوفايتية من بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ بمناظر من السيطرة الامريكية، مثل علب البيبسي وفن مكدونلد. ولقد كان ذلك شهادة صامتة للقبول السوفياتي الضمني لتقليد باهت واقل مستوى للنظام الاستهلاكي الامريكي الاكثر تقدماً بشكل كبير، ولكن كان قد سُخر واستهزأ به في وقت ما. وبالرغم من الاحاطة بالبيانات العقائدية الى درجة القول ان عملية اعادة البناء سوف تبني نظاماً اشتراكياً افضل واكثر ابداعاً، فلقد ضم هذا التأثير الاجتماعي الاكثر واقعية التبني المرئي للتقنيات وحتى بعض النماذج الثقافية للمنافس الذي كان مداناً في السابق. وهذا لا يمكن ان يساعد بشيء ألا في التأثير على الهبوط المعنوي لما تبقى من المخلصين والذين لا يزالون يجتمعون مرة في كل عام في موسكو لطقس اعادة وتجديد الالتزام والولاء.

ولقد كان فشل الاتحاد السوفياتي كنموذج اجتماعي رفيع، النكسة الاكثر خطورة للحركة الشيوعية العالمية. وهذا يفسر عملية البحث اليائس عن مركز بديل للاعجاب. ولقد بدت الصين لفترة وجيزة المرشحة الرئيسة لهذا، مع وجود المثالية الظاهرة مع الصفاء والتكريس الشامل. ولكن فقد ذبلت تلك الهيئة مع فساد وفسوق الثورة الثقافية، مع الكشف عن ماوتسي تونغ كقاتل جماعي على نفس درجة ستالين على اقل تقدير، وخصوصاً مع توسع التعاون الامريكي -

الصيني في مجالات الثقافة، الاقتصاد، والسياسة. وتحت هذه الظروف فلا يمكن اخذ هذا التطور الصيني وفساد الشيوعية التجارية من وقت لآخر، كنموذج للثورة الاجتماعية الاشتراكية.

ولقد تأرجح البقية من المؤمنين الحقيقيين لفترة ما بين فيتنام وكوبا، ولكن منهما لم يثبت القدرة على تحريك الاعجاب العالمي. فلقد شوه الفشل الاقتصادي، والوحشية بعد الانتصار، هانوي، بينما تمنطقت شخصية فيدل كاسترو الدكتاتورية بالكثير جداً من الفاشية، واعتمد بشكل كبير على اعانة الاتحاد السوفياتي حتى انه لا يمكن ان يقدم من نفسه مثالاً مستقلاً للأعجاب. ولقد اصبحت نيكاراغوا احدث قبلة للمخلصين الماركسيين اللاهثين بعد انتصار الساندينستيين. ومن الصعب الاشارة الى حركة تواقة الى توثيق الصلة عالمياً لأن قابليتها للتطبيق والنموذج الاجتماعي الملائم بشكل عام بدائي نسبياً بل مجتمع ريفي مشوش مكون من ثلاثة ملايين نسمة فقط. ولم يوجد بديل للنظام السوفياتي في اثناء البحث عن نموذج مناسب ـ ولقد ضخمت هذه الحقيقة من اهمية فشله كمرشد للشيوعية العالمية.

وبذلك يكون انعقاد المؤتمر الطائفي السنوي في الكرملين قد اعطى الكلمة التأبينية الحزينة لحركة كانت في فترة ما تدعو نفسها بفخر الشيوعية الدولية. ولقد كان تقدمها الطقسي البقايا الرثة لما كان يدعى لوقت ما، بانه التطبيق الثوري العالمي المناسب.

الفصل الثامن عشر
(اللاتناسب السياسي)
في العالم المتطور

لقد كان من المفروض نظرياً ان تكون الشيوعية الاكثر نجاحاً في العالم المتطور. فلقد كان على الثورة الاشتراكية ان تحدث اولاً في الدول المتطورة، وذلك بناء على المبدأ الماركسي الاصيل، كنتيجة حتمية تاريخياً لأزمة الرأسمالية داخل المجتمع الصناعي. ولقد كان الحزب السوفياتي ينادي حتى عام ١٩٦١ ويعلن في برنامجه الجديد الذي تبناه ان «عملية التعفن قد احاطت الرأسمالية من القمة الى الاسفل» وان «الازمة الحقيقية للرأسمالية» قادمة في الطريق.

ولقد كان النداء والاعلان السوفياتي واضحاً ومفصلاً، ولقد صرح مضيفاً قائلاً ان:

«تجد الازمة العامة للرأسمالية تفسيرها وتعبيرها في ما يلي: الارتداد المستمر لدول جديدة عن الرأسمالية؛ ضعف الوضع الامبريالي في المنافسة الاقتصادية مع الاشتراكية؛ تفسخ النظام الاستعماري الامبريالي؛ تفاقم المتناقضات الامبريالية مع تطور احتكارية الدولة الرأسمالية ونمو العسكرية؛ تزايد الاضطرابات الداخلية وانحطاط الاقتصاد الرأسمالي الظاهر في عدم القدرة النامية للرأسمالية من الاستغلال الكامل للقوة الانتاجية ـ معدلات الانتاج المنخفضة، الازمات المرحلية، الفشل الواضح في استعمال القدرات الانتاجية، والبطالة المزمنة ـ الصراع المتصاعد بين العمالة ورأس المال؛ التزايد الحاد

لمتناقضات اقتصاد العالم الرأسمالي؛ الكثافة في ردود الفعل السياسية الجديدة على كل الجبهات؛ الرفض البرجوازي للحريات، وانشاء انظمة فاشية ارهابية في عدد من الدول؛ والازمة المتعمقة في السياسة والعقيدة البرجوازية».

ولم يكن هذا التشخيص خطأً فقط، بل لقد برزت في اواخر القرن العشرين افتراضات اكثر شدة: كلما اصبح المجتمع متقدماً اكثر، كلما قلت، وانخفضت صلته بحزبه الشيوعي. ولقد كان ذلك المفاجئة الرئيسة في المواجهة الشيوعية مع التاريخ. وبينما فشلت الشيوعية حيث توقعت ان تنجح، فلقد نجحت ـ ولكن بأسلوب الاستيلاء على السلطة ـ حيث كان يقال، بناء على مبدأ، ان الظروف كانت غير مواتية تاريخياً للنجاح. ولقد افاد هذا التناقض في النهاية في تجريد الشيوعية من مصدر قوتها واصولها: في المعنى انها راكبة مجد التاريخ، وانها تمثل المستقبل، وان انتصارها وظفرها الحتمي يعادل ويساوي التقدم البشري الانساني. ولقد اشار فشل النظامية الشيوعية في الاتحاد السوفياتي المتخلف اجتماعياً، بدلاً من ذلك، واللاعلاقيته المتزايدة مع القياسات الاجتماعية ـ الاقتصادية للعالم المتقدم عنها كثيراً جداً الى قابليته الى الزوال المذهبي المبدئي.

وبهذا، فلم يكن القرن العشرون اذن قرن الشيوعية. لأنها لم تمكن عملية التبسيط الكبير من ان تشمل كل التعقيدات لبناء اجتماعي لمجتمع متقدم. ولم يتناسب هذا البناء مع نظرية ماركس الهرمة لمركزية الطبقة العاملة الصناعية. ولم يتمكن المذهب ايضاً من اعطاء وتزويد باي دليل مهم للسياسات الاجتماعية والتي كان يجب ان تستوعب الابتكارات الابداعية للعلوم المتقدمة والتقنية العالية. وعلاوة على ذلك، فلقد انزل افساد الماركسية بممارسات لينين وستالين المذهب الى تبرير عقيم للتعسفية والسلطة الدكتاتورية، مانعةً بذلك بشكل اضافي قدرتها للتكيف مع الظروف المتغيرة. ولم تستطع الشيوعية الصمود امام كثافة عدم تناسبها الظاهر مع العصرية في الوضع الديمقراطي للغرب حيث تؤخذ الاختيارات على قاعدة النقاش المفتوح.

لقـد ادرك المتحـدثـون السوفيات متأخرين، خسوف الشيوعية في القرن العشرين. فلقد كتب اي. بليماك (E. Plimak المدرس العالم في معهد موسكو للحـركـة العمـالية الدولية في الصحيفة السوفياتية الرسمية الفلسفية فوبروزي فيلسوفي (Voprosy Flosfi) ، واصفاً الوضع على حقيقته: «لقد اعتقد الشيوعيون حتى في المدة السابقة الاخيرة ان القرن العشرين سيكون قرن الانتصار الكبير الواسع للأشتراكية. . ويتراجع هذا الهدف الى المستقبل البعيد. والحقيقة هي اننا لم نعطي المقدرة الرأسمالة حق قدرها بالتكيف مع الظروف الجديدة. . ولقد بالغنا بالسرعة التي يمكن للأشتراكية ان تنتشر بها». ولقد سمع المعلق السوفياتي المشار اليه سابقاً بونين صدى قوله هذا بوضوح اكثر والذي تخلى عن اي ادعاء بالتفـائل التاريخي مصرحاً بأسهاب «لقد تراجع وانسحب اي توقع الى الابد لتحولات اشتراكية في الدول الرأسمالية المتطورة».

وهكذا كان. فلم تكن الشيوعية في امريكا الشمالية حركة سياسية بل شيعة منفردة ومنحرفة وغير ذات بال في العمليات السياسية في الولايات المتحدة او كندا. ويوجد سبب صغير لتوقع تغيير هذا الواقع. وبالفعل، وحتى في زمن ايام القمع الكبير، عندما غرق النظام الرأسمالي في الازمة، وبلغ الشعور العام بعدم ملائمته الذروة، فلم تنجح الحركة الشيوعية في تحريك الكثير من الدعم العام. ولم يكن الرد المبتكر للنظام القائم، من خلال الاتفاقية الجديدة، في الولايات المتحـدة، ومثيلتهـا كنـدا فقط هي التي جردت واستـولت على الاعجـاب الاجتماعي للشيوعية، بل لقد شعر الرأي العام بشكل غريزي ان المواصفات الماركسية ـ اللينينية كانت لا تتناسب مع المجتمعات الموجودة في مقدمة الابداع التكنولوجي ـ الاجتماعي.

ان المثقف المـوازي والمتساوي هو الظرف المخيب لأمال الشيوعية في اليابان، بسبب عجز الشيوعية تاريخياً. فقد كان على الشيوعية ان تظهر بصمتها على هذا البلد بهذا الوقت، كون اليابان قد جاءت بعد امريكا مباشرة في ترك

العهد الصناعي خلفها ودخولها عصر الاليكترون الغني . وبالفعل فقد كان يجب على الشيوعية ان يكون لديها الخط للنجاح في اليابان. فقد كانت البلاد مدمرة في سياق الحرب المعلنة خلال مرحلة تصنيع تطورها . ولقد احيا قيامها وشقائها بعد الحرب طبقة عمالية كبيرة. ويجب ان يكون صراعها مع امريكا قد ترك بقية من عداء وطني قابل للتفجر العقائدي . واخيراً وليس آخراً فلقد منح استهداف الياباني التكتيكي الملائم ـ والمفهوم تاريخياً ـ للسلاح الذري فرصة عظيمة للحزب الشيوعي الياباني للأستحواذ على الشعور الوطني كاملاً .

وبالرغم من كل هذه الامتيازات الموضوعية والواقعية ، فلم تتجاوز القوة الانتخابية للحزب الشيوعي الياباني في كل مراحل ما بعد الحرب درجة تقارب العشرة بالمئة تقريباً. فلقد حصلت على اول قاعدة برلمانية في انتخابات عام ١٩٤٩ . وبالرغم من بعض النجاح في التطوع الرسمي للاعضاء المدفوعي الاجر ـ والذين ارتفع عددهم من ٨٧,٠٠٠ عام ١٩٦١ الى ٤٦٥,٠٠٠ عام ١٩٨٥ ـ فلقد بقي دعمها الانتخابي المحدود نسبياً ثابتاً منذ ذلك التاريخ . فلقد وصل الى اقصى نقطة عام ١٩٧٢ وهي ١٠,٩ بالمئة من الاصوات، بينما انخفض اشتراكها في المنافسات الاخيرة في مجلس النواب عام ١٩٨٦ الى ٨,٨ بالمئة .

وبالاضافة الى ذلك، فلقد توصل الحزب الى المجموع التافه هذا من خلال جهود مكثفة لتعريف الشيوعية اليابانية بالوطنية ، ليس فقط بالدعوة الى مناهضة الامركة ، بل ايضاً بالتأكيد الثابت والقوي على استقلالية الحزب الياباني عن الشيوعية السوفياتية والصينية. ولقد اتهم الحزب الشيوعي الياباني الشيوعية السوفياتية والصينية باتباع مبدأ السيطرة، ولقد قطع علاقاته معهما في وقت ما . ولجني وحصد الدعم المحلي ، فلقد استنكر الشيوعيون اليابانيون بصراحة واضحة التقاليد الدكتاتورية في حكم الاحزاب السوفياتية والصينية ، ساعين بدلاً من ذلك الى تعريف انفسهم بانهم ديمقراطيون اجتماعيون بأسلوب غربي

ومســالمون. ولقد حصلوا على العشرة بالمئة فعلياً على حساب وحدة المبدأ الشيوعي بينما دعمت ادانات الاتحاد السوفياتي والصين الصورة الشعبية للشيوعية كفشل نظامي.

ولقـد انضم الحزب الشيوعي الياباني الى المطالبة الوطنية لأعادة الجزر اليابانية الشمالية التي احتلها الاتحاد السوفياتي منذ الحرب العالمية الثانية الى اليابان وذلك لأثارة سخط السوفيات. ولقد ذهب الحزب الشيوعي الياباني الى ابعد مما وصلت اليه الحكومة اليابانية المحافظة بالمطالبة باستعادة ليس فقط الجزر الاربعة القريبة جداً من هوكايدو (Hokkaido)، بل ايضاً بكل سلسلة جزر الكوريل (Kurile)، والتي تُركت الى الاتحاد السوفياتي وفق معاهدة سلام سان فرنسيسكو. فلقد صرحت صحيفة الحزب الرسمية اكاهاتا (Akahata)، في ٢٦ ايار عام ١٩٨٦ بكلمات فظة ووطنية مدروسة، بان تلك الجزر «كانت اراضي يابانية تاريخياً»، واستيلاء السوفيات لهذه الجزر هو «ضد المبادىء الاشتراكية العلمية». وان «اعادتهم الفورية» كانت مطلباً «مبنياً على العدالة الدولية».

ولقد وُجدت رسالة متضمنة في فشل الشيوعية في اليابان اكثر عمقاً ومن المحتمل انها حتى مثيرة للمشاكل اكثر من خسارة فرصة الافادة من دمار وقت الحرب، والتعقيدات الحتمية في العلاقات الاميريكية ـ اليابانية. فلقد كانت اليابـان مثـل امـريكـا تمـامـاً بحلول اعوام السبعينيات، في مقدمة التحديث العالمي، ورائدة ليس فقط في الابتكارات العلمية والتكنولوجية، بل ايضاً امتداداً حتمياً لهذا النشاط، في التطور الاجتماعي. ولقد كانت تعمل ذلك على قاعدة مبادىء الملكية الخاصة، والعمل الحر، التعددية السياسية، والادارة الموحدة، والتي تخلص بعده طرق اعنف الادانات والاستنكارات الماركسية للرأسمالية. ولم يكن النظام الياباني ناجحاً اقتصادياً، وحائزاً على مساندة كبيرة من الدعم الشعبي فقط، بل ايضاً اصبح بموقع النموذج للأبداع حتى ان الزعماء السوفيات والصينيين الشيوعيين كانـوا يشيرون اليه بعـد طرق على انـه يستحق التماثل

والتقليد. وكان هذا اضطراباً مذهبياً، لأنه يحمل الرسالة اللاواعيه بان الشيوعية قد اصبحت منطوية على مفارقة التاريخ.

واذا اعتبر الفشل الشيوعي في الاتحاد السوفياتي واليابان مزعجاً تاريخياً للألتزام العقائدي، فان فشلها في اوروبا الغربية كان اكثر اثارة للسخط مذهبياً. حيث أُنشئت النظريات وغُذيت، وحيث تنبأت النظرية بنضوج الظروف تاريخياً لانتصار الثورة الماركسية. يمكن ان يعزو المعتقدون الحقيقيون الفشل في الولايات المتحدة واليابان الى الاوضاع الفريدة في هاتين الدولتين، وهذا غير ملائم مذهبياً. ويمكن ايضاً ان يعزو اخراجه الثورة في روسيا الى الاستراتيجية البلشفية بنهش اضعف حلقة في السلسلة الامبريالية - وهذا النجاح قد عززه في ذلك الوقت اصرار ستالين لبناء «الاشتراكية في بلد واحد». ومع ذلك فقد كان يجب على بناء المجتمع الاشتراكي ان يحدث اولاً في اوروبا الغربية، وهي المثال التقليدي للتصنيع الرأسمالي وخزانة العرض لقدر الرأسمالية والتناقضات الحاسمة.

وبدلاً من ذلك، تصبح الشيوعية في نهاية القرن العشرين في اوروبا الغربية تماماً ليس فقط آيلة للزوال، بل ايضاً غير مناسبة سياسياً. وهذا ايضاً صحيح في الدول التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، فقد كان على الشيوعية ان تأخذ فرصة ثانية، حيوية مفاجئة، فرصة جديدة للوصول الى السلطة. فقد كان يجب على الاستقطاب المذهبي والذي حركه الصراع ضد الفاشية اليمينية ان يفيد من الاحزاب العسكرية اليسارية في ايطاليا وفرنسا وشبه جزيرة ايبريه. ففي كل دولة من هذه الدول قد ساندت عملية التصنيع الرأسمالي غير المصقولة على ظهور وعي طبقي لحركة عمالية ومنجذبة سياسياً الى نموذج الاتحاد السوفياتي. وفي كل دولة من هذه الدول، كانت الطبقة المثقفة غير متأثرة من الامر الواقع، ومغرية من الثقافة المناهضة لأمريكا، ومائلة على الاقل الى مغازلة الماركسية، وفي العديد من الحالات الى ضمها وقبولها بحماس فكري. وبذلك فقد كان الوضع والظروف والتوقيت مناسباً جداً.

ومع ذلك فقد كان السجل السياسي ايضاً فشل آخر. ففي ايطاليا ظهر الحزب الشيوعي الايطالي، وخرج من الحرب بهيبة وشكيمة عالية وضخمة، واصبح ثاني اكبر حزب في ايطاليا، يسيطر على اكثر من ثلث الاصوات الانتخابية الشعبية في اعلى نقطة وصل اليها. وقد كان مستعداً بحلول منتصف السبعينيات، بان يحكم في السلطة، واذا لم يكن وحده مباشرةً فمن خلال تحالفه مع احزاب اخرى غير شيوعية. ولقد شخص الحزب الشيوعي الايطالي ظاهرة الشيوعية الاوروبية - رؤية اكثر نقاء وحداثة للشيوعية والتي كانت مصقولة عقائدياً وسياسياً بشكل كافي لأستلام السلطة في ظروف سياسية واجتماعية اكثر نضجاً.

ولكن ذلك لم يحدث. فلقد شارك، بدلاً من ذلك، التحول المتقدم للمجتمع الايطالي، والذي يحركه النمو الثابت للأقتصاد الايطالي، والارتفاع المتعلق به لمظهر وهيبة ايطاليا الدولية، والثقة بالنفس في تراجع اليسار المتطرف، فلقد بلغ خط الحزب مرحلة الاستقرار، ولكن بدأ يضعف بعد ذلك. فلقد تراجع دعم الاصوات الانتخابية للحزب من ذروتها التي حصل عليها في الانتخابات العامة سنة ١٩٧٦ وهي نسبة ٣٤,٤ بالمئة، تدريجياً الى ٢٦,٦ بالمئة في انتخابات عام ١٩٨٧، وتقهقرت الى ٢١,٩ بالمئة بانتخابات البلدية المحلية عام ١٩٨٨. ولقد كانت التوقعات الباهتة والاكثر ايماءً، هي الواقع ان الشيوعية في منتصف الثمانينات لم تستطع ان تفتن وتجذب اعداد كبيرة من الشباب. فقد كانت نسبة الذين انضموا الى الحزب الشيوعي الايطالي بين الشباب، النصف فقط بالنسبة الى كل عدد السكان. وفي الواقع فليس اقل من نسبة ٢١ بالمئة من اعضاء الحزب هم من المتقاعدين. وعلاوة على ذلك، فان اصل ٤٠ بالمئة من عضوية الحزب قد جاءت من تقليد القطاع الصناعي في وقت ما كان قطاع الخدمات الايطالي سائراً في عملية توسع رئيسي. وبالنتيجة، فان الحزب يمثل ماضي ايطالي.

ولقد كانت المشكلة المركبة في الواقع ان الحزب قد استطاع ان يحصل على دعم شعبي رفيع، ولكن متراجع، وذلك يعود الى الرفض غير المقنع لأكثر ما جاء الاسلوب السوفياتي للشيوعية ليمثله ويدافع عنه ويعلنه. وقد كان من المحتمل ان يتسارع تراجع الحزب السياسي اكثر بكثير لو انه لم يشترك في الادانات الصريحة المعلنة للستالينية، ولغزو السوفيات لتشيكوسلوفاكيا، وحتى لمبادىء موسكو اللينينية، بينما يقدم ويمد في نفس الوقت الدعم العام الى حركة التضامن البولندية، والى النشاطات الانشقاقية في الفلك السوفياتي.

وبالفعل، فلقد تجنبت الشيوعية الايطالية زوالها، مع كونها قد فشلت في منع تراجعها السياسي، ولقد اشترت البقاء السياسي بثمن الهرطقة المذهبية. ولم تتخلى فقط عن الستالينية بأعلانها ودفاعها عن التعددية الوسطية، واداناتها للدخول السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا وافغانستان، بل ايضاً انحرفت عن الافكار اللينينية للأنضباط الداخلي الصارم، والهيمنة المذهبية. وبذلك فقد استطاع الحزب الشيوعي ان يحيى ويبقى على حساب الوحدة الشيوعية الاكثر اتساعاً - مديناً علناً التجربة السوفياتية على انها فشل تاريخي، بينما معتنقاً التعديلية عقائدياً وسياسياً.

ويعكس الحزب الايطالي، فلقد تأصلت قلة حظ الحزب الشيوعي الفرنسي بدرجة كبيرة في قلة مرونته وعدمها المذهبية والتكتيكية. فلقد بقى هذا الحزب ستاليني - لينيني الاسلوب، وقد دفع ثمناً سياسياً باهضاً لذلك. لقد وُضع الحزب الشيوعي الفرنسي، وبتشابه مع الحزب الايطالي، على حافة النجاح السياسي حالاً بعد الحرب العالمية الثانية. ولقد زادت الترحالات وعدم الاستقرار منذ وقت الحرب من التوترات الاقتصادية الاجتماعية التي أخرت بعض الشيء عملية التصنيع، وهذا بالتأكيد قد عزز الدعوة والافتتان الشيوعي. وبالفعل، فقد كان الحزب عام ١٩٤٩ اكبر قوة سياسية متوحدة منفردة في فرنسا، ومستعداً على ما بدا للاستيلاء على السلطة من خلال المواجهة او الفوز الانتخابي.

ولكن، لقد شهدت السنوات الاخيرة، بدلاً من ذلك، اندفاع الحزب الشيوعي الفرنسي يتراجع الى وضع الهامشية السياسية واللاتناسب المذهبي. ولقد وجد الشيوعيون الفرنسيون انفسهم، بعد ان هزمتهم مناورة الاشتراكيين الفرنسيين النشطين اليسارية، وبعد ان افاد اليمين الوسط الفرنسي من نمو البلاد الاقتصادي والتكنولوجي، بان المقترع ينظر اليهم كونهم غير مناسبين للأهتمامات الاجتماعية. فلقد حصل الحزب الشيوعي الفرنسي في انتخابات عام ١٩٧٣، وعام ١٩٧٨ البرلمانية على نسبة ٢١,١ بالمئة و٢٠,٥ بالمئة من الاصوات على التوالي. ولقد انخفضت الى نسبة ١٦,١ بالمئة من الاصوات في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨١. وبالكاد حصل على ٦,٨ بالمئة من مجموع الاصوات في المنافسة الرئاسية عام ١٩٨٨.

ولا يوجد فرصة كبيرة حتى يستعيد الحزب الشيوعي الفرنسي تفوقه السابق. فلقد تراجع انتساب الاعضاء الرسمي بمدة، وكذلك اعداد الاتحادات التجارية التي كان الحزب يسيطر عليها. ولقد قطعت اعادة بناء الاقتصاد الفرنسي بعيداً عن قطاع الصناعة الثقيلة مناطق قوة الحزب الشيوعي الفرنسي التقليدية. ولقد كانت خسارات الحزب في المناطق النشطة اقتصادياً الاكبر حجماً، بينما تبقى المناطق الفرنسية المتحجرة اقتصادياً متراسة وحصنه الاخير. ولقد اتلف الحزب الشيوعي الفرنسي افتتانه واعجابه الخاص لبقية المجتمع الفرنسي، والذي كان في خلال العقدين والنصف الاخرين خاضعاً لعملية تحديث سريعة بنمو استثنائي، وكذلك بتركيزه على الطبقة العامة الصناعية التقليدية، على انها المحرك والفاعل المركزي التاريخي. وان المنظر والمشهد الاكثر ازعاجاً، هو النظرة الهابطة التي ينظر بها الناخب الفرنسي الشاب الى الحزب الشيوعي الفرنسي، وذلك بوجود ٣ بالمئة فقط يفضلونه عن اي بدائل اخرى.

لقد ساهم انهيار غموض ولغز الشيوعي بين المفكرين الفرنسيين في التراجع العام بالاعجاب والافتتان بالماركسية في فرنسا. وبينما كانت المدرسة المهيمنة

للفكـر في المعـاهد، والصالونات الفرنسية، وعلى الجبهة اليسارية الباريسية المتذبذبة فكرياً، فقد اصبحت الماركسية بحلول اواخر السبعينيات ينظر اليها هؤلاء الذين هذبوا وصقلوا مسارات الفكر الفرنسي على انها ماضية وتافهة. ولقد القته والسحر مع ما تتضمنه من فنون جديدة من الاتصالات وعمليات ليس فقط التعددية الديمقراطية بل ايضاً المغامرة والعمل الحر. ولقد سجل الاشتراكيون الفرنسيون نصرهم الانتخابي بتكيفهم البارع مع هذه الصيغة. وعلى العكس، فلقـد بدا ان الشيوعيين الفـرنسيين لا يزالون مشدودين باحكام الى الستالينية واللينينية الهـرمة. ولقد كان تشوه الشيوعية كاداة التاريخ للابتكار فكرياً باهظ التكاليف بشكل خاص، في بلد يحتل فيه الفكر موقعاً سياسياً خاصاً. ولذلك فلم يعد الصفة الشيوعية في فرنسا بحلول منتصف الثمانينات مظهراً اجتماعياً او احتراماً فكرياً.

وقد كانت المنطقة الثالثة في اوروبا الغربية حصل الحزب الشيوعي فيها على فرصة جديدة ايضاً للوصول الى السلطة، شبه جزيرة ايبيريا (Yberian Penin-sula). فلقد بدا ان تشابك التخلف الاجتماعي في كل من البرتغال واسبانيا، والتفسخ الداخلي لأنظمته الشبه فاشية قد قدم اخصب وضع لسلطة شيوعية. وبـالفعـل، فقـد بدت الظروف تقريباً وكأنها مصممة خصيصاً لتلائم الصيغة المـاركسية التقليدية: مثـل التصنيع المبكر، طبقات حاكمة رأسمالية بدائية، نخبـات يمينية رجعية، وعدم مساواة وحرمان اجتماعي كثيف ـ وكذلك ظهور متـزايد لطبقات عمالية صناعية واعية سياسياً، تقودها احزاب شيوعية منضبطة ومتـدربـة وذات خبـرة، صقلتها وقوت عزمها الصراعات السرية. وكذلك فان النجاح السياسي في فرنسا وايطاليا يجب ان يترافق مع انتصارات سياسية في اسبانيا والبرتغال. ومع كل ذلك، فلم تحقق الشيوعية هنا بافضل ما حققت هناك.

لقد قدم الصراع المرير ضد نظام فرانكو (Franco) الفاشي ـ الجديد الى

الحزب الشيوعي الاسباني لسي فقط الدعم المحلي والدولي الواسع، لقد سمح ايضاً للحزب ان يكون منظمة سرية فاعلية ومؤثرة. وعندما غاب نظام فرانكو عن المسرح، وكان التحول الى الديمقراطية سائرة في الطريق، كان الحزب الشيوعي الاسباني في وضع جيد لكي يصبح اكبر مستفيد من التغيير السياسي. وبدلاً من ذلك، فلقد انقسم الحزب الشيوعي الاسباني، حالما ظهر الى العلن من خلال السياسات الانتخابية المتجددة، الى عدة فصائل متنافسة، عاكساً بذلك التصدع المبدئي في الحركة الشيوعية العالمية. ولقد حاول الحزب الرئيسي ان ينافس الديمقراطيين الاجتماعيين الاسبان من خلال اسقاط اللينينية من برنامجه، والسعي الى ضم وجمع الموالاة المستمرة للماركسية مع الالتزام الواضح للديمقراطية.

وايضاً فلقد بقي الشعب الاسباني شكوكياً، وخصوصاً لأن ذكريات الارهاب الشيوعي خلال الحرب الاهلية الاسبانية لا تزال عالقة بالذهن. وعلاوة على ذلك فلقد عملت عملية تعريف الحزب الشيوعي الاسباني بنفسه بانه حزب اليسار الديمقراطي، لصالح الاشتراكيين الاسبان، والذي لم يستطع ان يزايد على موالاتهم للديمقراطية. وبالنتيجة فقد قفزت اصوات الاشتراكيين بين اواسط السبعينيات الى اواسط الثمانينات، من ٣٠ بالمئة الى حواي ٤٥ بالمئة تقريباً، بينما تراجعت اصوات الشيوعيين من ١٠ بالمئة الى ٥ بالمئة. ولقد اصبح الشيوعيون الاسبان، وكما حدث لرفاقهم في فرنسا وايطاليا، قوة سياسية هامشية.

ولقد وقع نفس المصير بالشيوعيين البرتغال. فلقد ظهر في البداية، وكما حدث في اسبانيا، ان الشيوعيين كانوا متوجهين الى استلام السلطة. ولقد انذرت نهاية حكم سلازا (Salazar) الدكتاتوري، بفترة من عدم الاستقرار السياسي في البرتغال، والذي ادى ببعض المراقبين الغربيين الى الذهاب بعيداً في اواسط السبعينيات في كتابهم عن البرتغال بانه قضية خاسرة. اما خليفة سلازاد، الاشتراكي ماريو سواريز (Marlo Sares) ، فلقد وُصف بانه «كيرنسكي» البرتغال،

وان الارتباك والتشوش المتزايد في المجتمع والذي يتوجه الشيوعيون بان يكونوا المستفـدين السياسيين منـه، سيبتلعـه، ولكن بدلاً من ذلـك، فلقد استطاع الاشتـراكيون، والـذين افـادوا من دعم رفاقهم الغربيين الفاعل والنشط، من الاستيلاء والاستحواذ على الافتتان والدعوة الشيوعية، وعزل الشيوعيين البرتغال على انهم متعصبين مذهبياً، وانتـزاع الـدعم في المنـاطق الريفية من خلال اصـلاحـات الاراضي المـرحلية من وقت الى الآخـر، ومن احتواء الاعجاب الشيوعي بنهاية اعوام السبعينيات، بعلاقة شديدة القصر تصل الى اقل من ٢٠ بالمئة من الاصوات، ودفعه بعد ذلك الى اسفل ليصل الى حوالي ١٢ بالمئة من منتصف الثمانينات.

ولقـد اشعـل دخـول الديمقراطيات الناجحة والواعية في كلٍ من اسبانيا والبـرتغال داخل الجماعة الاوروبية، شعور التفائل التاريخي بين ليس فقط النخبات من المفكرين ورجال الاعمال، بل حتى بين الجماهير ايضاً. فلقد خلق ذلك الشعور ان عهداً جديداً من الفرص والتحديث السريع قد ظهر، ولقد عملت هذه الروح الجديدة على تجريد المبدأ الشيوعي من الكثير من اعجابه وافتتانه الشعبي. ولقد أعتبرت الشيوعية في هذين البلدين بانها غير مناسبة لحل المعـاضـل الاجتمـاعية القـائمـة ولا حتى مصدر ارشاد للتغلب على مشاكل المستقبل الظاهرة.

ولقـد اصبحت الشيوعية في بلاد اخـرى من اوروبا المتقدمة اقل تناسباً سياسياً ومذهباً. فلقد اختفت الشيوعية في بريطانيا بشكل كبير، بوجود عشرة الاف عضـو مسجـل في قائمـة الحـزب فقط. وقد اكتسبت صحيفة الحزب «مـاركسيزم توداي» (Marxism Today) أو (الماركسية اليوم) الاحترام الفكري الى درجـة محـدودة بادانتهـا اليومية «لتحجر الاشتراكية»، وبانشغالها في حوالات جديدة حول الافكار التي كانت في وقت ما هرطقة وابتداع، مثل «الاشتراكية التسويقية» و «التنافسية الدولية»، واما في الدول الاسكندنافية والمانيا، فلم تعد

الشيوعية واقع سياسي جدير بالاهتمام او حتى الملاحظة. وكما هو الحال في امـريكا، فهي قطاع صغير تافه. وفي كل اوروبا غير الشيوعية، ومن الاثنين والعشـرين حزبـاً شرعياً، فقط حصل تسعة منهم على اكثر من ٥ بالمئة من الاصوات في احدث الانتخابات الاخيرة، وحصل خمسة منهم على اكثر من ١٠ بالمئة.

فالحركة الشيوعية اليوم ما هي الا ذخيرة لأول مواجهة في القارة التي أنشأت فيها مع التصنيع وضحية انتشارالاعجاب التعددية الديمقراطية.

الفصل التاسع عشر

الفشل الاقتصادي ـ الاجتماعي

في الدول النامية

لقد اثبتت الشيوعية بانها فشل جهازي في كل الدول النامية، رغم انها كانت اكثر نجاحاً في الوصول الى السلطة السياسية في العديد من هذه الدول. ولم تنتج السياسات الاقتصادية ـ الاجتماعية والتي سارت على النموذج السوفياتي، التطور والتحديث المطلوب، ولقد انشىء الفشل المتكرر في خلال العقد الاخير خيبة أمل اوسع في العالم الثالث، ليس فقط من المثل السوفياتي، ولكن ايضاً من المبدأ الشيوعي نفسه.

ولقد اظهر في البداية انه يمكن السيطرة على الموجة المضادة للأستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، بالتطبيق الماركسي، خالقةً نشاط لا يُقاوم في العالم الثالث باتجاه الشيوعية السوفياتية. ولقد كان هذا توقع خروشوف الاكيد في اواخر الخمسينيات وبداية السيتينيات. فلقد بدا ان الاتحاد السوفياتي سائر في المسيرة التاريخية، متوقعاً ان يتقدم على الولايات المتحدة في المنافسة الاقتصادية، بينما قد رحب في تجربته في «بناء الاشتراكية» بتطبيقها عالمياً. ولقد اعلن خروشوف هذه الرسالة بحماس كبير مقدراً الحضور حق قدرهم في اندوسيا، الهند، ودول افريقية اخرى.

ولقد هذب ونقح الزعماء السوفيات، اثناء مرحلة التفاؤل الشيوعي التاريخية، فكرتهم التقليدية لعالم مقسم الى معسكرين متعاديين، وهما

المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي، والمعسكر الامبريالي العدواني، بقيادة الولايات المتحدة، مع ملاحظة ان هذه الاخيرة تسيطر بشكل فاعل مباشرة وبشكل غير مباشر على المناطق الاقل تطوراً في العالم. فلقد قدم خروشوف مقترحاً فكرة ان الدول المحررة حديثاً تمثل الآن «مناطق سلام» ويمكنها ان تقوم بتحولٍ سريع نسبياً الى الاشتراكية بنفسها، وكذلك بالاخذ بفكرة مناهضة الاستعمار كتطور هام وتاريخي، والادعاء ان القوة الدافعة لهذه الفكرة هو المبدأ اللينيني، وقادمة من الدعم الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي. وسوف يساعد الاتحاد السوفياتي في هذه العملية بتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية، والارشاد العقائدي الودي، المبني على تجربة السوفيات، ويردع الامبرياليين من تخريب او وقف التقدم المحتوم نحو الاشتراكية الكاملة. وبهذا تكون النتيجة معسكر اشتراكي دائري.

ولقد حصلت الاشتراكية كتنظيم اقتصادي ـ اجتماعي على دعم ملحوظ خلال المرحلة الاولى من حالة الاستقلال بعد الحرب، رغم ان أيّاً من قادة الدول الجديدة التي زارها خروشوف قد قبل الافكار الماركسية ـ اللينينية ـ ورغم ان أياً من هذه الانظمة قد اعلنت انها ذات توجه شيوعي. فلقد تبنت حكومات هذه الدول الكبيرة مثل الهند او اندويسيا والدول الافريقية الجديدة. بطرق عديدة بعض اشكال اشتراكية الدولة كأسلوب، بالرغم من اصرارهم في كل الحالات بانهم يولفونها ويمزجونها مع حضارتهم وثقافتهم الوطنية الخاصة. ولقد عبر زعيم دولة غينيا الجديد في غرب افريقيا، سيكو توري، في سياق رده على خروشوف عن هذا الشعور عندما قال: «لقد انبرت الماركسية عن الشعوب الافريقية، والتي افادت في تحريك حماسهم، خصوصاً الطبقة العاملة، بسبب مواصفاتها والتي لا تطابق الحقائق الافريقية».

ومع ذلك، فقد وجد الزعماء الدعم السوفياتي فعلاً، وقد كانوا نزاعين الى مغازلة المبادىء السوفياتية الدعائية، وخصوصاً لاسباب سياسية. فلقد كانوا

مفتونين بنوع خاص بالفنون اللينينية للأستيلاء والحفاظ على السلطة، ولقد كانت فكرة الحزب الحاكم الهرمي المنضبط محل اعجاب خاص للجيل الجديد من الحكام الراغبين في تخليد لسلطتهم ونفوذهم الشخصي. ولقد ادركوا سريعاً ان الاسلوب العسكري اللينيني في السياسة قد افاد مطلوباتهم جيداً، وفي نفس الوقت سوف يدعم التكييف مع العقيدة السوفياتية ايضاً سلطتهم باعطائها الشرعية التارخيية - وخصوصاً التطور السريع من خلال الاشتراكية - لحكمهم اللاديمقراطي.

ولهذا، فقد دعت وعززت الملائمة السياسية التفضيل الحديث فكرياً لبعض اشكال الاشتراكية كأساس لبناء الامة، والطريق القصير الى التحديث. ولكن هذا الاسلوب لم يستمر طويلاً، وقد اثبت الافتنان السوفياتي انه مرحلي ووقتي فقط. فلقد استثمر الزعماء السوفيات الكثير من الوقت والجهد، في دولتين كبيرتين، هما الهند واندويسيا، ولكن الظروف السياسية المحلية والفطرية قد استولت على هذا الاغراء الشيوعي. فقد حافظ حزب الامة في الهند على المؤسسات البرلمانية، وبقي ملتزماً بنظام اقتصادي مختلط، بالرغم من كل عيوبه ومغازلته الافكار الاشتراكية لـِ هارولد لاسكي (Harold Laski) ، والمدرسة اللندنية للاقتصاديات. اما في اندويسيا، فقد سارعت قلة الصبر عند الشيوعيين الاندونيسيين في التصادم المسلح مع الجيش، والذي افضى الى التصفية الكاملة للشيوعية الاندونيسية.

ولفترة ما بانت افريقيا وامريكا اللاتينية واعدة اكثر لتبني البرامج الشيوعية. فلقد كانت النزعات الراديكالية اكثر كثافة، وذلك عائد الى التمييز العنصري الكامن من تجربة الاستعمار، ومن حقيقة ان تحول التمييز العنصري الى دولة مؤسسات في الجنوب الافريقي، وفي دولة جنوب افريقيا بالذات. ولقد عزز ضعف وقلة التجانس في الهوية الوطنية للشعوب المحررة حديثاً من اهمية المبدأ التوحيدي للزعامات السياسية الجديدة. ولقد لاقت الاعجاب بالتبسيط

الماركسي الكبير اقوى واعظم في الدول التي ارادت القفز الى التحديث بفارغ الصبر، والتي كانت تفتقر الى الفكر القوي، والتقاليد الثقافية لصياغة وتشكيل رؤاها التاريخية الخاصة بها. واخيراً وليس آخراً، وبما ان اكثرية الدول الافريقية اصغر من الهند واندويسيا، فلقد اصبحت فكرة المساعدة الاقتصادية السوفياتية وحتى المحدودة منها اكثر اهمية بشكل ثابت واكيد.

ولهذا فلقد اعتنقت عدة دول افريقية في سنوات السبعينيات، الماركسية كمذهب لها. واعلنت نفسها بانها مشتركة في مرحلة بناء الاشتراكية. لقد ذهبت ستة دول وهي انغولا، موزمبيق، مدغشقر، الكنغو، بانين، واثيوبيا ـ بعيداً الى حد تبني الماركسية ـ اللينينية كنظام ارشادي واكدت على اخلاصها وولائها للخطوط العريضة للتجربة السوفياتية في بناء الاشتراكية. ولقد اصبحت تسع دول اخرى ـ وهي الجزائر، ليبيا، الرأس الاخضر، غينيابيساو، غينيا، برنسيب، ساوتومه، تانزانيا، زامبيا وجزر اليشل ـ انظمة اشتراكية معلنة ذاتياً، بالرغم من التأكيد على مركزية ظروفهم الوطنية الخاصة في التطبيق الفعلي للاهداف الاشتراكية، وتجنب الانتماء الواضح للينينية. ولقد رفعت كل تلك الانظمة الدولة الى مؤسسة مركزية للتغيير الاقتصادي ـ الاجتماعي، وقد نظموا سلطة سياسية حول حزب عسكر وحيد ومسيطر.

ومع ذلك فقد اثبت الواقع انه قاس الى الامال المحلية والسذاجة بعض الشيء والاشتراكية، والى التوقعات السوفياتية. فلقد كانت مستويات المساعدة الاقتصادية السوفياتية غير ملائمة لكي تؤثر على التطور الاقتصادي الداخلي الاكيد. ولقد ادى سوء الادارة، الفساد، والترحيل والذي سببها بتر تمزق العلاقات الاقتصادية مع القوة الاستعمارية السابقة في معظم هذه الدول الى فشل اقتصادي كبير. وبالنتيجة، فلقد انتقلت الدول الاكثر ثراء، مثل ليبيا، والدول ذات التقليد السياسي الاكثر تطوراً، مثل الجزائر، بشكل سريع تجاه تمديد برامج اكثر فطرية للتطور الاجتماعي. فلقد اعادت الجزائر مثلاً، علاقات اقتصادية اكثر تعاونية مع القوة الاستعمارية التي سيطرت عليها سابقاً وهي فرنسا.

اما آخرون فقد تجمدوا، بينما البعض الآخر، وخصوصاً انغولا وموزمبيق، فقد اصابهم الدمار بشكل متزايد وذلك عائد الى الصراعات القبلية، ولقد طلب فريق مساعدة الكتلة الشرقية، وتلقى الفريق الآخر معاونة من دولة جنوب افريقيا.

وبأختصار، فقد ضم السجل الشيوعي في افريقيا بعض النجاح السياسي المحدود، مشوهاً باخفاقات جهازية ظاهرة. فقد كانت المجاعة في اثيوبيا قدر لا مفر منه، والذي ساءه عدم ملائمة وقسوة النظام الآشتراكي، الذي استغل الجوع كأداة لسحق المعارضة الداخلية، ومن جهة اخرى، فلقد تعارض الركود الاقتصادي سلبياً في تنزانيا، الدولة المجاورة على الساحل الشرقي، مع التقدم النسبي الذي قامت به كينيا، الملاصقة لها، والتي تبنت مسار تطور اقتصادي اقل تعنتاً مذهبياً، فلقد نمى الانتاج الزراعي برامج الزراعة الكوميونية الى اخفاق كبير. ولقد ارتفع الناتج القومي الاجمالي في كينيا من عام ١٩٨٠ الى عام ١٩٨٥ بمعدل سنوي قدره ٣,١ بالمئة، بينما ارتفع في تنزانيا بمعدل ٨,٠ بالمئة كل سنة. ولقد ارتفع الانتاج الصناعي في كينيا بنفس الفترة بمعدل ٢,٠ بالمئة سنوياً، بينما انخفض في تنزانيا بمعدل ٤,٥ بالمئة سنوياً. ولقد اندفعت كينيا الى المقدمة في المؤشرات الاجتماعية، مثل موت الاطفال، العناية الصحية والتعليم. ولقد كان آخر اعمال الرئيس الغيني، سيكوتوري على الساحل الغربي قبل وفاته، زيارة قام بها عام ١٩٨٠ لرئيس الولايات المتحدة يلتمس فيها ليس فقط المساعدة الاقتصادية، بل ايضاً الارشاد في التطور الاقتصادي، مستنكراً في نفس الوقت اعتماده المضلل الماضي على السوفيات في السعي لبناء دولة افريقيا اشتراكية.

وعموماً، فقد تشوهت الفكرة الاصلية للتطور الاشتراكي بحلول اعوام الثمانينات، وهي الفكرة التي يمكن تعريف الاتحاد السوفياتي بها، وبذلك يستفيد سياسياً، بشكل متزايد في معظم دول العالم الثالث. ولقد قادت آسيا المسار في التطور الاقتصادي، ولكن باسلوب غير اشتراكي بشكل ظاهر

وواضح. ولقد قدمت تلك البلاد التي اتخذت المسار الشيوعي - وهي فيتنام، لاوس، كمبوديا - الامثلة المثيرة والمذهلة للاخفاق الاقتصادي والاجتماعي. فلا تستطيع فيتنام انتاج غذاء كافي لاطعام شعبها، بالرغم من تلقيها مساعدات سوفياتية بقيمة ٢ بليون دولار سنوياً، مدعيةً بوجود حوالي ٤ ملايين انسان «على حافة المجاعة». ولقد توقف التضخم عند مقدار ٧٠٠ بالمئة. ولقد تخلفت الحكومة عن تسديد دينها الخارجي البالغ ٣ بليون دولار، بينما انخفض الاحتياط الاجنبي الى ما يقارب ٢٠ مليون دولار، واليوم فان القوارب البشرية التي كانت تهرب خوفاً من الاعدامات السياسية او العرقية، فلقد ركبت البحر لأسباب اقتصادية. وبنفس الوقت، فان تايلاند، الدولة اللاشيوعية المجاورة، تتمتع بازدهار اقتصادي. فقد تخطى التايلانديون كل امم جنوب شرق آسيا بسهولة، وقد رتبوا انفسهم للأنضمام الى البلاد الصناعية الجديدة في اعوام التسعينيات، وكذلك عائد الى معدل الناتج القومي الاجمالي الذي بلغ في اعوام الثمانينات معدل حوالي ٥ بالمئة، ويخطط له ان يصل في نهاية ١٩٨٨ الى معدل ٩ بالمئة.

اما في افريقيا، فقد بقيت الجزر الملتزمة بالاشتراكية أما جامدة او تسعى الى التخلص وفك ارتباطها من التزامها الاشتراكي. ولقد كسب التوجه نحو التحول الى القطاع الخاص زخم وقوة دفع في كل من الدول الافريقية تقريباً التي كانت في وقت ما قد سارت في الطريق ذي التوجه السوفياتي نحو اشتراكية الدولة. وبذلك وبعد ربع قرن من الاستقلال، فقد كان العديد من الدول الاشتراكية في العالم النامي اكثر فقراً بمصطلح نسبة الناتج القومي الاجمالي مما كانت في البداية.

ولقد حدث التراجع الافريقي عن الافكار التطورية ذي التأثير السوفياتي على جبهة واسعة. فلقد كان اول عمل رسمي في ساو تومي وبرنسيب، الدولة الصغيرة، حالما حصلت على الاستقلال في عام ١٩٧٠، تأميم مصدر البلاد

الاقتصادي الحيوي وهو زراعة الكاكاو. وبعد عقد واحد، كان رئيسها الذي تدرب في المانيا الشرقية يعلن عن رغبة الحكومة في بيع عملية زراعة الكاكاو الى مالكين خاصين. ولقد كانت تنزانيا التالية في عمل ذلك، وخسرت اهتمامها في الزراعة، واهتمت بالصناعة السياحية والمطاحن. اما في انغولا، فقد كانت الشركات الخاسرة تعرض للبيع للمزايدين الخاصين. ولقد اصدرت انظمة بنين، الكنغو، وغانا، اعلانات مشابهة في اعوام ١٩٨٦ الى ١٩٨٨، وكذلك فعلت بعض الدول الافريقية الاخرى الاقل نزعة اشتراكية. وبالفعل، فقد كان الخطر المتصاعد في ان بعض الدول الافريقية، والتي احترقت من تجربتها للأسلوب السوفياتي في الاقتصاديات، كانت نازعة في هذا الوقت الى ايجاد خلاص سريع في الاسلوب المضاد.

ولقد أثر الاخفاق الشيوعي في افريقيا بشكل حتمي على السياسة السوفياتية. فلقد اصبحت سياسة موسكو تدريجياً اكثر انتقائية، وتعتمد على الاستراتيجية الجغرافية واقل تحريضاً مذهبياً واقل تركيزاً على المساعدات الاقتصادية. ولقد بدأ الاتحاد السوفياتي بالفعل بخفض المعونات الاقتصادية بشكل حاد الى الدول الافريقية المفروض انها اشتراكية مركزةً بدلاً من ذلك على الاهداف الرئيسة في الفرصة الاستراتيجية - مثل انغولا واثيوبيا - والتي كانت مرتبطة بالتنافس الجغرافي السياسي مع الولايات المتحدة اكثر من كونه توقعاً اوسع لانتصار عقائدي في اقليم ما. ولقد دفعت هاتان الدولتان مع ذلك ثمناً عاليا لبقائهما الهدف المستمر لأهتمام السوفيات وذلك ببقاء اثيوبيا واحدة من افقر دول العالم (بناتج قومي اجمالي بلغ بالنسبة لعدد سكانها ١١٠ مليون دولار فقط)، ويتمزق انغولا بسبب الحرب الاهلية بمساندة فرقة عسكرية كوبية تقدر بخمسين الف رجل يمولها ويدعمها الاتحاد السوفياتي.

لقد استمر التوجه السوفياتي نحو الانتقائية الجغرافية، وقد تسارعت في اعوام الثمانينات، وقد تزامن الانشغال السوفياتي بالاصلاحات الداخلية مع

التشاؤم السوفياتي التاريخي بالنسبة الى التوقعات على المدى القصير للشيوعية العالمية. ونتيجة لذلك فقد كان الخبراء السوفيات بحلول منتصف الثمانينات قد بدو يشجعون التابعين لهم بالدخول وادماج انفسهم في الاسواق العالمية، وذلك لحل مشاكلهم الاقتصادية، وجذب الاستثمار الخارجي الاجنبي، معلنين بذلك بوضوح، ان الاتحاد السوفياتي لم يكن على وشك ان يدفع ايصالات تطورهم. وبذلك يكون التصادم الافريقي مع الشيوعية قد ولد وانتج خيبات إمل مشتركة.

اما في امريكا اللاتينية، فلقد برهنت التجربة الشيوعية ايضاً انها مخيبة للأمال بالنسبة الى تطبيق الماركسية. فلم يتطور وينمو الوضع هناك لا نظرياً ولا حتى بالممارسة، بالطريقة التي توقعها السوفيات والشيوعيون في امريكا اللاتينية. فاستراتيجياً، لقد قدمت الانتصارات الشيوعية في كوبا في اواخر الخمسينيات، وفي نيغاراغوا في اواخر السبعينيات اختراقات هامة. لأنه بذلك قد اقامت الشيوعية وكسبت موطىء قدم لها في نصف الكرة الغربي، ودعمته. ولقد كان وهن وضعف السلطة والقوة الامبريالية الغالب والثابت في مواجهة هذا التحدي تطوراً ملحوظاً وهاماً ولا يمكن انكاره تاريخياً. ولقد اظهرت هذه الانتصارات انه يمكن انشاء انظمة بدعم سوفياتي تحت انف اعظم قوة رأسمالية في العالم، والتي تفسد ضمنياً ان تكون الخطوة الاولى في السعي والمطلب الاوسع للتحول الثوري لكل امريكا اللاتينية كاملةً.

ولقد بدا ان الاوضاع الخاصة للمنطقة قد بررت التحول الثوري، وخصوصاً العلاقات الصعبة اقتصادياً مع الجار الشمالي القوي، وكذلك ملائمة المذهب الماركسي التقليدي الواضحة لظروف المنطقة الاقتصادية ـ الاجتماعية. ولقد اقتربت امريكا اللاتينية المعاصرة بشكل واسع من الظروف التي اوعزت وسمحت بظهور التفسير الماركسي الاولى، مع ان اي كسب ساحق للمبادىء العامة بالنسبة الى قارة كانت مختلفة بشكل كبير يتطلب عدة مؤهلات. فلقد كان

اقتصادها الريفي قد بني على نظام الاقطاع بشكل واسع، والذي يعتمد فيه اصحاب المزارع والعزب الكبيرة على عمل الفلاح من غير اصحاب الاراضي. ولقد احتوت وضمت المراكز المدنية المتوسعة حشوداً من العاطلين عن العمل، والفلاحين العاملين الذين لا مساكن لهم، مظهرة طبقة وسطى متزايدة مؤكدةً سياسياً، وطفيلية اجتماعياً، ولكن مظهرةً ايضاً في الغالب نخبات بيروقراطية عسكرية مهيمنة سياسياً. ولقد كان تطور هذه القارة غير متساوي، متضمناً في بعض الحالات امثلة عن الابداع الصناعي والتكنولوجي فردية، وفي الغالب قطاع ريفي جاهل، وبدائي. ولقد كانت قابلية الخضوع للعديد من اقتصاديات هذه القارة لتقلبات اسواق السلع العالمية، وكذلك المديونية الساحقة، والتي نتجت من دفق الدولار النفطي في اعوام السبعينيات قد تشابك وعقد من صعوباتها. واخيراً فقد وضع التفجير الديمغرافي، بوجود واحد من اعلى معدلات النمو السكاني في العالم الابنية والهياكل الاجتماعية القائمة تحت ضغوط كامنة هائلة ومدمرة.

ولهذا، فقد وجد على وضع ثوري ماركسي تقليدي ان يظهر في العديد من دول امريكا اللاتينية على الاقل، وعلاوة على ذلك، فلقد وجب تزويد الزخم العاطفي والفكري بمقوم اضافي متضطرد وغريب عن امريكا اللاتينية. ألا وهو مناهضة ومعاداة المنطقة المتوترة والمنتشرة نسبياً لامريكا. ومع ان هذا الشعور قد اختلف في كثافته من دولة لأخرى، ومع ان المكسيك، وكوبا ودول امريكا الوسطى فقط هي التي كانت ضحية مباشرة للسياسة التوسعية، والتدخلية الامريكية، فقد كانت المجتمعات الامريكية اللاتينية كلها شكوكيةً، وخصوصاً بين المفكرين والطلاب، بهذا المنظور المناهض لأمريكا والذي اختلط ومزج بين الوطنية والماركسية. ولقد كان ينظر الى الولايات المتحدة على انها ليس فقط توسعية، واستكشافية ومستبدة، بل ايضاً شديدة ثقافياً وحضارياً، ومبتذلة، ومادية فجة. ، ولقد كانت الصيغ الحديثة المعادية لأمريكا مذكرة، عند واضعي الفكر، بالاراء والنظريات التي هيمنت قبل عدة عقود على صالونات الجناح

اليساري في باريس.

ولقـد عبّـر شيّ جيفارا، وهو الشخصية الاكثر سحراً وفتنة في كل القارة الامـريكية عن هذا الشعـور بالمعنى الاكثر ثوريةً، والذي اعلن ان الولايات المتحـدة هي العـدو الكبير للبشـرية. ولقد اصبح جيفارا، متفوقاً على فيدل كاسترو، رمز الثورة في اواخرالستينيات واعوام السبعينيات، والذي حسب رأيه، يجب ليس فقط ان يكون اجتماعياً، بل ايضاً وحتى تنجح، معادٍ لأمريكا. ولقد شعر جيفارا، بعد نجاح الثورة في كوبا وبتواصل مضني في العمل، ومقتنعاً بامكـانية ثورة اقليمية متـوسعـة في ذلك الوقت، ان اللحظة لأستغلال هذين الحافزين عسكرياً، سانحة ويانعة. ولقد كان كل ما هناك من عوائق، ان امركيا هي التي كانت تدعم هذا الامر الواقع وتستثمره، وذلك حسب رأيه. وبذلك، فيجب ان يوضع تركيز اي نضال وصراع ثوري من البداية ضد العدو الرئيسي. وقد كانت هذه المقولة هي المبدأ العام للثورة الرومانسية الخيالية، والتي كانت جارية وقائمة في تلك السنوات في بوليفيا، وفنزوويلا، وفي دول اخرى، لكن على نطاق اضيق.

ولقد خمد الحماس الثوري بعض الشيء، عندما اعتقل جيفارا، واعدم في بوليفيا عام ١٩٦٧، لأن لا السوفيات ولا حتى كاسترو قد شاركوا جيفارا في رومانسيته الثورية. وذلك لأن الاثنين كانا مصممين، لأسباب جيدة وذاتية، بدعم وتعزيز قبل كل شيء قاعدة شيوعية جديدة في الفلك الغربي قبل المخاطرة بكل شيء في السعي الى ثورة عارمة. ولكن من جهة اخرى، فقد استمرت شرعية اتهام جيفارا للولايات المتحدة، وارتباطه في الثورة الاجتماعية في الصراع ضد الـولايات المتحـدة، في تأثيرهـا السياسي، وصـاغت وشكلت القـاعدة لأي استراتيجية طويلة الامد، لتقدم الشيوعية في امريكا اللاتينية.

ولقد تلقت شرعية جيفارا، لفترة وجيزة، وكذلك الامال السوفياتية، نفحاً سياسياً فاعلاً وقوياً للنشاط من خلال ظهور «النظرية التحريرية اللاهوتية» وهي

مبدأ مزج الوصف والتعريف الماركسي مع شرور الرأسمالية والشفقة المسيحية للمضطهدين. فلقد جسدت الرأسمالية الامريكية مرة اخرى، الشر الذي كان يجب ان يُباد. ولقد انشأت، بالنسبة الى النظرية، ظرف «الاتكالية والتبعية» لأمـريكـا اللاتينية، والذي بدوره ادام التفسخ الاجتماعي والشخصي لشعوب امريكا اللاتينية المسلوبة القوة. ولقد اشتق هذا المبدأ اسمه من الكتاب الاكثر مبيعاً الذي كتبه الاهوتي الكاثوليكي «جوستافوجو تييريز (Gustavo Gutierreze) ، تحت عنوان «نظرية لاهوتية التحرير» (A Theloogy of liberation) والذي نشر في عام ١٩٧١، والـذي جذب اقـوى العـواطف الايجـابية في قارة تكتنفها المشاكل الاجتماعية، والتي تجرعت بالشعور المعادي القوي لأمريكا والتي تسيطر عليها روحياً الكنيسة الكاثوليكية. وكما وصفها جوتييريز لأمريكا اللاتينية، «ان كلمة تحرير تلائم اكثر وتناسب المضغوط والخاضع من كلمة تطور. . وبالنسبة الى العديد في قادتنا، فان هذا التحرير سوف يمر بدون شك، آجلا ام عاجلاً، من خلال مسارات العنف».

ولقـد زودت النـظرية التحريرية اللاهوتية بهذا الاسلوب التبرير المعنوي للعنف الثوري. وبذلك فقد أُقيم جسر اتصال بين الشعور المسيحي المعادي للشر، والدعوة اللينينية للأعمال الثورية المنضبطة. ولقد طبق هذا الشعور في سياق الاهتياجـات الثـورية في نيغـاراغـوا والسلفـادور، حيث خدم الكهنـة الـراديكـاليون والشيوعيون الملتزمون يداً بيد، وتشاركوا بشكل واسع، وقاعدة عريضة في فكرة ان العمل الثوري لم يكن فقط اندفاع وقوة معنوية، بل ايضاً وفعلاً واجباً معنوياً. ولقد اتضح هذا الشعور على ابسط مستوى شعبي، من خلال قصة سردها لاهوتي تحرري آخر، خوسي ميكييز بونيو (Jose Miguez Bonino) عن تمثيلية لعبت في كنيسة بروتستانتية في مدينة الاكواخ اورجويان (Uruguayan)

فلقد سأل احد الممثلين «من هو اذن يسوع المسيح»؟ فاجاب الآخر، «بالنسبة لنا، يسوع المسيح هو شيّ جيفارا»!

ومن الملاحظ جداً عدم نجاح الجهود الشيوعية في تقدم العملية الثورية، بالنظر الى التوازي التصادفي للمبدأ الماركسي والنظرية اللاهوتية التحريرية، والذي يغذي هذين المبدئين المشاعر المعادية لأمريكا، في وضع يسيطر عليه التعهد المادي لجماهير امريكا اللاتينية، والذي ادامه ليس فقط البناء الاجتماعي المميز، بل ايضاً ازمة اقتصادية دائمة تقريباً. ولا يدحض انشاء انظمة ماركسية لينينية في كوبا ونيغاراغوا هذا الاستنتاج. فالحالة الاولى كانت في جزيرة معزولة في البحر الكاريبي والتي كانت فعلياً من اكثر مجتمعات امريكا اللاتينية تطوراً، عندما استولى الشيوعيون على السلطة. والحالة الثانية، كانت في احدى دول امريكا الوسطى الصغيرة ذات الغالبية الفلاحية. ولقد حفز وحث على هذه الثورة في هاتين الدولتين ذكريات التدخل الامريكي المباشر. فقد كانت الذكريات الوطنية مصدراً اكثر اهمية للراديكالية السياسية من النداء والاعجاب بالماركسية، ولقد كانت الاخطاء الامريكية، مترافقاً مع التردد وفقدان البعد السياسي المتماسك هي التي اجازت ودعمت الشيوعية في كلا البلدين.

ومع ذلك، فقد وجب على الشيوعية ان تحرز تقدماً سياسياً اضافياً في اماكن اخرى، مستغلة الازمة الريفية والمدنية المتضمنة في عملية بداية تصنيع القارة. وبالنظر الى المبدأ الماركسي، فقد وجب على هذه المرحلة من التطور الاجتماعي ان تفرز طبقة المتناقضات الاكثر حدةً، والتي يجب ان تكون سريعة التأثير وقابلة لأستثمار الحزب الشيوعي. ومع ذلك، فلم يحرز اي نشاط شيوعي، قانوني كان ام غير قانوني، اي اختراق او نجاح سياسي. فلقد فشلت المحاولات والاعمال العسكرية، في الريف كانت ام في المدن، بينما كثفت الدقرطة التدريجية لسياسات امريكا اللاتينية عن محدودية الافتتان والاعجاب الانتخابي للشيوعية.

ولقد كانت افضل نتيجة حصل عليها الشيوعيون في آخر اربعة عشرة عملية انتخاب جرت خلال اعوام الثمانينات (وفي بعض الحالات كانوا ينافسون بواسطة

احزاب لم توصف رسمياً بالشيوعية)، ٢٦ بالمئة من الاصوات في البيرو، و١٧ بالمئة في جويانا (Guyana). ولقد كانت قوتهم الانتخابية في البلاد الرئيسية، مثل الارجنتين، والبرازيل، في الطرف الاسفل للسلم، بالرغم من تنافس حزبين شيوعيين في البرازيل، الاول تابع للسوفيات، والآخر مؤيد لالبانية، (ولقد حصل هذا الاخير على انقلاب انتخابي بحصوله على اكبر مجموعة من الاصوات الفردية، وذلك عائد للأعجاب باحدى مرشحاته د. جانديرا فنيسالي (Jandira Fagnali)، والتي تمثل رمز الاغراء الجنسي في لباس البحر البكيني على شواطىء «كوباكبانا». اما في الانتخابات التي قادوها بأنفسهم، فقد حصلوا على نتائج افضل من ذلك بكثير، فلقد زعموا انهم حصلوا على ٦٣ بالمئة من الاصوات في نيغاراغوا، وعلى ١٠٠ بالمئة في كوبا.

ولقد اختفت عدة اسباب وراء الفشل الشيوعي. فلقد تبنت الولايات المتحدة في السنوات الاخيرة اسلوباً اكثر اشراقاً تجاه امريكا اللاتينية، وخصوصاً بتقديم نفسها كمدافعة عن حقوق الانسان. ولقد ساعد هذ اليس فقط في قضية تقدم الديمقراطية، بل لقد ابعدت ايضاً الولايات المتحدة عن الدكتاتوريات اليمينية الشخصية المنازعة. ومع ذلك فقد العامل الاكثر اهمية هو ظهور القوة الديمقراطية المحلية، والتي كان بمقدورها خلط مطالبتها بالحرية الشخصية مع الدعوة الى اصلاحات اجتماعية ضرورية. ولقد ساعدت عودة الديمقراطية الى عدة دول رئيسية في امريكا اللاتينية في خلع وفك الاعجاب الثوري. ونتيجة لذلك، فقد بدأ بعض اللاهوتيين التحرريين الراديكاليين بتعريف التغيير الاجتماعي بالقيم الديمقراطية، معتبرين ان هذه القيم تلائم طموحاتهم الثورية، ورافضين بنفس الوقت النظرة الشيوعية المانوية (Manichaean).

ولقد ساهم التأثير الساحر للبابا الجديد، يوحنا بولس الثاني، وكذلك التراجع الظاهر للانجذاب نحو «الاشتراكية» بالأسلوب السوفياتي، في التغيير التقليدي للحالة النفسية. ولقد ابدا قداسته ملاحظة هامة في سياق زيارته لأمريكا

اللاتينية في كانون ثاني عام ١٩٧٩ قائلاً: «آه نعم، نظرية لاهوتية تحريرية، ولكن اي نظرية لاهوتية تحريرية هذه»؟ ولقد عرض بهذه الملاحظة المشهورة الآن، استعادة احتكار النضال الروحي للكنيسة ضد شرور المجتمع، سالباً ومعرياً النظرية اللاهوتية التحريرية من اتصالها وارتباطها بالماركسية. ولقد قام البابا يوحنا بولس الثاني بخطوات واسعة لا يمكن انكارها، من خلال التعاليم والمنشورات البابوية اللاحقة، في تعديل وتكييف تحالف الامر الواقع بين الاندفاع المعنوي لأعادة بناء راديكالي لمجتمعات غير عادلة مع تطور ورفع التعددية والتغيير الديمقراطي الاجتماعي. وكان لهذا الامر في منطقة ثرية بالتراث الكاثوليكي تأثيره السياسي الملحوظ. فلقد عزز وثبت شرعية التعددية الديمراطية، والغى شرعية رسالة الماركسية.

ولا يجب في نفس الوقت التقليل من تقدير التأثير السياسي للأزمة السوفياتية الداخلية ايضاً. فلقد فقد النموذج السوفياتي مصداقيته بسرعة في اواخر السبعينيات. ولقد زودت ادانات غورباتشيف بالتالي للأحباطات السوفياتية تأكيد اضافي للأنتقادات الخارجية الشديدة الحساسة للتجربة السوفياتية. وعلاوة على ذلك، ومع كون حكمة الطبقة المثقفة في امريكا اللاتينية التقليدية المرعبة في تلك المنطقة قابلة ومتمثلة للنظريات والافكار المنبعثة والمنبثقة من باريس، فقد قطع ظهور اجماع جديد في السنوات الاخيرة في فرنسا على ان الاتحاد السوفياتي كان يمثل التطور الاجتماعي الجامد والمتوقف، وان دولته الاشتراكية كانت مختنقة فكرياً، اغراء وفتنة الشيوعية.

ولقد ساهمت الحالات الخاصة لكوبا ونيغاراغوا في التحرر من سحر الشيوعية. فلقد اصبح اهل امريكا اللاتينية اكثر ادراكاً، بعد زوال الاهتياج الاولي للحماس لأثبات فيدل كاسترو الذاتي المعادي لأمريكا، للاحباط والفضل الاقتصادي والاجتماعي الفعلي للثورة. ولقد تجمد الاقتصاد الكوبي، بالرغم من المساعدات السوفياتية الجانبية السنوية والتي تقدر بخمسة مليارات دولار،

بفشل كل القطاعات الاقتصادية الفعلي للوصول الى اهدافها الانتاجية. ولقد اعلن كاسترو عن الغاء دفع حوالي ٣,٥ بليون دولار من ديون كوبا الخارجية، وطلب باعادة جدولة ديونه لاثني عشر سنة جديدة مع ست سنوات فترة سماح. ولقد اصبح اعادة تصدير البترول السوفياتي، والتي كانت هافانا تأخذه من الاتحاد السوفياتي باسعار مساعدة واعانية، وتعيد بيعه بالاسعار العالمية، احد اهم مصادر كوبا للعملة الصعبة. وبنفس الوقت، فلقد اجبرت كوبا على شراء مئات الالاف من اطنان السكر من الاسواق العالمية للأيفاء بحصتها السنوية بالسكر في المجموعة الاقتصادية للكتلة الشرقية، وذلك لتخلف انتاج السكر كثيراً عن الاهداف الانتاجية.

ولقد نتجت هذه الكارثة الاقتصادية من اصرار كاسترو بالالتزام بالمخطط الستاليني الرأسي. فان بيروقراطية منفوخه بـ ٢٥,٠٠٠ انسان، تدير الآن الاقتصاد بقوة عائلة تقدر بحوالي ثلاث ملايين انسان فقط. ولقد استنكر كاسترو في خطاب رئيسي في المؤتمر الثالث للحزب عا ١٩٧٩ سلسلة من النماذج الاقتصادية الشيوعية اللامنطقية.

«اقامة منشآت صناعية وزراعية في مناطق غير مأهولة دون ايجاد وبناء تسهيلات اسكانية للقوة العاملة؛ وتخطيط برامج زراعية غاية في الاهمية ـ مثل الحمضيات ـ بينما لا يزال يُشاهد مناطق دون ري، ومشاريع ري والتي لا يمكن وضعها في العمل بسبب فقدان تسهيلات الضخ، أو الطاقة الكهربائية؛ ومشاغل ومنشآت أخرى بنيت دون وصل كهربائي؛ وتوسيعات اسكانية بدون وجود اسباب الراحة المدنية (مثل الطرق، التجارة، وتسهيلات استجمامية).. ويوجد لدينا وضع سكة الحديد، والتي استثمرنا بها مئات الملايين من البيزيتا، بدون ان نكون قادرين على استخدامها بفاعلية بحيث ان الاشارات، مناطق التحميل والتفريغ والمحطات وغيرها لا تزال غير مكتملة البناء».

ولقد اخبر كاسترو اللجنة المركزية في وقت لاحق بانه قد الف كتاباً عن

«الشذوذيات الاقتصادية» (Economic Irregularities) والذي «كل فقرة فيه تعتبر كارثة».

وقد كان الحال متشابهاً جداً في نيغاراغوا. فقد اوجدت عدم كفائة القادة الساندينستيين الاقتصادية، وعسكرة الدولة حالة من الحرمان تعادل وتشابه حالة ايام الحرب. فلقد وصل ثمن صفيحة شطائر التفاح المستوردة ما يقدر بعشرين بالمئة من راتب شهر من معدل الدخل العام في نيغاراغوا. وغير ذلك، فان الحياة تنقطع في يومين من الاسبوع، وقد اصبح التعتيم اليومي لمدة ثلاثة ساعات امراً طبيعياً. وايضاً فقد ارتفعت المديونية الخارجية من ١,٦ بليون دولار الى ٧ بليون دولار، وارتفع التضخم الى معدل ١٨٠٠ بالمئة تقريباً مع هبوط حقيقي في الدخل وصل الى ٩٠ بالمئة، ولقد تنبأ الاقتصاديون بتضخم مفرط سوف يصل الى عشر الاف بالمئة في عام ١٩٨٨.

ولقد كان الامر الاكثر سخطاً الادراك السريع الانتشار في اواخر السبعينيات، وبداية الثمانينات لسجل كوبا البشع في مسألة حقوق الانسان. فقد وجد في هذه الجزيرة عدداً من السجناء السياسيين يضاهي كل ما تستطيع دول امريكا اللاتينية ان تقمعه وتسجنه مجتمعة ولكن ليس الى ما لانهاية، مع ان الواقع ان عدد سكان هذه الجزيرة لا يتعدى العشرة مليون نسمة. ولقد كان للروايات الشخصية لسوء المعاملة الفردية في السجون الكوبية - وخصوصاً قصة ارماندو فلاداريز (Armando Valladares) الشخصية المتهورة والتي تسرد تجربة سجنه لمدة عشرين عاماً، بعنوان «ضد كل امل» (Agaist All Hope) - تأثيراً واسعاً. فقد حطت هذه الروايات من منزلة كاسترو الرفيعة، وعززت من صورة الشيوعية كونها نظام قمعي ومنتهك لحقوق الانسان في النهاية. وقد كان للأهتمام المتزايد لأنتهاكات كوبا لحقوق الانسان تأثير خاص على الدوائر المعنوية الحساسة والتي تسيطر عليها النظرية اللاهوتية التحريرية، مساهمةً في عمل عزلٍ سياسي وفكري اضافي للماركسية.

وبالنظر الى سلم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الضخمة في امريكا

اللاتينية، فان المستقبل السياسي لهذه المنطقة بعيداً جداً عن الحل. فالمنطقة واقعة تحت تغييرات ثورية والتي تتجه الى فرز ثغرات وفجوات فجائية، واهتياجات وثورات رئيسية. ومن الممكن ان يكون لدى الشيوعية توقعات واحتمالات افضل في المستقبل القريب في امريكا الوسطى، ومن المحتمل المكسيك ايضاً، اكثر من اي مكان آخر. فان الماركسيين ـ اللينيين يستطيعون ان يحصلوا على الافضلية من الحوافز والدوافع الراديكالية، والوطنية ـ المعادية للولايات المتحدة عند قسم كبير من الطبقة المثقفة والفلاحين. ومن المحتمل ان رفع وظهور العصيان والتمرد في السلفادور ان يكون مضاعفاً في نشاطات فدائية في هندوراس وجواتيمالا، الدول المجاورة. فالظروف المفضلة للثورة موجودة في هاتين الدولتين. ولقد حرك فشل الولايات المتحدة في مسايرة او خلع نظام الساندنستيين في نيغاراغوا، والذي تزامن مع سوء ادارة العلاقات الناتجة مع بنما، الشعور الواسع في امركيا الوسطى بان تأثير الولايات المتحدة يتراجع، وانه يمكن ملء الفراغ بانظمة اكثر راديكالية، تتمتع بالحماية السوفياتية، ضد تدخل الولايات المتحدة.

ولذلك، فمن المتوقع ان الاتحاد السوفياتي وكوبا سوف تشجعان التوجهات الثورية في المنطقة. وسوف يفعلون ذلك بحذر، لأنهم يدركون الحساسيات الامريكية في هذا المجال، ولكنهم من غير المحتمل ان يتجاهلوا هذه الفرص الثورية المغرية، لأن ثورة في امريكا الوسطى متوسعة سوف تمنح الاستمرارية، والشرعية التاريخية لشعور كاسترو في مهمته التاريخية اما من وجهة النظر السوفياتية، فسوف تفيد هذه العملية بالارباك الجغرافي للولايات المتحدة، منافسه الرئيسي، بينما تنعش بنفس الوقت بتفاؤل موسكو المذهبي الواهن والضعيف. وعلى اي حال، من المؤكد ان الاستراتيجيين السوفيات ينظرون الى تلك المنطقة وكأنها منطقة ما تحت الحزام في الجسد الامريكي، ومن غير المحتمل ان يقاوموا اي محاولة او اغراء في تهييج لهيب المنطقة الثوري.

ومن المحتمل ان تثبت المكسيك على ان تكون الهدف الرئيسي. ويعتمد ذلك كثيراً على اذا ما سوف يقود ضعف الحزب الثوري الدستوري الحاكم الى تعددية ديمقراطية، او الى الاستقطاب العقائدي. فلقد استطاع هذا الحزب خلال عدة سنوات، ومن روابطه الرمزية النموذجية مع الثورة المكسيكية الاصلية، ان يستولي ويحتل على الفتنة والاعجاب الشيوعي. ويتوقع المرء ان يناضل الشيوعيون المكسيكان، وذلك بوجود معارضة يمينية ويسارية تتحدى الحزب الدستوري الثوري، لأستقطاب سياسيي البلاد، بأمل ان يسيطروا على اليسار المكسيكي وان يقوده الى اتجاهات اكثر راديكالية ومعادية للولايات المتحدة ايضاً.

ولقد شهد على هذا الخطر الحقيقي نتائج الانتخابات الرئاسية في المكسيك عام ١٩٨٨. فلقد حصل الجناح اليساري المنفصل للحزب الدستوري الثوري على ٣١ بالمئة من الاصوات على اقل تقدير (ومن المحتمل جداً انه قد حصل على اكثر من ذلك)، وبالرغم من خسارته امام مرشح الحزب الرسمي، ولقد حصل على هذا برفع الشعار العقائدي، والذي يتضمن بوضوح نبرات ومعاني ماركسية ـ لينينية. ومن جهة اخرى، فقد تضمن برنامج الحركة المعروفة باسم الجبهة الوطنية الديمقراطية صيغة هي ان «المادية الجدلية، والمادية التاريخية، والاقتصاديات الماركسية السياسية، والاشتراكية العلمية، والشيوعية، هي كلها اجزاء من علم الماركسية ـ اللينينية التقليدي المتكامل، والتي بتطبيقها الابداعي والخلاق، سيكون في مقدورنا فهم وادراك دور الطور الاجتماعي في تاريخ المكسيك بدقة.. ويعزو جميع اعضاء جبهة كارديناس (Cardenas) لاعادة البناء الوطنية الى الاهمية الكبيرة لدراسة الماركسية ـ اللينينية...» ولقد هدفت هذه الصيغ الى صهر ودمج المشاعر العارمة المعادية للولايات المتحدة مع الافكار الشيوعية التقليدية. وتُنذر احتمالية الاستيلاء الشيوعي على السيار التقليدي بتحدي حقيقي في سياق ان النظام المكسيكي السياسي القائم يبدأ في التشظي والانكسار.

ولذلك فمن المحتمل ان يكون في مقدور الشيوعية في امريكا الوسطى، ومستقبلاً في المكسيك ايضاً، من ان تقرع بقوة على المشاعر الشعبية المعادية لأمريكا، من خلال جهد متجدد لعنف ثوري. ولكن من جهة اخرى، فمن المحتمل ان لا تعكس النشاطات الثورية في الجنوب، في السنوات القادمة، الماركسية ـ اللينينية التقليدية عقائدياً أو تنظيمياً، بل من المحتمل ان تعكس مبادىء ثورية محلية اصلية. ومن الممكن ايضاً ان البعض ـ مثل حركة الطريق المضيء في البيرو ـ ان تسعى الى تكييف الماركسية والماوية مع الطموحات الفلاحية الهندية المسيحيحة الراديكالية، والتي ابتلت بها الارجنتين واوروغواي خلال السبعينات. ولكن ان ما يظهر فعلياً والاكثر احتمالاً ان اي انتصار تقليدي مذهبياً وذو اهمية تاريخية في قارة امريكا اللاتينية سوف يتجنب الشيوعية.

الفصل العشرون
الانحلال العقائدي العالمي

لقد كان الاتحاد السوفياتي والصين في ازمة عقائدية عميقة جداً، وذلك من الناتج المتراكم لفقدان الشيوعية للاندفاع الثوري، ولعدم تناسبها الظاهر مع سياسات العالم المتقدم، ولفشلها من الافادة من المعاضل الاقتصادية ـ الاجتماعية في العالم الثالث، وكذلك من الصعوبات والعوائق في ايجاد انظمة شيوعية فاعلة ومتحدة في الظروف، ومختلفة مثل الانظمة الموجودة في اوروبا الشرقية. ويمكن تخفيض جوهر هذه الازمة الى ضرورة الاختيار ما بين النقاء والاتحاد المذهبي.

ولقد أصبح القادة السوفيات، والذين اعتبروا انفسهم لسنوات طويلة انهم اسياد الحركة، والمفسرين للعقيدة، مدركين تدريجياً انه يمكن السعي ان الصفاء العقائدي فقط من خلال النزاع الطائفي بين الاحزاب الشيوعية. وسوف يعني الاصرار على الصفاء حتمياً انتهاء الوحدة العقائدية. ومن جهة اخرى، فانه يمكن المحافظة على هذه الوحدة على حساب الصفاء العقائدي، مع تخفيض المذهب العام الى اقل درجة من التمييز والخصوصية. ولقد اختار الزعماء السوفيات في الكرملين الوحدة، مفضلينها على الصفاء العقائدي، بشكل لا مفر منه، وذلك بسبب التراجع الاحتمالي بعض الشيء بإيمانهم الخاص، ولضعف ووهن تمسكهم المؤثر على أي حال، على الحركة العالمية.

ولقد فعلوا ذلك بعد مقاومة وتردد استغرق سنوات عديدة. ولقد حاولوا في

مرات عديدة ان يعودوا بالزمن الى الخلف، وقد سعوا الى اعادة انشاء تقليد متشـدد ومشتـرك بتعـريفهم وتفسيرهم الخاص. ولكن كانوا في مرة يخوضون متذمرين مع مواجهة المقاومة، والخوف من انقسامات وتفسخ جديد. وفي سياق هذه العملية، لم يخفف المذهب فقط بل تشظى وانكسر ايضاً بشكل متزايد في النـظرية والممـارسة. ولقد اضمحل واندثر التطبيق الشيوعي في الماضي مفسحـاً الـطريق للمـذهب العملي المبني على مركـزية ظروف وطنية خاصة ومختلفة. ولقد اصبح الذي كان في وقت ما يُعتقد انه عالمي، شيئاً استثنائياً بشكل متزايد.

ومن المحتمل ان هذا هو المصير المحتوم تاريخياً لمذهب اعلن نفسه انه يضم المواصفات العالمية عالمياً للخلاص الاجتماعي، حالما بُدء في تطبيق ذلك المذهب على اوضاع وطنية خاصة. وقد كان يجب ادراك ومسايرة الظروف الاجتماعية والسياسية الاستثنائية، مخافة ان يُرفض المبدء كونه غير مناسب ابداً. ولكن من جهة اخرى، فلقد عملت كل تسوية مع الواقع المختلف ضمنياً على تحـويل وتفسير المـذهب، وعلى رفـع وتـرقية الافضليات أو الظروف الوطنية المختلفة الى مبادىء مذهبية. وعلاوة على ذلك، فلقد وضع التعقيد المطلق لدمج مجتمع ما بعد الصناعة، ومظاهره الملحوظة والمتأثرة من العلم المتفوق والتقنية العالمية، عملية التبسيط الكبير، والتي كانت في وقت ما مفيدة سياسياً للماركسية ـ اللينينية، موضع الشك والريبة. ولقد اصبح يُنظر الى هذه المبادىء على انها اوضاع محدودة وضيقة مرتبطة بأصولها وجذورها الروسية بشكل خاص، هي التي أرختها، وحددت ظروفها.

ومع ذلك، فلقد كانت عملية الانحلال والتفسخ المذهبي امراً لا شك فيه، ولقد تسارع ايضاً من خلال جور وسوء البيروقراطية، وعدم الملائمة العقائدية، والحساسية السياسية لمذهب المعلمين السوفيات. فقد كان الزعماء السوفيات يصرون منذ بداية ايام اللينينية الى ما بعد موت ستالين، ليس فقط على تفوقهم

العقائدي، بل ايضاً على الاخضاع السياسي العملي للاحزاب الشيوعية لمصالح الاتحاد السوفياتي. ولقد ولد هذا وافرز انتقادات واستياءات سياسية، والتي كانت متوجهة الى الانفجار العلني عند اول اشارة للتراخي السوفيات. ولقد كان فشل السوفيات في قمع هرطقة تيتو، اول علامة على احتمال ان الاتحاد السوفياتي لا يستطيع ان يؤكد ويثبت سيطرته وهيمنته المذهبية بشكل كامل، وانتشرت عدوى هذه الهرطقة بسرعة اكبر وبشكل علني بعد موت ستالين عام ١٩٥٣.

ولقد شهدت الخمس وثلاثون سنة التالية سلسلة من الجهود المؤخرة للقادة السوفيات للحفاظ على التقليد الشيوعي والوحدة. وكان على الكرملين القتال على جبهتين. الاولى، القتال على جبهة الاحزاب الحاكمة الاخرى والتي انتقدت محاولات موسكو لغرض تشكيل جهازي، اثناء عملية البناء الفعلي للشيوعية، والثانية القتال على جبهة الاحزاب الطامحة الى السلطة، والتي اعاقها التراث الستاليني سياسياً، والتي كانت تميل الى ادانة هذا التراث اكثر من موسكو. ولقد كان التراجع على الجبهتين هو القاعدة. فقد عتّم الانقسام مع اليوغسلاف، والذي بالكاد قد سوي في اواسط الخمسينات، على الصراع التالي الحاد والعنيف والكبير مع الصين، بينما قاد الحزب الشيوعي الايطالي المستقل، من خلرج الكتلة الشيوعية، المسيرة ليس فقط باتجاه التعديلية، بل ايضاً الى المغازلة، والانجذاب مع الديمقراطية الاجتماعية.

ولقد حثت الرغبة السوفيات بطمر الفجوة مع الصين، ولتجنب فجوات اخرى مع احزاب حاكمة اخرى، الى حتمية تنازل الحزب السوفياتي عن زعامة عقائدية رسمية سابقة، ولقد حفز المطلب السوفياتي كذلك لوحدة ماركسية عالمية اوسع الى ان يتسامح السوفيات مع تقبل الحزب الشيوعي الايطالي لوجهت النظر الاجتماعية الديمقراطية، والتي تضم واقع الرفض لمبدأ اللينينية. ولقد اختار الكرملين هذا المسار كأهون الشرور، عارفين ومدركين جيداً جداً،

ان التوكيد الذاتي الصيني كان متجهاً الى ايجاد الدعم الضمني في العواصم الشيوعية الاخرى، وان نموذج عمل الحزب الايطالي قد تلقى الدعم والموافقات من الاحزاب الشيوعية البعيدة المنال، مثل الحزب الياباني عام ١٩٧٦ والحزب الاسباني عام ١٩٧٨.

ولقد شجعت المرونة السوفياتية المتأخرة على الانحلال والتفسخ الاضافي للمذهب. فلقد اسقط الشيوعيون الايطاليون الزام الاعضاء لدراسة الماركسية ـ اللينية من برنامج حزبهم عام ١٩٧٩، ولقد تخلوا ايضاً رسمياً عن المبدأ اللينيني لمركزية الديمقراطية والذي كان مقدساً ومبجلاً في وقت ما. ولقد سلك الصينيون طريق استعادة علاقات حزبهم مع اختلاف الاحزاب الشيوعية الحاكمة وغير الحاكمة، مستنكرين بنفس الوقت اي تحالف شيوعي على مبدأ «قسوة وصلابة العقيدة والنماذج المؤذية»، رافضين صراحةً وجود اي «زعامة مركزية» او أي «حزب قائد».

وبالنتيجة، فقد تخلى الكرملين في الثمانينات عن كلٍ من مركزية الديمقراطية على انها التجربة اللينينية الرئيسة للتقليد المذهبي الداخلي، والاخلاص والولاء الى الاتحاد السوفياتي على انه الصبغة العالمية للطبقة العمالية، ولقد فعل ذلك ايضاً قبلهم بعض الاحزاب الاخرى. ولقد اعلن غورباتشيف بتواضع في مؤتمر الحزب السابع والعشرين بان «اختلاف حركتنا مرادفاً لتفسخها وعدم وحدتها، وعلى نفس المبدأ ليس لدى الوحدة اي علاقة مع التشكيل، والهرمية مع تدخل حزب في شؤون حزب آخر، او مع ادعاء حزب واحد بملكية احتكار الحقيقة»، وبذلك فقد صرح بالفعل واقر بقبول الديمقراطية الاجتماعية كجزء من تحالف تقدمي اوسع، ومرتبط مع رادع لصراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، اكثر من كونه مرتبطاً في ترقية الثورة الماركسية ـ اللينينية.

ولقد كان المفهوم الواضح في هذا الانحناء للتنوع والاختلاف، وفي المحاولة لصياغة تحالفاً اوسع، ولكن بالتأكيد خاسراً هو الادراك من ان توقعات الماركسية التاريخية والخطط اللينينية السياسية قد برهنت على انها مفارقة تاريخية او غير صحيحة. فلم تحدث ابداً عملية افقار او سلب قوة الطبقة العاملة تحت حكم الرأسمالية، ولم تتحول الاهتياجات المناهضة للأستعمارية الى ثورات ماركسية ـ لينينية، بينما افرزت المحاولة السوفياتية للأحتفاظ بالزعامة المذهبية والسياسية في الحركة الشيوعية، العزلة والاحتجاج والثورة. واخيراً وليس آخراً، فلقد شوه فشل النموذج السوفياتي فكرة اي ارشادات مذهبية عالمية صالحة للبناء الاشتراكي. ولقد كان الاختيار المنطقي الوحيد للقيادة السوفياتية تحت هذه الظروف هو التخلي عن مطلب استعادة عقيدة متماسكة ووحدة سياسية مترابطة.

وبهذا فقد تم اجتياز عائق وخط فاصل تاريخي. فلقد اصبح عهد الحركة الشيوعية الميليشية والتي بُنيت حول عقيدة مشتركة الآن شيئاً من الماضي بشكل نهائي، وذلك عائد الى فشلها كحركة متوحدة في العالمين المتطور والنامي. ولقد شهدت اواسط الثمانينات ليس فقط نهاية وحدة النظرية والممارسة الشيوعية بل ايضاً نهاية وحدة المذهب والنشاط العملي بين الاحزاب الشيوعية نفسها.

الجزء السادس

نزاع الشيوعية

ان الظاهرة الشيوعية تمثل مأساة تاريخية. فلقد سعت، وهي الخارجة المنبثقة من المذهب المثالي نافذ الصبر، والتي رفضت ظلم الامر الواقع، الى مجتمع انساني افضل ـ ومع ذلك فقد افرزت اضطهاد ضغط شعبي. ولقد عكست بتفاؤل الايمان بسلطة العقل والمنطق لبناء وحدات اجتماعية كاملة متكاملة. ولقد احتكرت اقوى عواطف المحبة للبشرية والكراهية للقمع والاضطهاد لأجل تنظيم اجتماعي معنوي هادف. وقد اسرت بعض اذكى العقول، وبعض اكثر القلوب مثالية ـ ومع ذلك فلقد خلفت بعض ابشع الجرائم في هذا القرن او في اي قرن آخر.

وعلاوة على ذلك، فقد فشلت الشيوعية الجهد المضلل لغرض الرأي العقلاني كاملاً على الشؤون الاجتماعية. فلقد فرضت فكرة انه يمكن لمجتمع مثقف وواعي سياسياً ان يراقب النشوء والنمو الاجتماعي، قائداً تغييراً اجتماعياً ـ اقتصادياً الى نهايات هادفة قوية. وبهذا فلن يكون التاريخ عملية عفوية، ومصادفة فقط، بل اداة للذكاء البشري الجماعي، وهدف معنوي. ولقد طمحت بذلك الشيوعية الى خلط ومزج العقلانية السياسية مع المعنوية الاجتماعية من خلال عمل منظم.

ورغم ذلك، فلقد حول عملياً، الايمان الزائد المفرط بالمنطق والعقل البشري، وميول الصراعات الحادة على السلطة لترجمة وتفسير الاحكام

التاريخية التجريبية الى تأكيدات عقيدة جازفة، والنزوع الى الهجوم المعنوي للأنحـلال الي ضغينة سياسية مستقمية ذاتياً، وخصوصاً ادماج وصهر اللينينية للماركسية مع التقاليد الروسية الاستبدادية الرجعية، الشيوعية الى اداة للأضطهاد والقمع السياسي تحدياً في صراع مع دوافعها المعنوية الخاصة.

الفصل الحادي والعشرون

الازمة العامة

ان الشيوعية اليوم واقعة في ازمة عامة، عقائدية ونظامية، ويظهر مجال هذه الازمة بقوة ملحوظة في خمس تطورات رئيسة:

١ ـ يجب على الشيوعية العالمية ان لا تماثل التجربة السوفياتية ـ وهي ليس الا ايقونة لا غير ـ بل يجب تجنبها، وبهذا فلم تعد الشيوعية تملك النموذج العملي لكي يطبعها الآخرون.

٢ ـ ان الازمة غير القابلة للحل في النظام الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي هي انه يمكن تحقيق نجاح اقتصادي فقط على حساب الاستقرار السياسي، بينما يمكن الاحتفاظ بالاستقرار السياسي بثمن الفشل الاقتصادي.

٣ ـ ان التصدع المحتوم للشيوعية في اوروبا الشرقية ناتج عن احتكار الحزب للسلطة والسيطرة، والتي تمتد بجذورها الى السيطرة السوفياتية. وبعد اربعين سنة من فرض الشيوعية تُعتبر ازالة ورفض الهيمنة الحزبية الخارجية شرط اساسي ومهم للولادة الاجتماعية الجديدة.

٤ ـ ان اضعاف الايدلوجية الشيوعية في الصين هو ثمنٌ للنجاح الاقتصادي. ومن المحتمل ان تدخل الصين الحديثة الى القرن الحادي والعشرين وهي لا تزال محكومة من الشيوعية، ولكنها لن تكون صين شيوعية.

٥ ـ لقـد اصبح عهد الحركة الشيوعية العالمية الميليشية والمبنية على عقيدة مشتـركـة شيئـاً من المـاضي بشكل نهائي، ولقد جاءت نهاية فكرة حركة الشيوعية المتحدة في المذهب والعمل في اواسط الثمانينات.

وبالنتيجة التراكمية، فان ما سبق ليس فقط مؤشرات لأزمة شيوعية عامة، بل تنبىء بذبولها كقوة سياسية وعقائدية رئيسة في العالم المعاصر. وتنعكس هذه الازمة في الوقت الحالي في نمو الاضطرابات الاجتماعية حول التطبيق الاقتصادي الواهن والضعيف للدول الشيوعية، وفقدان الثقة المذهبية بين النخبات الشيوعية الحاكمة. ومن ناحية اخرى، فاما ان فكرة ان الاشتراكية تمثل نظاماً متفوقاً قد فقدت سمعتها وتشوهت بالفعل في الدول الشيوعية، او اصبح ينظر اليها بتشكك. وعلاوة على ذلك، فلم يعد العالم الشيوعي يشير الى اي نموذج اجتماعي على انه مرشده ومنارته الى المستقبل.

ان التعريف الماركسي ـ اللينيني «للأزمة العامة للرأسمالية» ـ والتي اعلن الكرملين عنها في ١٩٦١ انها على وشك الحدوث ـ تلائم جيداً الظرف الشيوعي الحالي. وبتبديل بسيط في كلمات هذا الاعلان او الاشارة الى الاتحاد السوفياتي. «بالامبريالية» بدل «الشيوعية» او «بالرأسمالية»، ومصطلح «الديمقراطية المغامرة الحرة» بدل «الاشتراكية» فسوف تظهر صورة دقيقة جداً ومدمرة للشيوعية المعاصرة:

«ان الشيوعية في مرحلة تطورها الحاضر هي امبريالية سوفياتية في فترة تراجعها ودمارها. ولقد احاطت عملية التعفن المحتوم الشيوعية من رأسها الى اخمس قدمها، بما في ذلك هيكلها الاقتصادي والنظامي، وكذلك سياستها وعقيدتها. . .

وتجد ازمة الشيوعية العامة تعبيرها في ما يلي: استمرار الانفصال دول جديدة عن مدى تأثير ومعقول النموذج السوفياتي؛ ضعف ووهن موقف الدول الشيوعية في المنافسة الاقتصادية مع الديمقراطيات المغامرة الحرة المتقدمة؛ تفسخ الكتلة السوفياتية؛ تفاقم التناقضات الشيوعية مع تطور الاشتراكية الاحتكارية للدولة، ونمو العسكرية؛ تفاقم عدم الاستقرار الداخلي، ومعضلة الاقتصاد الشيوعي الظاهر في نمو عدم قدرة الشيوعية لأستغلال القوة الانتاجية

بالكامل ـ بهبوط معدلات النمو الانتاجي، الازمات المرحلية، الفشل المتواصل في استخدام القدرات الانتاجية، وبالتضخم الوظيفي المزمن؛ كثافة ردود الفعل السياسية على كل الجبهات بشكل لم يسبق له مثيل؛ انشاء عددٍ من الدول الشيوعية بحكم استبدادي فردي؛ والازمة العميقة الجذور في سياسة وعقيدة الشيوعية».

جدول مستوى الازمة في الدول الشيوعية

	الاتحاد السوفياتي	الصين	المانيا الشرقية	بولندا	تشيكوسلوفاكيا	هنغاريا	رومانيا	بلغاريا	يوغوسلافيا	فيتنام	كوبا	كوريا الشمالية	انغولا	موازمبيق	اثيوبيا
فقدان جذابية الاشتراكية بنظر الجماهير	١	٢	١	٣	٢	٣	٣	١	٢	٢	٣	١	٣	٣	٣
التشاؤم الاجتماعي للمستقبل	٢	٠	١	٣	٢	٣	٣	١٫	٢	٢	٣	٢	٣	٣	٣

انخفاض مستوى المعيشة	٢	٠	١	٣	٢	٢	٣	١	٣	٣	٣	٢	٣	٣	٣
اكتئاب الاحزاب الشيوعية	٢	٠	٠	٣	٢	٢	٣	١	٢	١	١	٠	١	٣	١
ارتفاع النشاط الديني	١	٠	٠	٣	١	١	٠	٠	١	٠	١	٠	٠	٠	١
تصادم الوطنية مع العقيدة	١	٠	١	٣	٢	٣	٢	١	٣	١	١	١	٢	١	٢
ارتفاع الاقتصاد الخاص	١	٢	١	٢	١	٣	٠	٠	٢	١	٠	٠	١	١	٠
نشاط المعارضة السياسة اجتماعياً	١	١	١	٣	١	٢	٠	٠	٢	٠	٠	٠	٣	٣	٢
التعددية السياسية المطلوبة علناً من الاسفل	٢	٢	٠	٣	١	٣	١	٠	٣	٠	١	٠	٢	٢	٢
انظمة مدافعة عن حقوق الانسان	٢	١	١	١	٢	١	٣	١	٢	٢	٢	٢	١	٢	٣
المجموعات الوطنية	١٥	٨	٧	٢٧	١٦	٢٣	١٨	٢٢	١٢	١٥	٨	١٩	٢١		

٢٠

جدول مستوى الازمة بين الدول الشيوعية:

الجدول الرقم:

٣ = اكيد جداً

٢ = صحيح

١ = جزئياً صحيح

٥ = غير صحيح

اذا كان المجموع اقل من ١٠ = فلا توجد ازمة = ويشمل ٤ دول من ١٠ ـ ١٩ = ازمة = وتشمل ٦ دول فوق ١٩ = ازمة شديدة، وتشمل ٥ دول.

ومع ان هذا التعريف الذي صيغ بالمصطلحات الفنية الماركسية، يغلف الازمـة العامة للشيوعية العالمية، ببعده ومضمونه، فانه يختلف من دولة الى

اخرى. والجدول المرافق، مع الاقرار بانه انطباعي، فانه ملخص لكثافة هذه الازمة داخل كل دولة شيوعية على انفراد. لأن النجاح السياسي، بنظر الشيوعية، يساوي المراقبة الفاعلة، وكلما قل الاكراه المطلوب للتأكيد والحفاظ على التحكيم الكلي، كلما كان النجاح اكبر. وعلى هذا، ومع انه ليس بالضرورة ان تكون كل المقولات بنفس مستوى الاهمية، فان مقدار تراكمي كبير يمكن ان يكثف الاحباط في تحقيق بناء سياسي لينيني عامل، وفاعل، واعادة تشكيل المجتمع، وبناء اقتصاد مركزي قادر ومخطط.

ولم يقترب اي نظام من هذه الانظمة الخمسة عشر من نقطة الكمال التي يمكن ان يمثل فيها نظام لينيني اصلي مزدهر اقتصادياً، ومدعوم من الشعب. فلقد حصلت اربع دول فقط على اقل من عشرة نقاط، والذي يكثف غياب حالة الازمة. بينما وصلت خمس دول الى عشرين نقطة اكثر، والذي يعني وجود ازمة شديدة جداً. وبالاضافة الى ذلك فان الدولة الاكثر نجاحاً بين الاربعة الاولى، وهي الصين، كانت قد تجنبت ظروف الازمة بشكل كبير من خلال تخفيض التطبيق الشيوعي بشكل واسع. ولقد اعطى هذا القدرة للنظام لتحريك بعض الانجذاب الاجتماعي والتفاؤل، ولكن على حساب رحيل بعض معتقدات المذهب الشيوعي المركزية. اما الدول الثلاثة الاخريات، المانيا الشرقية، بلغاريا، وكوريا الشمالية، فقد اثبتت فاعلية اكبر في الحفاظ على الكبت والقمع الاجتماعي، وفي ادارة اقتصاد الدولة. ولقد واجهت هذه الدول مقاومة اقل من المجتمع اثناء عملية التحول الى الشيوعية. اما باقي الدول، فهي في مراحل مختلفة من الازمة. فلم تسفر جهودها بايجاد نظام جديد عن اقتصاديات منتجة وابداعية، ولقد اظهرت العجز الاجتماعي، وفي بعض الحالات العجز السياسي ايضاً.

وبذلك، فمن الملائم، بالنظر الى تفاقم الازمة العامة للشيوعية، صياغة تشخيص تاريخي نهائي لأنجاز وكفاءة الشيوعية، واحتمالية التوقعات في القرن القادم

الفصل الثاني والعشرون

السجل التاريخي

ان الازمة العامة للشيوعية متجذرة بعمق في سجلها التاريخي الضعيف. فلقد استمدت الشيوعية افتتانها الاولى بشكل واسع من واقع ان العديد من الانظمة القائمة في المراحل الاولى في القرن العشرين كانت غير ايجابية لمعاناة ومظالم المرحلة المبكرة لرأسمالية التطور الصناعي. ومن جهة اخرى مع ذلك، ان الواقع الحقيقي ايضاً، انه لم يصل اي نظام شيوعي للسلطة كنتيجة للتعبير الحر عن ارادة الشعب. وكذلك ايضاً فلم تكن اي نخبة شيوعية حاكمة ـ وحتى بعد عقود من الوجود في السلطة ـ راغبة في السعي للشرعية السياسية، وذلك بالسماح للشعب بحرية اختيار استمرار الشيوعية. وتأتي عدم الرغبة في الرضوخ للتجربة الديمقراطية جزئياً من المذهب الثانوي المانوي ومن شعور التعيين الذاتي لمهمة متضمنة في المذهب الماركسي ـ اللينيني وجزئياً من المعرفة بان الشيوعية في السلطة لم تنجح في ارضاء الرغبة الاجتماعية للرفاه المادي والسعادة الشخصية. ولم تظهر اي عملية هامة ملحوظة حتى يومنا هذا لهروب اشخاص الى الانظمة الشيوعية مفتونين ومنجذبين باسلوب حياتها، بينما قد أثبتت الرغبة في التخلي عن الشيوعية ونبذها في نظام الاتحاد السوفياتي ذو السبعين سنة من الحكم، وفي النظام البولندي ذي الاربعين سنة في الحكم، والنظام الفيتنامي ذو الخمسة عشرة سنة في الحكم.

وعلاوة على ذلك، فقد ضم التطبيق الشيوعي التاريخي كأسلوب تنظيم

اجتماعي التفاوت المؤلم بين التضحية البشرية الهائلة التي أنتزعت من الشعب بالقوة، وبعض الفوائد الاقتصادية ـ الاجتماعية المحققة بذلك والواضحة. وتكشف المقارنة بين الدول الشيوعية غير الشيوعية في مراحل متشابهة من التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ مثل المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا مع المانيا الغربية، بولندا مع اسبانيا، هنغاريا ويوغوسلافيا مع النمسا وايطاليا، والصين مع الهند ـ بوضوح انه لم يثبت اي نظام شيوعي صموده في مواجهة نده المنافس، في مجال الناتج القومي الاجمالي، التجاري في الاسواق العالمية التنافسية، او في مستوى الحياة المحلية. ويبدو ان الصين هي الوحيدة التي تفوقت على الهند، والتي كانت نفسها ضحية لنظام بيروقراطي علني واضح واقتصاد شبه اشتراكي، ولكن حصل هذا فقط عندما بادرت بكين بتراجعها عن التقليد الماركسي ـ اللينيني، ولقد سقط الاتحاد السوفياتي بعيداً خلف ليس فقط الولايات المتحدة، بل ايضاً اليابان. ولقد لحق اليابان وتخطى الاتحاد السوفياتي في الناتج القومي الاجمالي بعدد سكان يصل الى اقل من النصف عن الاتحاد السوفياتي بين عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٨٨، بعدما كان يلهث بمعدل ثلاثة الى واحد في بداية الامر.

وتقف الاقتصاديات الشيوعية في مجالات المنافسة العالمية في موضع ابعد كثيراً. فعندما وقفت التجارة الامريكية واليابانية في الاسواق التنافسية عند حدود ٥٧٦ بليون دولار، على التوالي، وقف التنافس السوفياتي المشابه عند ٦٦ بليون دولار. وبالاضافة الى ذلك، فلقد تماثلت التجارة السوفياتية الجانبية بدولة في العالم الثالث. فلقد جاءت ثلاث ارباع صادراتها من الصناعة الاستخراجية، مثل البترول ويقدر بـ ٤٩ بالمئة، الذهب ١٨ بالمئة، الخشب ٤ بالمئة، والماس ٢ بالمئة. اما الدول الشيوعية، والذي يقدر عدد سكانها بثلث سكان العالم، فقد وصلت صادراتها العالمية الى نسبة ١٠ بالمئة فقط، من مجمل الصادرات العالمية، و٣ بالمئة فقط من الابداعات والاختراعات التكنولوجية، وفقط واحد بالمئة من المساعدات العالمية الى الدول النامية. ولقد صدّرت كل اوروبا الشرقية الآت اقل الى الديمقراطيات الصناعية مما صدرّدت سنغافورة لوحدها.

ولقد انعكس سجل الشيوعية الضعيف ايضاً في مستويات الحياة المحلية. فلا يزال الاتحـاد السوفياتي يوزع الحصص في اللحوم بعد اربعين سنة من الحرب العالمية الثانية، وقد بدأ في توزيع حصص السكر مؤخراً ايضاً. ولقد اعلنت الصحيفة الاسبوعية نيديليا (Nedeleya) في عددها الصادر في ٢٧ حزيران الى ٣ تموز ١٩٨٨، انه «صدرت بطاقات صفراء باهتة للحصص وتوزيع الغذاء والطعام وقد وزعت على اهل مدينة سفيردلوفيك والمنطقة المحيطة بها، ويوجد اشخـاص مؤهلون وذوو صلاحية لتـوزيعهـا في كل مركز. وعلى حسب هذه البطاقات يوزع ٨٠٠ غرام من اللحم المقدد شهرياً. . ويعطي ٤٠٠ غرام من الزبدة، بالاضافة الى ٢ كيلوم من اللحوم في السنة وذلك لاحتفالات اعياد ايار وتشـرين اول. وتفقـد في بعض ايام الاحـاد المعكـرونة والبرغل». واضافت الصحيفة قائلة، «من الافضل في الوقت الحالي ان لا تُذكر عملية اعادة البناء «البيريسترويكا» الى هؤلاء الناس».

وتكشف الاحصائيات السوفياتية الرسمية المعلنة اثناء عملية الانفتاح، ان حوالي ٤٠ بالمئة من اجمالي عدد السكان، و٧٩ بالمئة من المسنين يعيشون في حالة فقر. وحسب ما ذكر الكاتب السوفياتي ن. م. ريماشيفيتا (N.M. Rem-asnevstya)، فان ثلث المساكن السوفياتية فقط تحصل على ماء ساخن، وثلث آخر لا يحصل ولا حتى على الماء البارد. وكذلك فقد ذكرت صحيفة ازفستيا في ٢٦ كانون ثاني عام ١٩٨٦، ان على عائلة عامل غير مؤهل مكونة من اربعة افراد، ان تعيش لمدة ثماني سنوات في غرفة منفردة بمساحة ٨ × ٨ اقدام قبل ايجاد سكن افضل بعض الشيء. وبذلك فان القول ان حياة الفقر في الغرب تعادل نفس المستوى المادي للطبقة المتوسطة في الاتحاد السوفياتي ليس فيه اي نوع من المبالغة.

وتحكي احصـائية ملكية المـركبات نفس القصة، وذلك بناءً على المؤثر التقريبي الحديث لوجود البضائع الاستهلاكية. فلقد وصلت الدول الغربية الى حالة التخمة تقريباً في مجال استهلاك المركبات. فقد كان يوجد مركبة لكل

١,٨ شخص في الولايات المتحدة عام ١٩٨٣، ومركبة لكل ٤,٤ شخص في اليابان، ومركبة لكل ٢,٥ شخص الماني، ومركبة لكل ٢,٨ شخص ايطالي، اما في الاتحاد السوفياتي، فيوجد مركبة لكل ١٤,٢ شخص، ومركبة لكل ٥,٨ شخص في تشيكوسلوفاكيا، ومركبة لكل ١٠,٨ شخص بولندي. ومن المذهل والمروع ان السود في جنوب افريقيا يملكون من المركبات بالنسبة الى عدد السكان اكثر مما يملك الاتحاد السوفياتي.

وتشترك الازمة البيئية النامية في تشابك وتعاظم هذه العيوب الاقتصادية في عدد من الدول الشيوعية. فلقد اصبح الوضع ينذر بالخطر باوروبا الشرقية، وخصوصاً في اجزاء كبيرة من بولندا، وبعض اجزاء المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا. ولقد تلوثت المناطق الصناعية في الاتحاد السوفياتي بشكل سيء جداً، مع وجود خطورة بشكل خاص في منطقة ارمينيا، حيث تلقى النفايات السامة بشكل دائم في الانهار. ولقد كانت كل الدول الشيوعية مهملة جداً في اتخاذ اقل الاجراءات لحماية البيئة، ولقد كانت بطيئة في تعاملها مع الازمة المتصاعدة والنامية، وذلك لأنشغالها في سرعة النمو الصناعي. ولقد ساهم بدون شك الانهيار البيئي، المتازمن مع رداءة التسهيلات الصحية المتزايدة في بعض زيادة الخطر في معدلات الوفيات بين كل الاعمار، وفي كل دول الكتلة السوفياتية. وبناءً على ما ذكرت دراسات المقارنة التي عملها نك ايبرستاد في مركز هارفارد للدراسات السكانية، فان لطفل حديث الولادة في الاتحاد السوفياتي فرصة للحياة والعيش اقل من فرص العيش لطفل ولد في المكسيك.

ومع ذلك، فلا يستطيع كل ما سبق ان يخفى الواقع بان الدول الشيوعية قد خطت خطوات واسعة، وخصوصاً في عملية تطور الصناعة الثقيلة والرفاه الاجتماعي والتعليم وبشكل خاص في المراحل الاولى من بداية حكمها. وقد تم انجاز هذا التقدم بثمن بشري مذهل. ولم يعرف التاريخ الانساني كاملاً ثمن

بشري دفع في بناء اجتماعي او اي تجربة اخرى مثلما دفعت البشرية في مواجهتها مع الشيوعية في القرن العشرين. ولا يستطيع اي انسان ان يحدد بدقة الكم الاجمالي لهذا الثمن، إن تلك الانظمة كانت تنتزع هذه المجاميع الجسدية تحت ظروف سرية، ولأن الدمار النفسي والثقافي الحضاري غير الملموس المرافق لا يتلائم مع التقديرات الكمية. ورغم ذلك، فيوجد امكانية لتقدير تقريبي لأصناف خاصة من المعاناة البشرية التي قامت بها الانظمة الماركسية - اللينينية اثناء عملية تحول المجتمعات الى الشيوعية. وتسهل الادانات والاستنكارات السوفياتية والصينية للتجاوزات المفرطة الماضية - والتي قدمت معطيات اضافية للكلفة البشرية للتجربة الشيوعية في تنظيم المجتمع - هذه المهمة وتعطى استنتاجتها مصداقية اكبر للغربيين الشكوكيين.

ولقد ضمت الكلفة البشرية الاصناف التالية:

١ - مجمل الاعدامات اثناء عملية الاستيلاء على السلطة. ويمكن تقدير هذه الاعدامات، بدون حساب لقتلة معارك الاعمال الحربية المدنية والثورية، على الاقل بمليون شخص في الاتحاد السوفياتي، وعدة ملايين في الصين، وحوالي مئة الف في اوروبا الشرقية، ومئة وخمسون الف على الاقل في فيتنام.

٢ - اعدامات المعارضين السياسيين والمقاومين بعد الاستيلاء على السلطة. وتحدث هذه الاعدامات بالعادة خلال عدة سنوات أثناء تعزيز الشيوعيين سيطرتهم على البلاد. ويجب وضع تقدير تقريبي لهذه الارقام على نفس مستوى الصنف الاول، مقدمة مجموع كلي مركب للصنفين الاولين بحوالي ٥ مليون انسان.

٣ - اعدام اشخاص ينتمون الى اصناف مختلفة من المجتمع ويُعتقد انهم معادن للنظام داخلياً، وبصرف النظر عن المواقف الحقيقية لهؤلاء الضحايا. وتضم هذه المجموعات الضباط العسكريين السابقين، والمسؤولين الحكوميين

السـابقين، الأرستقراطيين، اصحاب الارض، الكهنة، والرأسماليين. فقد أعـدم معـظمهم، ووضـع آخرون في معسكرات الاعتقال، حيث اختفت اكثريتهم. ويجب ان تكون التقديرات كبيرة، حتى ان الكشوفات السوفياتية والاوروبية الشرقية، والصينية تظهر ان المجموعات الاجمالية كانت ضخمة، وبالتأكيد لا تقل عن ٣ ملايين الى ٥ ملايين انسان.

٤ ـ تصفية الفـلاحين المستقلين. وكـان هذا النـوع من التصفية الجسـدية للمزارعين الاغنياء المالكين في الاتحاد السوفياتي من خلال الاعدامات، والمـوت في معسكـرات الاعتقال. واقل تقدير لهذا النوع من المصائب، بالنظر الى الارقام السوفياتية والصينية والتي تصل الى عدة ملايين، والارقام الكورية الشمالية والفيتنامية والتي تصل الى عدة مئات من الالاف يجب ان يزيد عن ١٠ ملايين انسان.

٥ ـ المصائب المترافقة مع الترحيل الشعبي، واعادة الاستيطان القهري. فلقد افرزت هذه السياسات، والتي احدثت في سياق عملية التجميع في الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية، وخصوصاً في الصين اثناء الحملة ضد اصحاب الاراضي الزراعية، واثناء انشاء الكنتونات الفلاحية في سياق عملية الخطوة الكبيرة الى الامام، المجاعات الكبيرة والامراض الوبائية، وكوارث اخرى مختلفة. ويجب ان يؤخذ اي تقدير في الحسبان، السياسة السوفياتية في ترحيل الاشخاص المشبوهين من غير الروس، مثل العديد من الليشوانيين والأيستونيين والاتفانيين، من جمهوريات البلطيق، والبولنديين من المناطق الغربية للأتحاد السوفياتي، والتشاد من القرم، وغيرهم، الى مناطق بعيدة من سيبيريا. وتتراوح التقديرات السوفياتية الاخيرة لعدد الضحايا بين سبعة ملايين الى عشرة ملايين انسان في الاتحاد السوفياتي فقط، بينما وضعت بعض التقـديرات الاخيرة في الصين الرقم الاجمالي بحوالي ٢٧ مليون انسان،

ويمكن ان يصل المجموع الى رقم حذر ولكن بنفس الوقت مرعب على الاقل ٣٠ مليون انسان.

٦ ـ الاعدامات والموت في معسكرات الاعتقال للشيوعيين غير المرغوب فيهم، ويمكن تقدير عدد الشيوعيين المعتقلين في الاتحاد السوفياتي في مجال الصراعات على السلطة والتنظيفات المختلفة، وبعد ذلك التصفيات الجسدية بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٨ باكثر من مليون شخص دون شك. ولقد اعتقل وقتل عشرات الالاف في اوروبا الشرقية في اواخر الاربعينات، وبداية الخمسينيات. ولقد لقي عدة ملايين نفس المصير في الصين، وخصوصاً اثناء الثورة الثقافية.

٧ ـ الفزع والذعر الجسدي والنفسي من الاعتقال والأشغال الشاقة الطويلة الامد. فقد اظهر العفو العام في الاتحاد السوفياتي في اواسط الخمسينيات اطلاق سراح عدة ملايين من الاشخاص الذين امضوا في بعض الحالات مدد تصل الى عشرين سنة مسجونين تحت ظروف قاسية واليمة. وقد حدثت اعفاءات عديدة في اوروبا الشرقية بعد ادانة خروشوف لستالين عام ١٩٥٦، وكذلك حدث في الصين بعد انتهاء الثورة الثقافية في بداية السبعينيات.

٨ ـ اضطهاد عوائل ضحايا النظام. فلقد كانت عائلات ضحايا الاصناف الستة الاولى، هدفاً للعقوبات والتي تتراوح بين الاعدام، والسجن، الترحيل، والتمييز في السكن، والبطالة.

٩ ـ انتشار مناخ اجتماعي من الخوف والعزلة السياسية والشخصية. لقد كانت الاصناف الاجتماعية ـ ما عدا العمال والفلاحين الفقراء ـ معرضة لمظاهر عدائية من طبقة المسؤولين خلال عهد اعادة بناء المجتتمع الشيوعي القهرية.

وتقدم هذه الاثمان الاجتماعية، والتي ضمت على الاقل حوالي ٥٠ مليون مصيبة، بدون شك التجربة الاكثر تهوراً وخسارةً في تنظيم اجتماعي لم يحدث

له مثيل قط. وتصبح المأساة الاجتماعية اكبر واعظم مع ذلك، مع تراجع وميول الانظمة الشيوعية الحالي للأعتراف ان معظم ماضيهم يضم احباطات متجذرة في «الاخطاء والافراطات»، وضرورة حدوث تغييرات مهمة في سياستهم. فلقد سلم الحكام السوفيات، والصينيون، وبعض الاوروبيين الشرقيين، ان تلك «الافراطات» في الماضي الشيوعي قد كانت غير منتجة اقتصادياً ـ واجتماعياً، بالاضافة الى كونها بغيضة اخلاقياً.

ولقد ضم الفشل الشيوعي الكبير بذلك، بشكل اجمالي، الدمار المتلف للعديد من المواهب الاجتماعية وقمع ايجاد حياة سياسية للمجتمع ؛ وكلفة باهظة بافراط لمكاسب اقتصادية تحققت بالفعل، وتراجع محتوم ومقدر في الانتاجية الاقتصادية بسبب المركزية الدولانية الزائدة؛ وتراجع نظام الرفاة الاجتماعي بسبب البيروقراطية المفرطة والذي قدم بالبداية المنفعة الرئيسة للحكم الشيوعي ؛ وتوقف التطور من خلال المراقبة العقيدية لنمو المجتمع العلمي والفني.

ان هذا الفشل التاريخي، والذي اقره واعترف به، الزعماء الشيوعيون المدافعون عن الاصلاح، له جذور اعمق من «الاخطاء والافراطات» والتي نُدم عليها اخيراً. فلقد أستمدت هذه الاخطاء من عيوب التجربة الشيوعية العملية، المؤسساتية، والفلسفية. ولقد كانت بالفعل متصلة ومنطمرة بعمق في تطبيق جوهر طبيعة الماركسية ـ اللينينية.

اما على المستوى العملي، فلقد ساهم اسلوب صنع القرار الماركسي ـ اللينيني في مناخ جنون العظمة والاضطهاد، وفي الاعتماد المتزايد على القوة لحل المشاكل السياسية والاجتماعية. ولقد تصرف كل الزعماء الشيوعيين الكبار، مثل لينين، ستالين، ماو، والمقلدون لهم في اوروبا الشرقية او في العالم الثالث، وكأنهم متآمرون في السلطة، مثل كهانة كتومه سريه، والتي يجب حجب ترورياتهم وافكارهم عن العالم المعادي. ولقد كان الغموض والسرية يحيطان باعمالهم وافعالهم، وشخصياتهم، وحتى عائلاتهم. وبنفس الوقت فقد

ارتابوا بشدة بكل شخص لم يشاركهم افكارهم الغريبة، حيث انهم لاحظوا من انفسهم بانهم قد منحوا واحيطوا بهالة ونظرة فريدة في التاريخ البشري، وانهم بذلك قد ملكوا الحق باعادة تخطيط وصقل مستقبل الجنس البشري، ولو بالقوة اذا لزم الامر. ولقد افرز الامر «من ليس معنا فهو علينا» اسلوباً عملياً فسر وترجم الانتقاد بالعداء، والصعوبات بالتخريب، والاراء البديلة بالخيانة. ولن تحدث تصحيحات السياسة في هذا المجال الا بعد فواجع مدمرة.

ولقد ضمت العيوب المؤسساتية هذه التشوه العملي، ولقد ساعد اسلوب العمليات الشيوعي لأيجاد انظمة سياسية لا تحتوي على صمامات امان، او تقنية انذار مبكر. فلقد كانت اشارات الانحراف تتأخر ضمنياً بالوصول الى القمة؛ ولقد انتشر التضليل الاعلامي للمنفعة الذاتية وطفح الى فوق بسرعة اكبر؛ ولقد سكن الخوف التحليل الذاتي. ولقد كان القائد او الزعيم يتمسك بالسلطة السياسية طالما يستطيع ذلك جسدياً وسياسياً، وقد كان بديله يظهر من خلال الصراع السياسي الموهن، والذي يصل بالميول المانوية، والموجودة اصلاً الى ذروتها. ولقد جعل فقدان التقنية لتغيير الحكام ذوي التطبيق الضعيف، من التحكم الفاعل بالسلطة، وليس نجاح او فشل سياسي، هي المقياس الرئيسي لقيادة ثابتة.

ولقد كانت الجذور الفلسفية للفشل والاحباط اكثر تقليدية. فلقد أستمدت سياسات الماركسية ـ اللينينية في التحليل الاخير، من سوء الحكم الاساسي للتاريخ، ومن الفكرة الخاطئة المهلكة للطبيعة البشرية. وهكذا فان الفشل والاحباط الشيوعي هو فشل فكري بشكله النهائي. فلقد فشلت بالاخذ في الحسبان الرغبة البشرية الملحة للحرية الفردية، للفن أو للتعبير الروحي الذاتي، وللخيار السياسي في عهد من ناحية، والرغبة الفردية الملحة للرفاه المادي الشخصي من ناحية اخرى. وبذلك تكون الشيوعية قد خنقت الابداع والخلق الاجتماعي حتى عندما قدمت نفسها على انها اكثر الانظمة الاجتماعية ابداعيةً وتجديداً.

ولقد ابتليت الشيوعية على المستوى الدولي ايضاً بالاحباط والفشل الفكري. فلم تستبق او تدرك الماركسية - اللينينية القوة الرئيسة التي صقلت شؤون القرن العشرين الدولية. ولقد سخرت وقللت من قيمة الدور العرقي - والوطني القومي، والتي جعلت من الصراعات الشيوعية القومية الداخلية تأتي كصدمة. ولقد تزايدت تلك الصراعات بدورها من الميول الناتجة من الجبهات الشيوعية لتنظر وتتهم بعضها البعض بانها هرطقات مذهبية. وقد كانت تلك هي الحالة في الخراب والتدمير السوفيات اليوغسلافي عقائدياً، وايضاً في النزاع الصيني - السوفياتي. ولم تعِ الشيوعية الدعوة والافتتان الديني، ولذلك فقد كانت جاهزة لمقاومة مبنية على الديانة الكاثوليكية الرومانية في بولندا، او للاحياء الاسلامي داخل الاتحاد السوفياتي نفسه. واخيراً وليس آخراً، فلقد وجدت الثورة التقنية التطبيقية، والتي غيرت بالفعل طبيعة توزيع السلطة والبناء الاجتماعي داخل المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، الماركسية - اللينينية تتمسك وتتشبث بافكار قديمة مستمدة من المراحل الاولى للثورة الصناعية.

ولقد ادت هذه العوامل العملية والمؤسساتية والفلسفية مجتمعة الى سياسات حتمية لم تنتج فقط الازمة العامة للشيوعية بل اظهرت ايضاً الشكوك حول مستقبلها.

الفصل الثالث والعشرون

التوقعات المستقبلية

في عام ٢٠١٧، وبعد مئة سنة من الثورة البلشفية، تغطي السقالات ضريح لينين في الساحة الحمراء سابقاً، والتي اعيد تسميتها بساحة الحرية. وتحجب السقـالات عملية اعـادة بناء الضريح في مدخل موقف عام للمركبات تحت الارض، صُمم لكي يلائم اعداد كبيرة من السواح الزائرين للمعرض الذي افتتح حديثاً في الكرملين بعنوان «مئة عام ضائعة ـ وخسارة ٥٠ مليون نفس».

ان ما سبق ليس بعيد الاحتمال كما يبدو لأول وهلة. وبالفعل، فان هذه القصة الاخبارية الخيالية القادمة من موسكو في عام ٢٠١٧ محتملة مثل فكرة ان النظام الحالي سوف يثبت ويستمر الى ذلك الوقت دون تغيير، ومثل فكرة ان في الذكرى المئوية للثورة البلشفية سوف يصعد زعيم سوفياتي آخر، واعداً بازدهـار للشعب السـوفياتي، متهماً بنفس الوقت من سبقوه ولائماً لهم سبب العيوب المستمرة والدائمة، وسوف يكون بينهم في ذلك الوقت غورباتشيف، بالاضافة الى بريجينيف وستالين.

لقـد اطلق غورباتشيف العنان للقوات التي جعلت من عدم الاستمرارية التاريخية اكثر احتمالية من الاستمرارية. ولهذا فان اي تحليل لمستقبل الشيوعية يعتمد على الرد على سؤال واحد: هل سياسة غورباتشيف هي اشارة التجديد ام جذب للشيوعية؟ ويتوجه الجواب الى الجذب وليس التجديد، بالرغم من تنمق خطابـات غوربـاتشيف عن حيوية الشيوعية. لأن اي تغييرات في مدى

ومجال عملية اعادة البناء لغورباتشيف ملموسة، فلقد كانت هذه التغييرات بعيدة عن معتقدات الماركسية ـ اللينينية، بمفهومها النظرية والممارسة. وان هذا التوجه في اوروبا الشرقية والصين، حيث كانت الاصلاحات الملموسة اكثر جرأة ونشاطاً، يبدو اكثر صراحة.

وان الضغط العام داخل الشيوعية المعاصرة، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي، هو التخلي عن ما كان في وقت ما يعتبر جوهري واساسي. فعلى المستوى الاقتصادي، تترك او تسوي الملكية الاجتماعية، او ملكية الدولة في القطاع الزراعي، وفي قطاع الخدمات، وحتى في القطاع الصناعي وعلى درجات ومستويات مختلفة. وتقع عملية التسعير والتخطيط المركزي ايضاً للهجوم لحركة مترددة باتجاه شكل من اشكال التقنية التسويقية.، وعلى المستوى السياسي، فان التحكم الشيوعي الكامل على وسائل الاتصال يتحطم. ويعطي التعليم العقائدي المجال للتخفيض العقائدي ضد التأثيرات والمؤشرات الاجنبية». وايضاً تقع الهيمنة للحزب الواحد على الحوار الاجتماعي السياسي للأنقضاض بشكل متزايد في العديد من الدول الشيوعية. اما الاحتكار الشيوعي على رئة السلطة السياسية فلا يزال باقٍ سالماً دون لمس.

وعلاوة على ذلك فان العقيدة الشيوعية تتشوه ليس فقط من التجربة العملية بل ايضاً من الحكام الشيوعيين انفسهم. فانهم مستمرون في رفض، او تعرية اذا صح القول، طبقة بعد اخرى من ماضيهم المذهبي الخاص، وذلك لأرتباطهم باحدى اشكال التجريد والتعرية التاريخية. ويجب ان يكون المؤمنون الحقيقيون قد بدأوا يتساءلون ماذا بقي من التراث حيث انهم يسمعون ادانة عشرين سنة من حكم بريجينيف كعهد جمود وركود وفساد؛ ويسمعون كذلك ان خروشوف، والذي أُدين في السابق على ان عقده هو جيل «التخطيطات الرعناء والطائشة»، هو بالواقع المنفذ الاول لعملية إعادة البناء؛ ويشاهدون ايضاً وسم ربع قرن من الستالينية بوسام الاجرامية غير الملطفة؛ ويهمس بعضهم ان

تعـديلية غورباتشيف تضم بدايات الرفض الواقع للينينية، وهكذا في الصين ايضاً، فالماوية التي كانت في وقت ما مقدسة، يُعاد تقييمها بانتقاد، بينما لا يزال يوسمون القادة الشيوعيين الجدد في اوروبا الشرقية بالستالينية بعد موت ستالين. ويجرد كل هذا الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية الى الماركسية حتى النخـاع. وبـذلـك فان ماركسية القـرن العشـرين لا تستطيع منح الارشادات الضرورية للمجاراة ومسايرة مشاكل العالم وهو على اعتاب القرن الحادي والعشرين.

فالشيوعية اذن في تراجع تاريخي. فهل هذا التراجع سوف يفرز عن انتاجية اكثر اقتصادياً او انظمة تعددية اكثر سياسياً؟ ان الجواب هنا يختلف من دولة الى اخرى، فبالنسبة الى الاتحاد السوفياتي، فالشكوكية هي الغالبية. وللأسباب المذكورة في الفصلين الاولين من هذا الكتاب، فان فرص سياسات غورباتشيف لأفراز وايجاد اقتصاد منافس عالمياً لحزب شيوعي غير مترابط بعض الشيء، هي بعيدة. لأن التـراث اللينيني المنـاهض للديمقـراطية، وصفة الدولة المتعددة القوميات، والتقاليد المتأصلة بعمق، كل هذه تتآمر لقطع الطريق على استقبالية المجتمع لأنتقال فاعل لمسؤوليات سياسية وادارية، وبذلك تمنع مثل هذا التطور الايجابي.

ان التحول الى تعددية ناجحة للأتحاد السوفياتي هي اقل احتمالاً من اربع احتمالات بديلة. الاحتمال الاول هو ازمة نظامية مؤجلة وشاملة، مستمرة دون حل نهائي قاطع لأكثر من عشرة سنوات، تتخللها انفجارات وتمرد اجتماعي من جهـة الجماهير المدنية غير راضية اقتصادياً وبالاخص من جهة الشعوب غير الروسية القلقة والمتململة سياسياً. اما الاحتمال الثاني، فهو ان يؤكد الركود والجمود المتجدد في الماضي الروسي نفسه ثانيةً. ويمكن ان تؤدي هذه النقطة الى الاحتمال الثالث، وهو انقلاب يقوم به العسكريون والمخابرات السوفياتية (ومن المحتمـل ان يتـزامن مع موت غوربـاتشيف الفجائي)، ويبرره الافتتان

العاطفي بالوطنية الروسية الكبرى. اما الاحتمال الرابع ـ وهو احتمال بعيد جداً في هذه المرحلة ـ فيضم التحول الحتمي لأزمة مؤجلة الى انقلاب واضح وكامل للنظام الشيوعي، منهياً ومسقطاً النص الخيالي الوهمي المذكور في بداية هذا الجـزء. ويمكن ان يضم الاحتمـال الاخير هذا ايضـاً تشظى وتجزء الاتحاد السوفياتي كدولة منفردة، مفرزةً العنف القومي والعرقي الداخلي الواسع والمحتوم.

وسوف يعمق البديل الاكثر احتمالاً ـ وهو ازمة نظامية شاملة ومؤجلة، والتي سوف تتحول الى فترة متجددة من الركود ـ الازمة العامة للشيوعية بشكل اضافي، ويسـاهم في الاختلافات المتزايدة بين الدول الشيوعية، وايضاً سوف تسارع عملية التحلل العقائدي. وسوف يزيد حتمياً من التوترات القومية داخل الاتحاد السـوفياتي، بينما يقوي وينشط الطموحات الانفصالية. على اي حال، فلقد اوجد غورباشتيف البداية ليس فقط لأحياء الوطنية الروسية العظيمة، بل ايضاً للتأكيد الذاتي للقوميات غير الروسية، وذلك باطلاق العنان للانفعالات في سياق الفـراغ العقـائـدي، والـذي نتج عن تشـويه المذهب الرسمي. ولقد وضع غوربـاتشيف نتيجـة لذلـك، وبدون دراية او تخطيط مسبق احتمالية التفكك للأتحاد السوفياتي في مفكرة التاريخ.

وكلمـا طالت عملية اعادة البناء، كلما تصاعدت الطموحات القومية غير الروسية. لأنها مسألة وقت فقط، ومن المحتمل ايضاً خلال وقت قصير نسبياً، قبـل ان يتحول الاهتياج القومي من اجل تنازل اكبر للسلطة من موسكو الى العواصم الاقليمية، الى مطالبات واضحة وصريحة للسيادة الوطنية القومية. ولقد بدأ هذا بالفعل في جمهوريات ايتونيا، لاتفيا، وليشوانيا، التي احتلت حديثاً وكذلك، فان هذا على وشك الحدوث ايضاً في جمهوريات ارمينيا، اذربيجان، وجورجيا، المختلفات دينياً وتادجستكتان، تركمنستان، اوزبكستان، وكازستان ذي الاغلبية الاسلامية، بل ايضاً في اوكرانيا السلافية، وهذا هو الاكثر خطورة

من وجهة نظر موسكو، وبالتالي روسيا البيضاء بشكل حتمي، بالرغم من هذه قد تقدمت في عملية التحول الى الروسية (Russification) . وتضع اوكرانيا بين كل هؤلاء، وكذلك بسبب كبر عدد سكانها وثراء مصادرها الطبيعية، اخطر تهديد اساسي وضمني الى استمرار الحياة في الاتحاد السوفياتي . ولهذا، فمن الممكن جداً ان يكون الاتحاد السوفياتي اول من يتعرض للصراعات القومية المكثفة في العقد الاول من القرن الحادي والعشرين، ويمثل هذا التطور الانتصار الاخير لدعوة القومية الوطنية على الشيوعية.

ان الحل الوحيد البناء لهذا التفسخ السوفياتي المتزايد والذي يلائم الاهداف المعلنة لعملية اعادة البناء، على سبيل المثال الغاء المركزية الاقتصادية، واظهار التعددية السياسية، لن يكون العودة الى استبداد الاتحاد السوفياتي، بل حركة باتجاه كونفدرالية سوفياتية حقيقية. ومع ذلك فمع ان كونفدرالية طوعية حقيقية، لم تعد الاختيار العملي، بالنظر الى العواطف القومية الظاهرة للقوميات غير الروسية. وعلاوة على ذلك، فان اي تنازل لموسكو عن المراقبة الفعلية اقتصادياً وسياسياً، سوف يعني على اي حال النهاية العملية للأمبراطورية الموسكوية، ولروسيا كقوة عالمية ـ وهذا توقع لا يستسيغه الروس العظام.

ومن ناحية اخرى، فسوف يساهم ايضاً، ومن المحتمل ان يسارع كذلك، انقلاب عسكري مخطط لأنهاء الازمة المؤجلة، ولاعادة الهيمنة المركزية، في ذبول وخذلان الشيوعية الدولية. لأن اي انقلاب هادف الى استعادة التحكم المركزي الفاعل، تحت الظروف الراهنة لأيدلوجية طقسية واسعة، ولأثبات وتأكيد متزايد للقوميات غير الروسية، وحتى وان عُزز، وبُرر بمصطلحات مذهبية، سوف يؤدي ويدنو من المشاعر القومية الروسية العظيمة لشرعيتها السياسية. وسوف يمنح هذا المركز القاعدة الشعبية الضرورية لقمع واضطهاد القوميات غير الروسية. ولكن من المشكوك فيه انه لا يزال في الامكان استئصال واقتلاع مثل

هذه القوميات تماماً، وذلك لعدم امكانية العودة الى الاساليب الستالينية. بعد ان انطلقت العواطف والاهتياجات القومية من مرقدها، فلم يعد ممكناً اغلاق المزلاج عليها باحكام.

ولقد ساعدت عملية الانفتاح في نفس الوقت على اثارة مظاهر عامة اكثر حدة للوطنية الروسية الاصلية. وينحدر بعضها الى الشوفينية السريعة. ولقد افاد المجتمع العام الروسي المتأثر والنشط بشكل فجائي، او الباميات (Pamyat)، من واقع التشويه التدريجي للأيدلوجية الرسمية، والتي تركت فراغاً يمكن ان تملئه الوطنية بسهولة. وبالنتيجة، فلقد انتشرت (الباميات) بين الروس الاصليين، والذين لديهم شعور النقد والاشمئزاز من الدمار الذي وقع على تراثهم الوطني في مدة سبعين سنة من حكم الشيوعية (والتي نسبتها الباميات الى تأثيرات الصهيونية والماسونية) بانسجام ايجابي، وايضاً لخوفهم المتزايد من ان تؤدي الازمة المؤجلة الى تفكك امبراطوريتهم.

وعلى الرغم من وجود تنسيق وردي في مركز الحدود السوفياتية على طريق السكة الحديدية من هلسنكي الى لينينغراط لا يزال يظهر عن شعار متفائل: «نحن نحيا في عصر تؤدي فيه كل الطرق الى الشيوعية»، فان كل المتناقضات المستقبلية للأتحاد السوفياتي تنذر بالتراجع عن الشيوعية. لأن نجاح عملية اعادة البناء سوف يفرز تخفيف ملحوظ وهام لتطبيق الشيوعية. وسوف تثير الثورة المؤجلة الى عدم استيعاب النظام السياسي لعملية تحول هادىء وفاعل للسلطة الى مجتمع حكم ذاتي اكثر نشاطاً. وسوف يعني الجمود والركود المتجدد ان الشيوعية لا تستطيع ان تنمو ابداعياً. وسوف يشوه ايضاً انقلاب قمعي مبني على الوطنية والعقائدية الاتحاد السوفياتي دولياً، بينما سوف يمثل التشظي والتحلل هزيمة تاريخية. ولذلك فان ما يتضمنه مستقبل الاتحاد السوفياتي الغير ثابت نشاطات سياسية واجتماعية مخالفة لمظهر الشيوعية العام والتوقعات العالمية.

ومن المحتمل جداً ان تزيد التغييرات السياسية والاجتماعية في اوروبا

الشرقية من الازمة العامة للشيوعية. لأن هذه التغييرات سوف تختلف من دولة لأخرى، وسوف تُستمد من الدوافع الوطنية والشعور والاحساس الجديد للجماعية الفوقومية. ومن المحتمل ان تزيد الدوافع القومية من الصراعات التقليدية ـ مثل النزاع الهنغاري ـ الروماني حول اقليم ترنسلفانيا ـ بينما من الممكن ان ينتج الاحساس الجديد للجماعية الفوقومية البديل لأثار تخلف دولية وعالمية الشيوعية بظهور الدعوة المتزايد لأوروبا متحدة. وحيث ان اوروبا الغربية تسير باتجاه اتحاد اقتصادي عضوي وحقيقي اضافي، وحيث ان وحدتها السياسية تظهر في سياق التوحيد الاقتصادي، فان انجذاب الاوروبيين الشرقيين لأوروبا الغربية حضارياً وتاريخياً سوف يزداد. وهذا بدوره سوف يدعم المصلحة الاقتصادية الذاتية للأوروبيين الشرقيين لكي يصبحوا معروفين اكثر بهويتهم الاوروبية. وسوف تقف عملية اوروبا متحدة اكثر تقدمياً، اقتصادياً وفاتنة حضارياً، بموقف مثير وساحر مخالف لأتحاد سوفياتي مضطرب وجامد.

ولذلك فلم تعد الشيوعية تلائم اوروبا الشرقية، لا كفكرة موحدة ولا كنموذج للتطور الاجتماعي. لأنها كفكرة لم يعد لها اي افتتان فكري. ولقد تشوهت كنموذج حتى بين النخب الحاكمة. وعلى هذا يظهر سؤالان وثيقا الصلة بالموضوع، الاول، كيف ستحدث عملية تفكك المؤسسات الشيوعية القائم؟ والثاني، هل ستقود هذه العملية الى انظمة اكثر قرباً وتجانساً للديمقراطيات الغربية ام ستقود الى دكتاتوريات وطنية.

وتختلط الصورة جداً. لأن كل دول اوروبا الشرقية تقريباً سوف تسعى الى روابط اكثر قرباً مع اوروبا الغربية. مع احتمال ان تحتل بولندا وهنغاريا موضع الصدارة في هذه المسيرة. ومن المحتمل ايضاً ان تحتل هاتان الدولتان موقع الزعامة في الانفكاك المتقدم عن الاجراءات المؤسساتية السوفياتية المفروضة. وسوف يستمر ظهور المجتمع المدني المستقل ذاتياً وغير واقع تحت تأثير المراقبة السوفياتية في تضييق مجال سلطة سياسية تعسفية في كلا البلدين، وفي الحث

على قيامه واحياء حياة سياسية اصيلة وحقيقية. ومن المحتمل ان تصل كلا الدولتين، قبل اي دولة اخرى من دولة اوروبا الشرقية، الى الخط المحوري الفاصل بين نظام دفاعي، متراجع ومتسامح، ومع ذلك لا يزال - حسب المصطلحات السلطة السياسية - شيوعي، احتكاري، وبين ظهور ديمقراطية تعددية حقيقية، مع حرية حقيقية للخيار السياسي.

وسوف يكون من الصعب اجتياز هذا الخط. فلم تتجاوز اي دولة شيوعية هذا الخط غير المرئي بسلام. (ان التغييرات التي حصلت في بولندا وهنغاريا قد حدثت بعد الانتهاء من تأليف هذه الكتاب - المترجم). وتعتبر هنغاريا افضل مرشح لهذا الاجتياز السلمي. وذلك لأنها اصغر حجماً واقل تأثيراً جغرافياً على السوفيات، وهذا يعني انه من غير المحتمل ان تتورط موسكو في تدخل تمزيقي في تطور الدولة الداخلي. ولأن نخبتها السياسية اكثر حكمة، وتشعر بامان اكثر بعض الشيء من نخبة بولندا. ويجيز هذا كله التحول التقدمي لمجتمع هنغاري مدني ظاهر الى مجتمع سياسي بمواصفات تعددية اصلية. اما في بولندا، فمن الممكن ان تكون التوقعات لأجتياز سلمي ليست جيدة تماماً، بالرغم من الواقع ان مجتمع بولندا قد اكد تحرره الذاتي بقوة ونشاط اكثر من هنغاريا. ويوحي، من جهة اخرى، استمرارية وقوة المشاعر القومية البولندية والوهن النهائي الاخير للحكام الشيوعيين، ان امكانية مرحلة اضطراب هي حالة لا تجنبها مصاحبة لزوال الشيوعية - مع ان هذا يعتمد كثيراً بالطبع على درجة قبول واذعان الاتحاد السوفياتي لهذه العملية.

وتختلط الصورة في مكان آخر اكثر. فلقد اصبحت المانيا الشرقية، بروسيا شيوعية منضبطة ومهدفة ومنتجة. ومن الممكن ان تبقى هكذا لفترة ما، وخصوصاً ان المانيا الغربية تساهم بكرم في رفاهها الاقتصادي. ومع ذلك، فالذي يمكن ان يساعد في نجاحها هو تقاليدها الحضارية والوطنية الواضحة، اكثر من ان تستطيع ان تفعل الشيوعية ذلك. ومن المحتمل كذلك ان تتبع تشيكوسلوفاكيا

النمـوذج الهنغـاري ـ البـولنـدي في تفكيك متقدم للمؤسسات المستمدة من السـوفيات، وفي السعي الى روابط اكثـر قرباً مع اوروبا. وسوف يساعد اي اضطراب سوفياتي داخلي مؤجل في احياء المشاعر التي حرضت في وقت ما وافرزت عن حوادث ربيع براغ، وبهذا تظهر فترة جديدة من الاهتياج السياسي. اما رومانيا وبلغاريا، فسوف تكونان المتأخرتين في هذه العملية، ولكن سوف تعتمدان على الدوافع الوطنية بشكل متزايد في تعريف وتحديد سياستهما المحلية.

وسوف يؤثر طبيعة الرد السوفياتي على التغييرات السياسية في اوروبا الشرقية على سرعة ومدى التغيير في الاتحاد السوفياتي نفسه. . فاتحاد سوفياتي يتسامح مع التغيير في اوروبا الشرقية، من الممكن ان يكون اتحاد سوفياتي ينشغل في مطالبة طويلة الامد، ومن المحتمل محيرة، وتقريباً اكيد مضطربة لأعادة بناء محلية خاصـة. امـا اتحاد سوفياتي يحاول ان يحطم قسراً التغيير في اوروبا الشرقية، فمن المحتمل ان يكون اتحاد سوفياتي يخفف هو نفسه من يبطء من اصلاحاته. ومن الممكن ان تكون نهاية فعلية لعملية غورباتشيف لأعادة البناء، الثمن الذي سيدفع للحفاظ على الامبراطورية الخارجية. وفي كلا الحالتين ـ اذا سعت اوروبا الشرقية فعلياً الى الانضمام الى اوروبا اكبر حجماً، او ان تتعرض ثانية للقمع بالمراقبة السوفياتية ـ فسوف تكون في موقف مضاد للموقف الشيوعي العالمي.

ويبدو ان التطورات الحالية في الصين فقط هي ان تثير الى تجديد حيوية الشيوعية. ولكن حتى هنـا لا يمكن ان يكون الوضع حقيقي. فكما تكشف بالفعل، فان احتمال نجاح الصين اكثر من فشله في جهوده الحالية للحث على دخوله السريع في منطقة شواطىء المحيط الهادي المزدهرة. ومع ذلك، فسوف تفعـل ذلك من خلال سياسات اقل ارتباطاً مع المبدأ الماركسي ـ اللينيني، وتشترك في السياسات الناجحة اقتصادياً، والتي تتبعها بعض الدول غير الشيوعية

المجاورة للصين، وتضم التشدد والحماس للتجارة الخارجية كمصدر حافز للنمو الداخلي. ويمكن لتجارة شيوعية، وحتى وان كانت فاسدة، ان تحرز معدلات نمو عالية، ولكن على مستويات تقليد عقائدي منخفضة. وسوف يظهر اي نجاح اقتصادي في الصين الى جدال لتخلي اضافي عن المبدأ، ويفسد كمثل لدول شيوعية اخرى، مثل فيتنام، وكوريا الشمالية. وبذلك سوف يكون التقليد المذهبي قد انتهى وصفي بشكل اضافي.

ولا يتبع هذه التراجعات في اقتصاد الصين برامج يمكن ان تبعث او تشرع الايدلوجيا. فعلى العكس من ذلك، فمن المحتمل ان يعتبر العديد من الصينيين ان اي فشل سوف يكون اثباتاً اضافياً على انه اي نجاح اقتصادي غير ممكن في وضع شبه شيوعي، ويمكن تحقيقه فقط بالتخلي الكامل عن كل التقاليد الماركسية ـ اللينينية التي تقف عائقاً امام الحرية السياسية. وبهذا، ومع مرور الوقت، فمن المحتمل ان تصبح الابعاد السياسية للتغيير اكثر اهمية.. لأن الصين مقدرة تقريباً بشكل حتمي بان تمر بتوترات سياسية مكثفة.

وبالفعل، فانه من المحتمل مواجهة عملية طويلة الامد لتعددية اقتصادية متزايدة بدون ظهور مجتمع مدني في الصين يبدأ في تأكيد طموحاته السياسية. ومن المحتمل ان يفرز ذلك مواجهة صعبة، وعاصفة بالاساس. ولذلك فيمكن ان يكون النجاح الاقتصادي عند نقطة ما، الحافز الى ازمة سياسية، والتي بدورها يمكن ان تشكل خطورة على مثل هذا النجاح الاقتصادي. ولا يستطيع القادة الصينيون تجنب مواجهة الواقع لأنه بالنهاية لا توجد حالة وسطية بين الشيوعية المركزية واللامركزية ومجتمع مدارٍ ذاتياً الى ما لا نهاية.

ويظهر ان الغرض لأنتشار الشيوعية، خارج نطاق الانظمة الشيوعية القائمة، من خلال ثورة او صناديق الاقتراع، محدود جداً. ومن المحتمل اكثر، مع تشظي الايدلوجية الماركسية ـ اللينينية، ان تستمد الاعمال الثورية، وخصوصاً في العالم الثالث، من الظواهر والاسباب المحلية، والتي تحثها وتحفزها المبادىء

الهجينة، والتي تشرك بعض العناصر الماركسية مع مصادر محلية اضافية باعجاب عاطفي وفكري. وتعطي ثورة الطريق الساطع في بيرو والتحرر اللاهوتي في امريكا اللاتينية امثلة لهذا التكييف. ومن المحتمل ان تظهر اشكال اخرى نفسها ايضاً، ممزوجة بشكل خاص ببعض المضمون الديني، في تلك الاجزاء من العالم، حيث يقود اليأس والاحباط العنف السياسي.

وتتجه بعض العناصر الماركسية لتكون جزءاً من اي مبادىء متبقية بعد عنف ثوري وبعد عملية بناء سريعة وقهرية. وذلك لأن نظرية التاريخ الماركسية على انها جزء من ميراث العالم الفكري، واي زعيم راديكالي سوف يماثل بقصد أو بدون قصد بعض الافكار الماركسية في مظاهره الثورية. ولن تبرز هذه العناصر كمركب كامل والذي يجب قبوله كاملاً. لأن الماركسية - اللينينية قد فقدت الشرعية التاريخية كعقيدة شاملة متوسعة.

وعلاوة على ذلك فلقد ظهر ميل واسع، حتى داخل صفوف الشيوعيين، باتجاه مسكونية فلسفية، مذكرة بعض الشيء بالدين المنظم الذي ظهر في السنوات الاخيرة. ويعتبر الميول المتزايد للمعلقين السوفيات للتسليم بان بناء الشيوعية في الاتحاد السوفياتي يضم تحريف عقيدي، ويبعد التجربة السوفياتية عن اي صلاحية عالمية، كمثال جيد لهذا التفكير «النسبي». ولذلك فمن المحتمل ان يُرحب بالفلسفة العملية الفكرية والفلسفة التوفيقية كأشارات للقدرة الاحتمالية المضاعفة، ولكنها تعتبر ايضاً الأداة اللاتفريقية المذهبية او الدينية، والتي تعتبر بدورها المرحلة الاولى من تبديد جوهر المعتقدات. وتضم ايضاً التحول الضمني من الاستبدادية الى النسبية، ومن معتقد الى رأي. وهذا التحول هو المعضلة الشيوعية.

الفصل الرابع والعشرون

ما بعد الشيوعية

وتبرز الآن ظاهرة ما بعد الشيوعية. فبينما لم يصبح القرن العشرون عصر الانتصار الشيوعي، فلقد كان عصرٌ عليه تحديها. ولكن فقد تقهقر ذلك التحدي بسرعة حالما ذبلت الشيوعية. لأن مفارقة المستقبل هي ان نجاح الشيوعية يقاس بشكل متزايد بالنظر الى قدرتها في التحرك باتجاه المغامرة الحرة، وحل وفك المراقبة المباشرة للحزب على حياة المجتمع السياسية.

وبذلك فسوف يكون نظام ما بعد الشيوعية هو الذي تقدمت فيه عملية إذبال واذواء الشيوعية الى درجة لا تستطيع فيه لا النظرية الماركسية ولا الممارسة الشيوعية السابقة املاء او فرض السياسة العامة الجارية. وببساطة شديدة، فسوف تكون مرحلة ما بعد الشيوعية نظام لا يتعامل فيه الشيوعيون المعلنون ذاتياً مع المذهب الشيوعي بجدية كمرشد ودليل الى سياسة اجتماعية، ولا هؤلاء الذين يأخذونها كمصدر لشرعية سلطتهم بينما يتجمد نظامهم ويركد تحت حكمها، ولا الذين يقبلونها لكي يمارسوها، وهم بالواقع يخففون من جوهرها بنجاح، ولا الذين يرفضونها دون خوف من ان يفعلوا ذلك علناً. ويمكن القول ان الاتحاد السوفياتي والصين، واوروبا الشرقية، تقترب، وعلى درجات مختلفة، من مرحلة ما بعد الشيوعية.

وتفرز العملية التاريخية الجارية لظهور مرحلة ما بعد الشيوعية بروزاً خاصاً لسؤالين حساسين وهما:

١ ـ هل سيقود التحول من الدكتاتورية الماركسية ـ اللينينية تدريجياً الى تعددية ديمقراطية ام الى الفاشستية القومية الوطنية؟

٢ ـ ماذا سيعتبر التراث السياسي والفكري لشيوعية القرن العشرين.

وبالفعل، فمن المحتمل ان يصبح موضوع التحول الى بعد الشيوعية الاكثر تشوقاً فكرياً، والامر الاكثر مركزية سياسياً بالنسبة الى الذي لا يزال يسمى الآن العالم الشيوعي. وسوف يكون في كل الاحتمالات، المعضلة المهيمنة التي تواجه هذا العالم خلال عدة عقود قادمة، وسوف يفرض ليس فقط الامور التحليلية، بل الامور العملية ايضاً. وفوق التكهن الصافي لما يمكن ان يحدث، فان هذا العالم الشيوعي يطلب ويرجو الاستراتيجية الغربية المصممة خصيصاً لتعزيز توقعات التحول ما بعد الشيوعية الى الديمقراطية.

وفي مصطلحات اوسع، فانه يوجد بديلان تقليديان طويلا الامد للأنظمة الشيوعية على ضوء الفشل والاحباط الشيوعي الكبير. اما الاول فهو الانضمام والاشتراك في مجتمعات تعددية. وسوف يعني هذا اشراك مستويات مختلفة من القطاعات الاقتصادية الخاصة، والدولانية المختلطة، والتي يشرعها الاسلوب الديمقراطي الاجتماعي، والتي سوف تنشىء بذلك، في بعض الحالات، نقطة انطلاق لعودة شعبية مصممة باتجاه نظام حر مغامر ومهيمن، اما البديل الثاني فهو الركود والجمود تحت تنظيمات وترتيبات مؤسساتية، مع تصليح غير بارغ او فاعل يقوم به الذين في السلطة للهوامش الجانبية، ولكن مع المحافظة على السلطة الدكتاتورية من خلال تحالف عسكري شرطي، والذي يعتمد بشكل متزايد على الافتتانات والدعوات القومية الوطنية ـ بدلاً من المبدأ الشعائري ـ كمصدر اساسي للشرعية السياسية. اما السؤال الذي يطرح نفسه في كلتا الحالتين، ولو بشكل جانبي، هو اذا كان من المحتمل ان تكون الحركة الى اي من الاتجاهين تطويرية، ام سوف تستلزم بعض الثورات والاهتياجات العنيفة.

ولكن السجل التاريخي لا يقدم الكثير من التشجيع للبديل الاول لحد الآن، لأن الوضع يختلف عن الانظمة الفاشستية في اسبانيا والبرتغال، والتي احدثت امكانية تغيير تطويري بالسماح بوجود مجموعات ضخمة من النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، والتي يمكن تحويلها عند نقطة الاتصال، لمصادر تعددية لنشاط سياسي. ومع ذلك فلقد انشأت الانظمة ذات الاسلوب السوفياتي، نموذجاً استبدادياً لتنظيم اجتماعي، والذي يعوق ويمنع اظهار مثل هذه التعددية السياسية الضمنية. وحتى في الانظمة غير الاستبدادية نسبياً، مثل يوغوسلافيا، فلقد عمل التقليد الشيوعي الاحتكاري، والمتجذر بشكل خاص باللينينية، ضد ظهور مصادر بديلة للقيادة السياسية، ولقد احبطت ايضاً لغاية الآن، عملية التحول المتقدمة للدولة الى شيء يقارب من الديمقراطية الاجتماعية.

وعلاوة على ذلك، وكما لوحظ بالفعل، فلقد حاولت النخبة الشيوعية في كل مكان، ومع الذبول الايدلوجي، ان تعزز شرعية سلطتها من خلال النغمات الحادة للأفتتانات القومية ـ الوطنية. فلقد حدث هذا في بولندا الشيوعية، حيث فُرضت القيادة العسكرية بالقوة على زعامة الحزب. ولقد كان هذا يحدث في الاتحاد السوفياتي ولكن بعلنية اقل، ولكن من المحتمل ان يزيد ويكثف هذا التوجه من التفسخ المذهبي المتنامي. وقد تظهر الوطنية القوية العميقة بشكل اكيد بين الزعماء الصينيين، مع ان هذا سوف يعمل ضد الصلاحية المستمرة للمذهب الشيوعي. لأن لدى الافتتان القومي التأثير لتقوية ودعم الدوافع الاستبدادية. وسوف تعزز هذه المؤسسات في السلطة، والتي تترجم فعلياً الرموز الوطنية ـ القومية الى حكم مذهبي، مانعةً بذلك التطوير والنشوء الديمقراطي.

وسوف يكون من الخطأ عدم اعتبار امكانية التحول ما بعد الشيوعية الى طريق اكثر ديمقراطية. فلقد تنبأ التحرر الاجتماعي الذاتي في بعض الدول الشيوعية، والمجتمعات المدنية الناتجة عن ذلك، والمتواجدة معها، ولكن دون

ان يسيطر عليها النظام السياسي، بالتحول التقدمي الى صيغ واشكال تعددية حقيقية واصلية اكثر. ولهذا فان وسائل الاتصالات الجماهيرية لها اهمية خاصة جداً، لأنها ليس فقط تكسر الاحتكار الشيوعي على حوار المجتمع السياسي، بل تجعل من الترابط لأداء سياسة بديلة ممكناً.

والجدول المرافق في الصفحة التالية لا يوصف المراحل الاحتمالية للتراجع والانسحاب عن الشيوعية فقط، بل يوحي ببعض الشكوك ايضاً في تتابع التغيير السياسي الضمني داخل الانظمة الشيوعية القائمة. وكما يقترح التحليل السابق، فان المرحلة حساسة، ولكن ضرورية هي مرحلة التراجع الثانية ـ وهي مرحلة الشيوعية الفاشستية ـ والتي يمكن ان يتطور النظام منها الى اربع اتجاهات بديلة. وكما لوحظ ايضاً فان المرحلة الاكثر احتمالاً هي المرحلة الثالثة ـ وهي مرحلة الفاشستية ما بعد الشيوعية ـ والتي تضم اختيارات احتمالية اقل، منها التشظي، ومحاولة العودة الى مرحلة الاستبدادية، او التطوير المباشر الى تعددية ديمقراطية.

المراحل في التراجع والانسحاب عن الشيوعية	الحالة التاريخية
المرحلة الاولى: الاستبدادية الشيوعية	البانيا
الحزب الشيوعي يراقب النظام السياسي	كوريا الشمالية
النظام السياسي يراقب المجتمع والاقتصاد	فيتنام
التحول الى المرحلة الثانية: بالصراعات المتلاحقة والتي	المانيا الشرقية
تقسم الحزب الشيوعي الحاكم، وتزيد من الضغوط	رومانيا
الاجتماعية لتنازلات اقتصادية اجتماعية	كوبا
	تشيكوسلوفاكيا
المرحلة الثانية: الفاشية الشيوعية	الاتحاد السوفياتي
حزب شيوعي يراقب النظام ولكن بظهور	الصين
المجتمع المدني المعارض له؛ التفقو السياسي	

في الاقتصاد وفي الدفاع
التحول الى المرحلة الثانية: الاكثر احتمالاً انقلاب
على مستوى نيغاراغوا
عالي كرد على تخوفات النظام من الضغوطات هنغاريا
الاجتماعية النامية؛ في حالات استثنائية، التوجه مباشرة الى المرحلة
الرابعة، أو بدلاً من ذلك، واذا اغلق التغيير، تشظي نظامي جهازي،
او محاولة قمعية للعودة الى المرحلة الاولى. بولندا
المرحلة الثالثة: الفاشية ما بعد الشيوعية
نظام فاشي يعتمد على الافتتان القومي الوطني،
ايدلوجيا شعائرية، مجتمع مدني يصبح مجتمعاً سياسياً؛ يوغوسلافيا
التفوق السياسي على الاقتصاد في تراجع واسع
التحول الى المرحلة الرابعة: الاكثر احتمالاً اضطراب في نهاية المرحلة
الثالثة، بالرغم من امكانية التطوير السلمي في بعض الحالات
الاستثنائية، والبديل، اذا اغلق التغيير تشظي جهازي.
المرحلة الرابعة: التعددية ما بعد الشيوعية
الانظمة السياسية والاقتصادية تصبح تعددية.

على اي حال، فان فقدان وخسارة الاحتكار الشيوعي للأتصالات الجماهيرية في عملية التغيير هذه هي الاساس في عملية تحطم الاستبدادية الشيوعية. لأن العمليات التالية سوف تحدث تحت الظروف الشيوعية، وخصوصاً في التعليم المذهبي الاحتكاري، المكثف، وهي خلق جمهور منفر ومبتعد عقائدياً ومتشوق لأستيعاب صيغة جديدة، ويستولي لذلك على وسائل الاتصالات الشعبية الفنية الجديدة ـ مثل الاذاعات الخارجية، التلفاز، الاشرطة السينمائية المسجلة، الصحافة السرية ـ وذلك لتشكيل وصياغة تعارض وانشقاق في حال ارتقاب وتوقع سياسي غامض. وسيمكن الفشل الاقتصادي المفكرين النشطين سياسياً من تحويل هذا الارتقاب والتوقع الى مطالبات ليس فقط

اقتصادية ـ اجتماعية، بل تعددية سياسية وحكم القانون ايضاً. وقد تساهم الاصلاحات الاقتصادية الشيوعية المتأخرة، والمتضمنة تنازلات، والغاء للمركزية، بدون قصد، في عملية تحول فشل هذه التغييرات الاقتصادية، والسياسية الى مؤسساتية، والتي تنتج تراكمياً انقضاض اجتماعي على الدكتاتورية الاستبدادية.

وفي الامكان تشجيع هذه العمليات، والتي تؤثر حالياً في بعض اجزاء العالم الشيوعي، من خلال استراتيجية غربية بعيدة النظر، لترقية التحول الى الديمقراطية في ما بعد الشيوعية. ويمكن اعتبار مرحلة التحول الى الفاشية القومية بعد الشيوعية، في هذه الاستراتيجية وحتى في معظم الحالات، كمرحلة لا يمكن تجنبها ولا بد منها في عملية التفكيك المتقدمة للأنظمة الماركسية ـ اللينينية. ومع ذلك، فمن المؤكد انه في صالح الديمقراطية ان لا تطول هذه المرحلة الفاشية، بل تكون فترة قصيرة قدر الامكان، وخصوصاً انه يمكن ان يتفجر عدم الصبر الشعبي بسهولة، وذلك بسبب الحرمان الاقتصادي، والمشاعر الاستيائية الشعبية ضد الحكم الشيوعي، الى ثورة اولية اصلية تاريخية واسعة، والتي بدورها تثير وتحرض على ردود فعل شيوعية قمعية اكثر صلابة وتأكيداً. ولذلك، فالاستعجال التاريخي في ترقية وترفيع التحول الى الديمقراطية فيما بعد الشيوعية موجود ومفروض.

وكذلك، فان التأثير القوي الفاعل لدعوة حقوق الانسان، مهماً بشكل خاص في تسارع عمليات الذبول والاضمحلال الشيوعي. لأن حقوق الانسان هي الفكرة المفردة الاكثر جذباً في الزمن المعاصر. ولقد وضع نداء الغرب لهذه الدعوة كل الدول الشيوعية في حالة دفاع. وتصبح دعوة حقوق الانسان ايجابية في ظهور جماهير مثقفة وواعية سياسياً. والتي لا يمكن بعد ذلك ان تعزل، او تلقن مذاهب خارجية. ومن المحتمل ان تكون الانظمة الفاشية بعد الشيوعية سريعة التأثر وحساسة لدعوة حقوق الانسان، وذلك بسبب فقدانها للأيدلوجيا

الشاملة، الصادقة، والمقنعة، وبذلك سوف تكون هذه الانظمة منفذة مذهبياً وهشة سياسياً.

ولم يضع نداء الغرب لحقوق الانسان الانظمة الشيوعية القائمة في حالة دفاع فقط، بل افاد في انفصال الشيوعية عن الديمقراطية داخل الادارك الحسي العالمي ايضاً. فلقد اقيمت علاقة واضحة ومصقولة جداً بين نظام ذي عدة احزاب وبين الاقتصاد التسويقي، والديمقراطية الحقيقية، وذلك من التركيز العالمي على عمليات انكار حرية الاختيار، وانتهاك الحقوق الفردية، وغياب حكم القانون، والاحتكار السياسي لوسائل الاتصال الشعبية، والحياة الاقتصادية تحت الحكم الشيوعي. وتعتبر التعددية بعد ذلك مثل الترياق للنظام الفاشي. ولقد اصبحت النتيجة القبول الواسع الانتشار، حتى داخل الدول الشيوعية، بان عبارة الديمقراطية الشيوعية هي الفاظ متناقضة.

ويمنح التكاثر النشط لحقوق الانسان ايضاً الشرعية الفلسفية لأرتباط ديمقراطي مباشر اكثر، ومصمم لتغذية المجتمعات المدنية المستقلة ذاتياً والثابتة سياسياً داخل الانظمة الشيوعية القائمة. وبذلك يصبح ظهور مجتمع حكم ذاتي مدني نقطة انطلاق للتحرر الذاتي الحتمي للجتمع من المراقبة الشيوعية. وتنطلق الآن بالفعل المجموعات المستقلة بعفوية نسبية في العديد من الدول الشيوعية، ومنهم الاتحاد السوفياتي، مستفيدة من الوسائل الفنية الجديدة للأنتشار الاعلامي الشعبي. ويستطيع كذلك الحوار السياسي المستقل ذاتياً والظاهر، ان يساهم في بروز الاجماع الديمقراطي بالنظر الى التغييرات الاقتصادية ـ الاجتماعية المطلوبة، وبعد ذلك في تحويل الانشقاق الى معارضة سياسية قادرة عند نقطة ما، اما مناقشة تحول سلمي للسلطة، ان تفجير انحلال، وفساد الاستبداية الشيوعية الثابتة وتحويلها الى حكم فاشي مدافع ما بعد الشيوعية.

وبالفعل، فان من المحتمل ان تصبح بعض الانظمة الشيوعية في اوروبا

الشرقية، القائمة حالياً، ويعد ان تمر بمرحلة ما بعد الشيوعية، مع بعض العنف، منـدمجـة ومنصهـرة حتمياً داخـل الكيان العالمي. فان تبادل النمو العلمي، والعلاقات الفكرية، وحتى العلاقات الاقتصادية تستطيع ان تساهم في عملية التغيير الديمقراطي، وخصوصاً اذا تزامن مع الجهود لتعزيز ظهور المجتمعات المدنية المستقلة ذاتياً وحقيقياً داخل الانظمة الشيوعية القائمة. ولذلك، فمن المقـارنـة التاريخية المؤلمة ولكن التي تبعث على الامل، ان الشيوعية بنظر البعض سوف تعتبر مرحلة تحول مكلفة وغير مقصودة من مجتمع قبل مرحلة التصنيع الى ديمقراطية تعددية اكثر تطوراً اجتماعياً.

وايضاً فان واقع ان الديمقراطيات التعددية سوف تستوعب داخل انظمتها في هذا القرن بعض المظاهر البناءة والاكثر اعتدالاً في النظرية الماركسية لمجتمع كامل، ان يعزز مثل هذا الانصهار والامتصاص الحتمي لبعض الدول الشيوعية داخل كيان عالمي اوسع. ولقد شهدت العقود السابقة هذا الدمج حتى داخل تلك الانظمة الديمقراطية، والتي تميل اكثر الى تعلق بالعمل الحر، بمبادرات مختلفة تحت رعاية الدولة في مناطق الانعاش الاجتماعي، والفرصة المتساوية للتـطور الشخصي، والعـرض الضـريبي المتـزايد للتخفيف من المفـارقـة الاجتماعية، والتقدم في النظام التعليمي للأشخاص الاقل امتيازاً وحظاً، وتقديم الخدمات الطبية الاساسية للجماهير، وذلك مع تزويد الديمقراطية الاجتماعية للعـديد من الـدوافـع في الغـرب للبـرامـج العـامـة والمصممـة لتعزيز الرفاه الاجتمـاعي. وبـذلـك فان ديمقراطية تعددية وعمل حر، تطالب ايضاً بوعي اجتماعي اكثر تطوراً.

ولقد افاد اشعال الوعي الاجتماعي في الديمقراطية السياسية في توضيح وتفسير اقوى لعبارة ان الشيوعية لم يعد لديها اي مهمة تاريخية. فلقد اوجد احساس وشعور الديمقراطية العالي للمسؤولية الاجتماعية المشدودة باحكام الى حرية الاختيار السياسي ـ وهذه صيغة لا تبخل الدولة فيها، بل تستعمل التقوية

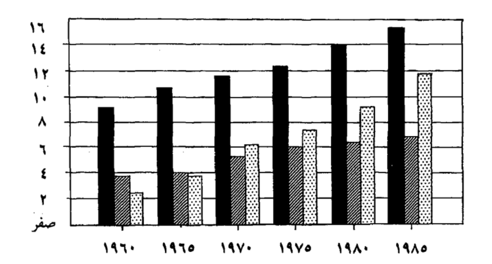
وتعـزيز التعبير الـذاتي الاجمـالي والفـردي - تقنية متفوقة لأرضاء المتطلبات الانسـانية، كذلك لحماية حقوق الانسان. ويعكس الحماس المنتشر عالمياً للمبادرة الفردية، والتضامن المستقل سياسياً الادراك الواسع بانه يمكن تحويل الاحلام البشرية المتنامية الى كابوس في حال اذا اصبحت دولة الدوغماتية القوية مبجلة ومعبودة كأداة مركزية للتاريخ.

ولقد اعطت المواجهة البشرية المدمرة مع الشيوعية في القرن العشرين درساً مؤلماً ولكنه مهماً وحساساً ايضاً: وهو التنظيم الاجتماعي اليطوبي يتضارب مع تعقيد الظروف البشرية تقليدياً، ويزدهر الابداع الاجتماعي بافضل شكل عند كبح السلطة السياسية. وبهذا فان هذا الدرس الاساسي يجعل من الديمقراطية - وليس الشيوعية - الاكثر احتمالاً في السيطرة والهيمنة في القرن الحادي والعشرين.

جدول ملحق

الناتج القومي الاجمالي المقدر بالنسبة الى عدد السكان

(بقيمة الاف الدولارات/١٩٨٣)



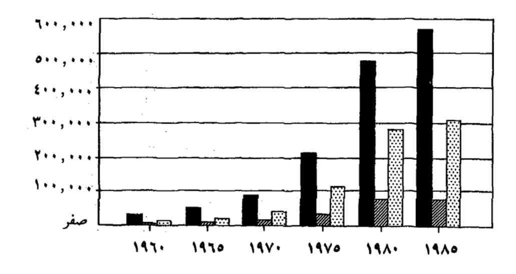
	١٩٨٥	١٩٨٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٦٠
الولايات المتحدة	١٥,٥١١	١٣,٩٦٦	١٢,٢٩٦	١١,٤١٣	١٠,٦٢٩	٨,٧٩٩
الاتحاد السوفياتي	٦,٨٦٣	٦,٤٥٤	٦,٠٢٥	٥,١٢٣	٣,٩١٩	٣,٥٣٢
اليابان	١١,٨٦٤	٨,٩٥٥	٧,٣٠٣	٦,٢٣٢	٣,٨٥٢	٢,٥٠٨

■ الولايات المتحدة ▨ الاتحاد السوفياتي ▒ اليابان

(المصدر: المخابرات الامريكية)

جدول الحجم التجاري في الاسواق العالمية المنافسة

(الاستيراد والتصدير بملايين الدولارات)

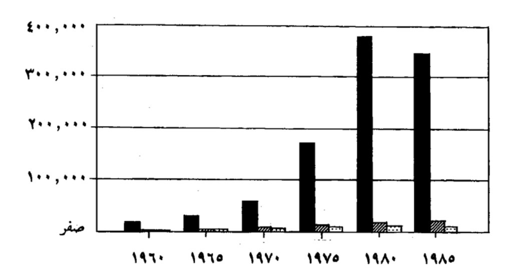


	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٥
الولايات المتحدة	٣٦,٩٩٢	٥٠,٧٦٣	٨٥,٩٣٦	٢١٣,٩٩٢	٤٧٧,٧٧١	٥٧٤,٧٧١
الاتحاد السوفياتي	٢,٩٩٧	٥,٠٥٥	٨,٥١٨	٣٠,٧٩١	٦٧,٠٥٩	٦٥,٩٦٧
اليابان	٨,٥٤٦	١٦,٦٢١	٣٨,١٩٩	١١٣,٥٦٩	٢٧١,٧٣٧	٣٠٧,٦٥٢

الولايات المتحدة ■ الاتحاد السوفياتي ▨ اليابان ░

(المصدر: المخابرات الامريكية)

(الاستيراد والتصدير بملايين الدولارات)



	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٥
المانيا الغربية	٢١,٥٨٧	٣٥,٥٢٥	٦٤,٢٣٥	١٦٥,١٠٦	٣٨٠,٨٦٣	٣٤٢,٤٠٣
المانيا الشرقية	١,٤٣٥	١,٨٤٧	٣,٢٥١	٨,٢٤١	١٥,١٩٢	١٧,٦٢٧
تشيكوسلوفاكيا	١,٣٧١	١,٧٤٣	٢,٧٢١	٦,٠٩١	١٠,٧٨٢	٩,٥٢٧

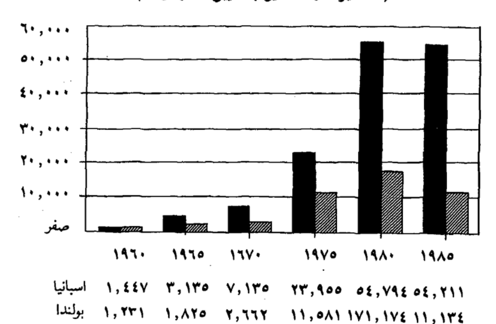
▩ تشيكوسلوفاكيا ▨ المانيا الشرقية ■ المانيا الغربية

(المصدر: المخابرات الامريكية والاحصائيات العالمية للأمم المتحدة)

الارقام تشمل فقط التجارة مع الاسواق الحرة ولا تشمل الارقام التجارية المتبادلة مع دول الكتلة الشرقية (الكوميكون)

جدول الحجم التجاري في الاسواق التنافسية

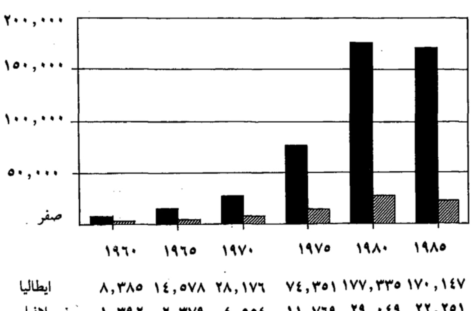
(الاستيراد والتصدير بملايين الدولارات)



بولندا ■ اسبانيا

(المصدر: المخابرات الامريكية والاحصائيات العالمية للامم المتحدة).

(الاستيراد والتصدير بملايين الدولارات)

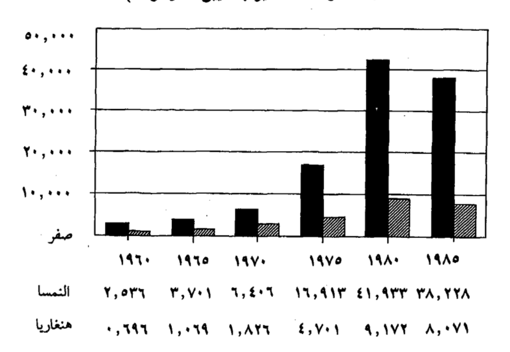


يوغوسلافيا ■ ايطاليا

(المصدر: المخابرات الامريكية، الاحصائيات العالمية للامم المتحدة)

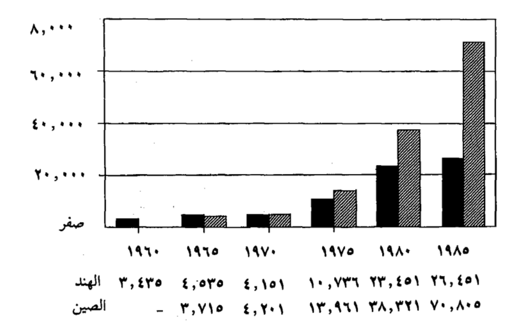
جدول الحجم التجاري في الاسواق العالمية التنافسية

(الاستيراد والتصدير بملايين الدولارات)



النمسا ■ هنغاريا ▨

(المصدر: المخابرات الامريكية والاحصائيات العالمية للامم المتحدة)

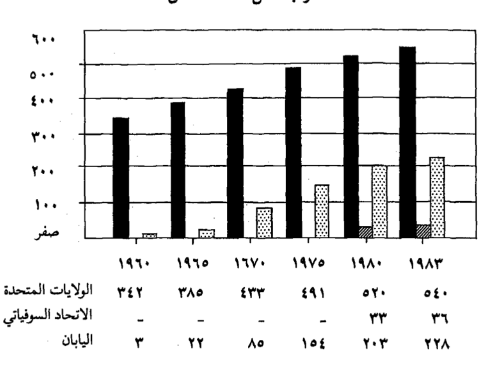


الصين ■ الهند

(المصدر: المخابرات الامريكية)

جدول عدد المركبات بالنسبة الى عدد السكان

مركبة لكل الف شخص

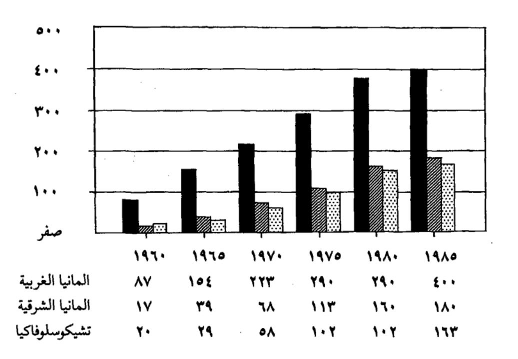


	١٩٦٠	١٩٦٥	١٦٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٣
الولايات المتحدة	٣٤٢	٣٨٥	٤٣٣	٤٩١	٥٢٠	٥٤٠
الاتحاد السوفياتي	-	-	-	-	٣٣	٣٦
اليابان	٣	٢٢	٨٥	١٥٤	٢٠٣	٢٢٨

اليابان ▨ الاتحاد السوفياتي ■ الولايات المتحدة

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة وإحصائيات الامم المتحدة)

(مركبة لكل الف شخص)



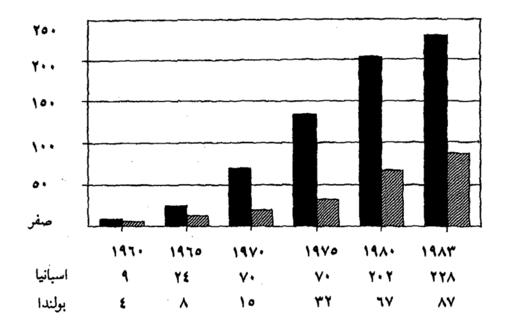
	١٩٨٥	١٩٨٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٦٠
المانيا الغربية	٤٠٠	٢٩٠	٢٩٠	٢٢٣	١٥٤	٨٧
المانيا الشرقية	١٨٠	١٦٠	١١٣	٦٨	٣٩	١٧
تشيكوسلوفاكيا	١٦٣	١٠٢	١٠٢	٥٨	٢٩	٢٠

المانيا الغربية ■ المانيا الشرقية ▨ تشيكوسلوفاكيا ▩

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي : والاحصائيات العالمية للأمم المتحدة)

جدول عدد المركبات بالنسبة الى عدد السكان

(مركبةلكل الف شخص)

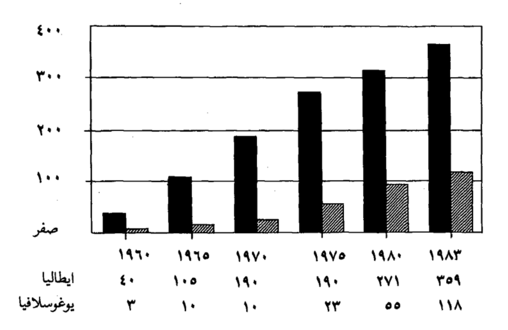


	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٣
اسبانيا	٩	٢٤	٧٠	٧٠	٢٠٢	٢٢٨
بولندا	٤	٨	١٥	٣٢	٦٧	٨٧

بولندا ■ اسبانيا

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي: الاحصائيات العالمية للامم المتحدة)

(الف مركبة لكل شخص)

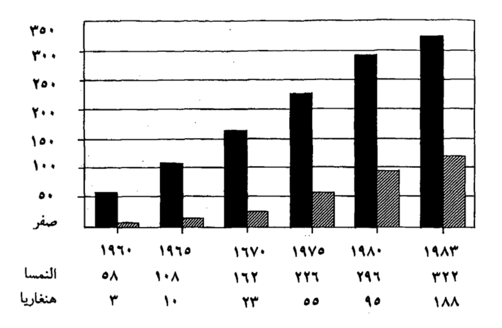


يوغوسلافيا ■ ايطاليا

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي؛ الاحصائيات العالمية للامم المتحدة

جدول عدد المركبات بالنسبة الى عدد السكان

مركبة لكل الف شخص

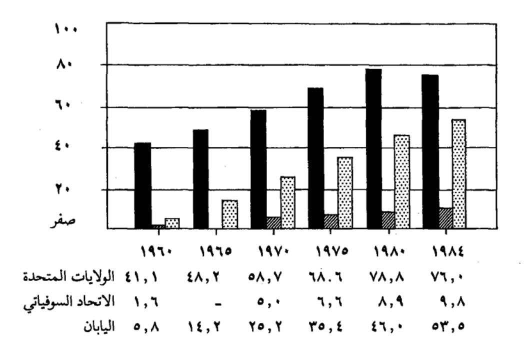


هنغاريا ■ النمسا

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

(مركبة لكل الف شخص)

(وحدة لكل مئة نسمة)



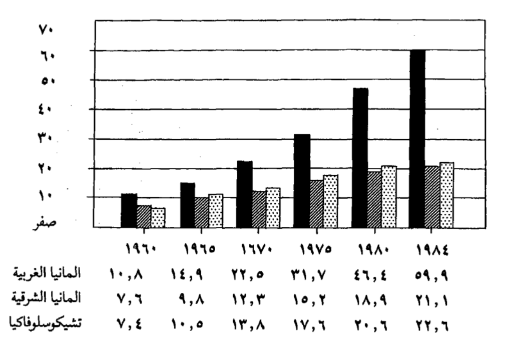
١٩٨٤	١٩٨٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٦٠	
٧٦,٠	٧٨,٨	٦٨.٦	٥٨,٧	٤٨,٢	٤١,١	الولايات المتحدة
٩,٨	٨,٩	٦,٦	٥,٠	-	١,٦	الاتحاد السوفياتي
٥٣,٥	٤٦,٠	٣٥,٤	٢٥,٢	١٤,٢	٥,٨	اليابان

اليابان ▨ الاتحاد السوفياتي ■ الولايات المتحدة

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

جدول عدد الهواتف الى عدد السكان

(وحدة لكل مئة نسمة)

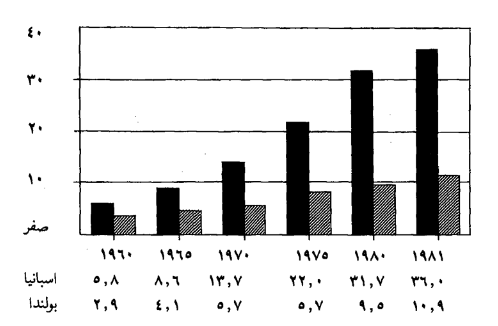


	١٩٦٠	١٩٦٥	١٦٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٤
المانيا الغربية	١٠,٨	١٤,٩	٢٢,٥	٣١,٧	٤٦,٤	٥٩,٩
المانيا الشرقية	٧,٦	٩,٨	١٢,٣	١٥,٢	١٨,٩	٢١,١
تشيكوسلوفاكيا	٧,٤	١٠,٥	١٣,٨	١٧,٦	٢٠,٦	٢٢,٦

▒ تشيكوسلوفاكيا ▨ المانيا الشرقية ■ المانيا الغربية

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

(وحدة لكل مئة نسمة)

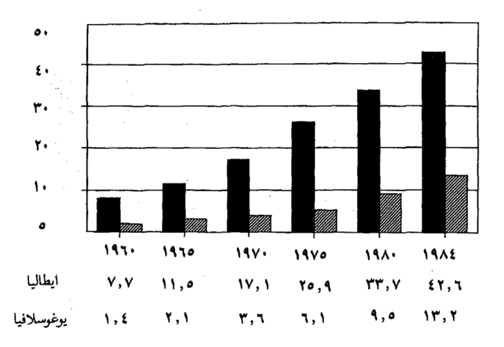


بولندا

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

جدول عدد الهواتف بالنسبة الى عدد السكان

((وحدة لكل مئة نسمة)

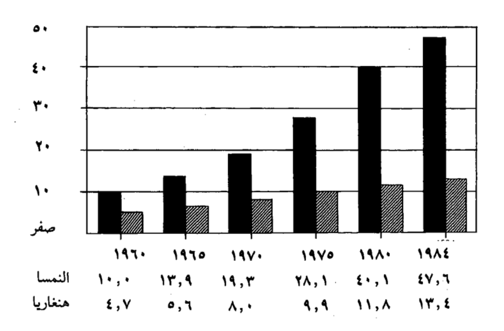


	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٤
ايطاليا	٧,٧	١١,٥	١٧,١	٢٥,٩	٣٣,٧	٤٢,٦
يوغوسلافيا	١,٤	٢,١	٣,٦	٦,١	٩,٥	١٣,٢

يوغوسلافيا ■ ايطاليا

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة

(وحدة لكل مئة نسمة)

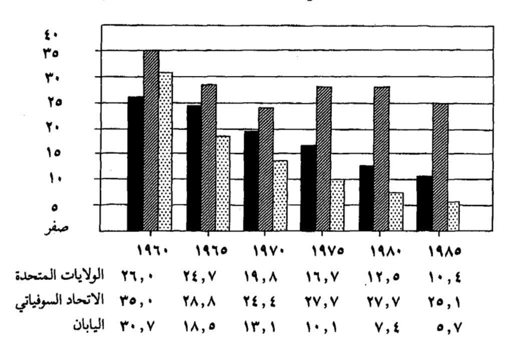


هنغاريا ■ النمسا

(المصدر: الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة

جدول وفيات الاطفال

(عدد الوفيات في السنة الاولى بين كل الف طفل



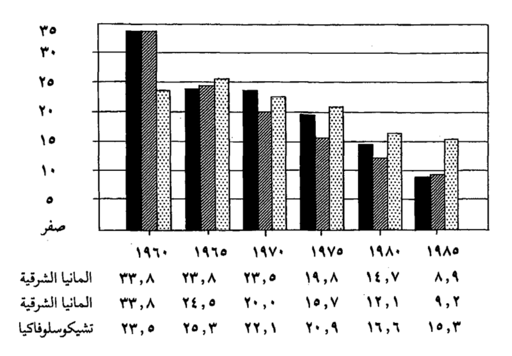
	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٥
الولايات المتحدة	٢٦,٠	٢٤,٧	١٩,٨	١٦,٧	١٢,٥	١٠,٤
الاتحاد السوفياتي	٣٥,٠	٢٨,٨	٢٤,٤	٢٧,٧	٢٧,٧	٢٥,١
اليابان	٣٠,٧	١٨,٥	١٣,١	١٠,١	٧,٤	٥,٧

اليابان ▨ الاتحاد السوفياتي ■ الولايات المتحدة

(المصدر: الكتاب السكاني السنوي للامم المتحدة

(الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

(عدد الوفيات في السنة الاولى بين كل الف طفل



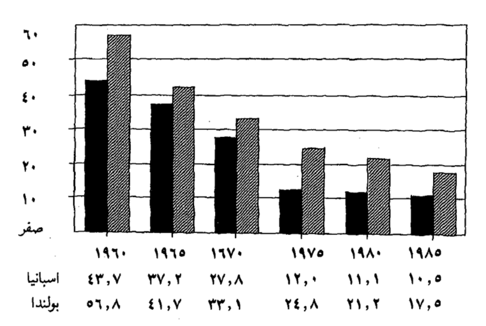
تشيكوسلوفاكيا ▨ المانيا الشرقية ■ المانيا الغربية

(المصدر: الكتاب الاحصائي السكان السنوي للامم المتحدة

(الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

جدول وفيات الاطفال

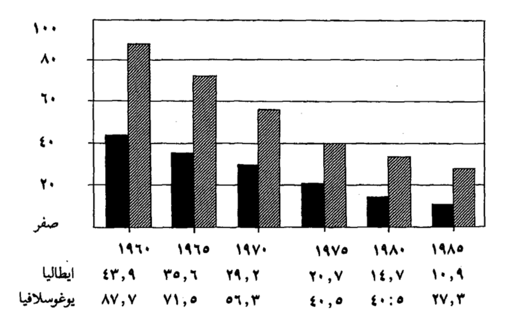
(عدد الوفيات في السنة الاولى لكل الطفل)



بولندا ■ اسبانيا

(الكتاب السكاني للامم المتحدة، الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

(عدد الوفيات في السنة الاولى بين كل الف طفل)

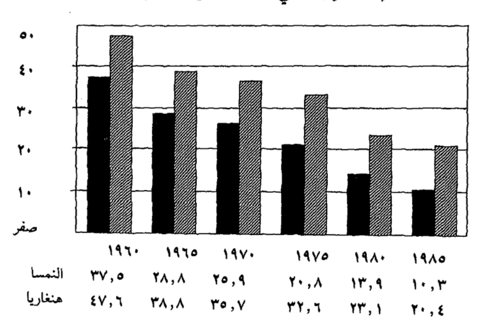


يوغوسلافيا ■ ايطاليا

(المصـدر: الكتـاب السكـاني السنـوي للامم المتحدة، الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

جدول وفيات الاطفال

(عدد الوفيات في السنة الاولى بين كل الف طفل



هنغاريا ■ النمسا

(المصدر: الكتاب السكاني السنوي للامم المتحدة

(الكتاب الاحصائي السنوي للامم المتحدة)

رقم الايداع ٧٥٢/[illegible]